

اذا اردت ان تفهم "لعبة الامم" فعليك ان تضع نصب عينيك القواعد التالية:

١ - ان من اول اهداف اية امة ان تبقى في اللعبة ولا تخرج منها.

٢ - وغالبا ما تتصرف الامة بصورة لا تهدف معها الى احراز نجاح في داخل اللعبة بقدر ما تهدف الى استمرار التأييد الجماهيري لزعيمها.

٣ - ومن السذاجة الخاطئة بمكان ان يفسر اي تصريح رسمي حول السياسة الخارجية بصفاء النية وخلوص السريرة. فالمناورة شرط اساسي لاي زعيم في اللعبة فهو يظهر ما لا يبطن ويقول شيئا ويعني به شيئا آخر

الترجمة الصحيحة الكاملة

تعريب: مروان خير

مايلز كوبلاند

The Game of Nations
Miles Copeland
Weidenfeld & Nicolson
London 1969

الطبعة الاولى ١٩٧٠ التوزيع في لبنان : مكتبة الزيتونة ـ شارع أحمد شوقي
ـ بيروت هاتف ٢٢٤٥٧٧ في العالم العربي ص.ب (٥١٦٩)
بيروت تلفون ٢٤٤٧٣٩

مايلز كوبلاند

لعبة الأمم

اللاأخلاقية في سياسة القوة الأمريكية

تعريب
مروان خير

الترجمة الصحيحة الكاملة
مع تقرير مشاكل السلطة

اهداء المؤلف

اهداء المؤلف

بكل احترام وتقدير ، اهدي كتابي هذا الى السادة :

جيفرسن كافري
وريموند هير
والفقيد جورج وادسورث

الذين كانوا أبرع سفراء عصرهم ، والذين لن يسمح عصر الاستشارات الدبلوماسية السريعة لامثالهم بالبروز ثانية •

مايلز كوبلاند

لعبـة الأمـم

انها لعبة تختلف عن غيرها من أنواع اللهو واللعب ـ مثل البوكـر أو الحرب أو التجارة ـ في عدة نواح مهمة وهي :

أولا : لكل لاعب في هذه اللعبة أهدافه الخاصة التي تختلف عن أهداف الآخرين ، كما أن تحقيق هذه الاهداف هو مقياس نجاحه ٠

ثانيا : وكل لاعب في هذه اللعبة مجبر بظروفه داخل بلاده عـلى القيـام بأعمال وتحركات ضمن مجال اللعبة دون أن يكون لها علاقة بأسباب النجاح بل يمكن أن تقلل من فرصة النجاح نفسه ٠

ثالثا : وفي « لعبة الامم » لا يوجد فائزون البتة ، بل الكل خاسرون ٠ لهذا لم يكن حرص كـل لاعب على النجـاح بقدر ما هو على تجنب الضيـاع والخسارة ٠

ان الهدف المشترك لجميع اللاعبين في « لعبة الامم » هـو رغبتهـم فـي المحافظة عليها مستمرة دون توقف ٠ ذلك أن توقف هذه اللعبـة ـ « لعبة الامم » ـ لا يعني سوى شيء واحد الا وهو « الحرب » ٠

من محاضرة القاها زكريا محي الدين
نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة
في الكلية العسكرية المصرية في أيار (مايو) ١٩٦٢

ملاحظة للقارىء

تعني عبارة « لعبة الامم » ذلك النشاط الذي بدأته وزارة الخارجيــة الامريكية في واشنطن بغية وضع المخططات المناسبة لبسط النفوذ الامريكي على بلاد العالم عن طريق السياسة والخداع بدل اللجوء الى الحرب المسلحة ٠

وهكذا يقترب معنى هذه الجملــة من « التخطيط السياسي للصراع على مناطق النفوذ في العالم عن طريق الحرب الباردة » ٠

المترجـــم

تعاقب الأحداث

ان فصول الكتاب غير مرتبة حسب تسلسلها التاريخي ، ولذلك نثبت هنا تسلسل هذه الحوادث حسب تاريخ وقوعها ٠

- ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ : السفارة البريطانية في واشنطن تقدم مذكرتها حول اليونان وتركيا لوزارة الخارجية الامريكية والتي تعني نهاية الوصاية البريطانية في الشرق الاوسط ٠
- ١٢ اذار (مارس) ١٩٤٧ : اعلان مبدأ ترومان
- ٥ حزيران (يونيو) ١٩٤٧ : اعلان مشروع مارشال ٠
- تموز (يوليو) ١٩٤٧ : الانتخابات السورية ٠
- ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨ : اعلان قيام دولة اسرائيل وبدء الحرب العربية الاسرائيلية الاولى ٠
- ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ : قيام حسني الزعيم بانقلاب في سوريا ٠
- ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ : حريق القاهرة من قبل الرعاع أو ما يسمى بالسبت الاسود ـ كيرميت روزفلت يذهب الى القاهرة لينظم الثورة السلمية بقيادة الملك فاروق ٠
- آذار (مارس) ١٩٥٢ تنازل كيرميت روزفلت عن فكرة الثورة السلمية بقيادة فاروق واجتماعه بالضباط المصريين الاحرار ٠
- ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٥٢ : قيام جمال عبد الناصر بانقلابه في مصر ٠
- ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ : اجتماع ايزنهاور ودالاس مع ايدن وقيامهم بأول دراسة لفكرة منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط ٠

- ايـار (مـــايو) ١٩٥٣ : وزير الخارجية دالاس يقابــل جمال عبد الناصر ٠
- آب (اغسطــس) ١٩٥٣ : الاطاحة بمصدق في ايران ٠
- شباط (فبرايـر) ١٩٥٤ : عبد الناصر يطيح باللواء نجيـب ويستلم السلطة علنا في نفس اليوم الذي اطيح بـه بالرئيس اديب الشيشكلي في سوريا ٠
- نيسان (ابريـل) ١٩٥٤ : الاتراك والباكستانيون يوقعون الاتفاقيــة التي أدت الى ايجاد حلف بغداد ٠
- تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ : توقيع اتفاقيــة الجـلاء عن قناة السويس بين بريطانيا ومصر ٠
- تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ : الكولونيل ايفلاند والكولونيل جيرهـــارت يزوران الرئيس جمال عبد الناصر ويبحثان معه ترتيبات الدفاع المشترك ٠
- كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ : اعلان حلف بغداد رسميـا وتعيـين السفـــير بايرود بدلا من السفير كافري في القاهرة ٠
- شباط (فبراير) ١٩٥٥ : بعض الزعماء ، ومنهم : تيتو ونهرو وايدن ، يزورون عبد الناصر ـ قيام اسرائيل بغارتها على غزة مما اضطر عبد الناصر لانهاء اعتداله فيما يتعلق بقضية اسرائيل ٠
- نيسان (ابريل) ١٩٥٥ : عبدالناصر يحقق نجاحا في المؤتمر الآسيوي الافريقي في باندونغ ـ اندونيسيا ٠
- تمــوز (يوليـــو) ١٩٥٥ : شيبيلوف يزور القاهرة ليمدد عرض الاسلحة السوفييتية على عبد الناصر ٠
- ايلول (سبتمبر) ١٩٥٥ : عبد الناصر يقــرر على صفقــة الاسلحـــة السوفييتية وآلن يفقـد أمله وأحلامـــه في القاهرة ٠
- آذار (مـــارس) ١٩٥٦ : الملك حسين يقيل الجنرال جـون غلـــوب بعد الاضطرابات التي قامت بها العناصر الناصرية وضغطت بها على الملك ٠

- تموز (يوليو) ١٩٥٦ : دالس يعلن انسحاب الولايات المتحدة من المساعدة المالية لبناء السد العالي ، وعبد الناصر يعلن تأميم الشركة العالمية لقناة السويس ٠
- تشرين أول (اكتوبر) ١٩٥٦ : وقوع الغزو الاسرائيلي الانكليزي الفرنسي على مصر وقضية السويس ٠
- تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦: السوريون يعلنون اكتشاف مؤامرة دبرتها المخابرات الامريكية للاطاحة بالحكومة ٠
- كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ : اعلان مبدأ ايزنهاور ٠
- نيسان (ابريل) ١٩٥٧ : احباط محاولة انقلاب ناصرية للاطاحة بالملك حسين ٠
- شباط (فبراير) ١٩٥٨ : قيام الوحدة بين سوريا ومصر ونشوء الجمهورية العربية المتحدة ٠
- أيار (مايو) ١٩٥٨ : بدء الازمة اللبنانية ٠
- حزيران (يونيو) ١٩٥٨ : احباط مؤامرة ناصرية ثانية في الاردن ٠
- تموز (يوليو) ١٩٥٨ : قيام انقلاب في العراق ضد نوري السعيد واغتياله مع بعض أعضاء حكومته والعائلة المالكة (انقلاب قاسم) ـ نزول مشاة الاسطول الامريكي في لبنان ، والقوات البريطانية في الاردن لمنع حدوث انقلابات فيهما ٠
- آذار (مارس) ١٩٥٩ : فشل محاولة أتباع ناصر في العراق للاطاحة بحكومة قاسم ٠
- ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ : انفصال سوريا عن مصر وانتهاء الوحدة ٠
- ايلول (سبتمبر) ١٩٦٢ : قيام انقلاب في اليمن وتاليف حكومة جمهورية ـ المصريون يدعمون الجمهوريين والمملكة العربية السعودية تدعم الملكيين ٠
- شباط (فبراير) ١٩٦٣ : انهيار حكومة قاسم في العراق ٠

- من تشرين أول (اكتوبر) ١٩٦٥ الى تشرين أول ١٩٦٦ : سيطرة زكريا محي الدين في الجمهورية العربية المتحدة .
- حزيران (يونيو) ١٩٦٧ : حرب الايام الستة بين العرب واسرائيل .

لقد أغفلت ذكر عدة حوادث بالرغم من أهميتها التاريخية بسبب ندرة ورودها في فصول الكتاب .

* * *

هذه هي قائمة بالسفراء الامريكيين الذين خدموا في السفارة الامريكية في القاهرة أثناء الفترة التي وقعت فيها أحداث هذا الكتاب :

جيفرسون كافري (لغاية كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥)

هنري بايرود (لغاية تموز (يوليو) ١٩٥٦)

فريدريك رينهارت (لغاية نيسان (ابريل) ١٩٦١)

جون بادو (لغاية تموز (يوليو) ١٩٦٤)

لويس باتل (لغاية أيار (مايو) ١٩٦٧)

ريتشارد نولته لعدة أيام من أيار (مايو) ١٩٦٧ لغاية قطع العلاقات الديبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الامريكية نتيجة حرب الايام الستة بين العرب واسرائيل .

مقدمة المؤلف

يرى سكوت فيتز جيرالد في رواية مسرحية له ، تجلى فيها الذوق الاجتماعي وقواعد الاتيكيت بأبهى مظاهرهما ، أن بعض المصادمات التي وقعت بين كرام القوم ، كانت تصل الى طريق مسدود لاعتقاد الجميع أن مواقفهم هي الحق ولن يحيدوا عن سلوكهم الاخلاقي قيد انملة . وفي خضم هذاالتزمت الاخلاقي والتشبث بقواعد « الاتيكيت » ، كان ينبري بعض السوقة لفض النزاع، وانهاء الخلاف بطريقة لا تشجع السيدة اميلي بوست على استحسانها في كتابها الشهير باسم « الاتيكيت » . غير أن أمثال هذه الحالة شائع جدا في الاجواء الديبلوماسية عامة . فكم من أزمة سياسية بين دول عديدة تعقدت وطالت، نتيجة اصرار تلك الدول على مواقفها ، خشية مخالفة المبادىء السامية والحصافة الديبلوماسية . وكم من مرة أيضا انتهت تلك الازمات الحادة ، الى سلام ووئام بفضل وسطاء طارئين ، دون أن يفقد زعيم ماء وجهه أو تهدر كرامة شعبه .

ولا تزال تجول في خواطر كثير منا ــ ولا شك ــ أسئلة عديدة عمن كان وراء زحزحة المصريين والبريطانيين عن مواقفهم المتعنتة أثناء مفاوضات الجلاء عن السويس عام ١٩٥٤ ؟ ومن الذي أطاح بحكومة الدكتور مصدق في ايران ؟ وكيف ثبت الناصريون اقدامهم في لبنان عام ١٩٥٨ على مرأى ومسمع مشاة الاسطول الامريكي السادس ، الذين كانوا ينعمون بشمس لبنان وشواطئه الدافئة ؟ ولماذا أحجم عبد الناصر عن ضرب اسرائيل في وقت كان مستعدا لذلك ودفع بشعبه لحربها وهو في أقل حالات الإستعداد لها ؟

فالمؤرخون عندما يؤرخون الحوادث ، يهملون الجواب على مثل هذه التساؤلات ، ويمتنعون عن القاء الاضواء عليها لانهم نادرا ما يعلمون عن خفاياها شيئا . وكذلك يهملها الديبلوماسيون في مذكراتهم مدفوعين باعتبارات الامن تارة ، وبالرغبة في عدم الايقاع بين الحكومات وشعوبها تارة أخرى . وهكذا تبقى حقيقة الاحداث مدفونة لا تعرف منها خافية ، ولا ينكشف للجماهير منها سر ، الا ما كان بمحض الصدفة . بينما يقبع الذين أشرفوا على وضع تصاميمها، وقاموا بتنفيذها ، خلف جدران دواوينهم الرسمية ينتظرون الفرصة السانحة

ليزيحوا الستار عنها ويظهروها عارية على حقيقتها أمـــام شعوب هذا العالـم المخدوع ٠

وهذا ما حدث معي فعلا ٠ فلقد دفعت بمسودة هذا الكتاب الى دبلوماسي صديق لي ، عله يقلب صفحاته ، فيرشدني الى الاخطاء والهفوات فيه ٠ ولكنني فوجئت به يزجرني لمحاولتي كشف النقاب عن كثـير من الاسرار التي يجـب - برأيه - أن تبقى في زوايا النسيان حتى لا تشوه سمعـة الحكومة الامريكية وغيرها من الحكومات أمام شعوبها دون حاجة لذلك أو ضرورة ٠

وكنت الاحظ بوضوح ، تململ كثير من مواطنينا الاذكياء ، وشكهم حيال ما ينشره رجال دولتنا الرسميين ، من تفسيرات للعديد من الازمات السياسية التي مرت بها بلادنا ، ومنها تلك التي نشرها روبرت كنيدي حول الأزمة الكوبية عام ١٩٦٢ ٠ فلقد حاول السيد كنيدي فيها أن يضفي مسحة شاعرية على أولئك الرجال الذين اتخذوا تلك القرارات ، بعدما أمضوا ساعات طوال وهم سجينو احدى قاعات البيت الابيض ، يتأملون تراثنا المجيد ومبادئنا الاخلاقية السامية ، وقد انتابهم الاسى حيال الغدر الروسي في كوبا (وكأنه قد بان لهم ذلك فجأة دون أن يحسبوا له حسابا !) ٠ ولكن المستر كنيدي نسي أن كثيرا من المواطنين الامريكيين يتطلعون بشغف الى معرفة خفايا تلك الوقائـع ، وسيجدون متعـة فائقة عندما يعلمون أنه لم يكن في تلك القاعة من قاعات البيـت الابيـض ، في ذلك اليوم من أيام عام ١٩٦٢ رجل واحد استطاع أن يفكر لمدة طويلة بغير ذلك الغدر السوفييتي

ان رجال دولتنا يبذلون كل ما في وسعهم لاظهار أنفسهم - في كتاباتهم - بمظهر المتفائل المستبشر ٠ ولكنهم ليسوا كذلك، وما كانوا ليبقوا حيث هم الآن، لو كانوا جاهلين بحقيقة الوضع الانتهازي للعالم الذي نعيش فيه ٠ وأصر على هذا عندما أذكر انهم كانوا باستمرار يتابعون كل ملخصات تقارير مخابراتنا السرية ، وبدون انقطاع ٠ وألفت نظر مواطنينا الى أن يكونوا على اطلاع تام على ما يعبرون عن اعجابهم به ، أو يعربون عن امتعاضهم ونفورهم منه ، مهمـا كانت نظرتهم لحكومتهم وشعورهم نحوها ٠ انهم يولونهـا ثقتهم ، مستمدين تصورهم لها من تلك السير والتراجم الرومانتيكية ، التى خطها بعض قادة هذه الامة ٠ لقد صور السيد كنيدي مثلا كثيرا من الشخصيات الوطنيـة بانها على قسط وافر من الذكاء والشجاعة والشهامة ، وأنها دائما تعبة مرهقة من كثرة ما خاضت من صراع مع ضمائرها من جهة ، ومع بعضها بعضا من جهة أخرى ، بغية الوصول الى نتائج وقرارات ذات تأثير كبير على مستقبل بلادهم ومستقبل

الانسانية جمعاء • ولقد يجد تصويره هذا بعض الترحيب في نفوس الذين اعتادوا التحليق في أجواء الخيال والمثاليات • ولكنه بعكس ذلك سيمتعض له أولئك الذين يدركون تماما أن زعماءهم ـ ولحسن الحظ ـ ليسوا ملائكة أو قديسين ، وأنهم مجرد أفراد طالما ترددوا في اتخاذ القرارات النهائية • ان غالبيتنا تعيش في بقعة من العالم يسيطر عليها الاقتصاد الغربي من خلال مؤسساته الضخمة مثل جنرال موتورز ومجلس اتحاد التجارة • الكنيسة الكاثوليكية • ولهذا فان لهم فرصة أعظم للوصول الى صورة أكثر دقه وأقرب الى الحقيقة دون أن يفقدوا ثقتهم في الوسائل المتبعة •

ولم يكن بمقدور الساسة اتخاذ كثير من تلك القرارات الهامة لوحدهم ، فقد كان يشاركهم فيها ، وبصورة رئيسية ، رجال على قسط وافر من المعرفة والخبرة ، مثل رؤساء ومدراء وزارات ضخمة ، تملك في متناول يدها كل وسائل التحقيق والاستقصاء ، مهما بلغت القضايا من الاهمية وتاهت في مجاهل التعقيد • ولقد اتصفت تلك الوسائل بالموضوعية المطلقة ، والعمومية الشاملة ، والفعالية المؤكدة ، حتى كادت تعطينا أفضل الحلول لمشاكلنا مترفعة عن اتباع الاهواء الشخصية الى حد تلاشى معه احتمال شطط كبار المسؤولين أو انزلاقهم الى مواطن الهوى •

كانت ادارة المخابرات للشؤون الخارجية تظهر ما يواجهنا من صعاب ، وتبين مكامن الاخطار فيها ، وتقترح عددا من الحلول لها ، وتنصح بكثير من التحفظات حيالها • وبنفس الوقت كانت ادارة المخابرات للشؤون الداخلية تستقرىء الرأي العام ، مرجحة بعض الحلول ، ومبينة اتجاهات الشعب وما يميل اليه من تحفظات وردود فعل • وهكذا كانت تنحصر مهمة كبار متخذي القرارات العليا في الموازنة بين ما يصلهم من تقارير وآراء ، مرجحين أفضلها ومتبنين أصلحها لمشاكلنا العديدة المتنوعة •

وقد يقع أحيانا ، تضارب بين نتائج استقصاء كلا الادارتين ، الخارجية والداخلية • فيعمد رئيس الجمهورية ، مثلا ، بقيادته الناجحة ، وشخصيته القوية ، الى ترجيح كفة العلاقات الخارجية على حساب الاتجاهات الداخلية • وهكذا يمكن لرئيس الجمهورية أن يعدل بعض الاتجاهات الداخلية حتى لا تقف حجر عثرة في طريق المضي قدما للمحافظة على نوع وحجم علاقاتنا الخارجية • وأوضح مثال على هذا ، عندما زج الرئيس روزفلت بالشعب الامريكي في الحرب العالمية الثانية ، مع سبق تمنعه عن التورط فيها ، واصراره على الوقوف بعيدا عن جحيمها • ولكن ان كانت الاحداث الداخلية خاصة بنا ، ومن حقنا تعديلها

وتحويرها حسب عدائنا . فليس الامر كذلك في علاقاتنا الدولية . والاسلوب الأنف الذكر يصبح متسرلا في مثل هذه الاحوال ، ولا يمكننا عندئذ بتلك السهولة المعتادة أن نتصدى لكثير من القضايا المصرية التي يرتبط بها وجودنا من أساسه بصورة حيوية . ففي مثل هذه الاحوال ، يصبح اسلوبنا السابق عاجزا كل العجز عن التصرف حيالها أو تعديلها حسبما تهوى أنفسنا وتتحقق مصالحنا . ويصبح من الضروري جدا أن نبتكر وسائل جديدة تختلف كليا عن وسائلنا التقليدية لمعالجة مثل تلك القضايا المصرية . ونتيجة لهذا سنقف حيارى حيال مبادىء النزاهة والاستقامة التي الفناها منذ زمن بنيامين فرانكلن. ونبقى مضطرين الى سلوك مسالك جديدة لا نتورع فيهـا عـن استخدام كـل وسائل الغدر والخداع حتى يذهب مواطنونا الى أسرتهم ليلا وهم على يقين تام باننا نقابل الغدر والخداع السوفييتي بمثله او بابشع منه . وعندها تصبح كل مقاييسنا النزيهة الثابتة ، في بناء علاقاتنا الدولية، هباء منثورا عند اولئك الذين يمضون الساعات الطوال في قاعات البيت الابيض متظاهرين بالدهشة حيال الغدر الروسي . ويصبح على حكومتنا سلوك طريق لا مفر منه : ففي الوقت الذي ترفض فيه علنا التدخل بشؤون الدول الاخرى ، نجدها تبحث عن أساليب مبتكرة خارج جهازها التقليدي لتفعل ذلك . وليس على الحكومة عندئذ الا أن تشرع بتحديد معالم وحدود القضية المعنية، ومن ثم تقوم باطلاق العنان لعدة قوى خفية ، تتكفل بتصفيتها كليا ، أو ازالة اخطارها ، دون أن تتورط الحكومـة رسميا في أي جانب من جوانبها . وتبدأ اللحظة الحرجة عندما يبدأ الصراع المستتر بين هذه القوى ومثيلاتها في الدول الاخرى وكلها تعاني من نفس المشكلة المشتركة بينها ألا وهي : اظهار النزاهة والاستقامة ، واضمار الغدر والخداع ونية التلاعب بالامم والشعوب . وهكذا نصل الى موضوع كتابي هذا وهو ما سميته « لعبة الامم » .

ولئن كان معظم هذا الكتاب يدور حول منطقة الشرق الاوسط عامة ، والدولة المصرية خاصة ، فان مرد ذلك الى بضعة عوامل ، منها : أن هـدف هذا الكتاب كهدف كلية ادارة الاعمال – في أية جامعة – عندما تقوم بتدريس تاريخ احدى الشركات الناجحة لطلابها ، كمثل حي على مادة ادارة الاعمال . ومنها أنه قد أتاحت لي الفرصة تمضية زمن لا بأس به ، أمارس كثيرا من تلك الادوار المستترة بصفتي وسيطا طارئا لن يكون بين المدعوين ثانية ، وهذا هو ما يسمى بديبلوماسية ما وراء الكواليس . ولهذا النوع من الديبلوماسية أثر كبير ، ظهر في سلوك حكام تلك المنطقة في علاقتهم بالغرب ، وعلاقات الغرب معهم ، والذي كان يبدو لاول وهلة ، أنه سلوك يمجّه الذوق السليم ويرفضه المنطق الصحيح ،

ويبدو في ظاهره خطوط متقاطعة متباعدة لا يتوازى منها اثنان ٠

واعتبر هذا الكتاب نموذجا حيا للتاريخ يهدف الى ازاحة الستار عن حقيقة ارتباطات الدول الكبرى بالدول المحدودة الامكانيات التي نجحت احيانا في احراز نصر ديبلوماسي على بعض الدول الكبرى ، وتمكنت مع الايام من ممارسة دور أكبر من طاقاتها في السياسة العالمية ٠ وأوضح مثال على هذا دور عبدالناصر رئيس الجمهورية المصرية ٠

وأرجو ان لا يتبادر الى ذهن القارىء أن الاخطاء والهفوات التي طرأت على علاقاتنا الدولية ، كانت نتيجة قرارات حمقاء ، ولكنها في الحقيقة ليست أكثر من سوء فهم عند بعض كبـــار المسؤولين لجوهر الامـــور ، أو سوء استعمال للوسائل المبتكرة لمعالجة أمور استعصت على الوسائل التقليدية ، وهذا واضح من معاملة الحكومة الامريكية للرئيس عبدالناصر ٠

وليس هذا الكتاب أكثر من مجهود شخصي ، استعنت لاخراجه بالكثيرين من اصدقائي المنخرطين في السلك الديبلوماسي أو أجهزة المخابرات لدول عديدة حتى أتأكد من بعض منسياتي ٠ ولكن ذلك لا يعني اطلاقا أنني أحاول القـــاء بعض التبعات على كواهلهم نتيجة فضلهم هذا - وقد يجد القارىء ، ومؤرخو تاريخ العالم ، بعض المتعة في قراءة هذا الكتاب ٠ وسوف ترتسم ابتسامـة السخرية على شفاههم عندما يتفحصون الوسائل التي اتبعتها حكومتنا في اقامة علاقاتها مع الدول الاخرى ، وفي النتائج التي انتهت اليها على مسرح العرائس والتي لا يزال ينظر اليها الراي العام العالمي على أنها أحداث ووقائع هامة ٠

وحتى لا احيد عن هذه الغاية الموضوعية من كتابي ، فانني لم آت على ذكر المعلومات التي تتعارض واعتبارات الامن في كل من امريكا وبريطانيا ، الا ما تسرب منها الى الدول الاخرى عن طريق بعض العملاء المزدوجين (من أمثال كيم فيلبي ، الذي شغل منصب مسؤول في جهاز المخابرات البريطاني ، وهو يخدم المصالح الروسية) ٠ وكذلك ذكرت كل ما تسرب الى الصحفيين ونشرته صحفهم ومجلاتهم ٠

وسابقى ــ ما استطعت الى ذلك سبيلا ــ صادقا في وصفي للاحداث ،بطيئا عند منعطفات تاريخ الشعوب ، مبتعدا عن اختلاق الاخبار مهما كانت واجبــاتي وارتباطاتي ٠

المؤلف

الأنظمة الثورية ومشاكل السلطة

رفع هذا التقرير الى الحكومة المصرية في عام ١٩٥٣ جيمس ايخلبرغر خبير وزارة الخارجية الامريكية بالانظمة العسكرية في الدول النامية ٠

- ١ -

مقدمة

ان جوهر الحكم هو القوة ٠ فالحكم ليس مجرد اقتراح اجراءات عامة أو اصدار أحكام قضائية ، ولكنه « اضطلاع » بهذه الاجراءات و « تنفيذ » لتلك الاحكام ٠ ولهذا كانت المحافظة على السلطة هدفا في حد ذاتها ، لا يختلف في هذا نظام عن نظام ، مهما تعددت الاسماء وتبدلت الصور ٠ وأما النجاح في تحقيق ذلك فيبقى رهينا بانتقاء أكثر الوسائل ملاءمة وأضمنها نتيجة ٠

ففي الانظمة الدستورية تلعب التقاليد و « القوانين الاساسية » دورا هاما في فرض القيود على الوسائل المتبعة للمحافظة على السلطة ٠ فالحكومة في النظام الدستوري لا تملك ان تقوم بالقاء القبض على زعماء المعارضة لمجرد أسباب سياسية ٠ ولكن الانظمة السائدة ليست كلها من هذا القبيل ٠ فهناك أنظمة لا تخضع في تصرفاتها لقيود واضحة المعالم محددة المعاني ٠ بل ولا تجد حرجا في اتباع كل المسالك التي تضمن لها السلطة ، وتؤكد لها البقاء ٠ ويشتهر هذا النوع باسم « حكومات الثورة » أو « الانظمة الثورية » ٠

ويعرض التاريخ لمبدأين أساسيين للمحافظة على السلطة وتجميعها في يد الحكومة ٠

● فالمبدأ الاول يقول باعتماد السلطة في بقائها على اجراءات القمع والارهاب، أو باعتمادها على سياسة البناء والاصلاح ٠ ويتجسد هذان القولان في شكلين متناقضين من اشكال أنظمة الحكم ٠ فالقول الاول يتمثل في نظام ظالم وحكم

مستبد ، يفرض نفسه على الشعب عنوة ، ويرسم للمواطنين ما عليهم أن يسلكوه وينجزوه ، دونما راي منهم أو مشورة · وأما القول الثاني فيتمثل في نظام شعبي وحكم مقبول (دون اشتراط الشكل الديموقراطي له) ، يستمد قوته في التنفيذ من رضى الامة به وتأييد المواطنين له ·

الا أن القولين السابقين لا يمثلان سوى نوعين من أنواع الحكم التي هي على طرفي نقيض · بل واننا لا نجد في التاريخ ذكرا لنظام حكم التزم حرفيا بواحد منهما واتخذه سنة له وهديا ، دون شذوذ أو خروج · ولذا فان من أولى المهام التي تواجهها أنظمة الحكم الثورية ، هي انتقاء مسلك معتدل لا افراط فيه ولا تفريط · فاختيار أنسب المسالك واضمن الوسائل مهمة غير يسيرة ، وعلى أهداف الثورة وغاياتها ان تحدد ذلك وتقرره ·

فالثورة التي لا تطمع أن تكون مجرد نظام حكم ديكتاتوري ساذج ، والتي تطمع ، في الوقت نفسه ، أن تكون أكثر من مجرد دسائس ومؤامرات تحاك في ردهات القصور ودهاليزها ، يتوجب عليها ان تحدد اهدافها على أساس من النقطتين الرئيسيتين التاليتين :

(١) فمن واجبها أن تجد الحلول لكل المشاكل السياسية والمعضلات الاجتماعية الملحة ، التي اقتضت قيام الثورة نفسها ، وجعلت نجاحها ممكنا · وبهذه الطريقة ، دون غيرها ، تتمكن الثورة من ازالة آثار نظام الحكم السابق ، الذي أخفق في تشخيص الداء ووصف الدواء ·

(٢) ومن واجبها أن تكون قادرة على تطوير نظام دستوري جديد يخلد منجزاتها ، ويحافظ على مكتسباتها ، دون خوف من ردة ، أو خشية من عودة الى سيئات الماضي وآثامه ·

فعندما تتوفر هذه الغايات ضمن الاهداف الاصلية للثورة ، فان النظام الثوري لن يجد نفسه مضطرا الى الاعتماد كليا على وسائل القمع والارهاب لبقاء حكمه اذا ما تبنى وسائل الاصلاح وسياسة البناء ، ما استطاع الى ذلك سبيلا · فالقمع ــ بكل ما يعني من مخابرات ومباحث وامن عام ــ لا يمكنه البقاء طويلا ، وان كان أحيانا ضروريا · ويجب أن تحل الاصلاحات محله تدريجيا وان تطرده اعمال البناء أمامها نهائيا ، دون رجعة أو عودة ·

● والمبدأ الثاني الذي يذكره التاريخ لنا ضمن وسائل المحافظة على السلطة وبقائها ، هو أن كافة اجراءات الحكومة ومنجزاتها تؤثر ـ عاجلا أم آجلا ـ على « قاعدة الحكم » التي تتخذها اساسا لها ومرتكزا · فمن ناحية أولى ، فان عبارة « قاعدة الحكم » تعني مدى قدرة الحكومة على الصمود في وجه المعارضة وكبحها لجماحها ، ومن ناحية أخرى ، فانها تعني مدى رضى الشعب بالحكومة وتأييده لها · وتتجسد قدرة الحكومة في الوقوف ضد المعارضة في قاعدة القمع والارهاب التابعة لها · في حين يتمثل رضى الشعب بالحكومة وتأييده لها في قدرتها على ممارسة حكمها عليه دون اللجوء الى وسائل القمع والارهاب ·وبعبارة اخرى ، فان قبول الشعب بالحكومة يتجسد في قاعدة الاصلاح والبناء التابعة لها · وهكذا يتضح الآن ما ذكرناه سابقا من أن كافة اجراءات الحكومة ومنجزاتها تؤثر ـ عاجلا أم آجلا ـ على « قاعدة حكمها » · فسياسة الحكومة واعمالها الادارية تقرر ـ مباشرة أو غير مباشرة ـ مدى حاجتها الى استعمال وسائل الشدة والارهاب وتحدد كل زيادة فيها أو نقصان ·

ان الاجراءات الحكومية التي لها تأثير مباشر على « قاعدة الحكم » تهدف أساسا الى المحافظة على السلطة وعلى ضمان استمرارها · وكمثال على الاجراءات المباشرة التي تخص قاعدة القمع والارهاب فاننا نذكر تلك الاجراءات التي من هدفها زيادة فاعلية الجيش ، ورفع درجة ولائه ، وضمان اخلاص أجهزة المخابرات والامن العام ، وغيرها من الاجهزة الحكومية التي لها صبغة عسكرية · وكذلك تلك الاجراءات التي تنص على اعتبار بعض أصناف النشاط السياسي غير قانونية وبالتالي يتعرض العاملون فيها الى الاضطهاد والتعذيب · وكمثال على الاجراءات المباشرة التي تتصل بقاعدة البناء والاصلاح ، فاننا نذكر تلك الاجراءات التي تشجع على ممارسة بعض أصناف النشاط السياسي ، مثل تشكيل المنظمات الشعبية والاحزاب السياسية الموالية للحكومة ، ويعتبر من هذا القبيل أيضا اصدار بعض التسهيلات الدستورية مثل قانون الانتخابات الذي يجب أن يمنح بعض الميزات والمنافع للفئات والطبقات الموالية لنظام الحكم القائم والمؤيدة لاهدافه ·

ان كل ما يتخذه نظام الحكم القائم من تدابير ذات أهداف بعيدة ـ مثل

تقوية الحالة الاقتصادية عامة ـ له تاثير غير مباشر على « قاعدة حكمه » · كما لا ينكر مدى تاثيرها على الوضع السياسي العام في البلاد · فعندما تقوم الحكومة بوضع الصعاب في طريق احدى الفئات المتمتعة بوضع اقتصادي قوي بغيـــة شلها او تصفيتها ، فان هذه الفئة تصبح بحكم الواقع منبوذة ، بل وخـــارج « قاعدة الحكم » الموالية للنظام القائم · كما تصبح أيضـــا مرتعا خصبا لنمو الشعور المعادي له · وبالمقابل فان أي تحسن في الوضع الاقتصادي لاحـدى الفئات أو الطبقات نتيجة تدابير حكومية (سواء تحقق ذلك آنيا أو كان على شكل وعود مأمولة الانجاز) فان تلك الفئة أو الطبقة تنتقل تلقائيا من صف المعارضة الى صف الموالين « لقاعدة حكم » النظام القائم حتى ولو كانت منبوذة سياسيا في العهد السابق ومعادية له · ومع أن الغاية الرئيسية من انشـــاء المشاريع العامة ليست سياسية ، لكنه لا يجوز اغفال ما لها من آثار سياسية هامة ، فتكتيلها للفئات الشعبية في المناطق التي تنفذ فيها حول النظام القائم يعتبر مددا حساسا « لقاعدة حكمه » ودعما جيدا لوضع حكومته · ولا يقل عن هذا أي اصلاح أو تعديل في نظام فرض الضرائب أو في الانظمة الاداريـــة الاخرى· ولا يخلو أن يكون لبعض الاجراءات تاثير مباشر على « قاعدة الحكم » ، وفي الوقت نفسه، تاثير غير مباشر ولكنه مضاد للأول· فمثلا، وجود أعداد كبيرة من أفراد الجيش والامن العام ، أعضاء في تنظيم سياسي غير قانوني ، له تاثير مضاد وغير مباشر ، على متانة ولاء أجهزة القمع والارهاب للنظام القائم ·

وعلى وجه التقريب ، فان كافة التدابير الادارية والاجراءات الحكوميـــة تتمخض عن نتائج سياسية مهما كانت غايتها الاساسية · ولذا فان عبقريـــة زعماء الثورة وقادتها تنعكس دائما في الدقة المتوخاة عند محاولتهم تقريـــر سياسة الحكومة حسب حاجات الشعب الذي يبقى دائما وأبدا مصدر الدعـم الرئيسي للثورة · ومع أن زعماء الثورة لا يميلون الى اتبـــاع سياسة غـــير سياسة البناء والاصلاح ، فانهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اللجوء الى أقصى وسائل البطش والارهاب حال احساسهم بضرورة ذلك ·

فاذا استوعبنا ما سبق ذكره ، وأدركنا مقاصد معانيه ومراميها ، وجدنا أن الاحتفاظ بالسلطة وضمان بقائها يتطلب الالتزام بقاعدتين أساسيتين هما :

(١) على حكومة الثورة أن لا تضع سياسة ما ، أو تزمع على اتخاذ اجراء ما ، حتى تحدد تأثير ذلك المباشر وغير المباشر على « قاعدة حكمها » .

(٢) وعلى حكومة الثورة أن تعطي الاولوية لانشاء « قاعدة حكم » متينة لدعم سلطتها ، حتى لا تجد نفسها مضطرة ، تحت ضغط الجماهير ، لاتباع سياسة الانحراف والمساومات .

ومن الصعب العثور على أية نظرية محددة المعالم ، مضمونة النتائج ، لتساعد قادة الحكومات الثورية في معرفة الاجراءات والاعمال التي لها تأثيرات سياسية مطلوبة ، أو لتساعدهم في تكوين « قاعدة حكم » تلائم النظام القائم وتحافظ عليه . ان نجاح الحكم الثوري في خطواته وامتلاكه « قاعدة حكم » متينة ، يرتبط ارتباطا وثيقا بالوضع السائد في داخل البلاد ، كما يعتمد على بعد نظر القادة أنفسهم ، واتساع أفقهم ، وخصوبة مخيلتهم . وفوق كل هذا وذاك ، فان سرنجاحهم في هذا كله ، يكمن في قدرتهم على الاخذ بزمام المبادأة . وفي مواجهة المواقف بجرأة وشجاعة . ومهما كان فالمرء لا يعدم أن يرسم بعض الخطوط العريضة العامة ، ومنها :

(١) ان اللجوء لاساليب القمع أمر لا بد منه ، وخاصة في المرحلة الاولى للثورة .

(٢) يجب أن لا يكون من ضمن أهداف النظام الثوري مجرد الحصول على التأييد الشعبي . فالتأييد الشعبي أمر مؤقت بل وزائل . ودخول النظام القائم في ميدان منافسة كهذا ، مع بعض الفئات (أو حتى الافراد) الذين لا يعدمون فرص دخوله ، سيجعل الثورة في خطر أن تجد نفسها تابعة غير متبوعة . ان الشهوة الجارفة في نفوس قادة الثورة لمجرد الحصول على تأييد الجماهير وضمان هياجها لصالحهم ، تعتبر بادرة خطيرة ، بل وقاتلة . فهي لا ترمز الا الى الضعف والانهيار في « قاعدة الحكم » التي يعتمد عليها النظام القائم .

(٣) ان نظام الحكم الذي يود كسب تأييد الشعب له ، بناء على سياسته في الاصلاح والبناء ، يجب أن يعتمد على دقة تخطيط سياسة الحكومة وعلى حسن تطويرها (وهذا عكس مجرد الحصول على الشهرة

الشعبية) ، مستخدمة في ذلك كل وسائلها واجهزتها ، مباشرة وبصراحة ، لاثارة عواطف الفئات والطبقات الكبرى من الشعب لصالحها ، والظهور بمظر الحريص على مصالحها والمحافظة على حقوقها ٠

(٤) ان لاجراءات السلطة تأثيرات غير مباشرة على « قاعدة حكمها » لا تقل اهمية عن تأثيراتها المباشرة عليها ٠

(٥) ان للتنظيمات الشعبية ، غير التابعة مباشرة لنظام الحكم ، اهمية خاصة في انشاء وتكوين « قاعدة الحكم » المؤيدة والعاملة في سياسة الاصلاح والبناء اثناء عهد الثورة القائم ، وأثناء مرحلة الانتقال الى الشكل الدستوري للدولة ٠

(٦) ان الشكل الدستوري الجديد للنظام يجب أن يعتمد مباشرة على قوة سياسة الثورة في الاصلاح والبناء ٠

(٧) ان قوة أجهزة المخابرات والمباحث ، وحسن تنظيمها ، وابتعادها عن الارتشاء والعبث ، عوامل جد.اساسية لتنفيذ تدابير قمع فعالة ، وللقيام بتحليل دقيق للقواعد الجماهيرية المؤيدة لنظام الحكم ٠

- ٢ -

العهد الثوري

بعد كل هذا الاستعراض للخطوط العامة ، اصبحنا الآن في وضع ملائم لبدء تفحص المشاكل التي تواجه النظام الثوري في احتفاظه بالسلطة واستمراره بالحكم كما هي على الطبيعة حقيقة ٠ ولا مانع من القاء نظرة عميقة على المعطيات التي يحاول النظام الثوري الاعتماد عليها في تصرفاته المباشرة ، أو غير المباشرة ٠ ولقد سبق ان أبرزنا أهمية هدفين اساسيين لكل ثورة تطمح أن لا تجعل من نفسها مجرد حكم ديكتاتوري ساذج ، وهما :

(١) عليها أن تقوم بايجاد الحلول للمعضلات السياسية والاجتماعية الملحة التي قضت بوقوع الثورة ٠

(٢) وعليها أن تطور وضعا دستوريا جديدا ليحافظ على منجزات الثورة ومكتسباتها أو ليخلدها •

ومع ان هذين الهدفين يقتضيان وجود مرحلتين للثورة ، فمن المستحيل تحديد نهاية الاولى وبداية الثانية • وبوضوح أكثر ، فالتمييز بين هاتين المرحلتين لا يتضح الا من خلال التباين في طريقة اظهارهما والتشديد عليهما • فنهاية العهد الثوري تتداخل بصورة غير ملحوظة مع بداية عهد النظام الدستوري الجديد • والحقيقة انه لا فائدة من تحديدهما بوضوح الا لهدف المناقشة وتحليل الأحداث • وسنقترب من هذا (في سياق تقريرنا) دون أن ننسى أن مرحلة وضع الدستور الفعلي تبدأ مع أول مراحل سياسة الاصلاح والبناء التي تقوم بها الثورة ، وان استمرار بعض اجراءات القمع والارهاب ، لفترة طويلة بعد تدشين العهد الدستوري الجديد ، أمر لا بد منه • وسنرمز الى المرحلة الاولى للثورة باسم « العهد الثوري » ، وللمرحلة الثانية باسم « عهد ما قبل الدستور » •

ولا بد للثورة من أن تقوم بالغاء بعض أو كل المؤسسات السياسية المنتشرة في البلاد التي ثبت عدم قدرتها على حل المشاكل السياسية والاجتماعية الملحة التي اقتضت قيام الثورة • وهذا هو أنسب الاوقات وأصلحها لاحداث تطورات سريعة ، تفقد بموجبها بعض الفئات والطبقات قوتها كمؤسسات سياسية ، وتوضع في موقف حرج تضطر معه الى الدفاع عن نفسها وذلك بسبب التيار الجارف لطبيعة الانقلاب الجديد التي تقف وراءه القوات المسلحة • كما أن النجاح السريع لنظام الحكم ، في تكتيل الجماهير الغوغائية المؤيدة له تحت شعارات الاصلاح والبناء ، له أكبر الأثر في تدعيم الخطوة السابقة• ثم لا تلبث مرحلة « التدعيم والتعزيز الثوري » أن يأتي دورها بعد تلك الخطوات السابقة وبعد أن يكون الحكم الثوري قد اتخذ شكلا أوليا يؤهله لان يخوض هذه المرحلة بكل ما يكتنفها من صعاب فعلية في نواحي الادارة وتخطيط السياسة •

وفي أثناء هذه المرحلة ، تبرز الاخطار المضادة للثورة في أقوى مظاهرها ، وتنتج من أحد المصادر الثلاثة التالية :

(١) من أولئك الذين كانت لهم مصالح ضخمة في نظام الحكم السابق ،أو

من مؤيديه ، أو ممن تطغى عليهم عاطفة جامحة في تاييده ،

(٢) من أولئك السياسيين الانتهازيين الذين يحاولون الاستفادة باستمرار من الاتجاه الطبيعي نحو الاضطراب وعدم الاستقرار الكامن في الوضع الثوري ·

(٣) من أولئك الساسة الهدامين الذين يحاولون سرقة الثورة وتسخيرها لاهدافهم ومآربهم ، كالشيوعيين مثلا ·

ومن هذه المصادر الثلاثة ـ مجتمعة أو منفصلة ـ تبرز الاخطار الثلاثة التالية :

(١) انقلاب عسكري يقع نتيجة ارتباطات بين عناصر في الجيش وقوى الامن الداخلي ، وبين بعض الزمر والجماعات الموجودة داخل حكومة الثورة نفسها ·

(٢) انقلاب عسكري مضاد يحدث نتيجة ارتباطات بين بعض العناصر من الجيش وقوى الامن الداخلي ، وبين القوى السياسية في الخـــارج وخاصـــة تلك التي تملك القـــدرة على اثارة هيـــاج ومظاهـــرات شعبية ·

(٣) تسلل عناصر مناوئة لاهداف حكومة الثورة ، ونجاحها في الوصول الى احدى النتائج التالية :

أ ـ تحريف خبيث لبرنامج حكومة الثورة ·

ب ـ اتلاف كامل لـ .نامج حكومة الثورة ·

جـ ـ اضعاف قدرة الحكم على الاحتفاظ بسلطته وبالتالي التحضير للاطاحة به نهائيا ·

وبالضرورة ، فليس هناك من وسيلة لمجابهة مثل هذه الاخطار ، سوى استخدام سلطات الحكومة ـ علنا ودون تحفظ أو تقصير ـ لقمعها أو الحيلولة دون وقوعها واستفحال شرورها · ولقد نوهنا سابقا ، أن اللجوء الى اجراءات

القمع والارهاب أمر لا بد في المرحلة الاولى للثورة ، على أن تحل سياسة الاصلاح والبناء محلها فيما بعد كأساس لاستمرار سلطة النظام القائم . وهذا هو التعاقب الصحيح لمراحل تقدم الثورة وتطورها . ومن العجب أن يتبع عدد غير قليل من الثورات عكس هذا الاتجاه . فمن الخطأ أن تعتمد الثـــورة ، في مرحلتها الاولى بافراط على سياسة الاصلاح والبناء ، ومن ثم تلجأ الى اجراءات القمع والارهاب كعامل حاسم لسحق أعدائها . ان هذا السلوك ، بعينه ، هو ذاك المرض الخبيث الذي تعاني منه الثورات ، وهو الكفيل بالقضاء عليها قضاء مبرمـــا .

والتحليل الموضوعي لما سبق ذكره هو كما يلي : يضطر قادة الثورة الى انتهاج سياسة الانحراف والمساومات شيئا فشيئا ، لان الثورة لا تتمكن مـن احكام قبضتها على أجهزة الدولة في بداية عهدها ، ولانهـا لا تملـك منح ثقتها لاجهزة القمع والارهاب لشكها في كفاءة تلك الاجهزة ونفوذها . وستحاول قيادة الثورة أن تحافظ على السلطة عن طريق كسب الشهرة الشعبية ، واثارة أزمة نفسية لا تنتهي حيال طريقة توجيه شؤون الدولة ومصالحها . وهكـذا تكون الثورة قد وضعت أهدافها جانبا ، أو تركتهـا تحت رحمـة الظـروف والمناسبات نتيجة جهودها الخاطئة في المحافظة على السلطة وفي ضمان بقائها ولكن سرعان ما تفقد سياسة الانحراف والمساومات فرصها كلما اتضح افلاس الثورة ، وبان للعيان فشلها . وهنا تضطر حكومة الثورة الى اللجوء الى وسائل القمع والارهاب ، كما تضطر الى تشكيل الاجهزة المنفذة له وتطويرها بسرعـة وطيش . ولو افترضنا أن التطوير السريع لاجهزة القمع والارهاب كان ناجحا ، اضطرت الثورة عندها للاعتماد على القمع والبطش بافراط . ولكن يحدث ذلك في الوقت الذي يجب على الثورة أن تكون منصرفة فيه نحو منـح البلاد عهدا دستوريا جديدا . وهكذا تكون الثورة قد تفسخت حقيقة ، وانقلبت الى مجرد نظام ديكتاتوري وحكم مستبد . أما في حال عدم نجاح قيادة الثورة في تطوير أجهزة للقمع بالسرعة الضرورية وبالكفاءة اللازمة (وهذا ما يحصل عادة بسبب التأخير) ، فان حكومة الثورة ستجد نفسها مضطرة الى الانتقال انقلابيا الى نظام دستوري جديد ، دون أن تكون قد استكملت بعض أو كل مقوماته ، أو حققت بعض أو كل أهدافه . وهذا هو أهون الشرين وأخف الضررين . أما اذا جرت

الرياح عكس ما تشتهيه الثورة وتتمناها ، فان النظام الثوري بأكمله سيقع ضحية ثورة مضادة لا تبقي ولا تذر ·

ويتضح من هذا كله ، ان سياسة الانجراف والمساومات هي حليفة الثورة المضادة ، كما أنها جرثومة فتاكة في داخل جسم الثورة نفسها · فعندما يتذكر المواطنون أن سياسة حكومة الثورة لا تختلف عن سياسة حكومة العهد البائد التي كانت السبب المباشر لقيام الثورة ضده والاطاحة به ـ هذا ان لم تكن نسخة مماثلة له ـ فانه يصبح مؤكدا ان سياسة حكومة الثورة الحالية ستشكل دائما مشجعا لكل أولئك الذين يتطلعون الى نسف الثورة وسحقها دون رحمة أو هوادة ·

ان قاعدة القمع والارهاب التي يجب على حكومة الثورة أن تلجأ اليها عند الضرورة تتألف في هيكلها مما يلي :

١ ـ الانظمة والقوانين
٢ ـ قوى الامن الداخلي
٣ ـ أجهزة المخابرات والمباحث ذات الكفاءة العالية
٤ ـ وسائل الدعاية
٥ ـ قوة عسكرية بكفاءة عالية أو الجيش ·

● **الانظمة والقوانين :**

ان الاستعانة بالانظمة والقوانين لتحقيق الاستقرار السياسي خلال الفترة الاولى من حكم الثورة أمر ضروري لا بد منه · وليس الهدف من ذلك تحريم النشاطات السياسية المنظمة التي لا ترغب السلطة الحاكمة بها فحسب ، بل الهدف منها أيضا اضفاء صبغة اللاشرعية على كل النشاطات الهدامة والداعية الى الشغب والفوضى · وأفضل الاجراءات في هذا المضمار ، هي مراجعة كافة الانظمة والقوانين القائمة التي لها علاقة بتلك الموضوعات ، وتعديل ما يلزم منها حسب الظروف الجديدة ، ثم توضيحها وجمعها في مرسوم واحد (أو مجموعة مراسيم) وتعميمها على أوسع قدر ممكن · وهكذا تصبح هذه التشريعات أساسا للمحافظة

على أمن الدولة · كما أنها تقوم بتحديد مهمة قوى الامن الداخلي وأجهزة المباحث (وزارة الداخلية) ، وتوضح كذلك واجبات المواطنين وحقوقهم · وفي الوقت الذي يجب أن تكون هذه التشريعات واضحة قدر المستطاع ، فانها يجب أن تبقى أيضا عامة حتى لا تعيق الحكومة نفسها ، وتسلب رجال السلطة حرية التصرف المطلوبة · كما يجب أن لا تظهر هذه التشريعات على أنها لصالح فئة ــ أو طبقة ــ وضد أخرى ، أو انها تعطل بعض الحريات العامة كحرية التعبير والانتقاد وغير ذلك · ولكنها بنفس الوقت يجب أن لا تكون عقبة كأداء في وجه سلطة النظام القائم ، أو أن تحول دون اتخاذها الاجراءات اللازمة لحماية نفسها · وعلى هذه التشريعات أن تحقق غايتها المرجوة ألا وهي اعتبار كافة أعمال التآمر ــ كقلب نظام الحكم ، أو تأييد الذين يفكرون بهذا والدفاع عنهم ، أو ترويج الشائعات الكاذبة ، أو بث الذعر بين الناس ، أو اشاعة جو الكآبة مما يحرض الناس على أعمال العنف ، أو الادلاء بأسرار الدولة الرسمية ، أو القيــام بأعمال التجسس والتخريب ــ أعمالا غير قانونية تستحق العقوبة والجزاء · كما يجب عليهــا أن تمنح قوى الامن الداخلي الحق في تحريم الاجتماعات العامة والتجمعــات التي تبلغ حد الخطر في الشوارع ، وتفرض الحصول على اذن مسبق لاقامتها · ومن المسلم به جدلا ، خضوع السلطة القضائية برمتها ــ دون استثناء ــ لارادة حكومة الثورة · كما ان كافة الاحكام الصادرة بحق المخالفين لانظمة أمن الدولة ، يجب أن لا تكون ــ بأي حال من الاحوال ــ مخالفة لرغبة حكومــة الثــورة وانشراح صدرهــا ·

● **قوى الامن الداخلي :**

يجب على قادة حكومة الثورة اعطاء أجهزة قوى الامن الداخلي (الشرطة والمباحث والامن العام) الاولوية على سائر الاجهزة الاخرى في الدولة · فقوى الأمن الداخلي تعتبر بمثابة الدرع الحامي لنظــام الأمن في الدولة وضمــان استتباب الامن والنظام في الازمات التي لا تبلغ حدا خطيرا يتطلب معه استدعاء الجيش · ولهذا يتوجب القيام بتفحص وتحري كامل هيئة قوى الامن الداخلي وعملياتها باستمرار حتى يضمن ولاؤها ، ويحافظ على حسن أدائها لمهماتها · وعلى قيادة الثورة منح رئيس قوى الامن ومساعديه ثقتهم التامة ، كما عليهم أن

يولوا تطوير فاعلية تلك الاجهزة في حفظها للامن عنايتهم الشخصية والمباشرة ، وهذا يعني بالضرورة اضفاء الصبغة السياسية على كافة أجهزة قوى الامن الداخلي ، لتكون عند الضرورة يدا موالية لحكومة الثورة بصفة شبه عسكرية ·

ان من مهمات أجهزة المباحث التابعة لقوى الامن الداخلي ما يلي : تجميع كافة المعلومات الماسة بوضع الامن في الدولة عن طريق انشاء شبكة واسعة للتحريات ، واجراء التحقيقات السريعة في قضايا الامن بممارسة الطرق العادية للمراقبة والاستنطاق والتسلل الى المستويات الدنيا لكافة الجماعات المشكوك في ولائها للثورة · كما أن عليها القيام بتطوير جهاز فعال ضد المظاهرات والاضطرابات ·

● **أجهزة المخابرات :**

ان دماغ كافة أجهزة الامن لنظام حكم ثوري (أو حتى لاية دولة أخرى) ، والمركز الحساس لها ، هو ذاك الجهاز الذي هو على غاية من السرية ، والذي لا يعرف تفاصيل وجوده سوى رئيس النظام الحاكم ومن حوله من زعماء الثورة القياديين · ويطلق على ذاك الجهاز اسم « المخابرات » · وتقع على عاتق هذا الكيان المتغلغل في كافة أرجاء أجهزة الحكومة ودوائرها (وحتى خارج أجهزة الحكومة) مسؤولية تزويد رئيس الدولة بالمعلومات الهامة والضرورية للقيام باجراءات فعالة وفورية ضد الاخطار المضادة للثورة · كما يجب على هذا الكيان أن يزود رئيس الدولة وكبار رجالها بالمعلومات الكافية لتخطيط سياسة أمن عامة · ومن مهام هذا الكيان ايضا معرفة كامل النشاطات المعادية للدولة والضارة بأمنها ، سواء القائم منها فعلا أو المبتدىء حديثا ، وسواء الواقع داخل نطاق الحكومة أو خارجها ، وسواء الشامل منها لوزراء الدولة أو لضباطها في القوات المسلحة والامن الداخلي ·

ولتحقيق هذه الاهداف وانجاز تلك المهمات لا بد لهذا الكيان ان يتمتع بالحرية المطلقة في الاطلاع على كافة انتاج أجهزة الامن الداخلي وأجهزة المباحث والمخابرات الاخرى (ويسمى عندئذ هذا الكيان باسم الجهاز الخاص) · كما يجب أن تكون لديه القدرة على الاشراف ــ عن طريق وسائله ، المعروفة منها أو السرية ــ وبصورة خاصة ، على أهم أجهزة الامن الداخلي · وفوق كل هذا

وذلك ، فان من أخص مهام أجهزة المخابرات عامة امتلاك المعطيات اللازمة والقدرة الكاملة بغية التسلل الى أعلى المراتب والمناصب في كافة النشاطات المشكوك في ولائها للثورة ٠

● الدعاية والاعلام :

من الخطأ اعتبار الدعاية سلاحا أساسيا لضمان أمن الثورة ٠ فالدعاية في حد ذاتها لا تعدو كونها سلاحا مساعدا لاستمرار السلطة وبقاء النظام ٠ كما أن الاعتماد على الدعاية كليا يعتبر مخاطرة غير قليلة ، وذلك لانها تدفع بسياسة الحكومة الى وضع تجد معه نفسها موجهة من قبل احتياجات الدعاية بدلا من أن يكون العكس ٠ وهذا هو أقصر الطرق المؤدية بالثورة الى سياسة الانجـراف والمساومات ٠ وعلى حكومة الثورة أن تقوم بشن حملات دعائية مركزة تهدف الى اعطاء تبرير مقنع لاستمرار استخدامها لوسائل القمع والارهاب ٠ كما أن من أهداف تلك الحملات كشف النقاب عن أعداء الثورة وفضح النشاط اليساري ٠

ويجب أن تستحوذ مسألة الدعاية المضادة ــ التي تقوم القوى المعارضة للثورة ببثها ــ على اهتمام خاص ، بسبب ما يمكن أن تثيره من مشاكل ، مثل مطالبتها بحرية الصحافة والتعبير عن الرأي ٠ كما انه يتعذر ايجاد حل لمشكلة مراقبة الصحافة خلال العهد الثوري دون أخذ بعض المشاكل والظروف الاخرى بعين الاعتبار ٠ ومهما كان ، فعلى حكومة الثورة أن تكون مستعدة لفرض المراقبة على الصحافة حال احساسها بضرورة ذلك ٠ الا انه يمكن ضبط الصحافة في غالب الاحوال من خلال ممارسة بعض الضغط من قبل الحـــكومة ، باشكال عديدة ، ودون اللجوء الى المراقبة الصريحة ٠ فيكفي مثلا تعيين مستشار لكـل هيئة من هيئات تحرير المجلات والصحف ، وذلك بقصد ابداء الرأي بكل ما هو معد للنشر كالقصص والاخبار ، ولاعطاء النصيحة والتوجيه بخصـوص المواد الصحفية التي تعالج القضايا العامة المهمة ٠ ويمكن اصدار بعض المراسيم ــ التي يمكن أن توصف بانها مرتبطة بوضع الامن داخل الدولة ــ بغية تدعيـم سلطة أولئك المستشارين عند الضرورة ٠ كما يمكن تحقيق ذلك عن طريـــق التهديد بتنفيذ بعض الانظمة المتعلقة باثارة الشغب وتهديد الامن ، وكذلـــك

بالتهديد بزيادة الضرائب والرسوم على الصحف والمجلات ، وفرض غرامات مالية كبرى عليها ٠

● **القوة العسكرية :**

في الوقت الذي لا يجوز التقليل من اهمية وجود قوة عسكرية ذات كفاءة عالية وولاء تام للنظام الحاكم ، فانه لا يجوز أيضا اعتبار وجودها ذا أهمية مسلم بها جدلا ٠ فمن أكثر الامور أهمية ، توفر جهاز فعال جدا للمخابرات ضد التآمر والنشاط الهدام في داخل القوات المسلحة ٠ ومن المستحسن وضع برامج ثقافية سياسية وتلقينها لكافة أفراد الجيش ٠ ومن المهم ، فوق كل هذا وذاك ، ادخال التحسينات على أسلحة ومعدات وتدريب القوات المسلحة ، كما يجب دفع المرتبات بانتظام وسخاء حتى تكون أحسن المرتبات في الدولة ، وحتى يصبح ذلك الجيش ـ باختصار ـ « جيشا مواليا تملأ الغبطة قلوب أفراده ، ويغمر السرور نفوس ضباطه » ٠

ان اجتماع كل هذه الاجهزة التي استعرضناها آنفا ، يعطي الثورة جهازا ضخما لحماية أمنها ، وتأمين استمرارها ٠ واذا ما تم استخدامه بحكمة كافية وعقل راجح فانه لا يوفر حماية كافية للثورة ضد أعدائها فحسب ، بل ويزود حكومة الثورة برصيد مهم يؤمن لها حاجتها من الاستقرار السياسي ، والضروري للبدء بتنفيذ سياسة الاصلاح والبناء ٠ وفي مثل هذه الظروف فقط ، تتمكن الثورة من ارساء قواعد جديدة للحياة السياسية في الدولة ، وذلك على أساس من تلك الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الهامة التي تنجزها نتيجة اجراءات مباشرة أو غير مباشرة ٠ وهكذا ، فان ارساء مثل هذه القواعد للحياة السياسية المقبلة ـ ويمكن أن تبدأ الثورة هذا الارساء منذ أيامها الاولى ـ هو بعينه « فترة ما قبل العهد الدستوري » الذي تطمح الثورة لبلوغه بصحة ونشاط ٠

- ٣ -

عهد ما قبل الدستور

يجب على زعماء الثورة أن يتطلعوا منذ اليوم الاول لحركتهم الى تطوير الثورة وتحويلها الى نظام دستوري جديد . فالثورات الاصيلة والمنبثقة من ضمائر الشعب لا تنوي اطلاقا اقامة أنظمة ديكتاتورية مستبدة ، بل تعمل جاهدة لاعادة الوضع الدستوري والحيوي لاستقرارها ، في أقرب وقت ممكن — وعلى الاقل — عن طريق اعطاء العهود وبذل الوعود . ولكن تبقى هناك مشكلة التعاقب بين العهد الثوري والعهد الدستوري ، والطريقة التي يخلف العهد الثاني الاول بها ، ويحل محله دون تقهقر أو هزيمة . فزعماء الثورة لن يخلدوا ، وحماسة الشعب للثورة لن تبقى للابد بل ستضعف وتذبل . ولهذا كانت أنجع الوسائل لاجراء عملية التعاقب بشكل منتظم ومستقر (ودون الحاجة للقيام بثورة اخرى) ، هي تلك التي تستخدم اي نوع من أنواع « الانتخابات النيابية » ، التي غالبا ما تقود الى عهد ذي صبغة دستورية مهما كان مشوه الحقيقة ممسوخ الفاعلية .

وبما أن زعماء الثورة والمؤيدين لها ، يرغبون في تخليد منجزاتها ، فمن الضروري اذن ، التنبؤ بمصادر الخطر الجديدة والتنبه لها . ويحدث ذلك ، كنتيجة لمحاولة أعداء الثورة التسلط ثانية على السلطة السياسة في العهد الدستوري الذي يعقب العهد الثوري . وغالبا ما يتم هذا بسهولة تامة اذا ما أخفقت الثورة في تدعيم دور تلك الفئات والطبقات — التي حققت الثورة خدمات ومنافع لها — وتقوية فاعليتها . كما يقع نفس الشيء اذا ما عجزت الثورة عن تطوير نظام دستوري جديد ، يضمن لتلك الفئات والطبقات أكثرية عظمى . وها هي بعض تلك الاخطار :

(١) ان الاحزاب السياسية القديمة سوف تنتعش ثانية ، ولا يستبعد ان تملك القدرة اللازمة لاعادة أعداء الثورة الى السلطة .

(٢) ربما تظهر الى الوجود أحزاب سياسية جديدة ، وعن طريقها ستعود الشعارات القديمة والاهداف السابقة للتداول ، وعندما تمتلك هذه

الاحزاب القدرة اللازمة لاعادة أعداء الثورة الى السلطة ، فانها لن تتأخر في فعل هذا أبدا .

(٣) ربما تتم السيطرة لبعض السياسيين (الذين يخالفون الثورة في أهدافها) على أي حزب ثوري يمتد وجوده الى العهد الدستوري . وذلك نتيجة ما لديهم من قدرات وخبرات سياسية فائقة تخلفت عندهم من العهد البائد قبل الثورة أو اكتسبوها حديثا . وهكذا ، فمع وجود حزب ثوري على رأس السلطة فان مصالح اتباعه واشياعه لن تكون موضع اهتمام حقيقي أو تنفيذ بنّاء .

(٤) ويجب على النظام الدستوري الجديد أن لا يتخذ شكلا يشجع ظهور عدة أحزاب متعادلة القوة تقريبا . ذلك أن وضعا كهذا ، لن ينتج عنه سوى عدم الاستقرار السياسي لوجود أحزاب بشعارات قديمة ولكنها في موقف قوي لاجبار غيرها على اتباع سياسة المساومات والحلول الوسطى . وبهذا يتحقق لها الانقضاض على بعض منجزات الثورة أو كلها .

ومن الممكن تفادي كل هذه الاخطار اذا قامت حكومة الثورة بالاستفادة من الميزات الفريدة ــ التي يمنحها اياها احتكارها الكلي للنشاط السياسي القانوني في أوائل عهدها ــ في وضع أسس لنظام دستوري جديد ، يسود فيه حزب واحد ، هو وحده وريث الثورة الشرعي في العهد الدستوري الجديد ، وله وحده الدور الحاسم في تسيير دفة الامور .

وللوصول الى وضع نموذجي كهذا ، يتوجب على حكومة الثورة أن تخلق منظمة شعبية تتدرج بدقة وانتظام حتى تصبح نهائيا حزبا سياسيا ، وهي بنفس الوقت ، توفر للمنتمين لها من المقترعين والسياسيين الثوريين مجالا جيدا لاجراء التمرينات والتجارب على الحياة السياسية ومعضلاتها . وعندما يحين الوقت لمنح البلاد الدستور الجديد ، فان على حكومة الثورة أن لا تنسى أن تصوغه بصورة تعطي الحزب الثوري فرصا مطلقة لا منافسة فيها .

المنظمة الشعبية

● ما هي :

مهما تعددت الاسماء واختلفت ، فان النوع الذي يعنينا في مجال المنظمات الشعبية هو ذاك النوع الذي يبقى خارج نشاط الحكومة الرسمي ٠ ففي هذا النوع من المنظمات الشعبية يقوم زعماء الثورة ، بالتعاون مع بقية موظفي الحكومة ومستخدميها ، بانشاء منظمة شعبية تشترك فيها جماهير غفيرة من المواطنين غير الرسميين ، وتدعي هذه المنظمة أهدافا وشعارات مثل تلك التي تنادي بتدعيم الثورة والمحافظة على مكتسباتها وزيادة منجزاتها ٠ وعلى هذه المنظمة أن لا تظهر بمظهر حزب سياسي أثناء الفترة التي تكون الانتخابات فيها معلقة ، والاحزاب السياسية منحلّة ومحرمة قانونيا ، دون أن يؤدي هذا الى اغفال تنظيمها على غرار حزب سياسي ، لتكون مستعدة لانتخابات تجري في المستقبل عاجلا أم آجلا ٠ وكنتيجة لهذا يجب أن تكون لها قيادات محلية ، اقليمية وقطرية، ومسؤولون متفرغون لرسم مختلف احتمالات سيرها وتخطيط سياساتها ٠ كما يجب أن يتوفر لها جهاز اداري عامل وآخر للانضباط ٠ وعلاوة على كل ذلك ، فان قيام أمانة عامة لها ، متفرغة لشؤونها ، مع لجان متعددة لمختلف المهام ، مثل الدعاية والنشر ، أمر حيوي لبقائها في الطليعة متماسكة ومهيمنة ٠

● غايتها :

لا يجوز الافصاح عن الغاية الحقيقية لانشاء مثل تلك المنظمة ٠ وكل ما يشاع عن أهدافها هو أنها وجدت لتوثيق الروابط الاخوية بين العناصر المؤيدة للثورة وأهدافها ٠ ولكن هدف انشائها حقيقة ، ايجاد جبهة للدعاية لصالح النظام الحاكم ، ومن ثم تطورها الى حزب سياسي ـ الحزب الثوري ـ يمارس مهام الحكم في المستقبل ٠ ويتم ذلك عن طريق استقطاب قواعد وطبقات جديدة من الشعب ، وغمسها في نشاط سياسي مدعم وبدون انقطاع ، وتوفير التدريب الضروري لها على هذا النوع من النشاط ، ومحاولة اقناعها بفائدته وباهميته في

حصول الفرد على أحسن مردود لحياته (داخل مجتمعه ودولته) عن طريق اظهار وقائع عملية ملموسة لتلك الفائدة والأهمية ٠

● كيف يمكن تحقيق هذه الغايات

ان سر نجاح هذه المنظمة هو بقاؤها بقرب السلطة الحاكمة ، واستمرار اشراف الثورة عليها ، اشرافا غير رسمي ٠ كما أن مفتاح بقائها هو عدم سماح الثورة بظهور أي منافس لها ٠ فهي وحيدة في الميدان ، عزيزة على قلب الثورة التي تصبر عليها ،وتتقبل النقد منها بكل رحابة صدر وسعة ٠ أما كبار قادتها ، فيجب أن يكونوا نموذجا طبق الاصل عن كبار زعماء الثورة ، وقادة الحكم ، في معظم نواحي تفكيرهم وحياتهم ٠ وعندما تتوفر مثل هذه الظروف في المنظمة الفتية ، فان جماهير الشعب ، التي قامت الثورة برعاية مصالحها ، وتأمين حاجاتها ، ستظهر عواطف جياشة تنم عن ولاء تام للثورة وقادتها ٠ ثم لا تلبث أن تجد نفسها تحت تأثير اغراء متزايد يجذبها للانضمام الى عضوية المنظمة والانخراط في سلكها ٠ وتشكل الخدمة المدنية معينا لا ينضب للملاكات (الكادرات) العاملة في هذه المنظمة ٠ وكمثال على هذا ، فان التحاق موظفي الدولة ومستخدميها بالنشاطات التابعة لهذه المنظمة ، كشرط لاستمرار خدمتهم في سلك الحكومة ، يمد المنظمة بأفواج ضخمة من المنتسبين اليها والعاملين فيها ٠ وعلاوة على كل هذا ، فان ما تتمتع به الحكومة من حرية ادارية واسعة ، وسلطات غير محدودة في مجال انجاز المشاريع العامة ، توفر لها طاقة ضخمة ، سهلة التسيير والتسخير ، لخدمة أهداف المنظمة الشعبية وغاياتها ، (كما تعتبر هذه فرصة رائعة للعمل غير المباشر في مجال بناء المرتكزات الشعبية للثورة) ٠ ويجب أن تكون المناصب في المنظمة بمثابة المكان الذي توضع فيه الجماعات والافراد الراغبون في التأثير على النظام القائم موضع المراقبة والامتحان — ضمن حدود ادارة فعالة وسياسة وطنية صحيحة — وحتى تعرف طريقة تعاملهم مع كبار الرسميين المسؤولين عن الشؤون العامة ونوعية الصفقات التي ينوون الدخول معهم فيها ٠

ان الحكومة تملك نعما كثيرة تستطيع من خلال تسييرها لشؤون الدولة

الادارية الروتينية اسباغها على العاملين في مثل هذه المنظمة ولا سيما عندما يقع بعضهم في ورطات يصعب التخلص منها اثناء تنفيذ القوانين والانظمة المختلفة، ولهذا يجب أن يكون واضحا (دون أن يعلن عن ذلك رسميا) أن التأييد النشيط للمنظمة والدعوة المتواصلة لها هما من أضمن الطرق للحصول على المغانم السالفة الذكر • وفي مقابل الخدمات التي تقدمها تلك المنظمة الشعبية ، فان أنظار العديد من أفراد الشعب ستتجه اليها ، وستستحوذ على اهتمام اولئك الذين قلما يثير فضولهم أمر ما • وعن طريقها أيضا يمكن الحصول على التبرعات المالية بسهولة أكثر ويسر أوفر • وعندما يتضح المفهوم الاساسي لمثل هذه المنظمة الشعبية في الاذهان فان الشكل الدقيق لنشاطها ، بحدوده العملية كلها ، سيكون مناظرا تماما لحالة الثقافة العامة داخل البلاد • كما سيكون وجه النشاط في انسجام مع الحالة الاقتصادية والاجتماعية للفئات والطبقات التي تؤيد المنظمة وتساندها • وسيتصاعد نشاط المنظمة اطرادا مع مدى تشرب أفرادها أفكار الثورة السياسية ، ومدى انفعالهم عاطفيا معها ، ومع التسهيلات التي تقدمها والمساعدات التي تبذلها الحكومة لهم • ان قائمة نشاطات منظمة كهذه ستحيط بعدد كبير من المشاكل والواجبات • ويشمل ذلك النشاط الثقافي (كالقاء التوجيهات الاولية في الحقوق المدنية والتربية الوطنية والاجراءات الانتخابية وتنظيم جهاز الحكومة والتاريخ السياسي الخ) واصدار الصحف وتنظيم المظاهرات والمؤتمرات الجماهيرية • كما يشمل تقديم العون المباشر للحصول على وظيفة في سلك الحكومة ، والى غير ذلك من النشاطات التي لا عدّ لها ولا حصر •

ويجب أن لا تغيب عن البال قطعيا تلك الحقيقة الهامة وهي أن هذه المنظمة الشعبية جزء من المرتكزات الشعبية لنظام الحكم الثوري ، وأنها ستبقى على المسرح بعد انتقال امتيازات الحكم الخاصة بحكومة الثورة الى النظام الدستوري الجديد • كما أن هذه المنظمة ستصبح الحزب السياسي الوحيد ، الذي سيضطلع بحمل تقاليد وأعراف الثورة للاجيال المقبلة التي لن تنظر اليها بعين الرضى ، ولن تتردد بمعاكستها على شكل ردود فعل ضدها •

الدستور الجديد :

ان نفس الصعوبة التي برزت سابقا عند محاولة شرح وتحديد هيكل ونشاط المنظمة الشعبية بالدقة اللازمة ، ستبرز ثانية عند محاولة رسم صورة دقيقة للنظام الدستوري المثالي الذي يجب أن يخلف عهد الثورة ٠ ولكن هناك ظاهرتين هامتين جدا يجب أن تتوفرا في الدستور الجديد اذا كانت القاعدة الشعبية لنظام الحكم الثوري راغبة بالبقاء لمدة طويلة ودون نقص في فاعليتها ، وهما :

(١) يجب أن يتالف الدستور الجديد المدّون من نصوص ومبادىء عريضة، مع ترك الترتيبات الجزئية للقوانين العادية لتوضيحها والتفصيل فيها ٠ وحيث أن الحزب الثوري سيكون القوة السائدة والمسيطرة ، فمن الضروري اذن ترك المجال واسعا أمامه لكتابة الدستور وتعديله حسب مقتضيات زمانه وخبرة زعمائه ، وترك مرونة كافية لمواجهة الظروف والحالات الطارئة حديثا ٠

(٢) ويجب أن يفسح الدستور المجال أمام ظهور سلطة تنفيذية قوية ، تتمتع بشعبية واسعة نتيجة انتخابها من قبل الاغلبية ، كما يجب على الحزب الثوري أن يتأكد من سيطرته على السلطة التنفيذية كشرط أساسي لاستمرار تفوقه العددي وفاعليته التنظيمية الى أقصى الحدود الممكنة ٠ وبالوقت نفسه فعلى السلطة التنفيذية أن تكون في مركز قوي تجاه السلطة التشريعية ٠

ومن المستحسن التذكير ثانية باهمية الاقتراحين السابقين : أولهما أن الدستور المدون يجب أن لا يتضمن اكثر من مبادىء عامة وخطوط عريضة ، وثانيهما أنه يتوجب على الدستور أن يتيح ظهور سلطة تنفيذية قوية ٠ ان الدستور المدوَّن يجب أن يبقى وثيقة دائمة هدفها تحديد وتنظيم طبيعة وشكل النظام السياسي للبلاد ٠ ويجب على النظام القائم ، بعد الموافقة على الدستور وتبنيه رسميا ، أن يضفي عليه صبغة من القدسية يصعب معها التغيير فيه والتبديل . ان لم يكن هذا مستحيلا ٠ وعندما يتضمن الدستور مجموعة من التفاصيل الدقيقة الى جانب المبادىء العامة ، فمن الواجب عندئذ اظهار تلك

لتفاصيل ايضا بنفس مستوى قدسية المبادىء العامة . ومهما يكن ، فان لهذه النقطة خطورة خاصة لسببين: أولهما، يجب أن تتمتع تفاصيل نظام الحكم بمرونة كافية تبيح تعديلها عند تغير الظروف. وثانيهما فعندما يتضمن الدستور المدون هذه التفاصيل ، فان هذه الاخيرة تكتسب صفة ديمومة الدستور نفسه مما يجعلها صعبة التغيير والتعديل . وعلاوة على هذا ، فان وجود فقرات مفصلة ونصوص مشروطة في الدستور يترك سلاحا في يد الاقلية غالبا ما تتمكن به من هزم ارادة الاكثرية وخاصة في بعض القضايا السياسية الحيوية . والمثال التالي خير توضيح لما سبق ذكره . فغالبا ما يظهر اثنــاء مناقشة الدستور للموافقة عليه وتبنيه رسميا اتجاه نحو اشتراط تامين أغلبية ثلثي الاصوات بدل الاكتفاء بالاغلبية البسيطة في المجلس النيابي (البرلمان) عند التصويت بالموافقة على اصدار بعض أنواع خاصة من القوانين والتشريعات . ولكن قد يحدث ، مع مرز الزمن وتبدل الظروف ، أن نوعا من انواع تلــك القوانين والتشريعات لم يعد يتلاءم والاوضاع الجديدة ، وأن هناك ضرورة لتعديله أو تغيير . ولكن ، في حالة كهذه قد تنبري الاقلية البرلمانية (وربما بدافــع أهداف خاصة) لتقف في وجه ارادة الاغلبيــــة محتجة بتفاصيل الدستور وشروطه . فلو كانت تلك التفاصيل مجرد قوانين لا أكثر ــ وليست نصوصا في وثيقة الدستور ــ لما كان هناك داع لظهور مثل هذه المعضلات .

ان الاعداد لقيام سلطة تنفيذية قوية وقادرة ــ بحسب الدستور ــ له اهمية فائقة . ان أشد الارزاء التي تصيب الحكومات ، التي تواجه سلطــة تشريعيــة متفوقة عليها بسلطاتها وصلاحياتها ، هي عدم الاستقرار السياســي ، الــذي ينتج عن تشرذم البرلمان الى عدة أحزاب وتكتلات صغيرة . وحيث أن الحــزب الواحد (ولو كان الحزب الثوري) لا يتمكن من فرض سيطرته على كل شــيء باغلبية مطلقة الا نادرا ، فان السلطة التنفيذية تبقى دائما تحت رحمة اتجاهات الائتلافات البرلمانية ، والتي غالبا ما توصل الى سياسة الانحراف والانجراف . وبالمقابل ، فعندما تكون السلطة التنفيذية اقوى من السلطة التشريعية ــ أو على الاقل بقوتها (وهذا ما يحدث في الحالات التي تكون السلطة التنفيذية منتخبة انتخابا مباشرا وليست معينة من قبل البرلمان ، مثل انتخاب رئيس الجمهورية من الشعب مباشرة) ــ فان الوضع يكون عندئذ متوازنا . وعندما تتوفــر

سلطة تنفيذية قوية كتلك ، فان الحزب الذي يملك أغلبية أصوات الناخبين يتمكن عندئذ من السيطرة على كل من السلطة التنفيذية والغالبية البرلمانية . وبهذه الطريقة ، دون سواها ، يتهيأ للبلاد جو من الاستقرار السياسي ، ملازم لطبيعة النظام السياسي وتركيبه .

وخلاصة الكلام : ان على نظام الحكم الثوري تقديم دستور للبلاد يتصف بالواقعية . فالوثائق الرسمية الصادرة عن لجان وضع الدستور والمؤلفة من اساتذة الجامعات والقضاة ، غالبا ما تُسَوَّد فيها وجهات النظر المعروفة في كتب القانون التي تهتم بالمفاهيم المعقدة لأجهزة الحكومة، والتفاصيل الدقيقة لنظريات القضاء . الا أنها نادرا ما تتطرق الى النواحي العملية والواقعية للحياة السياسية الحقيقية في داخل البلاد ، والتي لأجلها ، دون سواها ، تسن الانظمة ،وتوضع الدساتير .

٤

الخاتمة

لقد كان واضحا تماما منذ بداية هذا التقرير،أن المحافظة على السلطة هي هدف في حد ذاتها ، لا يختلف في هذا نظام عن نظام . ولكي يتيسر هذا فلا بد من توفير القوة السياسية لهذا النظام ليصبح حكما ذا فاعلية جيدة . وتتوفر عادة هذه القوة السياسية في كل المجتمعات مهما كان وضع تنظيمها وحالته ، الا أنها اما أن تكون علنية ، أو تبقى كامنة في المجتمع مدخرة فيه . ولكن النقطة الحاسمة في هذا المجال هي أن القوة الكامنة تبقى في معظم مراحل الحكم اكثر بكثير من تلك التي تظهر علنا وتصبح أمرا واقعا . ففي الدولة الدستورية،تحد اعتبارات الشرعية أو القانونية نشاطات الحكومة في تشكيلها للقوة السياسية، بنفس النسبة التي تحد نشاطات اولئك الذين تتعارض مصالحهم مع النظام القائم . أما نظام الحكم الثوري ، فانه لا يقيم وزنا لمثل تلك الاعتبارات ، وذلك لان اسم « الثورة » نفسه وتعريفها لا يملكان أيا منمعاني الشرعية أو القانونية. وهذا هو مصدر ضعف الثورة باستمرار ، وكما أن عدم شرعية الثورة وقانونيتها

لا يضمان أي قيود لنشاطها لتوفير القوة السياسية اللازمة لها ، فان كل ما عجزت الثورة عن تجنيده وتسخيره من القوى السياسية المدفونة في المجتمع لا يخضع اطلاقا في نشاطه وتفجره لاعتبارات الشرعية أو القانونية ولذلك يبقى بحقيقته خطرا كامنا يهدد باستمرار أمن الثورة وبقاءها ٠

وهكذا يبقى أمام نظام الحكم الثوري طريقان لا ثالث لهما لمعالجة هذا الخطر المهدد لكيانه ٠ فأول هذين الطريقين ذو نهاية خطيرة ، مع أن بدايته تبدو للوهلة الاولى على أنها أساس النفعية ، والنزوع الى جر المغانم بأية وسيلة كانت وهذا ما أطلقنا عليه آنفا اسم « سياسة الانجراف والمساومات » التي غالبا ما تحرص عليها بعض الحكومات الثورية ، بغية توطيد أركانها عن طريق الظهور بالمظهر الشعبي ، الذي تلتف حوله الجماهير الغوغائية ، وذلك بدل جعل قوتها السياسية أمرا واقعيا ومحققا ٠

وثاني الطريقين هو ذاك الطريق الذي نصحنا آنفا باتباعه ، وهو الذي يقود حقا الى ثورة فعلية تدرك بعمق كاف النظرية الاساسية التي يقوم عليها الحكم الثوري ٠ وبعبارة أخرى ، فان على نظام الحكم الثوري أن يتخذ كل ما يراه ضروريا من التدابير لايجاد قوة حقيقية لـه سواء أكان ذلـك باللجوء الى اجراءات القمع والارهاب أم الى سياسة الاصلاح والبناء ٠ وعليه كذلك أن لا يغفل عن تلك القوة الكامنة في المجتمع ويتركها دون السيطرة عليها وتجنيدها لـه ٠

ومن المأمول أن يكون هذا التقرير مفيدا ومساعدا للثورات في اتقان عملها ، وأن يكون مقدمة لها الى ما يسمى « الضرورات وفن تنفيذها » ٠

١

مركز « لعبة السلم » في واشنطون

لا يمكنك ان تربح المباراة دون ان تكون لاعبا ضمن الفريق

بعد ظهر أحد الايام الباردة في أوائل عام ١٩٥٦ ، انتشر خبر في واشنطن مفاده أن جهاز ارسال كهربائي صغير على شكل « صدفة » قد اكتشف مدسوسا تحت احدى مناضد الاجتماعات في دوائر وزارة الخارجية الاميريكية في واشنطن . كان ذلك في يوم جمعة ، وكانت السماء تنذر بعاصفة ثلجية ، والموظفون يستعدون للانصراف باكرا بتشوق ولهفة . وفجاة صدرت الاوامر لأقل عدد ممكن من الموظفين بالبقاء في الاقسام التي تضم معلومات سرية لمساعدة رجال الامن الذين أخذوا يجوبون جميع غرف الوزارة بحثا عن المزيد من هذه الاجهزة الحساسة . وأثار هذا الحادث موجة من القلق والحذر . فالجهاز المكتشف لا يتجاوز في حجمه علبة عيدان الثقاب ويعمل دون الحاجة لتمديد أي أسلاك كهربائية . كما يمكن لصقه تحت أي منضدة من قبل أي من اولئك المستخدمين أو صغار الموظفين الذي لا يعيرهم الانسان أي اهتمام أو انتباه .

جرى تفتيش « مركز اللعب » (١) عند حوالي الساعة الثامنة مساء وهو وقت انتهاء الجلسة المبكرة . فالدوام الرسمي في المركز يبدأ من الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر ويمتد حتى منتصف الليل . وفي تلك اللحظات كان المشتركون في تلك الجلسة المبكرة ينظرون من خلال نوافذ الطابق الثاني عشر الى تلك الصفوف من السيارات المتلاحقة في شارع « كونيتكيت » ، وهم مرتدون لباس السهرة ، ويتبادلون أطراف الاحاديث التي تدور أثناء سهراتهم في جورج تاون . وفي تلك الاثناء أيضا ، كان أفراد الفريق الآخر الذين وصلوا لتوّهم لحضور الاجتماع المتاخر لمركز اللعب ، يخلعون معاطفهم ، ويشمّرون عن سواعدهم استعدادا لمساء حافل بالعمل المضني والجهد المستمر . وفي خلال ساعة من الزمن كان رجال الامن قد أنهوا تفتيش كافة أرجاء بناء الوزارة دون

---

(١) مركز التخطيط السياسي

أن يعثروا على أجهزة أخرى • الا أن احتمالية العثور على أنواع منها بقيت قائمة• وأثار هذا الحادث ـ العثور على جهاز الارسال تحت المنضدة ـ فينـا ميـلا الى التندر حول تلك المعلومات التي يحرص أحد أجهزة المخابـرات الاجنبيـة عـلى الحصول عليها ، عن طريق دس ذاك الجهاز المرسل تحت تلك المنضدة بالذات ـ لا غيرها ـ وما عساه أن يستفيد منها •

كانت الاوراق مبعثرة بين الملفات الكثيرة التي غطت سطـح المنضـدة • وحول تلك المنضدة بالذات ، كان يجلس مجموعة من الموظفين تملكهـم السـأم والملل • تارة يهمسون في آذان بعضهم البعض ، وأخرى تهز أصواتهـم ارجـاء القاعة وهم يتبادلون الادلة والبراهين • كما تجدهم أحيانا غارقين في صمـت عميق ينصتون بشغف وذهول الى أحدهم وهو يلقي عليهم بعـض البيانـات أو التقارير • وفي زوايا القاعة انتشرت أجهزة الهاتف بعيـــدا عن منضـــدة الاجتماعات ، بعضها ترن أجراسه دون التفات من أحد أو انتباه ، وأخرى تمسك أيدي بعض الرجال بسماعاتها وهم يرتدون أكماما اضافية عـلى سواعدهـــم ، ومجمّعين أكفّهم حول الجزء اللاقط للكلام منها علّهم يتمكنون من اسماع المتكلمين معهم وسط ذاك الهرج والمرج • كما ترى المساعدين وأمناء السر مقبلين ومدبرين وبين الفينة والاخرى تجد أحد المجتمعين يدعى للرد على الهاتف أو يضطر لمغادرة القاعة ليحل محله آخر ما يلبث أن ينزلق في مقعده وينثر الاوراق أمامه بكـل خفة ورشاقة •

ولن تتعدى المقتطفات التي تتسرب من القاعة عن طريق ذلـــك الجهـاز اللاسلكي المدسوس تحت طاولة الاجتماعات النماذج التالية :

« هل قام أحد منكم بمراجعة تلك الامور مع أولاد الكرملين ؟ »

« أين ذلك السمج ديغول ؟ كان يجب أن يكون حاضرا هنا منذ ساعة من الزمن » ، ••• « سنكون قد اضعنا نصف أوروبا قبل أن يفطن تيتـو الى آثـار زيارة ناصر لموسكو » •

ومن الصعوبة بمكان أن يفطن اولئك الذين ينصتون الى ما ينقله اليهم هذا الجهاز الى أن « تيتو » هذا ليس أكثر من انسان يرتدي بذلة أمريكية الصنع ، ويقص شعره على طريقة البحارة ، وله في ياقة قميصه بكلة أمريكيـة الشكـل والصنع • كما أن « ديغول » هو انسان اسمه « بيتر سيلـــر » ، و « انتونـي ايدن » هو « سيدني غرين ستريت » ، و « كونراد أديناور » هو تلـك الفتـاة

الجميلة التي تسرح شعرها للخلف ، وتعقده بشكل حزمة ورد أو كعكة جميلة ، وتضع على عينيها نظارات واسعة ذات اطار عريض • وأما أولاد الكرملين فقد وصلوا مؤخرا وفي أيديهم حقائب جلدية فاخرة ، وهم أفـراد من الجوقـة الموسيقية لجامعة « ييل » ، وعلى وشك أن يحجزوا غرفا في فندق « ستاتلر » بغية تمضية عطلة الاسبوع في مشاهدة احدى مباريات كرة القدم •

كان كافة العملاء والجواسيس الاجانب متشوقين للتنصت على ما يدور في جلسات « لعبة السلم » ، وسرعان ما قاموا بعد سنوات بمحاكـاة تلك الاجتماعات والمناقشات ولكن بشكل مضحك وهزيل وتحت اسم « تقرير من جبل الحديد » • وفي « مركز اللعب » ، كانت هناك مجموعة منتقاة من أبـرع الخبراء الذين تعاقدت معهم حكومة الولايات المتحدة للقيام بتمثيـل اتجاهـات السياسة العالمية وأزمتها ، محاولين معرفة نتائجها وتقييمها عـلى حقيقتهـا • وبالاستعانة بالتقارير والمعلومات التي كانت تصل تباعا من وزارة الخارجية ، والمخابرات المركزية ، والبنتاغون (وزارة الدفاع) ، وغيرها مـن المؤسسـات والوكالات الاميريكية ، كانت عدة مجموعات من الخبراء ، كل يمثل دولـة مـن دول العالم ، تحاول تحديد مواقف تلك الدول ، والخروج بحلـول مناسبـة للازمة الطارئة على الموقف بشكل اقتراحات عمل على مستوى الامة والدولـة • وتنقل تلك النتائج والاجراءات المقترحة بشكل مذكرات تذكر أن ذاك اللاعب (خبير أو مجموعة خبراء) الذي يمثل دور تيتو أو ديغول أو عبد الناصر يظن أن تيتو الحقيقي (أو ديغول أو ناصر) سيتحركون تحت ظروف مماثلة في هذا الاتجاه أو ذاك ، وستكون ردود أفعالهم في الشكل هكذا أو كذلك • ويحـاول ذاك اللاعب (الخبير) أن يذكر أيضا في سياق تقريره ان كان يتوقع أكثر من حل واحد للقضية الواحدة مع احتمال اسبقية حل على آخر • وتوضـع هـذه الاقتراحات والحلول ضمن ذلك السيل من المعلومات الواردة لتوزع بدورها اما الى العقول الالكترونية ، أو تترك فوق مكاتب بعض المسؤولـين الذين أتقنـوا دراسة صفات الشخصيات العالمية ، وأجادوا تمثيل أدوار الزعماء والقـادة الى الحد الذي لا يخطئون في توقعات أفعالهم وردود فعلهم الا نادرا جدا •

أما القواعد والاسس المتبعة في هذه « اللعبة » فهي :

أولا : الالتزامات الاخلاقية التي تؤخذ بعين الاعتبار هي تلـك التـي لا

تتعارض مع القواعد الاخلاقية لمختلف الدول الممثلة في « اللعبة » • أما قواعدنا الاخلاقية فلا نعيرها اهتماما الا عندما نحاول تحديد اتجاهات حكومتنا وردود فعلها • وليس للقاعدة الشهيرة « ان الخير هو الخير اينما ذهبت ، وان الشر هو الشر أينما حللت » التي يرددها رجال الكنيسة أي اعتبار في تخطيطنا هذا• لقد أنفقنا الساعات الطوال محاولين التعرف على الاسس الاخلاقية التي كانت تكمن حقا خلف اتجاهات وتحركات أي من الزعماء الوطنيين ، فما كنا لنتكل فقط على أقوال رجال الدين والسياسة أو تكهنات رجال الصحافة • ومع كل هذا فلم نكن لنهتم بهذا كثيرا كما لم نكن لنفكر في نعت هذا « بالخير » ووصم ذاك « بالشر » •

ثانيا : وكان الراي السائد أن أول اهداف أي زعيم وطني هو البقاء في السلطة ، وفي حال تعذر ذلك ، فانه يحاول أن يعتزل الحكم بأقل ما يمكن من التضحية بسمعته وشهرته الشخصية • الا أن هذا المقياس لا ينطبق على تلك الحفنة من الزعماء المخلصين الذين يضحون بأرواحهم ، وحتى بشهرتهم ، دون تردد في سبيل مصلحة أوطانهم العليا • الا انهم نزر يسير لا يسبب لنا اي ارتباك في دراساتنا وتقديراتنا • وغالبا ما تعطينا النظرة الواقعية لزعامة الانسان نتائج أفضل من تلك التي تعطينا اياها النظرة المثالية لها •

ثالثا : ونفترض ـ الا اذا ثبت العكس ـ أن تصرفات أي زعيم وطني تصدر عن اعتقاده المطلق أنه بهذا انما يخدم وطنه ويحقق اهداف أمته • كما يظن مخلصا أن قضيته قضية عادلة ومحقة ، وعليه أن ينقلها للعالم الذي سيصغي اليه باهتمام وانتباه • ولعل القارىء يذكر أحد أعضاء الكونغرس الاميركي عندما طغت العاطفة الوطنية عليه وهو يلقي احدى خطاباته ، فاتهم ديغول بانه « غير اميريكي » • وهكذا يجب أن يكون العرف السائد حول ديغول ونحن نمارس « اللعبة » • ان نعت ديغول بهذه الصفة لا يعني تصنيفه في عداد « الاخيار » أو « الاشرار » • فمفاهيم الخير والشر لا تحظى باي اهتمام منا ، اذ ليس عندنا رجال « أخيار » وآخرون « أشرار » • وكل ما يراه المرء هو مجموعة من خبراء التخطيط (اللاعبين) ، منهمكين في رسم خططهم ، واحراز النجاح بالطريقة التي تمليها عليهم ظروف تلك الدولة الممثلين لدورها أو مفاهيم ذاك الزعيم الذين يلعبون دوره في « مركز اللعب » •

ولا أظن أننا نحتاج لقواعد أكثر من ذلك ٠فالخبير الممثل للادوار (اللاعب) يزوّد بكافة الحقائق والمعلومات ـ التي يفترض معرفتها من قبل الدولة التي يمثل دورها ـ حول وضع ما ٠ وبناء على هذه المعلومات المتوفرة لديه ، وضمن القيود المفروضة عليه ، فان الخبير الممثل سيقترح اجراءات محدودة واضحة لاتخاذها في مثل تلك الظروف ٠ وقبل أن يصدر الخبير رأيه النهائي ، فان عليه أن يكون قد ألمّ تماما بنقاط القوة والضعف عند ذاك الزعيم ، كما يكون قد أدرك تماما خفايا سلوك ذاك الزعيم ، وتقصى جميع الحقائق اللازمة لانتحال دوره في « مركز اللعب » ٠ وتصدر الآراء النهائية بشكل تقارير ومذكرات ،ومن ثم تخضع للتنسيق مع المعلومات الاخرى الواردة باستمرار من وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية ، ووزارة الدفاع ، وغيرها من المؤسسات الرسمية ، لتكون كلها جاهزة بشكل « حقائق ومعلومات للقرارات » يعتمد عليها الخبراء انفسهم لاستكمال خطواتهم اللاحقة ٠

ومن الصعوبة بمكان الادعاء بصحة كامل المعلومات والدلائل الناتجة عن هذه « اللعبة » ٠ ان بني الانسان ، ومنهم كبار رجال الدولة والسياسة ، يسلكون مسالك يصعب على الآخرين التنبؤ بها مسبقا ، كما انهم قد يتحولون عن سلوك طرق يتراءى لغيرهم أنه لا مناص لهم من سلوكها ٠ لقد أعطت « لعبتنا » هذه نتائج جيدة حيال توقع وتقرير نتائج تحركات السوفييت في أوروبا، والتحركات المضادة لها من قبل الشعوب الاوروبية ٠ كما كانت « لعبتنا » موفقة في تحديد معالم الصراع الروسي الصيني ورسم أبعاده : هكذا ستتحرك الصين ، وهكذا سيكون الرد السوفييتي عليها ، وهكذا ستكون ردود الفعل العالمية تجاه كلا التحركين ٠ وعلاوة على كل هذا ، فان نسبة النجاح والتوفيق في « لعبتنا » لا تتجاوز ٨٥ بالمئة (وهي نفس نسبة نجاح تنبؤات مرصد غرينتش للتقلبات الجوية) ، وهذه النسبة كافية لتضع دراساتنا في طليعة غيرها من الدراسات التي نحصل عليها بطرق شتى ٠

كانت كامل دراساتنا لتحركات الدول الاوروبية ، وتوقعاتنا لردود فعلها ـ ومن ضمنها الاتحاد السوفياتي ـ سهلة وموفقة ٠ لقد اقتصر عملنا في هذا المضمار على تغذية العقل الالكتروني بكافة المعلومات الحديثة والصحيحة حول الشؤون الاقتصادية واتجاهات الرأي العام السائدة في تلك البلدان ، وحول

بعض العوامل المتغيرة باستمرار ، ثم تركه يتمثل تلك المعلومات ليصدر اقتراحات وقرارات . ولكن الامر كان عكس ذلك تماما بخصوص دراساتنا وتخطيطنا للاوضاع في الدول الافريقية والاسيوية . فلم يكن الاعتماد على العقول الالكترونية سهلا ، وذلك لافتقاد عنصر العقل والنظام في هذا الجزء من العالم . وكان اللجوء الى اعتبارات العواطف والنزعات الفطرية لبني الانسان التي لم نوفق للآن الى طريقة تضعها في شكل يمكن نقله للعقول الالكترونية أمرا ضروريا لا بد منه لرسم معالم المستقبل .

لقد كان انهيار نظام نكروما فوق طاقة أي عقل الكتروني للتنبؤ به . (فاعتقدنا أن الجيش الغاني أضعف من أن يقوم بحركة كتلك) . وكانت الادلة كلها تشير الى أن حكومة نوري باشا في العراق تتمتع بمناعة ضد انقلاب كالذي قام به عبد الكريم قاسم ، كما كانت تشير الى عدم قدرة الفيتكونغ على الاستمرار في القتال . وظلت النتائج خطأ بخطأ حتى بعد تزويد اللاعبين الممثلين لادوار أولئك القادة ــ الآنف ذكرهم ــ بكامل المعلومات المتوفرة حول عواطف ونزوات شعوبهم . ومع أن الدراسات التي أنجزت في « مركز اللعبة » لم تخرج بنتائج صحيحة ، الا أنها كانت من العوامل الرئيسية المساعدة لنجاح محللي وكالة المخابرات المركزية في ايجاد الاسباب الرئيسية لهذه الاحداث . ان رجال وكالة المخابرات المركزية يملكون أدق المعلومات وأحدث التفاصيل السرية حول الكثير من شؤون قادة العالم الحاليين وتحركاتهم ، وحول نيات زعماء المستقبل . الا ان هذه المعلومات السرية لم تكن تحت تصرف اللاعبين في مركز التخطيط ولهذا فلم يكن في وسعهم الوصول الى نفس النتائج الدقيقة التي وصل اليها رجال وكالة المخابرات ، والتي كان ينبغي أن ينتهي اللاعبون اليها قبلهم .

وعلى العموم ، فلقد أخفقت أحسن الوسائل المعروفة لتحليل المعلومات في الوصول الى دراسة عميقة تساعد على التنبؤ الصحيح حيال نيات وتحركات زعماء بلدان افريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية . لقد كانت تواجه هذه الوسائل ــ امثل المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وجهاز « اللعبة » وما شابه ذلك ــ أوضاع اقتصادية يائسة في تلك البلدان وهوة سحيقة تفصل بين الحقائق والاماني لا يمكن ردمها . كما ان شعوب تلك المناطق من العالم تعاني من خيبة امل مريرة تجعل بقاء الزعماء في الحكم أمرا غاية في الصعوبة ، الا اذا اعتمدوا

على الاساليب الغوغائية ، أو ابتكروا أساليب جديدة لابتزاز المساعدات من الدول الغنية • وباستثناء اولئك الزعماء الذين يعولون كليا على الاساليب الغوغائية وبالتالي يسهل التنبؤ بتحركاتهم فان البقية الباقية من زعماء شعوب تلك المناطق من العالم لا تخضع ممارستها لأدوارهم في «اللعبة» لأية قواعد ثابتة وانما يختلقون قواعد خاصة بهم ومميزة لاوضاعهم • وعلى سبيل المثال ، فان الرجل الذي يمثل دور ديغول في مسرحيات « اللعبة » ظن مرة أنه يلعب الشطرنج (وهي لعبة تعتمد على التفكير العميق والقواعد العلمية الثابتة) مع أحد زعماء الدول النامية (المتخلفة) ، ولكنه أدرك فجأة أن خصمه يلعب معه بعقلية مختلفة تماما • انها عقليةلعبة « التشكن » (لعبة الجبان) وليست عقلية لعبة الشطرنج • ففي لعبة « التشكن » يتسابق الاحداث المراهقون بسيارتين تتجهان نحو بعضهما البعض على طريق واحدة وبالسرعة القصوى • والفائز في هذه اللعبة هو ذاك المراهق الذي يبقى مسيطرا على أعصابه حتى اللحظات الاخيرة دون جبن أو خوف • وعندما يدرك تصميم الآخر على المواجهة ، ينعطف بسيارته جانبا قبل الاصطدام به بلحظات مخليا له الطريق بأكمله • ففي هذه اللعبة تنعدم الفرص بالنسبة للاعب الذكي الاستراتيجي ، وتبقى سانحة بأكملها لذاك المجنون المعتوه ، الذي قرر أن يركب رأسه ويستمر بالمغامرة حتى لحظات الاصطدام • وهكذا فان ديغول « اللاعب » يبقى حائرا حتى يكتشف هو وأمثاله من المشتركين في « اللعبة » طرقا جديدة للنجاح عندما تكون الاطراف الاخرى (خصومهم) من نوع لاعبي لعبة « التشكن » ، التي ــ على عكس غيرها من الالعاب كالبوكر والحرب والتجارة ــ ليس فيها أي مجال لاستخدام فن الخداع والمناورة •

ان السبب السابق كان في طليعة الاسباب التي تقلل من جدوى « اللعبة » كوسيلة فعالة في معالجة القضايا التي تمتُّ بصلة الى المناطق الواقعة خارج مجال « العالم الغربي » ، وفي تحديد التحركات فيها • وأما السبب الثاني فهو أن سيطرة الحقد والتحيز والجهل على بعض كبار المسؤولين تؤثر تأثيرا بالغا على قراراتهم النهائية ، مما يجعل أفعال حكومتنا وردود فعلها ، صعبة التوقع ، شاقة التحديد ، عسيرة الفهم • فقد يستحيل على جهاز « اللعبة » أن يطرق موضوع النزاع العربي الاسرائيلي أو مشكلة فيتنام أو روديسيا بنفس اعتبارات

الهدوء والاهتمام التي يتدبر بها التحركات السوفياتية في مناطق نفوذها • وكمثال على هذا ، فانه من الصعوبة بمكان استخدام العقل الالكتروني (الذي يعمل وفق قواعد علمية ثابتة) للوصول الى نتائج واضحة لمباراة تجري بين جون فوستر دالس وجمال عبد الناصر بنفس الطريقة التي يستخدم بها للتنبؤ بنتائج مباراة تجري بين جو لويس ومحمد علي كلاي (أبطال ملاكمة) •

ومما يزيد في غموض الطريق وتعقيد الأسلوب عند معالجتنا لشؤون العالم الافريقي والأسيوي هو ازدياد شكنا في طبيعة تحركات حكومتنا وردودها تجاه ما يظهر من تصرفات زعماء دول ذاك الجزء من العالم والتي لا تخلو من الحيرة والارتباك • وعلاوة على كل هذا ، فان أسبابا أخرى تمنعنا من اتخاذ المواقف الصحيحة التي تمليها علينا الدراسات التي يقوم بها جهاز « اللعبة » في مواجهة أمثال المشاكل السابقة الى حد يدفع باعتباراتنا للمصلحة الوطنية الى المرتبة الثانية بدل أن تكون في الطليعة • ان مسايرة الرأي العام ، والخضوع لضغوط بعض الفئات الانتهازية ، واضطرار رجال الكونغرس الى كسب تأييد دوائرهم الانتخابية عن طريق الاباحة بالمعلومات الحرجة أمامهم أو تركها تتسرب الى رجال الصحافة ، كل ذلك يدخل ضمن عداد تلك الأسباب المعوقة والمعرقلة • ولهذا يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار كل التصرفات الخاطئة لحكومتنا عند تحديد نتائج دراساتنا وتحركاتنا المقترحة • ومن هنا ننطلق في تحديد مدى تأثير تحركاتنا على غيرنا ، وفي التنبؤ بطبيعة ردود فعلهم تجاهها ، وفي اقتراح الاجراءات المضادة التي على حكومتنا القيام بها ، وبالتأكيد فاننا ننجز كل ذلك آخذين بعين الاعتبار والاهتمام تلك المفاجآت التي تثيرها الأسباب الآنفة الذكر ، وقاطعين عليها فرص افساد مخططاتنا في اللحظات الأخيرة الحرجة •

ومهما كانت العقبات التي تقف في سبيل كبار المسؤولين من « صانعي القرارات » (كتلك التي يثيرها الرأي العام الجاهل أو الغبي أو التي تصدر عن بعض الفئات بدافع من مصالحهم الخاصة أو التي تنشأ عن تمسك رجال الكونغرس بمناصبهم) فليس في نيتهم على الاطلاق ترك مستقبل وجودنا في افريقيا وآسيا وغيرها من مناطق العالم تحت رحمة اولئك الزعماء الذين أجادوا ممارسة لعبة « التشكن » ، وتفوقوا فيها • ان النظام الديموقراطي يضع قيودا عديدة على سلوك حكوماته تجاه العوائق الداخلية وعلى الأساليب التي تنتهجها

الحكومات لمعالجتهـــا ، ولكن ليس هناك أيّـًا من هذه القيود على السلوك أو الأساليب المتبعة خارج بلادنا . ولا يبقى في هذا المجال سوى قيد واحد ألا وهو « اعتبارات الفاعلية والنجاح » . فكل ما تتوفر له فرص النجاح فعلناه ، والا تخلينا عنه . وعندما يأتي دور « المبادىء الأخلاقية » على مسرح الأحداث ، فان تعديلات طفيفة تطرأ على ذلك القيد دون أن تقتلعه من جذوره أو تطيح بـــه بعيدا ، وعندها يتخذ التساؤل هذا الطابع : « هل يمكننا ان ننجح بالتنفيذ دون أن نخوض غمار معركة افتضاح وتعري ! » . ان كافة التوجيهات التي يزود بها رجالنا في السلك الدبلوماسي تبـــرز أهمية اتباع وسائـــل تعكس المبادىء الديموقراطية والقيم الأخلاقية للأمة كعامل أساسي لنجاح أية محاولة من محاولات الضغط على الحكومات الاجنبية .

ان الكشف عن نياتنا صراحة وعدم الدخول في معاهدات لا نزمـــع على الالتزام بها يجب أن لا يعني سوى حقيقة واحدة وهي أننـــا لم نعثر على أية مصلحة لنا في اتباع مثل هذا السلوك . وبالمقابل فاننا سنبذل المستحيل لكتم نياتنا الحقيقية أو للتحايل على نصوص أية معاهدات وقّعناها سابقا اذا ما لمسنا أن ذلك يحقق لنا مآربنا ويوصلنا الى غاياتنا ، شريطة أن ننجح في هذا دون الوقوع في مآزق محرجة أو التورط في مواقف فاضحة .

انني لا أحاول البتة أن أقف موقف المدافع عن مثل هذا النفاق والخداع ، فالحقيقة أنني لا أملك شعورا واضحا حياله وان كنت متأكدا من وجوده تماما . ان كلا من اللعبة التي نمارسها في « مركز اللعب » في واشنطن تحت ظروف مفتعلة ، و « لعبة الأمم » التي يقوم رجالنا في السلك الدبلوماسي وجنودنـــا بتنفيذها عبر البحار ــ باستمرار وكيفما اتفق ــ تعتبران من أبرز الشواهد على صدق كلامي . ولعل أبرز مثـــال على سلوكنا المزدوج ، واستراتيجيتنا ذات الوجهين « الأخلاقي واللاأخلاقي » هو تلك الطريقة التي تعاملنا بها مع عبـد الناصر ، رئيس الجمهورية المصرية .

ان من أول العناصر التي لمسنا ضرورة وجودها في مسرحيتنا توفر شخصية ما مثل عبد الناصر بالذات . وبعبارة أخرى ، فان « ناصرا ما » كان من ضمن العناصر الحيوية للمسرحية التي عزمنا على اخراجها . ولقد تأكد هـذا

الشعور جليا عندما بدانا نؤدي أدوارنا حول طاولة الاجتماعات ، وكنت يومها اقوم بتمثيل دور ناصر نفسه · لقد بان لكل من يملك احساسا مرهفا أن غياب دور ناصر سيفقد المسرحية توازنها ، وستبدو عندئذ كتمثيلية « هملت » وقد اختفى منها دور « بولينوس » ·

كان يتملكني شعور خاص ، وانا اجمع شتات قصة ناصر واعمل جاهدا لوضعها في صيغة قوانين ذات تطبيق عالمي ، ان نموذجا كجمال عبد الناصر كان من الأهمية بمكان بخصوص « اللعبة » واننا كنا ملزمين بالبحث عن مثيل له فيما لو لم يكن على قيد الحياة · أو أن زعيما مثله ، لا محالة ، سيبرز الى الوجود عاجلا أم آجلا ، وعلى الأقل ، لاستكمال أدوار « اللعبة » · ولقد تملك ناصر نفسه هذا الشعور بالذات عندما تحدث في كتابه « فلسفة الثورة » عن « دور على المسرح ينتظر لاعبا ليؤديه » ، وعن محاولته لتأدية ذلك الدور ·· وسألته مرة عن رأيه في نتائج محاولته تلك فأجابني : « انني لم انجح بعد في تأدية ذاك الدور » · ومع أن جوابه كان صحيحا فان المهم هنا ليس نجاحه في تأدية لدور قدر نجاحه في تحديد معالم الدور نفسه · ولقد قطع ناصر شوطا بعيدا في محاولته لتحديد معالم ذاك الدور بالرغم من اعطائه وصفا مضللا في كتابه « فلسفة الثورة » · ومهما كان فان معالم الدور قد أصبحت الآن في وضع لا لبس فيه ولا ابهام ·

والأمر الثاني هو أن « ناصرا » واحدا لم يكن يكفي لسد الفراغ على المسرح · فقد كانت « اللعبة » تقتضي ظهور أكثر من زعيم واحد من « طراز ناصر » وذلك لتأدية جملة أدوار في عدد من الدول الافريقية والآسيوية · ولم يخامرني شك في أن أي تقدم نحرزه في مسرحيتنا سيبقى رهينا لمدة غير قصيرة بتوفر لاعب من هذا النوع · فقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا التخلف المريع في جميع أبعاد الحياة في البلدان الافريقية الآسيوية هي اما ظهور قائد وطني رافعا لواء التحرر من الاستعمار ، معتمدا على الغوغاء لضمان البقاء في السلطة في الوقت الذي تتجه كافة الأوضاع داخل القطر نحو الانهيار والخراب ، أو ظهور قائد من النموذج العملي فيحاول الاعتماد على المساعدات والحماية الأجنبية له · الا أن الغوغاء ستنعته بشتى الصفات وأبسطها « أنه عميل للاستعمار » أو « صنيعة لموسكو » · ومنذ عام ١٩٦٠ ، كان يستبعد بقاء أي زعيم من هذين

النوعين السابقين في الحكم لمدة طويلة . فبعد أن شهد العالم سقوط نكروما وسوكارنو وفشل العديد من القادة السوريين والعراقيين ظهر أن العامل المؤثر في صمود أي من أولئك القادة في ظروف قاسية كالظروف السائدة في أقطارهم يعتمد على النسبة المئوية لتشابه انظمتهم مع « طراز ناصر في الحكم » . وكمثال على هذا ، فان ناصرًا نفسه كان متمثلا « لطراز ناصر في الحكم » بنسبة تسعين بالمائة وهي نسبة أعلى من تلك التي تتطلبها ظروفه الخاصة التى كان يحاول الصمود فيها . وأما نكروما فلم يتمثل أكثر من سبعين بالمائة من « طراز ناصر في الحكم » . الا أن ظروفه كانت في حاجة الى نسبة أعلى من تلك ، ولهذا لم يتمكن من الصمود أمامها . ومن هذا النوع ، كان كل من سوكارنو في اندونيسيا ، وعبد الكريم قاسم في العراق ، وكثير غيرهم . وأما الملك حسين في الاردن فانه لم يحاول أن يتمثل أكثر من أربعين بالمائة من « طراز ناصر في الحكم » ، الا أن ذلك كان أكثر مما تتطلبه ظروفه الخاصة ، وهذا ما ساعده على البقاء في السلطة حتى كتابة هذه السطور . ومع أن المثال الذي يتمثل مائة بالمائة من « طراز ناصر في الحكم » لم يتحقق بعد على الاطلاق ، فقد أظهرت الدراسات (التي شملت ناصرًا نفسه) أن مدى تمثل الزعماء « لطراز ناصر فى الحكم » يؤثر كثيرا على قدرتهم على البقاء في الحكم ، وعلى استمرار مشاركتهم الفعالة في « لعبة الأمم » . والأهم من ذلك أن طريقة ممارستنا للعبة مع ناصر نفسه (وحتى هذه اللحظة) يجب أن تلقنا دروسا قيمة في استراتيجيتنا لمعاملة أمثاله .

والأمر الثالث هو أنه بالرغم من الاعتراض الذي أظهره الوزير جون فوستردالس على الزعماء الذين عليهم مسحة من « طراز ناصر في الحكم » ، فقد اقتنعت حكومتنا أخيرا أن وجود هذا النوع من الحكام في السلطة أخف ضررا على مصالحها من وجود أي نوع آخر منهم مهما كان شكله .

لقد اعتادت حكومتنا على احترام استقلال الدول الأفريقية والآسيوية الى حد كانت تتغاضى في كثير من الأحيان عن سلوك بعضهم الطائش ما دام ذلك لم يمس مصالحنا بسوء . أما اذا كانت نتائج التزامنا بالمبادىء الأخلاقية خسارة مصالحنا وضياعها فان موقفنا سيكون العكس ، وستكون التضحية ، بدون شك ، على حساب تلك المبادىء الاخلاقية وليست على حساب مصالحنا .

وبصراحة أكثر ، فعندما كنا نضطر في بعض الأحيان لازاحة حاكم ما ثبت أن وجوده يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ مخطط لنا في أحد تلك البلدان الافريقية أو الآسيوية (وهذا ما كان يحصل فعلا في مركز « اللعب » في واشنطن في أحوال تفرض حتمية وجود جميع أولئك الحكام الأصدقاء منهم والخصوم) فإننا كنا لا نتردد في اللجوء لمثل هذه التدابير مهما كانت فداحة المخالفات الأخلاقية ٠

ومن البديهي جدا أن يكون خليفة الحاكم المخلوع على استعداد تام للسير وفق الخط الذي يضمن مصالحنا هناك ٠ ولقد اتفق الأميركيون والبريطانيون على معالجة شؤون الدول الافريقية والآسيوية من خلال هذه النظرات والمواقف٠ فكان الحكام من « طراز ناصر » يعطون الأولوية على غيرهم لأن استيلاءهم على السلطة يوفر أفضل الفرص ـ أو أقلها سوءا ـ لنجاح « لعبتنا » ٠ فكنا لا نعتبر نجاحنا في استمالة أي من أولئك الحكام الغوغائيين الذين جاؤوا الى السلطة في سوريا أكثر من مجرد نصر أجوف ، ذلك أنه سرعان ما يطاح به ليعقبه من هو أسوأ منه ٠ الا أن ناصرًا كان من نوع آخر تماما ٠ لقد اعتاد أن يتأقلم الى حد ما مع كل « ربح » نجنيه لصالحنا من خلال عدم اعتباره على أنه « خسارة » له ٠ وعلاوة على هذا ، فان لدى ناصر القدرة على أن يتخذ قرارات حاسمة في المواقف الحرجة ، تحقق لنا وله ، بعض المكاسب والمغانم دون أن يدع المجال لجماهير شعبه أن تراها على حقيقتها ٠ وكمثال على هذا ، احتمال التوصل الى اتفاق ما مع الاسرائيليين ٠ فالمبدأ القائل إن عدوا عاقلا (كيفما كان ذلك) خير من صديق جاهل هو ذاك المبدأ الذي نحرص عليه كل الحرص بل ونعضّ عليه بالنواجذ ٠

لقد أثار تمثيل دور ناصر فيّ اهتماما وتعلقا وليس فقط بالشكل الذي كنت أُؤَدّيه في ناطحة السحاب بواشنطن (وزارة الخارجية) بل وبالشكل الذي كان ناصر يؤديه بنفسه على الطبيعة في العالم ٠ لقد قمت بتمثيل دوره في « مركز اللعبة » في واشنطن مرارا وتكرارا وعلى فترات امتدت من صيف ١٩٥٥ وحتى ربيع ١٩٥٧ ، وكنت أثناءها أزاول مهام منصبي كمستشار للجنة تخطيط السياسة الأميركية في الشرق الأوسط في وزارة الخارجية ٠ ولقد أتاح لي منصبي هذا أن أقوم بزيارات عديدة الى القاهرة وبعض عواصم الشرق

الأوسط ، توفرت لي خلالها الفرصة لمقابلة ناصر نفسه ـ وغيره من زعماء المنطقة المعجبين به ـ واستعرضت معه تحركاته وتصرفاته • الا أن صلتي بناصر كانت أقدم من هذا التاريخ • فقد كان لي معه صلات عديدة في ظروف جيدة كما كان لي نفس الشيء مع عدد من زعماء الشرق الأوسط بنوعيهم الموالي لناصر والمناوىء له • ومع أن ناصرًا كان يتصف بمسحة من الغوغائية (كغيره من باقي زعماء الشرق والغرب) الا أنه كان يتمتع الى جانب ذلك بموهبة أخرى جعلته يفوز في « اللعبة » على جميع اللاعبين بما فيهم الولايات المتحدة نفسها والاتحاد السوفييتي ، باستثناء اسرائيل •

وكانت تعتريني الدهشة عندما كنت أقارن بين القرارات التي اتخذتها في « مركز اللعبة » بواشنطن وبين قرارات ناصر نفسه التي كان يصدرها على الطبيعة فعلا ، فأجد أن الأولى « أسوأ » من الثانية من وجهة نظر المحافظة على المصالح الغربية • وحدث هذا فعلا قبل أسبوع واحد من بدء أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ • فقد استشارني يومها نائب مدير المخابرات المركزية فيما اذا كنت أتوقع أن يقوم ناصر بتأميم قناة السويس اذا أقدمت الولايات المتحدة على سحب عرض تمويلها لبناء السد العالي • وأجبته يومها أنني قد قمت بتأميم قناة السويس منذ بضعة أشهر استنادا الى دور ناصر الذي كنت أمارسه في « جهاز اللعبة » ، الا أن ناصرًا الحقيقي لم يفعل ذلك حتى ذلك الوقت ، ولهذا لا أدري ما الذي سيفعله ناصر حقيقة في تلك اللحظة ! وعندما أتيحت لي الفرصة مؤخرا أن أبحث مع ناصر نفسه قضية قناة السويس ، تبين لي أنه كان يتوقع ردود فعل انكلو ـ أمريكية على مستوى أقسى بكثير من التي راودتنا نحن فعلا في واشنطن • لقد كان بامكان ناصر أن يكون أجرأ بتحركاته لو أنه كان يحتل مكاني في مركز اللعبة في واشنطن وقد تجمعت أمامه على طاولة الاجتماعات كل المعلومات والدراسات التي كانت تحت تصرفي يومئذ •

لم نكن نهتم بالعثور على صيغة لمعادلة توصلنا الى نجاح مستمر الا مع «طراز ناصر» من الزعماء •فلو أننا اكتشفنا فعلا طريقة محددة للتعامل مع ناصر فسيعني هذا أننا قد أحرزنا تقدما ملموسا في مضمار علاقاتنا مع كثير من حكام دول افريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية ، بل ومع كثير من الزعماء المتوقع ظهورهم حتى أواخر هذا القرن • ولا مانع الآن من أن نحاول اعطاء تفسير واضح لما

نعنيه بعبارة « نجاحنا » ٠

كان ناصر وضباطه يميلون للاعتقاد أن « لعبتنا » هي من النوع الذي حاصله دائما مساويا للصفر ٠ وبعبارة أخرى ، فان أي ربح يجنيه الطرف الأول انما يعني خسارة تكبدها الطرف الثاني بالتأكيد ٠ وعليه فان حاصل عملية الجمع يكون دائما مساويا للصفر ٠ ففي لعبة البوكر - وهي من النوع الذي حاصل الجمع فيه مساويا دائما للصفر - يكون حاصل جمع الأرباح (كمية موجبة) والخسائر (كمية سالبة) لكل اللاعبين وفي أية لحظة من لحظات استمرار اللعبة مساويا للصفر تماما، وبنفس الطريقة ، فعندما بدأت الحكومتان الأمريكية والمصرية لعبتهما حول المساعدات المالية ، كانت الأولى تظن أن المبلغ سيكون في حدود أربعين مليونا من الدولارات ، في حين كان ناصر يحلم بمبلغ أكبر من ذلك ٠ فلو أن ناصراً نجح في الحصول على ستين مليونا من الدولارات من الحكومة الأمريكية ، فيكون في هذه الحالة قد حقق ربحا صافيا في حدود عشرين مليونا من الدولارات ٠ وبنفس الوقت تكون الحكومة الأمريكية قد تكبدت خسارة محققة في حدود نفس المبلغ ٠ وهذا ما كانت عليه نظرة ناصر لمبدأ الربح والخسارة ، وللحاصل المساوي للصفر دائما ٠

الا أنه حقا لم يكن يخطر ببالنا مثل هذه الهواجس ٠ فقد كان اعتبارنا لهذا النوع من « اللعب » على أنه شبيه بحالة مجموعة من رجال المظلات ، الذين هبطوا خلف الخطوط وفقدوا الاتصال فيما بينهم ، ويحاولون اعادة تنظيم تشكيلاتهم باجراء حساب للسلوك والتفكير المحتمل لكل منهم ٠ كما يمكن اعتبار هذا النوع من « اللعب » على أنه مماثل لحالة رجلي أعمال يتفاوضان على صفقة يستفيد منها الطرفان معا ٠

ولا تقتصر « اللعبة » على هذا النوع من التشبيه وضرب الأمثال ٠ فقد عبرَّ أحد رجال الأعمال الأمريكيين عن طبيعة هذه « اللعبة » عندما خاطب وزير صناعة ناصر بفظاظة قائلا : « انها شبيهة بالصراع الذي يقوم بين الأم التي تحرص على أن يشرب طفلها الحليب ، وبين الطفل الذي يأبى ذلك ويرفضه باصرار » ٠ الا أننا لا نعتبر « لعبتنا » سوى من ذلك النوع الذي ، مهما اشتد واحتد ، تخرج منه جميع الأطراف في النهاية غانمة سالمة ٠

ان أي تقصٍّ موضوعي لسلوكنا في « لعبة الأمم » يظهر بكل سهولة أن

الحقيقة ليست الى جانب أي منا • فعندما منحنا ناصرًا اربعين مليونا من الدولارات كمساعدة مالية له ، فاننا لم نكن لنبخل عليه بأكثر لو كان ذلك في استطاعتنا• لقد فكرت وزارة الخارجية برفع قيمة المساعدات الى حدود المئة مليون دولار ، الا أن تحوفها من هبوب عاصفة من الاحتجاجات ضدها في الكونغرس قد أثنى عزمها هذا •

وبنفس الوقت ، لمّ تكن نظرتنا الى موضوع حصول ناصر على مبلغ الستين مليونا أو الأربعين مليونا من الدولارات على أنه خسارة لنا وربح له ، بل كانت نظرتنا للمساعدة على أنها فائدة للطرفين معا • ومن جهة أخرى ، فان دفع مثل هذه المبالغ ما كان ليتم لولا أملنا في أن يحقق لنا بعض المصالح ولو بخسارة محدودة يتكبدها الشعب المصري • ومع أن هذه الخسارة لن تكون فعلا جسيمه ، الا أننا قد اصررنا على اخفائها بل وانكارها لضرورة دبلوماسية • فالحقيقة الكامنة وراء كل هذه المساعدات هي تحقيق مصالحنا بالدرجة الأولى ، وهذا ما نأخذه دوما بعين الاعتبار عند تخطيط استراتيجيتنا في أبراج وزارة الخارجية في واشنطن • ان أية مغانم يحققها الطرف الآخر ، سواء أكانت خيالا أم واقعاً ، لن تكون مقصودة أبدا ، كما أنه لا يستبعد أبدا أن تكون طعما في يد صياد يغري بها فريسته حتى تقع في شباكه •

الا أن زكريا محي الدين (وهو أذكى رفاق ناصر وكان قبل فترة قصيرة نائب رئيس الجمهورية العربيه المتحدة) دافع عن مبدأ « اللعبة » ورأى أنه حتى في الحالة التي يكون فيها حاصل مجموع الخسائر والارباح مساويا للصفر ، فان فوائد كثيرة تجنيها كل الأطراف المشتركة في اللعبة • فالجميع راغبون في تجنب الحروب ، وفي تحسين الأوضاع الاقتصادية وتنمية العلاقات الاخوية بين شعوب بني الانسان • وهم في حالتهم هذه يشبهون الى حد كبير مجموعة من لاعبي البوكر الذين تجمعهم الرغبة العامة في تسلية أنفسهم والترفيه عنها ، متجنبين اتباع أساليب الغش والخداع ، أو الاحتكام الى منطق القوة عند نشوء خلافات بينهم • كما قال أيضا ان البشرية المتحضرة تشترك بأهداف جامعة واحدة • الا أن اجتهاداتها المختلفة حول الطرق الموصلة الى تلك الأهداف هي التي أوجدت التفاوت بينها في وجهات النظر • (وقد ألقى هذا الكلام على طلابه في كليه أركان الحرب المصرية) • وهكذا حقا كانت طبيعة الخلافات المصرية

الأميركية وطبيعة « اللعبة » التي دارت بين الزعماء المصريين والأميركيين ٠

ومهما تحدث الزعماء المصريون عن طبيعة النزاع بينهم وبين الأمريكيين ومهما أضفوا عليه مسحة من الأخلاق والأميرة، وصوروه على أنه يضم في طياته كثيرا من المصالح المشتركة للشعبين معا ، فان حقيقة الأوضاع كانت على عكس هذا تماما ٠ لقد لمس هذا عديد من رجالنا في السلك الدبلوماسي ورجال الأعمال الأميركيين الذين كانوا على احتكاك مباشر مع المصريين أنفسهم ٠ فلم تكن النظريات التي وضعتها كـل من أجهزة توماس شيلنغ ومورتن كابلان وغيرهما (لتستخدم في رسم قواعد لعبة الشعوب واستراتيجية الصراع) تنطبق على هذا الجزء من « لعبة الأمم » ٠ فالنزاع المصري الأميركي هو من النوع الذي يظهر فيه بوضوح لا ابهام فيه ، تضارب المنافع ، واصرار كل طرف على تقديم مصالحه على الآخر ، واتباع أكثر الوسائل حيلة ودهاء للوصول الى الغايات والقيام بتضليل الآخر ما استطاع الى ذلك سبيلا ٠ وهذا ما دفعني الى نشر هذا الكتاب ٠ ان كل ما كتبه الاميركيون والبريطانيون حول علاقاتهم بالدول الافريقية والآسيوية غير المستقرة لم يلق ضوءا على خفايا هذه العلاقات أو على أساليبنا المتنوعة والملتوية لاستمالة حكام تلك البلدان ، وسبب ذلك هو تعارض هذه الأساليب مع ما اعتادت حكوماتنا أن تطرحه على شعوبها ، وعليه فان هدف نشر الكتاب هذا هو محاولة سد النقص فى كتابات غيري وتلافي عجزهم في عرض الوقائع والأحداث ٠

وفي ختام هذا الفصل الأول أرجو أن لا ينظر الى هذا الكتاب على أنه يختص بعلاقاتنا مع ناصر بالذات دون سواه ٠ فالكتاب مليء بالعينات التاريخية لتعطي دروسا ذات تطبيق عام في العلاقات بين الولايات المتحدة وبين أي زعيم خارج العالم الغربي يتوقع أن يلعب دورا ليس قليلا في العلاقات العالميـة في المستقبل ٠ ومع أن الحديث حول ناصر قد شغل مساحة لا بأس بها من صفحات هذا الكتاب ، فانني قد بذلت قصارى جهدي في معالجة نواحي سلوكه التي أتوقع أن تكون مشتركة مع غيره من الحكام في الأقطار الافريقية والاسيوية شريطة أن يكونوا « النموذج الناصري » ، وأن تكون الظروف السائدة في داخل أقطارهم اقتصاديا واجتماعيا كتلك الظروف البائسة السائدة في مصر ، وأن يتفاعلوا بالضرورة مع التحركات التي تقوم بها كل من الولايات المتحدة وبريطانيا ضمن نطاق « لعبة الأمم » ٠

- ٢ -

مخططاتنا قيد التنفيذ في سوريا

١٩٤٧ - ١٩٤٩

اذا لم تربح المباراة فغيّر اللاعبين

بعد ظهر أحد الأيام الباردة من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٤٧ اتصل السكرتير الأول في السفارة البريطانية في واشنطن ، وكان يومها « سيشل » ، ب «لوي هندرسن» مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وافريقيا وطلب منه مقابلة لسبب هام . وقد حدث هذا قبل سنه واحدة من تأسيس « مركز اللعب » في واشنطن . وفي تلك المقابلة ، قام سيشل بتسليم هندرسن رسالتين على جانب من الأهمية صادرتين عن « القسم الأجنبي » في السفارة البريطانية . وكانت الأعراف الديبلوماسية تقضي أن يقوم السفير البريطاني نفسه بتسليم أمثال تلك الرسالتين الى وزير الخارجية مباشرة . الا أن جورج مارشال -وزير الخارجية يومها- كان قد غادر مكتبه مبكرا لقضاء عطلة الأسبوع خارج واشنطن ولهذا فقد اقترح سيشل أن يقوم بنفسه بتسليم هاتين الرسالتين الى هندرسن ويتباحث معه بشأنهما حتى يكون أمام موظفي وزارة الخارجية وقتا كافيا لدراسة الرسالتين خلال عطلة الأسبوع ، وتقديم لمحة عن مضمونهما لوزير الخارجية قبل التقائه بالسفير البريطاني صباح الاثنين .

وصل سيشل الى وزارة الخارجية والموظفون يستعدون للانصراف لقضاء عطلة الأسبوع . واعتاد هندرسن أن يبقى لوحده في مكتبه حتى ساعة متأخرة من المساء . وهكذا كان الهدوء المخيم على جو المكتب ملائما تماما لتسليم أمثال تلك الرسالتين اللتين كانتا تتضمن أنباء صاعقة .

وهذا ما حدث فعلا . فقد كانت أخبار الرسالتين تشير الى عزم بريطانيا على انهاء وصايتها (التي دامت ما لا يقل عن قرن من الزمن) على بعض أرجاء العالم . فحكومة جلالة الملك تواجه أزمة مالية ، ولهذا فانها لن تتمكن من تحمل أعباء مقاومة المد الشيوعي في كل من تركيا واليونان ، والتي تقدّر ماليا

بخمسين مليونا من الدولارات · وتخشى بريطانيا في الوقت نفسه أن يتمكن الشيوعيون من فرض سيطرتهم على اليونان عن طريق حرب العصابات ، وعلى تركيا عن طريق هجوم عسكري مباشر · وكان على الولايات المتحدة الامريكية أن تبادر الى سد هذا الفراغ قبل أن يسبقها الاتحاد السوفياتي اليه · الا أن هندرسن لم يكن ليحتاج الى أيام عطلة الأسبوع حتى يدرك ما تعنيه أنباء هاتين الرسالتين وما يترتب عليه أن يفعله بعد ذلك · فالخطر الشيوعي لا يهدد بالزحف على اليونان وتركيا فقط بل وعلى كل أوربا الجنوبية خارج الستار الحديدي وعلى شمال افريقيا والشرق الأوسط · ومع أن أخبار الرسالتين قد سببت بعض القلق لهندرسن ـ وقد اعتذر سيشمل له على ذلك ـ الا أنها قد أشعلت الضوء الأخضر أمام الحكومة الأمريكية لتصبح دولة ذات تأثير فعال في شؤون العالم · كما أظهر الاتحاد السوفياتي على أنه سيكون مصدر تهديد متزايد للسياسة العالمية ، وربما سيفوق المانيا النازية في هذا ·

لم تكن برودة ذلك اليوم بسبب رداءة الطقس فحسب ، بل.شاركت في ذلك رداءة الأحوال الاقتصادية التي باتت تهدد فرنسا وايطاليا الى جانب بريطانيا بسيطرة الشيوعيين · ففي شتاء ١٩٤٧ عانت بريطانيا من نقص فادح في موارد الفحم بسبب سوء الأحوال الجوية ، وتراكمت الثلوج الى حد أعاقت وسائل النقل كليا ، وتسببت في اتلاف محصول الشتاء من القمح · ونتج عن هذا كله توقف معامل عديدة عن العمل ، وترك حوالي خمسة ملايين عامل بدون عمل ·· وزادت مشكلتا التأمين الاجتماعي وتخفيض ساعات العمل الحكومة البريطانية ارهاقا فغدت أعجز من أن تعالج مشاكلها الداخلية · وكانت نتيجة كل ذلك اننا أصبحنا وحيدين على مسرح الأحداث العالمية نواجهها بالطريقة التي تتطلبها « لعبة الأمم » حديثا · ولم يكن بمقدور بريطانيا أن تقدم أكثر من اسداء النصح لرجالنا في السلك الدبلوماسي وفي مجموعة المخابرات المركزية ·

ومن عجيب المفارقات ، أن وزير الخارجية جورج مارشال كان قد قصد برينستون ليلقي أول خطبه، امام حشد من الشباب الأمريكي ، موضحا الدور الذي بات على الولايات المتحدة أن تلعبه في العالم بعد أن تغلغلت في كل أركانه جغرافيا ، وماليا ، وعسكريا ، وعلميا · ودعا الامريكيين ، حيال وضع كهذا ، أن يرتفعوا الى مستوى مسؤولياتهم لضمان أمن وسلامة العالم · وانتهى

الوزير مارشال من القاء خطابه صباح ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ وهو لا يدري شيئا عن مضمون تلك المذكرتين الديبلوماسيتين اللتين أرسلتا الى وزارته في اليوم السابق · وفي أثناء ذلك ، اتصل لوي هندرسن بوكيل وزارة الخارجية « دين اتشيسون » واستدعاه من مادبة عشاء في احدى سفارات دول أمريكا الجنوبية ليعرض له مضمون الرسالتين ويتباحثا في الأمر · وأمضى الاثنان وقتا طويلا في دراسة القضية وبقيا حتى وقت متأخر من الليل · وفي صبيحة اليوم التالي عقدا اجتماعات ومباحثات مع معظم رؤساء دوائر وزارة الخارجية وكبار موظفيها · وعندما حل يوم الاثنين ، كان مرؤوسو وزير الخارجية جورج مارشال قد امضوا يومين من العمل المضني في دراسة مختلف جوانب القضية · وقام بعدها وكيل الوزارة دين اتشيسون بدعوة « جورج كينان » الى وزارة الخارجية ليقوما معا بتشكيل لجنة خاصة مهمتها وضع الخطط التي تتناسب والظروف الجديدة المفروضة عليهم · وكان جورج كينان يومها يمضي بعض الوقت في الكلية الحربية الوطنية بعد مهمة رسمية موفقة في موسكو احتل فيها منصب نائب رئيس البعثة الدبلوماسية الأمريكية هناك ·

لم تهتم وزارة الخارجية بابلاغ أنباء الأزمة هذه الى مجموعة أجهزة مخابرات أسلحة وزارة الدفاع (الجيش ، البحرية ، سلاح الجو) والى جماعة المخابرات المركزية (التي انبثقت منها وكالة المخابرات المركزية فيما بعد) الا بعد مضي ساعات طوال كانت كفيلة بتسرب بعض اخبارها الى الصحافة · وكان هذا التأخير سببا في احتدام الصراع ثانية بين مختلف أجهزة الدولة · فمنذ مدة قام البنتاغون (وزارة الدفاع) بحملة مركزة على طبقة رجال المخابرات الذين التحقوا بالمجموعة الجديدة بعد انتهاء خدمتهم من « دائرة الخدمات السرية » السابقة والتي أسست للعمل في اوربا أثناء الحرب العالمية الثانية · وقد نعتتهم وزارة الدفاع بانهم زمرة رجال فاشلين اضطروا للبقاء في سلك المخابرات بعد أن اخفقوا في العودة الى مقاعد الدراسة لرفض الجامعات لهم · ووجهة نظر وزارة الدفاع ان امورا وازمات كهذه لا يمكن مواجهتها الا على مستوى عملي عال ، وهذا لا يتوفر الا ضمن الذين يخضعون الى نظام عسكري قدير ·

ولا أزال اذكر جيدا المشاكل الادارية التي كانت مثار خلاف في المعركة التي دارت رحاها في واشنطن ، وفي شهر شباط (فبراير) بالذات · فقد كنت

يومها عضوا في اللجنةالاستشارية للشؤون الادارية التي أوكلت لها مهمة السيطرة على الفوضى السائدة آنئذ في سلك أجهزة المخابرات واقتراح الحلول لها • كما أنني أذكر تماما ذاك التصريح شبه الرسمي الذي أدلى به أحد كبار المسؤولين عن جهاز المخابرات العسكرية التابع للجيش ويذكر فيه أن الضرورة المفاجئة لتدخل الولايات المتحدة كطرف في الحرب الباردة قد خففت من خطر ابتلاع وكالة المخابرات المركزية الجديدة للعاملين في أجهزة مخابرات الحكومة لما وراء البحار ، وعلى أية حال ، فان الادميرال سيدني ساورز ، مدير المخابرات المركزية ، قد ربح المعركة في مجال التنظيم الاداري وملاكاته الى حد أن الجهاز الجديد للمخابرات المركزية قد اضطلع بكافة المسؤوليات ، وحصل على كل الصلاحيات . بشكل أصبح معه يتمتع بقدرة جيدة على القيام بكل الأعباء التي توكل وزارة الخارجية له تنفيذها •

ويسهل على من يؤرخ حادثة بعد وقوعها بعشرين عاما ، أن يلم برعونة كل من كان طرفا فيها • فالجميع يقرون بأن الحوادث التي كانت تعتبر في الأربعينيات ذات أهمية تاريخية انما كانت تعالج من قبل أشخاص مدفوعين باعتبارات اقليمية • كما يقرون أيضا بأننا لو لم نظهر ضعفا في مؤتمر يالطا ونسحب قواتنا من أوروبا قبل اتضاح نيات السوفييت ومخططاتهم،لكنا الآن في غنى عن جميع مشاكل الحرب الباردة الحالية • ولكن جميع الأشخاص الذين كانوا مسؤولين عن اتخاذ مثل تلك القرارات بعد الحرب ــ والتي تبدو الآن وكأنها تصرفات طائشة حمقاء ــ يتذكرون أنه لم يكن من المستطاع سلوك غير ذلك الطريق تحت وطأة تلك الظروف • ولقد بدأت الآن تتضح معالم لعبتنا » مع السوفييت بعد قرار البريطانيين بالانسحاب من تركيا واليونان الذي أبلغنا عنه في حينه • الا أن قضايا عديدة ما تزال غامضة لمؤرخي تلك الحقبة من الزمن مع أنها هي التي كانت تحول دون اتخاذ القرارات المناسبة •

فمن جهة أولى : كان هناك تناقض ضروري بين سياسة حكومتنا الظاهرة للرأي العام في القضايا الدولية ، وبين وجهت نظر اولئك الذين يقبعون خلف جدران وزارة الخارجية والدفاع • لقد أرسل جورج كينان نائب رئيس بعثتنا الدبلوماسية في موسكو رسالة الى وزارة الخارجية في أوائل ١٩٤٦ لخصت بدقة فائقة معالم وحدود الحرب الباردة التي بدأت تستعر يومها • ولقد منحت

تلك[١٠] الرسالة كل اهتمام وتقدير ، واعتبرت تحليلا دقيقا لنيات السوفييت ولمواقفهم وسلوكهم المحتمل ٠

وفي خطاب ألقاه في فولتن بولاية ميسوري ، عبّر ونستون تشرشل عن هذا الوضع بوضوح عندما استخدم فيه عبارة « الستار الحديدي » ٠ وكان حضور الرئيس ترومان لتلك المحاضرة اشارة الى موافقة الحكومة الامريكية على الموقف البريطاني ٠ وبالرغم من هذه الهفوة فقد بقيت حكومتنا تتظاهر بسياستها الرسمية التي تسير على هدى « روح التفاهم التي سادت مؤتمر يالطا » ، وكانت ترى أن الأمم المتحدة تتمكن من حفظ الأمن في جميع أنحاء العالم بتعاون وتفاهم القوى العظمى المحبة للسلام ٠ الا أن كافة تقارير الحكومة الممهورة بخاتم « سري للغاية » تشير الى عكس ذلك تماما ٠ وبدا للعيان أننا نتجه بخطى واسعة نحو حرب باردة مع السوفييت ٠ وبدأ هذا ينعكس على جميع نواحي حياتنا الى الحد الذي اضطررنا معه أن نطلق أسماء مغايرة على الدوائر المختصة بشؤون الستار الحديدي اخفاء لها وتمويها ٠

وكانت العقبة الثانية هي النقص الفادح الذي كنا نعانيه في عدد الأشخاص المؤهلين لخوض غمار حرب أطلق عليها الادميرال « ساورز » ، مدير المخابرات المركزية ، اسم « الحرب التي لا كالحروب » ٠ وقد واجهنا هذه العقبة فعلا عند محاولتنا الحلول محل المخابرات البريطانية في اليونان وتركيا مع أننا كنا نملك رصيدا ضخما من هذه العناصر في أوروبا ٠ وبقي قسم الشرق الأدنى وافريقيا في وزارة الخارجية ركيكا وضعيفا جدا ٠ ولم يكن وضع المخابرات المركزية ووزارة الدفاع أصلح من هذا ، فكافة رصيدهم لم يتعد بعض علماء الآثار والمبشرين من مختلف الجنسيات الذين كانوا يتلقون التوجيهات من قبل أساتذة الجامعات المتقاعدين ٠ وكان هناك خليط من رجال الاعمال الذين ينتدبون لبعض مهمات المخابرات الاعتيادية أو لبعض مهمات ديبلوماسية ما وراء الكواليس ٠ وكان علينا اذن أن نبدأ بحملة تجنيد واسعة وسريعة حتى نتمكن من تحمل مسؤولياتنا في تلك الأرجاء من العالم ٠ الا ان تحديداً واضحا وصريحا لما ننوي تحقيقه وتنفيذه يجب أن يتصدر قائمة الواجبات الأساسية ٠ وعلى وجه التحديد : كان سد الفراغ الذي نتج عن انسحاب البريطانيين من اليونان وتركيا والذي بالتالي أوجد فراغا في كل

رجاء الشرق الأوسط من صمن أهدافنا الرئيسية • وقد اقتضى هذا أن نبدأ « لعبتنا » التي كانت حكومات دول المنطقة الشاغرة من النفوذ أطرافا فيها • وسبب ذلك أن السوفييت لم يكونوا بعد قد اتخذوا مقاعدهم حول طاولة اللعب (لم يكن التدخل السوفياتي قد بدأ يومها) • وكانت هذه «اللعبة» لعبة تعاون من جهة ونزاع من جهة أخرى ، واصبحت قراراتنا مرتبطة بأهدافنا في المنطقة ومتأثرة بمدى تعارض مخططاتنا مع تطلعات كل من تركيا واليونان وبقية دول الشرق الأوسط • وانتقل هذا التعارض والخلاف الى داخل وزارة الخارجية واللجان المشرفة على التخطيط فيها • فلا أزال أذكر عندما خاطبني أحد المسؤولين عن التخطيط في وزارة الخارجية وهو في أوج غضبه قائلا : « اننا لا نملك أية أهداف وأننا لا نواجه هناك سوى مشاكل » • فمن هذه المشاكل ما كان مصدره النوايا الصهيونية لخلق دولة اسرائيل واصرار العرب على رفضها • ومنها ما مصدره الخلاف مع الحلفاء حول الدور الذي يجب أن تلعبه دول الشرق الأوسط في خطط الدفاع للمستقبل ، والدعم السياسي لشركات البترول الأميركية التي كانت في نمو مستمر واتساع متزايد هناك • ومهما كان ، فلقد برزت أهدافنا أخيرا في شكل محدّد وكان منها ما يلي :

١ ــ تجنب أي احتكاك مباشر بيننا وبين السوفييت نتيجة اشتباكات اقليمية في المنطقة •

٢ ــ تقوية حكومات المنطقة عسكريا وسياسيا الى حد تتمكن معه من المساهمة الفعالة في مجهود العالم الحر للوقوف في وجه الشيوعية الدولية •

٣ ــ خلق ظروف ملائمة تفسح المجال أمام التغلغل التجاري والتوظيف المالي للاميركيين •

لم نكن نواجه في سنة ١٩٤٧ سوى مشكلة النزاع العربي الاسرائيلي • وكنا والسوفييت نرى أنه ما نزال في وضع مبكر لاظهار تأييدنا لطرف دون آخر • وفي الوقت الذي كانت الظروف السائدة في منطقة الشرق الأوسط تبدو مناسبة جدا للاستثمارات المالية والتجارية الأميركية ، بدأ يساورنا القلق حيال احتمال رفض الحكومات العربية لتوجيهاتنا السياسية والعسكرية • ولهذا فان تجاوب سكان المنطقة معنا كان عاملا مهما لاحراز أي تقدم في مجال تحقيق

رغباتنا وكان يجب ان يتوفر هذا منذ زمن بعيد لولا وجود عجز في قيادات دول الشرق الأوسط ٠

كانت مشكلتنا الرئيسية في دول الشرق الأوسط فقدان القيادات الذكية التي تتمتع بقسط وافر من الخبرة والحنكة في ادارة الأمور وتقدير مصالح بلدانها والتي هي على مستوى رفيع من النزاهة والشجاعة الكافيتين لتحقيق كل ذلك ٠ وبهذه الطريقة دون غيرها يمكننا أن نحقق أهدافنا مهما كان لونها وشكلها ٠ ونتيجة لذلك فقد بدأ تركيزنا على فسح المجال أمام وصول « النوع الملائم » من القيادات الى السلطة وتسلمها مقاليد الحكم في داخل أوطانها بينما نكون قد انجزنا دراسة مخططاتنا وحدّدنا أهدافنا في المنطقة بكل دقة ووضوح ٠

كانت قواعد « لعبة الأمم » تملي علينا أن نبذل قصارى جهدنا لاحراز التقدم والنجاح ضد المناوئين لنا ولكن لصالح الموالين لنا ٠ فاذا تعسرت الخطوات وسدت المنافذ كان لا بد بعدها من تعديل اعتباراتنا لأسباب النجاح وطبيعته ٠ فاذا لم تكف هذه الخطوة كان لا بد بعدها من اللجوء الى تغيير اللاعبين الذين يشكلون حجر عثرة في طريقنا واستبدالهم بآخرين أكثر انسجاما مع الظروف الراهنة ٠ ومذكرات الحكومة الأميركية عام ١٩٤٧ أشارت بوضوح وتأكيد الى أن أجهزة المخابرات والسلك الديبلوماسي كانت على وشك القيام بتغييرات في قيادات بعض دول الشرق الأوسط ٠ والمؤرخون الذين يحاولون الوقوف على الدوافع التي كانت خلف مخططاتنا أثناء تلك الفترة من التاريخ كانوا يتغاضون عن الحقيقة التالية : ان التفكير المثالي ومحاولة الالتزام بالمبادىء لم تختف نهائيا ليحل محلها الأسلوب الواقعي للعمل الذي يتمثل في التجسس والاستفادة من التسهيلات التي يقدمها العمل السياسي السري وذلك لمجابهة الروس بنفس طريقتهم في العمل ٠ ان أي تفحص لوثائق وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومجموعة المخابرات المركزية (التي أصبحت بعد ذلك وكالة المخابرات المركزية) تظهر مثاليتنا في العلن وانتهازيتنا في السر ٠ ولكن كل من شارك في « لعبة الأمم » يذكر أننا لم نكن فعلا انتهازيين كما تصوّره تلك الوثائق ، وأن عنصر المثالية كان لا يزال التفكير السائد والصبغة الطاغية وذلك في كلا نشاطينا السري والعلني ٠

وبدأنا العمل بتجنيد العناصر المتبقية من مكتب الخدمات الاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية . ثم ضممنا اليها أركان قيادة السلك الدبلوماسي الى جانب إحتياطييه من الرجال الذين كانوا في الخارج بمهمات ثقافية واعلامية . والتحق بنا بعض الدبلوماسيين المنتظمين رسميا في وزارة الخارجية . ومعظم هذه العناصر التي هي من البعثات التبشيرية أو من أصحاب الفكر ، وبعض الهواة كانت تعتقد أن تغيير القيادات في دول الشرق الأوسط عامة والدول العربية خاصة لا يستلزم اكثر من مجرد ازاحة بعض الدعائم والقوى التي أوصلت كثيرا من الزعماء الى سدة الحكم دون أن تتوفر لديهم أية كفاءات أو ميزات . وستستمر في مساندتهم ، طالما امتلكت القدرة على هذا . انني لا ازال أذكر تلك المحاضرة التي القاها أحدهم في اجتماع توجيهي مشترك لوزارة الخارجية ومجموعة المخابرات المركزية وقال فيها يومها : « يظهر في كل من سوريا ولبنان ومصر والعراق ، أن السياسيين الحاكمين قد استلموا مقاليد الحكم نتيجة انتخابهم من الشعب ، ولكننا نتساءل أية انتخابات تلك ! كان الفائزون بالانتخابات من مرشحي القوى الأجنبية ، ومن مرشحي الاقطاعيين الذين يلزمون الفلاحين والمستخدمين بانتخاب من يخدم اقطاعهم ، ومن الرأسماليين الجشعين الذين يشترون أصوات الشعب لحساب أعوانهم بنفس طريقتهم المعتادة في الحصول على ما يريدونه عن طريق الخداع واللصوصية . ان العرب يرزحون تحت نير أولئك الحكام المرتشين وهم يستصرخون الجميع لرفع هذا الاضطهاد عن كواهلهم . ان لهم ميولا طبيعية نحو السياسة وهم ليسوا أغبياء مغفلين »

لم يكن ذلك المحاضر لينقل سوى وجهة نظر كل أولئك الذين كانت لهم خدمات سابقة في سلك الخارجية أو المخابرات . كما أن هذه النظرة قد حظيت بتأييد كل المسؤولين الجدد الذين جاؤوا من خارج سلك الحكومة مثل رجال الأعمال ورجال الجامعات وغيرهم من الذين اعتادوا أخذ دناءة الانسان وحدود طاقته العملية بعين الاعتبار والاحترام .

وفي ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٧ ، وبعد ثلاثة أسابيع من العمل الدائم لموظفي وزارة الخارجية والبيت الأبيض ، أعلن عن « مبدأ ترومان » الذي كان يومها بمثابة جواب على المذكرة البريطانية المرسلة الى وزارة الخارجية في ٢١ شباط (فبراير) ١٩٤٧ . ولم يمض زمن طويل على اعلان مبدأ ترومان حتى أعلن عن مبدأ آخر وهو « مشروع مارشال » . ومع أوائل تموز (يوليو) ١٩٤٧ بدأ سيل من التعليقات والافتتاحيات يظهر في الصحافة الأميركية ، كما بدأ

كبار المسؤولين سلسلة من المحاضرات في الجامعات الأمريكية ، وكلها تتحدث بصراحة عن الحرب الباردة وكيف السبيل الى ايقاف الزحف الروسي ؟ ومع أن عديدا من الكتب الجيدة قد ظهرت في الأسواق تعالج هذه القضايا ، وتفصل فيها ، الا أنها لم تتطرق الى الحملة التي قمنا بها سرّيا بقصد سد الفـــراغ ٠ وسأولي هذا النوع من النشاط السري كل اهتمامي في كتابي هذا لعجز بقية المؤرخين عن أن يقوموا بهذه المهمة التي لا يمكنهم الوقوف على أسرارها ولا معرفة خفاياها ، فلقد وصفتها وكالة المخابرات المركزية بأدق العبارات وقالت « انهـا حرب لا كالحروب » ٠

بدأت « الحرب الباردة » قبل انشاء وكالة المخابرات المركزية بشكلهـــا المعروف الآن ٠٠ وضم الفريق الذي بدأ العمل خليطا من الديبلوماسيين ومـــن ديبلوماسيي ما وراء الكواليس (١) الذين تم استخلاصهم من وزارة الخارجيـــة ووزارة الدفاع ومن جملة دوائر رسمية أخرى كانت في معظمها من بقايا الحرب العالمية الثانية أو من التي أنشئت حديثا للعمل في الفترة الانتقالية بين فتـــرة الحرب وعهد السلم ٠ وقد برز في هذا الخليط الذي لا ينسى اتجاهان متباينان في فرط الثقة وفي المبالغة في الحذر ٠ فقط تجسد الاتجاه الأول في أولئك الذين كانوا يوجهون نقدا لاذعا للسابقين من « أرباب العمل » ــ وهم البريطانيون ــ وتجسد الاتجاه الثاني في أولئك الذين أظهروا ميلا شديدا للتعاون الوثيق معهم وللاعتماد على خبرة كلتي المخابرات والديبلوماسية البريطانية لأكبر حد ممكن ٠ الا أن الاتجاهين قد توصلا الى حل وسط عندما اتفقا على الرأي القائل : « خير لنا أن نحاول السير قبل أن نفكر بالركض » ٠ وكان القـــرار الأخـــير أن تكون أولى مغامراتنا محاولة للتدخل في الشؤون الداخلية لدولة مستقلة ، وأن تكون المحاولة متواضعة محدودة ولكنها مؤيدة بتبريرات كافية ودون مساعدة البريطانيين ــ بل ودون درايتهم بها ٠

ولكن أين نبدأ ؟ لا يمكننا أن نبدأ في تركيا أو اليونان ، فالبلدان حليفان لنا ويريدان ما نريده نحن ، وقياداتهما تسهران على رعاية أهدافنا المشتركة ٠ ولو كان هناك أي مجال لأن نكون في « لعبة » معهم فستكون « لعبة تعـــاون »

(١) . الديبلوماسيين السريين Crypto Diplomats

وليس « لعبةصراعواختلاف » كما أننا لا يمكننا ان نبدا في ايران لأننـــا في انسجام وتفاهم مع قيادتها ، وكانت نسبة التعاون في « لعبتنا » معها اكثر من تسعين بالمائة (وهذا في البداية على الأقل) ونسبة الخلاف أقــل من عشرة بالمائة · وبالتالي فلم يبق أمامنا سوى العالم العربي الذي بدأت الأمور تتفاقم بيننا وبينه ، وزادت شقة الخلاف اتساعا غير قليل · وكان ثانيا ان سبب هذا وجود قيادات طائشة مضللة على رأس السلطة في تلك الأقطار ، وأن استلام مقاليد الحكم من اشخاص ذوي ثقافة أوسع وادراك أعمق سينقل هذه الأقطار العربية من صف المناوَاةَ الى صف الموالاة لنا · كما ان حذر العرب البالغ مـن السوفييت سيجعل الحماية الأميركية لهم موضع ترحيب · فشركات البترول الأميركية ستجعل منهم اغنياء قريبا · كما ان التوصل الى اية تسوية حــول مشكلة فلسطين ستجعل منهم المستفيد الرئيسي لكل ما يتاتى منها · الا أن اصرار حكامهم يومها على رفضهم النظر في الأمور من خلال هذا المنظار (المنظار الأميركي) كان قد اعتبر مبررا كافيا للاطاحة بهم ـ أو على الأقل تحريــك شعوبهم وحثها على الاطاحة بهم · وهكذا فقد كان وضع القيادات العربية في عام ١٩٤٧ مبررا كافيا للتدخل بشؤون العالم العربي

كان المفروض أن يكون العراق أول أهدافنا ، فحكومته بوليسية مكروهة · وكان من السهل علينا يومها أن نقنع أنفسنا أننا نقوم بعمل فيه خير كثــير للعراق عندما نفسح المجال لمجيء حكومة أكثر شعبية وتأييدا · الا أن الفريق المكلف بالتنفيذ في العـــراق لم يستطع مباشرة ذلـــك دون علم البريطانيين وموافقتهم · ورفضت حكومة المملكة العربية السعودية كافة اقتراحاتنا لتغيير طريقة الحكم فيها ،وهكذا لم يعد لنا أيه فرصة للتدخل فيها· كما اسقطنا منحسابنا التدخل بشؤون لبنان والأردن ومصر لاعتبارات شتى · وبحساب البواقي فانه لم يبق أمامنا الا سوريا · فقد كانت في وضع اقتصادي مريح ،كما أن الحكمين التركي والفرنسي لم يفلحا في اذلال شعبها وترويضه · ولهذا فقد كانــت ظروف سوريا ملائمة جدا لاجراء انتخابات ديموقراطية ، تفسح المجال أمام مجموعة من الزعماء على شيء من الذكاء والحنكة والتعاون للوصول الى سدة الحكم واستلام مقاليد الأمور · وأخيرا ، فقد ظهر لنا جليا أن الركائز التي تدعم

بقاء المجموعة السابقة من السياسيين في الحكم ، وهم لا يمثلون الشعب حقا ، لا تقوى البتة على مجابهة الوسائل التي عزمنا على اتباعها هناك ٠

وفي الحقيقة لم يكن هناك مجال لاستخدام أي من أسلحتنا التي علمتنا التجارب والمحن بعد حين استعمالها لعمليات أكثر دقة وأعمق أثرا ٠ فقد كان الوضع أضعف مما توقعنا ، وكان يكفي القيام ببعض الوكزات اللبقة هنا وهناك لتشجيع بعض السياسيين المفضلين ليسلكوا طرقا نزيهة في حملاتهم الانتخابية، الى جانب القيام بمراقبة عامة غير رسمية على اجراءات الاقتراع ، وضبط الأسماء على اللوائح ، بغية كشف حوادث الضغط والاحتيال واخبار المرشحين بها لفضحها والحيلولة دون وقوعها ٠ ولم يكن من الممكن توفير كل هذا بواسطة رجال السلك الديبلوماسي (مع أنه كان لهم القدرة على ممارسته ضغطا كبيرا بقصد التنبيه والتحذير) ٠ ولذلك حاولنا أن نوفر ذلك عن طريق رجال الصحافة الأجنبية الذين وجهت لهم الدعوات بهذا القصد ٠ وقام فريق من العملاء السريين بالمساعدة في هذا المجال دون الظهور بمظهر المؤيدين للمرشحين الموالين لنا ، وكان جل دورهم حث الشعب على انتخاب الرجال الوطنيين المخلصين ٠ ولقد فوتنا الفرصة على الحكام السوريين بخصوص توجيه انتقادات لتدخلنا هنا وهناك عن طريق قيام القائم بالأعمال الامريكي بزيارة الى وزارة الخارجية السورية ، ولفت النظر الى اعتقادنا أن الانتخابات السورية المقبلة ستكون محط أنظار جميع الأقطار المستقلة حديثا ، ولهذا فاننا لا نتوقع وجود أي مانع من مراقبتنا لها ٠ وقامت الشركات الأميركية الخاصة ، بالتعاون مع أفراد الجالية الأميركية وبعض الارساليات التبشيرية هناك ، بتوجيه تحذير لاولئك السياسيين الذين اعتادوا اللجوء الى الضغط والاكراه لحمل المواطنين على الادلاء بأصواتهم لصالحهم (صالح السياسيين) من مغبة مثل هذه الأعمال، أو من الوقوف في وجه اجراء انتخابات حرة نزيهة يصوّت فيها المواطنون لمن يريدون ٠ كما وجهت تحذيرات مباشرة وغير مباشرة الى كل من الاقطاعيين وأصحاب المعامل وزعماء الأحياء ، وحتى رؤساء مخافر الشرطة ، من اعاقة الشعب عن الادلاء بأصواتهم بحرية تامة ، ومن القيام بأي اضطهاد داخلي أو تحيز لن يترتب عنه سوى استنكار واسع النطاق لا يقل عن ذاك الذي لاقاه كل من الظلم التركي والتعسف الفرنسي ٠ وتمكن رئيس ارساليات طائفة

الكنيسة الاصلاحية (ميثودية) أن ينتزع وعدا من أكبر اتحاد للمثقفين الأكراد بأنهم وزملاءهم لن يقوموا باستغلال أصوات الأميين الأكراد ويكتبوا لهم على أوراق الاقتراع أسماء مرشحي الاتحاد ·

وتضمنت تحركاتنا النقاط التالية :

١ ـ حملة قامت بها احدى شركات البترول الأميركية التي تأسست حديثا وذلك بلصق اعلانات دعائية ضخمة في الأماكن العامة تحضُّ السوريين على الادلاء بأصواتهم واختيار المرشح الذي يريدونه لينعموا بالحرية بعد بضعة قرون من السيطرة الاجنبية · ومما أثار دهشة الشعب السوري أن تلك الدعايات لا تدعو الى مرشح دون آخر ·

٢ ـ ترتيبات اعدت مع بعض مكاتب سائقي السيارات العمومية (التكسيات) ليقوموا بنقل الناخبين مجانا الى أماكن الاقتراع شريطة أن يترفعوا عن أية هبات مغرية من المرشحين للتأثير على ركابهم من الناخبين أو لنقل المقترعين لصالح مرشح دون آخر ·

٣ ـ تزويد مراكز الاقتراع الرئيسية في المدن بآلات اتوماتيكية لتسجيل الأصوات بحياد تام على أحدث طراز أمريكي ، حتى تغدو الانتخابات السورية كمثيلاتها في أمريكا تماما ·

ومع كل ذلك ، فان الاجراءات الانتخابية لم تكنْ مخيبة للآمال · ففي حمص ، لم يكن هناك اية محاولة مكشوفة للتدخل · فقد أوعز الاقطاعيون الى فلاحيهم أن يبتعدوا عن الدعايات الشيوعية والامبريالية المنتشرة في الساحات العامة ولا يصدقوها ، وأن يدلوا بأصواتهم حسب التوجيهات المعطاة لهم سابقا · وكانت تلك الانتخابات الحرة الأولى من نوعها في سوريا التي كان يعتقد شعبها أن الحكومة ما هي سوى مطية يتخذها الأجنبي لتحقيق مآربه والوصول الى اهدافه عن طريق الرشوه والافساد التي تمليها نزعته الفطرية عليه · ومع أنه وقعت بعض المصادمات الدموية وسقط بعض القتلى والجرحى الا أن الناخب العادي قد وجد في تلك الانتخابات فرصة جديدة لرفع سعر «صوته الانتخابي» أو وجدها فرصة لدعم قريب له على وصوله الى النيابة يجلب له مكاسب ومغانم وشكل سائقو السيارات اتحادات باعت خدماتها للمرشح

الذي كان يجزل لهم العطاء أكثر من غيره · ونكث اتحاد المثقفين الاكراد بالوعود التي أعطوها لرئيس الارسالية الاصلاحية · وتعطلت آلات تسجيل الأصوات الانتخابية كلها ما عدا اثنتين بسبب عدم انتظام التيار الكهربائي · غير أن المرشحين المنهزمين قد عزَّ عليهم أن يهزموا على أيدي التكنولوجيا الامبريالية فرفضوا النتائج التي أعطتها الآلات الالكترونية وأعاد لهم الكتبة فرز الأصوات ثانية بصورة حققت لهم الفوز والنجاح · وكانت حكومتنا الوحيدة من بين حكومات الدول الكبرى التي لم تدفع مساعدات مالية للمرشحين الموالين لها مما دعاهم الى الالتجاء الى الفرنسيين والبريطانيين بل والسوفييت أيضا · فقد كانت الأطراف الآنفة الذكر على شيء من الدهاء جعلها تتحايل على القيود التي فرضناها على الانتخابات · ان النزاهة الساذجة التي ظهرنا بها ـ نحن الاميريكيين ـ لم تجد لها قبولا في نفوس الفرنسيين والبريطانيين والروس ، بل ولقد أثارت شكوكهم حولنا · فلقد اعتقدوا أننا نعد في الخفاء حلولا جديدة ومبتكرة للسياسه السورية وأن تلك البساطة المصطنعة ليست سوى مقدمة لحيل ومؤامرات أخرى ولكنها من نوع جديد لم يعتد العالم القديم على فهمه وتصوره ·

لم يكن الاميريكيون ، رسميين وغير رسميين ، بتلك السذاجة وذاك الغباء حيال الانتخابات السورية عام ١٩٤٧ ، ولكنهم كانوا حديثي عهد في هذا الحقل · وفي الوقت الذي لم يكن أي من رجال الحكومة أو رجال الأعمال الذين رحلوا الى الشرق الأوسط ذا خبرة في هذا المضمار ، كان هذا الأمر شيئا روتينيا للروس أو الفرنسيين أو البريطانيين · ونتيجة لهذا بدأت وزارة الخارجية الأميريكية بتعليم أحسن موظفيها اللغة العربية وقامت باطلاعهم على ثقافات الشرق الأوسط وعلى كل ما يمت لهذا الموضوع بصلة · كما قامت بتمشيط الولايات المتحدة بحثا عن أميريكيين ذوي خبرات سابقة في هذا المضمار · وكان باركر هارت وروجر دافيز وهاريسون سايمس من جملة الموظفين الضليعين بمثل هذه الخدمات والذين كانوا على وشك ترك الخدمة في الوزارة لما أصابهم من سأم وملل · وعندما شعرنا بالحاجة الى أمثالهم في عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ دفعنا بهم الى مناصب ذات مسؤوليات حسام · واستدعي تشارلز فيركسون الخبير في التعليم السريع للغات ـ من جامعة هارفرد ليبدأ فصولا دراسية في اللغة العربية لبعض الديبلوماسيين الشباب · وكانت نتيجة

هذه الفصول أن قارب عدد الديبلوماسيين الامريكيين المتكلمين باللغة العربية عدد المتكلمين بها من البريطانيين وأربعة أضعاف المتكلمين بها من الروس · وأصدرت وزارة الخارجية أمرا بتعيين ارتشيبالد روزفلت (حفيد الرئيس تيودور روزفلت) كمنسق لنشاطنا السياسي الخاص وأرسلته الى بيروت · وكان روزفلت هذا قد أمضى عدة أشهر مع قبائل عربية وكردية وفارسية وكان يتكلم اللغة العربية والكردية والازبكية والروسية والفرنسية والاسبنيولية وبضع لغات أخرى · وخدم في الماضي في مراكز أظهرت قدرته الفائقة في الجمع بين الثقافة الواسعة والتنفيذ الدقيق · وبحلول عام ١٩٥٢ ، كان رجالنا في السلك الديبلوماسي في الشرق الاوسط من خيرة ما بمقدور حكومتنا تقديمه ·

كانت الأعوام بين ١٩٤٧ و ١٩٥٢ أعواما هزيلة بخصوص نشاطنا في « لعبة الأمم » · ويعزى ذلك لجملة أسباب منها ذاك الاستقلال المفاجيء لعدة دول بقيت ترزح قرونا تحت نير الاستعمار، وهذا الأمر قد أظهر بعض المشاكل التي لم يكن تتوفر اية خبرة عندنا لمعالجتها · ومن جملة الأسباب غضب العرب لاعتقادهم اننا كنا نساند الصهيونية · وهذا صحيح مهما كان المبرر لذلك ـ ومن ثمّ اسرائيل بشكل مفضوح لا تحرّج فيه ولا حياء · كما أن سوء التفاهم وقلة التجاوب الذي حصل بين رجال سلكنا الديبلوماسي وواضعي الخطط في واشنطن كان من ضمن تلك الاسباب · لقد كان الرجال القابعون خلف الجدران في وزارة الخارجية بواشنطن تحت تأثير انجاهات رجال الكونغرس ورجال الصحافة الذين لا يظهرون اى اكتراث أو اهتمام للعالم العربي · في حين كان رجالنا في السلك الديبلوماسي تحت رحمة مشاهداتهم اليومية واحتكاكهم المباشر مع المواطنين في العالم العربي مما أدى الى تباعد وجهات النظر وافتراق طرق التفكير حيال الأوضاع في المنطقة ·

لقد غدت الديبلوماسية الامريكية في العالم العربي بين ١٩٤٧ ـ ١٩٥٢ ، مجرد مجموعة علاقات روتينية مع حكومات دول المنطقه · وتجسد جل عمل رؤساء بعثاتنا في تسليم الرسائل التقليدية حول قلق حكومتنا من الاوضاع السائدة · كما كانوا يبذلون قصارى جهدهم لاقناع وزارات الخارجية في دول المنطقة أن الحكومة الامريكية ليست واقعة تحت تأثير الضغط الصهيوني · واقتصر نشاط الدبلوماسية السرية الامريكية على تقديم بعض المساعدات ـ كما

يفعل البريطانيون والفرنسيون والروس ـ الى من تختارهم من المرشحين في كل من سوريا ولبنان والعراق ومصر • وكانت وجهة نظرنا يومها ملخصة بعبارة : « دعنا ننتظر حتى يتبين لنا ما يجب أن نفعله » • وفي « لعبة الامم » كنا أشبه بلاعب البوكر الذي انضم حديثا الى طاولة اللعب التي يحيط بها وجوه لم يألفها، فجلس ينتظر لفترة دون أن يجازف بأكثر من مبلغ رمزي بسيط عسى أن يتعرف الى تلك الوجوه فتزول الحيرة والغربة وتتفتح الآفاق الواسعة أمامه •

الا اننا لم نلتزم بهذه القواعد في سوريا • لقد جسسنا الى طاولة اللعب وبدأنا نخوض المغامرات قبل أن نألف الوجوه التي حولنا وتألفنا • وكانت العملية الثانية التي قمنا بتنفيذها في سوريا غريبة عن القواعد السابقة الذكر وجديرة بدراسة خاصة ، وذلك لسببين :

(١) لقد أضحت هذه العملية فيما بعد شغلنا الشاغل ، ومثالا يحتذى في كل الحالات التي ننوي أن نفعل فيها ما نريد دون أن نظهر بمظهر المتدخـل بالشؤون الداخلية للدول المستقلة • ولقد أكسبتنا هذه العملية خبرة فائقة في هذا المضمار ، وجنبتنا أخطاء فادحة في تنفيذ مثيلاتها •

(٢) كما أن هذه العملية قد ألقت ضوءا ساطعا على مدى أهمية اختيار الافراد المنفذين (أو عدم أهمية الاختيار) بالمقارنة مع صعوبة انجاز العملية أو سهولة ذلك •

وفي تلك الايام ، كان الاعتقاد السائد عند كبار موظفي وزارة الخارجية أن الفراغ الذي حدث نتيجة الانسحاب البريطاني من المنطقة، بالاضافة الى موقفنا المؤيد للصهيونية في فلسطين (والذي لا مفر منه)، قد حصر أهدافنا هناك ضمن حدود « بذل قصارى جهدنا لتقليـل الخسارة وتخفيف حدة الفشل » (١) • وبالتالي فقد كانت التعليمات الصـادرة من واشنطن الى مختلف البعثات الديبلوماسية غامضة (غموض ردود الـكاهن اوراكل في دلفي على أسئـلة الاغريقيين حول المغيبات) ، وذلك بقصد ترك الحرية لرؤساء البعثات لتفسيرها كما يشاؤون ويرغبون ، متحملين نتائج أخطائهم لوحدهم • في حين كان يقبع

---

(١) يعني المؤلف ان النجاح الكلي اصبح عسيرا ان لم يكن مستحيلا •

المسؤولون السياسيون خلف الجدران في واشنطن منتظرين نجاح عمل من الاعمال (دونما قصد أو تصميم) حتى ينسبوه لانفسهم ٠ وهكذا تغدو اصالة المسؤولين الموجودين في الميدان لوحدهم ودهاؤهم وجرأتهم أمورًا فائقة الاهمية في مثل هذه الظروف ٠

كان رئيس بعثتنا فى دمشق رجلا برتبة وزير مفوض اسمه جيمز ميكائيل كيبلي ٠ وقد انتدب لهذا المنصب لكونه رجلا يعتمد عليه في الملمات ، وكان يتصف بحيوية فائقة ويتمتع بقدرة عجيبة على اتخاذ القرارات دون الحاجة للرجوع الى المراجع العليا في واشنطن للوقوف منها على التفاصيل والجزئيات٠ وأما المسؤول السياسي في البعثة فقد كان الشاب دين هنتون الذي لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره بعد ٠ وكان على جانب كبير من الاصالة الفريدة والفراسة النادرة وهو يشابه بهذا رئيسه جيم كيبلي ٠ وأما رجل التنفيذ في السفارة فكان الميجر ستيفن ميد الذي سيشتهر باسم « الكولونيل ميد » في الفصول التالية ٠ أما المسؤول عن الديبلوماسية السرية (ديبلوماسية ما وراء الكواليس) في البعثة الامريكية في دمشق فقد كنت أنا ـ مؤلف هذا الكتاب ٠

وصلت دمشق في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤٧ حاملا تعليمات تقضي أن أحقق اتصالا غير رسمي مع الرئيس القوتلي وغيره من الزعماء الرئيسيين في الحكومة السورية ٠ وكان عليَّ أن أبذل قصارى جهدي حتى أفلح في اقناعهم بمنح المزيد من الحريات السياسية ـ ومن تلقاء أنفسهم ـ حتى يغدو النظام السياسي في البلاد أكثر تحررا وتقدما ، وكان القسم الاول من مهمتي يسيرا ٠ فقد أفلحت في اقامة علاقات شخصية مع الرئيس القوتلي ومع أصحاب الشأن حوله من الذين لا مفر من اقناعهم بالفكرة حتى يساعدوا في تنفيذها الا أنني سرعان ما اقتنعت أنني :

« كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يهنها وأوهن قرنه الوعل »

وعندما وصل كيبلي الى دمشق ليتسلم مهام منصبه (وكان ذلك بعد وصولي بستة أشهر) رفعت له تقريرا عن نتائج جهودي أقنعه بالحقيقة المرة وهي أن الوضع يتجه نحو انفجار سياسي بدأت معالمه تلوح في الافق لاصرار القوتلي وأعوانه على مواقفهم ورفضهم القيام بأية خطوات تحررية ٠ وبعدها خاطبني كيبلي قائلا : « انه لم يبق أمامنا سوى طريقين أحلاهما مر » ٠ وكان كيبلي يعني بذلك انه لا بد لتلك الاوضاع السياسية المتدهورة أن تنتهي الى

نتيجتين : فاما الى ثورة مسلحة دموية يقودها بعض الانتهازيين بدعم سري من السوفييت أو الى حركة يقوم بها الجيش السوري بدعم سري منا (أي الامريكيين) بقصد الاطاحة بالنظام القائم والمحافظة على النظام والهدوء حتى يحين الوقت لقيام ثورة سلمية تتمكن من تسيير دفة الحكم واستلام مقاليد الامور ·

ولم يكن اشمئزاز كيبلي من النتيجة الثانية أقل من اشمئزازه من الاولى ، الا أنه قبِلَ بها مرغما حتى لا تضطر البلاد الى سلوك طريق سفك الدماء وازهاق الارواح · كما أن الاطاحة بالنظام القائم على أيدي رجال الجيش سيفسح المجال أمام العناصر الصالحة في المجتمع لتتقدم الصفوف وتضطلع بأعباء الحكم بعدما منعتها نزعة العنف في نظام حكم القوتلي من القيام بدورها الفعال في الحكم والمجتمع ·

كان انقلاب حسني الزعيم يوم ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ من اعدادنا وتخطيطنا · فقد قام فريق العمل السياسي بادارة الميجر ميد بانشاء علاقات صداقة منتظمة مع حسني الزعيم ، الذي كان رئيسا لأركان الجيش السوري ومن خلال هذه الصداقة أوحى الميجر ميد لحسني الزعيم بفكرة القيام بانقلاب عسكري اضطلعنا – نحن في السفارة – بمهمة وضع كامل خطته واثبات كافة التفصيلات المعقدة · الا أن تحركاتنا هذه لم تثر أكثر من شكوك عند الساسة السوريين فقد كانت كلها سرية ومتقنة الوضع والتخطيط · وأثارت هذه الشكوك – فيما بعد – فضول رجال الصحافة الغربيين وفئات من الطلبة فقاموا باجراء مقابلات مع من كان لهم ضلع في العملية كما قاموا بفحص الوثائق التي لها صلة بالموضوع · وكانت نتيجة ذلك أن اعترفوا بصحة شكوك الساسة السوريين ودقتها · بيد أن الانقلاب حافظ على صبغة سورية محضة أمام أنظار العالم الخارجي الى أن بدأت الروائح تفوح منه وأخذت الالسن تتناقل « ان حسني الزعيم ليس أكثر من مجرد صبي من صبيان الامريكان »

ومع أنه لا يهمنا هنا استعراض تفاصيل الانقلاب ، الا أنه من الاهمية بمكان سرد بعض الملاحظات العامة التي لها علاقة به ، ومنها :

١ – أخبرت وزارة الخارجية الامريكية بنية القيام بالانقلاب وأنه قد أوشك ان يقع · الا أنها استغنت عن طلب تفاصيل أخرى ولم تر ضرورة التدخل

بها ، بل تركتها لنا نتدبرها في دمشق • وكان السياق العام لرسائلها كما يلي:
« لا نرى داعيا لتثبيط همة حسني الزعيم وثنيه عن القيام بالانقلاب طالما أنه لا يزال مصمما على اعادة الحكم البرلماني الى البلاد متى ما سمحت الظروف بذلك » •
الا أن حسني الزعيم كان قد آكد مرارا وتكرارا أنه لا ينوي العودة بالبلاد الى الحكم البرلماني بل انه عازم على : (١) الزج بالسياسيين الفاسدين في السجون ، (٢) اعادة تنظيم جهاز الحكومة على أسس أكثر فاعلية ، (٣) اجراء الاصلاحات الضرورية في مجال الاقتصاد والحياة الاجتماعية ، (٤) اتخاذ بعض « الاجراءات الايجابية » لانهاء النزاع العربي الاسرائيلي • وكانت هذه الفكرة الاخيرة بمثابة المخدر الذي ثنى وزارة الخارجية الامريكية عن عزمها على طلب الغاء فكرة تنفيذ الانقلاب العسكري •

ويحسن بنا أن نشير هنا الى وجهة نظر وزيرنا المفوض السيد كيبلي •
كان كيبلي من الذين لا يؤمنون بغير الوسائل الديموقراطية — مثل الانتخابات الحرة وحرية الصحافة وغيرها من الحريات — كما أنه كان لا يشاطر السوريين آراءهم السيئة بأنفسهم • فقد كان السوريون يعتقدون بعدم جدارتهم للاضطلاع بمسؤولية أعمالهم وأن كل ما يقومون به داخل بلادهم من تصرفات شريفة أو دنيئة ، ذكية أو غبية ، يسارية أو يمينية ، انما يقومون به بناء على ما تمليه عليهم القوى الاجنبية • ولكنه مع كل هذا فقد أصر على اعتقاده أن الوضع قبل الانقلاب قد وصل الى حالة من التدهور والفوضى لم يبق معها أي احترام لقانون أو خضوع لنظام وأن اعادة الامور الى نصابها ضرورة لا بد منها وبأي ثمن كان • الا أن كيبلي قد أخطأ عندما ظن أن سلطتنا على حسني الزعيم ستبقى قوية الى الحد الذي ستلزمه باعادة الحياة الديموقراطية الى البلاد عند أول فرصة ممكنة • وظن ان ذلك أمر يسير لما نتمتع به من قوة اقناع ، أو عن طريق الاستعانة عليه ببعض المساعدات العسكرية التي تخفف من حدة تصلبه • وكان كيبلي يكن حبا خاصا للسوريين ويرى فيهم ميلا فطريا للحياة الديموقراطية • الا أن الاحداث قد أوجدت عندهم عقدا نفسية وهواجس حيال تسلط الاجنبي عليهم • ورأى أن قيام حكم ديكتاتوري لمدة قصيرة سوف يحررهم من النفوذ الاجنبي كما يحررهم من هواجسهم وأوهامهم عنه • وسيساعدهم على اقامة نظام ديموقراطي مستقل جديد دون الاعتماد على أحد أو الاستعانة بانسان •

لقد عبر كيبلي عن انطباعاته عندما تكلم بلسان رئيس البعثة في دمشق وقال : « ان معظم السفراء والوزراء المفوضين الذين خدموا في العالم العربي سيشاركونني نفس الرأي وسيقولون لي بصراحة تامة انهم ما كانوا ليقفوا غير الموقف الذي وقفته في دمشق بنفسي لو وجدوا أنفسهم في نفس الظروف التي كنت فيها • » وكذلك فقد عبر دين هنتون عن شعوره عندما تكلم بصفته ممثلا للشباب المؤمن بالمثل والمبادىء والمنخرط في السلك الخارجي وقال انه لا يزال يعتقد بامكانية قيام حكومة صالحة في سوريا • وقد طلب هنتــــون أن يكون اعتراضه هذا تحريريا وأصر على معارضته لاتباع وسائل غير مثالية مع بقائه مخلصا لقيادة كيبلي • لقد كان هنتون حديث السن غضا ذا عاطفة مفرطة • الا أن معارضته لكيبلي وميد والبقية الباقية من مسؤولي البعثة الديبلوماسية في دمشق بخصوص قضية حسني الزعيم بلغت حدا اضطر معه الميجر ميد أن يطلب من كيبلي عزل هنتون عن الاجتماعات المتعلقة بالانقلاب وعدم اعلامـــه بتطوراته حتى اللحظات الاخيرة • وهذا ما جرى حقا • فان هنتون لم يعـــلم بالانقلاب الا يوم وقوعه • ولقد طلب هنتون ثانية تسجيل اعتراضاته على هذه المخططات تحريريا عندما كنا في جولة استطلاعية في أحياء دمشق صباح يوم الانقلاب • ومن جملة ما قاله هنتون : « انني أعتبر مشاركتكم في عمليه كهذه – عملية حسني الزعيم – من أشد الامور غباء وسوءا ترتكبها بعثة ديبلوماسية مثل بعثتنا • لقد بدأنا سلسلة من هذه الانقلابات العسكرية التي لن تنتهي أبدا » • وما لبث أن سجل اعتراضاته في تقرير أرسله الى وزارة الخارجيــــة بالبريد البطيء حيث يقبع الان في قسم الارشيف الذي تتكدس فوقه طبقات كثيفة من الغبار • ومهما كان ، فان ما تنبأ به هنتون قد حدث فعلا •

ظن بعض أعضاء البعثة في دمشق أن الباب قد فتح على مصـــراعيه أمام « السلم والتقدم » نتيجة نجاح انقلاب الزعيم • لقد كان حسني الزعيم رجلا لينا سهل الانقياد قبل الانقلاب ولم يخطر ببالنا أن هذه الصفات الشخصية قد تتغير بعد تغيير الاحوال والازمان • وحتى تاريخ صدور الاعتراف الرسمي الامريكي بنظام الحكم الجديد في سوريا لم يبدُ أي تغيير يذكر على طبيعة سلوك حسني الزعيم • وفي اليوم الثاني للانقلاب ، أمضى الميجر ميد ساعات طويلة مع حسني الزعيم وهو يحدد له أسماء أولئك الذين يجدر أن يكونوا في مناصب ديبلوماسية

من يجدر به أن يكون سفيراً كفي قاعة سان جيمس ن (البلاط البريطاني) وما هي وجبات الطعام التي يجب أن تقدم الى الرئيس القوتلي في سجنه حتى لا تلتهب القرحة في معدته • وما ان أذيع الاعتراف الامريكي بنظام الحكم الجديد حتى بدا حسني الزعيم وكانه رجل جديد لا يمت الى الماضي بصلة • فقد أبلغني الميجر ميد في أحد الايام فجأة أن علينا أن نتمثل له قياما كلما دخل القاعة ، وانه من الضروري تبديل كلمة « أنت » بكلمة « أنتم » في سياق خطابنا له (وكان يتكلم الفرنسية) بل ويستحسن استبدالها بكلمة « صاحب الفخامة » • وباستثناء هذه الامور الثانوية فلقد بقيت علاقاتنا معه ودية لآخر أيامه • الا أنه بدا يتضح لنا اننا قد أغفلنا أمرا ضروريا جدا عند رسم خططنا ، وان الوقت قد حان لبدء البحث عن رجل آخر يحل محل حسني الزعيم الذي لا محالة قد اقترب من نهايته •

لقد أكدت حادثة حسني الزعيم لكل من اهتم بدراستها أن عمالة أي حاكم لدولة عظمى — حتى ولو كانت من أقوى دول العالم — لا تكفي لضمان بقائه في الحكم واستمراره في السلطة • وليس هناك أي سحر أو فن في تقرير هذه الحقيقة ، فما كانت ميكانيكية قيادته لتنطوي على أية براعة أو حسن صنعة مع اصراره على طريقتها وتشبثه بها • فلم تتح له فرصة ليلم بالنظرية الحديثة لفن القيادة كما أنه لم يقتنع أن مهمة الحاكم الرئيسية هي ان يضع مرؤوسيه في ظروف لا يجدون فيها مهربا من تأييده واتباع توجيهاته • لقد امضى حسني الزعيم فترة طويلة من حياته في ظل ظروف عسكرية مشابهة للظروف التي تمر بها البلاد يومها ولهذا فقد اعتاد على حياة تنفيذ الاوامر دون اعتراض • لقد عامل مرؤوسيه وحتى أتباعه من كبار الضباط الذين كانوا الدعامة الرئيسية لحكمه بنفس الطريقة العسكرية التي نشأ بها • وما لبثت بعد شهور أن بانت الحقيقة المؤلمة وهي أن حسني الزعيم أصبح لا يمثل أكثر من نفسه سواء في علاقاته مع مناصريه من الامريكيين أو في طبيعة معاملته للشعب السوري •

وفي صبيحة الرابع عشر من شهر آب (أغسطس)١٩٤٩ قامت مجموعة من أصدقائه الضباط ، بقيادة سامي الحناوي اسما وأديب الشيشكلي فعلا ، بمحاصرة بيته وقتله ثم دفنه في المقبرة الفرنسية • ولقد أخبرني الشيشكلي بعدها أنه كان لبقا معنا ، اذ عامل حسني الزعيم على أساس أنه عميل فرنسي

وليس عميلا أمريكيا · وبعد أربعة اشهر تماما قام الشيشكلي بدوره باعتقال سامي الحناوي وبدأ بادارة البلاد من خلال واجهات مدنية متعددة حتى تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١ عندما ظهر على أنه رجـــل سوريا القوي · وبقـــي الشيشكلي في سدة الحكم حتى شباط (فبراير) ١٩٥٤ حيث غادر البلاد هربا من وجه أحد الانقلابات العسكرية العديدة التي تعاقبت على سوريا منذ ذلك الوقت حتى أضحى من الصعب على المرء أن يبقى متابعا للاحداث ويعرف من يمسك بيده مقاليد الامور ، مهما كانت معرفته بالسوريين قوية وخبرته بهم واسعة ·

ومع أننا لم نتعظ من تجربة حسني الزعيم حق الموعظة الا أن نقاطا هامة قد استخلصناها من تلك المغامرة ومنها :

● أولا : لم تكن القضية مجرد تغيير شكلي في الحكومة ، وانما كانت تهدف الى تثبيت هذا التغيير وجعله يستقر نهائيا بشكل حكومه صالحة وذات كفاءة عالية تحافظ على دفع عجلة التقدم والتطور باستمرار · انني لا أزال أذكر تلك الكلمات التي تفوه بها أحد رؤساء حكومات الاقليات التي تعاقبت على السلطة في سوريا في السنوات الاخيرة متبجحا بحضور أحد المراسلين الاجانب وقال فيها انه قد مضت تلك الايام التي كان يتحرك بها أحد الضباط ليحتل العاصمة ببضعة دبابات ويقيم فيها نظام حكمه · وأعتقد ان ذلك الحاكم نفسه لم يبق طويلا في منصبه بعد تصريحه ذاك · فقد كانت نهايته أسوأ من نهاية من سخر منهم في تصريحه ذاك · وما زالت سوريا ليومنا هذا أكثـر البـلاد عرضة للهـــزات والانقلابات · وكم يتمنى العالم الغربي أن يرى سوريا تنعم بحكومة مستقرة مهما كان طابعها السياسي بدل أن يراها غارقة في أوحـــال القلق وغياهب الانقلابات · واذا سمحت لنا الظروف لنتدخل ثانية في الشؤون السورية فاننا سنفعل ذلك بغية ايجاد حكومة تحمل في طياتها طابع الاستقرار والبقاء وتملك فرصة البناء والاصلاح ·

● ثانيا : ومهما كانت الحقيقة مرة ، فان حـــكم « الصفوة المختارة » في سوريا (وان كان يتعارض مع ديموقراطيتنا المثالية) أمر لا خيار لنا فيه · ولن يكون هذا متيسرا هناك الا بتسليم مقاليد الامور لمجموعة أفراد يتميزون بكفاءات

وقدرات لا يمكن توفرها لقائد فرد مهما كانت الظروف · ولم تكن سوريا بحاجة إلى زعيم يعيش في عزلة عن الشعب حتى تنجح ثورة اصيلة فيها،بل كانت دائما بحاجة الى «الصفوة المختارة» من ابنائها تليهم قاعدة أوسع،لها جذور عميقة في عامة الشعب· فكم من عقيد متجرد من أبسط المبادىء والمثل قد تربع على عرش رئاسة الاركان ولم يكن جل همه سوى اصدار الاوامر للقوات المسلحة للتحرك من مكان لآخر بغية قمع التحركات ضده · لقد امسك حسني الزعيم بمقاليد السلطة (ولم يدم حكمه أكثر من اربعة اشهر) كما يمسك رئيس عصابة بمقاليد السلطة داخل عصابته· ولقد اضاعها لنفس السبب الذي يفقد رئيس العصابة سلطته· فأفراد العصابة يطيحون برئيسهم عندما يبدأ الشك يتسرب الى نفوسهم أن رئيسهم قد غدر بهم وخذلهم· ولم يستمر حكم خلفاء حسني الزعيم لمدة أطول الا لانهم كانوا أكثر مهارة في حفظ توازنهم وهم يسيرون على حبل البهلوان المشدود · فقد كانوا يلتمسون الاعذار لانفسهم فيما كان يثار ضدهم من شكوك وظنون · ولم يتحرجوا احيانا من ايغار صدور ضباطهم ضد بعضهم البعض بغية تأخير اتفاقهم ضد الذين في السلطة · ولم يتعد التقارب بين بعض السياسيين والعسكريين شكل « زواج مصلحة الذي يعقد طمعا في مغانم سياسية واقتصادية مشتركة بينهم · وكان السياسيون بدورهم يتظاهرون بتعاطفهم مع الامة بأسرها وباعتمادهم على تأييد الشعب لهم لاشتراكهم واياه بعقائد سياسية واحدة (لا تمت حقيقة بأي صلة الى مفاهيم الامة ودينها وتراثها التاريخي) · وما كان ذلك الا بقصد الدعاية ليحيطوا أنفسهم بهالة من الشعبية والقدسية · وهكذا فلم يكن السياسيون في سوريا اكثر من مجرد تَبَع للعسكريتاريا · فهم يظهرون على المسرح عندما يظهر العسكريون · فلم يكن بقاؤهم في السلطة في يوم من الايام رهن قوتهم الذاتية أو تأييد الشعب لهم وانما كان لسرعة تلونهم واستمرار تذبذبهم · ومن الطبيعي أن نظاما قاسيا من هذا النوع :

(١) لا يمكنه أبدا أن يحافظ على بقائه واستمراره ·

(٢) ولن يكون في صالح تقدم البلاد وازدهارها ·

(٣) وسيكون مدعاة لقيام « لعبة أمم » متسمة بطابع الفوضى والغموض ·

الا انه لن يتمكن في مثل هـذا الخصم من احراز أي نصر على أعدائه اطلاقا . (وأود أن أشير الى أن كل هذا الصراخ قد جعل مبالاة الاسرائيليين بالسوريين أقل من مبالاتهم بالاردنيين) . كما أن بقية اللاعبين في « لعبة الامم » لن يشعروا بارتياح وهم يؤدون أدوارهم حول طاولة اللعبة لاستمرار قيام احتمالية تمرد أحد اللاعبين وان كان من الذين اعتادوا الخسارة دائما .

● ثالثا : ان الشرط اللازم لبقاء أي حاكم (أو مجموعة حكام مثل « حكومة الأقلية ») في السلطة في سوريا، واستمرار تقدمه في مجال البناء والاصلاح هو أن يظهر بمظهر يستحيل القول معه أنه صنيعة لنا ، وأن يتصرف بطريقة لا تظهر أي انسجام مع أذواقنا وميولنا . وباختصار ، فان مساندتنا لاي زعيم للوصول الى سدة الحكم والبقاء هناك حتى يحقق لنا بعض المصالح التي نريدها لا بد أن ترتطم بالحقيقة القاسية وهي أنه لا بد له من توجيه بعض الاساءات لنا حتى يتمكن من المحافظة على السلطة ويضمن استمرارها . كما أن هيكل النظام السياسي الذي يتبع ذاك الحاكم لا بد أن يكون طبيعيا وفطريا وغير مصطنع وبالتالي يجب أن يتضمن بعض العناصر التي تضمر عداء لمصالحنا . وهذه نقطة رئيسية في كتابي هذا . فلقد قصدت من خلاله توضيح استراتيجيتنا في « لعبة الامم » التي نتبعها مع غير العالم الغربي . اننا نقبل انتساب عدد من اللاعبين ونرحب بجلوسهم معنا الى طاولة اللعب دون أن يكون سلوكهم كما نحب ونهوى تماما . الا اننا نعتقد أنه بامكاننا أن نفوز عليهم بمجرد اتباع طرق وألاعيب خاصة ولكنها تختلف كل الاختلاف عن تلك التي نتبعها في « لعبة الصراع » مع خصومنا كالسوفييت والصينيين ، أو عن تلك التي نتبعها في « لعبة التعاون » مع أصدقائنا .

- ٣ -

فشل في سوريا وأمل في مصر
١٩٥١ - ١٩٥٢

... ولن تكسب العرب بالايتام وحدهم ، حتى يسود على الجمهور اعرقهم ...

كان لفشل تجربتنا في سوريا ، أثر كبير على العديد من تصرفاتنا . فقد آثرنا الانسحاب مؤقتا من مسرح الشرق الاوسط ، وفضلنا الانتظار ريثما يتضح لنا الطريق أكثر فأكثر . وخلال الفترة التي امتدت لغاية ١٩٥٢ كان موظفو وزارة الخارجية منهمكين في العثور على أفكار انضج ، وطرق افضل ، لضم أحد الحكام العرب الى طاولة اللعب . وفيما عدا قيامنا ببعض اعمال الجاسوسية المحدودة ، والتدخلات الروتينية في الانتخابات البرلمانية ، فقد حافظنا على عهودنا والتزمنا بشعاراتنا طوال تلك المدة . فلم نتدخل في الشؤون الداخلية لأية أمة ذات سيادة . ولا أزال أذكر جيدا ما صرح به أحد كبار موظفي وزارة الخارجية بعد الانتخابات السورية في ١٩٤٧ وأمام مجموعة من المسؤولين الذين انتدبوا لمهمات رسمية في الشرق الاوسط اذ قال : « ان أهدافنا في تلك المنطقة لا تتعدى ايجاد ظروف ملائمة تتوفر فيها حرية تقرير المصير لشعوبها من غير أن يكون لاي كان ، ضغط عليها أو تأثير » وبقي هذا الاعتقاد سائدا رغم الادلة المتزايدة ضده ، حيث كان يظن أن شعوب الشرق الاوسط جادة فعلا في طلبها للشيوعية او اية عقيدة سياسية أخرى . تُثبِّتُ مراكز القوة الاخرى على حساب المصالح الامريكية . فتعيق بذلك سير المنطقة نحو التقدم والازدهار ، والسلام والاستقرار ، التي كانت ، على اية حال ، الاهداف الحقيقية للولايات المتحدة في ذلك الجزء من العالم وكان غالبية مسؤولي وزارة الخارجية يعتقدون أن نتيجة اية انتخابات حرة في المنطقة ، ستكون ظهور قادة مفكرين لا يتلكؤون في التعاون مع العالم الحر - وحتى العرب الذين هم أكثر شعوب المنطقة طيشا سياسيا وأمهرهم في فوضى الحكم كان بامكانهم ان يقرروا مصيرهم بانفسهم اذا ما اتيح لهم ذلك من

خلال ممارسة الشعائر الديمقراطية كما نفهمها نحن في الغرب ــ وأزيحت عنهم الضغوط الاجنبية والتأثيرات الخارجية ٠

وعلى الرغم من تعلق وزير الخارجية دين اتشيسون :بظاهري بالديبلوماسية التقليدية ،الا أنه لم يخف شغفه بديبلوماسية ما وراء الكواليس في مجالسه الخاصة ٠ بل ولقد دفعه اهتمامه بذلك ، لان يطلب من وكالة المخابرات المركزية ،اعارته كيرميت روزفلت ليرأس ــ وبسرية تامة ــ لجنة ضمت نخبة من الاخصائيين بالشؤون السياسية في كل من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ٠ كما ضمت أيضا مستشارين من قطاع الاعمال التجارية والجامعات الامريكية ٠ ولم يكن لأحد منهم صلة بوكالة المخابرات المركزية سوى كيرميت روزفلت نفسه ٠ وأوكلت الى هذه اللجنة مهمة دراسة شؤون العالم العربي عامة ، والنزاع العربي الاسرائيلي خاصة ، وأن تقوم بنفس الوقت ، بتحديد المشاكل والصعوبات ، وترتيبها تبعا لاهميتها لاقتراح حلول لها ، من أية طبيعة كانت ، سواء تعارضت مع مفاهيم حكومتنا وقتئذ في احترام سيادة الشعوب وعدم التدخل في شؤونها الداخلية أم لا ٠

وخلال شهر واحد تقريبا ، كانت لدينا عدة حلول ومخططات جاهزة للتداول والتنفيذ ولكن لم يكن أي منها يتلاءم والاعراف السلمية المتبعة يومئذ٠ ولا أزال أذكر أنه كان من بينها ، فكرة تحريك الشعور الديني للوقوف في وجه المد الشيوعي ٠ ولكننا أدركنا بعد الخطوة الاولى ، أن الفكرة غير مضمونة النتائج ٠ فأي بعث لامثال هذه الافكار والمشاعر لا يعني سوى الكشف عن سلاح ذي حدين يقف في وجه المد الشيوعي والمصالح الغربية في آن واحد ، وهذا ما دفعنا بعد سنوات الى تطويق دعوة الملك فيصل لبعث الشعور الديني ٠

كما كانت هناك مخططات اخرى تعرفنا من خلال دراستنا لها على ما يجوز على موافقة العرب وعلى ما يرفضون ٠ ولكن لم تكن هناك أية محاولة لتبني حلولا مثل حل حسني الزعيم ٠ وفي أوائل عام ١٩٥٢ أنهت لجنة الاختصاصيين وصف الحالة في الشرق الاوسط وحددت امكانيات « لعبة الامم » آخذة بعين الاعتبار خبراتنا السابقة ، وطاقاتنا الحالية ومواقف كل من أعدائنا وأصدقائنا والمحايدين ٠ وفي مخططاتنا لم نخرج عن أهدافنا المألوفة ،

والتي كانت الاطراف الاخرى قد استحسنتها واتخذتها لنفسها أهدافا · كما أننا لم نستطع تذليل أية عقبة من العقبات السابقة فبقيت كما هي ولكن مع فارق كبير · فخبراتنا اليوم لم تعد كما كانت أيام انقلاب حسني الزعيم ، بالاضافة الى توفر مواهب خلاّقة لعدد من المسؤولين والمخططين ، الجديد منها والقديم · والى جانب تزايد شعورنا بامتلاكنا قدرات كافية لفتح آفاق جديدة ، فقد بدأ ضغط الحوادث العالمية يتراكم على كواهلنا ، محذرا ايانا من مغبة التأخير والتسويف من القيام بعمليات جديدة تعيدنا الى حلبة الصراع في الشرق الاوسط بعدما مضى علينا سنوات ونحن خارجها ·

ومع أننا قد قتلنا القضية بحثا ودرسا ، فقد كدنا نبدأ من منطلقات خاطئة ، ولكن شاءت الاقدار أن لا يكون ذلك ، وكان قرارنا الاخير أن تكون في مصر أولى خطواتنا الجديدة · وكان لهذا عدة أسباب هامة · فقد وهبت الطبيعة مصر مكانا يجعل أي تأثير فيها لا ينحصر داخل أرجائها بل يمتد وينعكس في جميع الاقطار العربية الاخرى · ومن الوجهة التنفيذية فقد كان اعتقادنا أن الخطة مضمونة النجاح ، لا لطبيعة الشعب ومفاهيمه السياسية فحسب ، بل لاننا كنا نمتلك جهازا تنفيذيا ذا كفاءة عالية ودراية واسعة بالدولة المصرية · ومن جملة أفراده كيرميت روزفلت الشهير · وكانت دراستنا للمجتمع المصري تفرض علينا مسلكين لا ثالث لهما · أولهما : أن نستعرض عددا من المرشحين لان يكونوا زعماء وطنيين مثاليين لبلد عربي ، وننتقي منهم واحدا ذا مواهب خلاقة وحصافة فائقة ، يستطيع ان يظهر أنه الحاكم الفعلي ولكنه في الحقيقة ليس أكثر من واجهة لحاكم قوي · بينما نبقى نحن وراء الكواليس · وبنفس الوقت يتم اختيار صفوة منتقاة من كبار شخصيات بلد ذلك الحاكم لتكون طرفا في كل ما ننوي انجازه · فلها ستقدم الاقتراحات ، ومعها ستناقش الاجراءات ، وستجري المساومات ، ولكن عليها أخيرا أن تنصاع لترتيباتنا النهائية التي نخفيها عادة وراء مساعدات اقتصادية وعهود نقطعها على أنفسنا بأن نتركها تسرح وتمرح في السلطة ، وتتخذ من الاجراءات ما يحلو لها لتضمن بقاءها في الحكم · ونعدها أيضا ، بأن نستبدل ضغطنا عليها باقتراحات تتضمن وجهات نظرنا في طريقة ادارة البلاد ، وحفظ أمنها ، بعد استلامها مقاليد الامور ·

وفي المسلك الثاني : كان علينا أن نواجه بشجاعة وحنكة حقائق ووقائع عديدة تتعلق « بفن السلطة السياسية » ٠ ولقد تطرق الى هذا كثير من فلاسفة علم السياسة المشهورين ، ابتداء من برتراند رسل ، وانتهاء بجيمس بورنهام الذي عمل مع كيرميت روزفلت سنة ١٩٥٣ ٠ وكانت هذه الوقائع تتلخص كما يلي :

١ ـ لقد كنا بحاجة الى حاكم عربي يجمع بكلتا يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لحاكم عربي آخر من قبل ، سلطات تمكنه من اتخاذ قرارات تنفر منها الشعوب وتأباها ٠ وكان علينا أن ننشد ضالتنا في رجل متعطش الى تسلم السلطة ، لا يدفعه الى اليها الا حب مطلق وشغف فريد بها ٠ وقد ثار جدل في وزارة الخارجية حول هذه النقطة بالذات ، واستدل بعضهم انها كانت سبب انهيار حكم حسني الزعيم ٠ ولكن دراسة نفسية مجردة لسلوكه أظهرت أنه لم يكن « مجنون سلطة » الى الحد المطلوب ، أو أنه عشقها لاسباب خاطئة واغراض زائفة ٠ فقد كان يرضى بالمظاهر الخارجية،وما كان ليقلقه أن يبقى تابعا لنا ودائرا في فلك الولايات المتحدة الامريكية ، طالما كنا نتمثل له قياما كلما دخل علينا ، ونخاطبه بلفظ « صاحب الفخامة » ٠ وكان مبتغانا أن ندفع الى سدة الرئاسة حاكما أكثر شغفا بالسلطة ، ولكن باتزان وادراك كاملين لابعادها ٠ ومتى تم لنا ذلك فليس لنا بعدها أي حق في التذمر والشكوى مهما كانت النتائج ٠ وان كنا نفتعل هذا أحيانا ، لاسباب تكتيكية محضة ٠

٢ ـ وكنا بحاجة الى رجل يقاسم أتباعه انتصاراته ٠ وقد اعتبر برتراند رسل هذه نتيجة منطقية لمقدمات مهمة ، وهي شعور الطبقة الحاكمة أنهم يؤيدون رئيسهم برغبتهم ، وأنهم يمارسون القيادة الجماعية ٠ فانتصار أحدهم هو انتصار لهم جميعا ٠ ولم تكن دراسة أوضاع زعيم المستقبل تفي بالغرض لوحدها ٠ بل كان يلزم الى جانبها دراسة وافية عن أوضاع كل رجال الصف الاول (الصفوة) الذين يلونه مباشرة وكذلك الصف الثاني ، والقاعدة أو الصف الثالث ٠ وهؤلاء كلهم سيؤلفون وحدة متفقة الاهداف موحدة الغايات والنيات ٠

٣ ـ كان علينا الاعتراف بعدم نجاح أي حاكم في قيادة أحد الشعوب العربية ، ما لم يتمكن من توحيد هذا الشعب للوقوف صفا واحدا ضد الاخطار التي تهدده ، فاسلوب « يجب أن أعرف وجهة الغوغاء لانني أنا رئيسها » لم تعد مرغوبة منا • فللمصريين تاريخ طويل امتد قرونا عديدة تسلطت عليهم فيه قيادات أجنبية وفاسدة ولكنها كلها لم تحظ بثقتهم أبدا • وينطبق على هذا الجزء من العالم ، قول برتراند رسل « ان الخطر الذي يهدد الجميع هو السبيل الاسهل لتحقيق التجانس بين الجميع ••• » وكان قادة العرب يستغلون فكرة الخوف من اسرائيل ليبقوا شعوبهم في شبه وحدة وطنية • ولم يكن أمامنا مفر من استغلال الشعارات ذاتها في مصر ، شريطة أن لا نفقد زمام الموقف فتؤدي اثارة هذا الشعور الى عواقب وخيمة • وعلى كل حال ، فاحتمال وقوع هذا الخطأ ضئيل جدا لبشاعة هزيمة الجيش المصري على أيدي الاسرائيليين سنة ١٩٤٨ ، بالاضافة الى فقدان الامل في تبني أي زعيم بنجاح ، ما لم يعمد الى هذه الشعارات فيطرحها الجماهير لتتلهى بها سنوات طويلة •

وهكذا طفقنا نبحث عن زعيم من النوع الثاني ـ الذي يكون الحاكم فيه مجنون سلطة ـ ولكن بادراك واتزان • وعند اليأس ، كنا نعاود البحث عن حاكم من النوع الاول ـ أي زعيم الواجهة ـ •

ورحل كيرميت روزفلت في شباط فبراير ١٩٥٢ الى مصر ، كي يشرف على تنفيذ المخطط الاول عن كثب • وكانت بعثته أول من حاول تنظيم ثورة سلمية في مصر ، تحت قيادة الملك فاروق نفسه ، يصفي فيها النظام القديم ويشرف على ابداله بنظام جديد ، مطوقا بذلك محاولات الثورة المتكررة ضده ، والتي كانت وكالة المخابرات المركزية على صلة بها قبل أكثر من سنتين • وكان روزفلت مفوضا بأن ينتقل الى المخطط الثاني اذا واجهته صعاب في اخراج المخطط الاول الى حيز الوجود • ولم يكن المخطط الثاني يعني سوى البحث عن زعيم من النوع الثاني وهو « مجنون السلطة » أو زعيم من النوع الاول (الواجهة) ، أو الاثنين معا ان أمكن ذلك •

وكيرميت روزفلت ـ حفيد الرئيس الراحل تيودور روزفلت ـ مشهور

برباطة جاشه وشجاعته في الملمات · فهو من النوع الذي يستهوي الفئـدة الشرقيين ويتمتع بميزة فريدة ، الا وهي القدرة على دعم كـل من الحكـام التقليديين والثوريين معا · وكان مولعا بالمغامرات · وقد دفعه ولعه هذا الى الالتحاق بوكالة المخابرات المركزية التي خيبت آماله فيما بعد · اذ وجد فيها كثيرا من التقييد لاحلامه · ولم يزل برئيسه الجنرال بيديل سميث حتى وافق على انتدابه الى وزارة الخارجية وعمل كمبعوث خاص[1] للوزير دالس لتنفيـذ مهمات غير عادية كعملية آجاكس التي وقعت في آب (اغسطس) ١٩٥٣ ، عندما قاد روزفلت انصار الشاه في ايران ، في مظاهرات صاخبة ضد الدكتور مصدق ، وتخلص من حكمه ، وعاد الشاه من منفاه في روما الى عرشه فـي طهران · وكان تنظيم الثورة السلمية في مصر ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ أولى مهمات روزفلت الشهير هذا ·

كان الملك فاروق معجبا بروزفلت منذ أيام الحرب العالمية الثانية عندما كان البريطانيون يضغطون عليه بالسلاح للتخلص من العناصر المؤيدة للمحور واستبدالها بوجوه تختارها بريطانيا · وقد وقف روزفلت ابان تلك الازمة الى جانب الملك ، وتوقع له نظاما مستقلا ذا سيادة بعد انتهاء الحرب الثانية وسيكون الملك اول حاكم مستقل منذ الفي عام · ولذلك فقد استقبل الملك فاروق المستر روزفلت استقبالا حارا عندما عاد الى القاهرة سنة ١٩٥٢ · ولكن الملك لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين كان روزفلت يبحث عنهم · فقد كان الملك فاقدا القدرة على تركيز أفكاره · وكم من جلسة أبدى فيها تفهما عميقا لما يدور في مملكته ، ووافق على اتخاذ بعض الاجراءات الاساسية في خطة روزفلت · ولكن كان في اليوم التالي يختفي عن الانظار مفضلا ممارسة هواياته في العربدة والجنس ، وضاربا عرض الحائط بكل ما اتفق عليه فـي اليوم السابق · ولا يتحرج في الاسبوع التالي من اتخاذ اجراء ينسف خطـة روزفلت برمتها · وقد أمضى روزفلت في القاهرة الشهرين الاولين من سنة ١٩٥٢ مع الملك يلهوان بتنفيذ مخطط الثورة السلمية ، وذلك بأن دفعا رجلي الحكم القويين : مرتضى المراغي ، وزكي عبد المتعال لخلق أزمة وزارية · بينما أوعز الملك الى البوليس السري لجمع الادلة والوثائق ضدهما ، ليثبت ــ حين تحين الفرصة ــ أنهما عميلين للمخابرات الامريكيـة · ثم قام الملك بتكليف

نجيب الهلالي ذو الشهرة الواسعة والسمعة الجيدة في مصر ليتولى مهام رئاسة الوزراء . ولكن الملك لم يستدعه بلباقة كافية ، مما جعل الهلالي يرفض تسلم رئاسة الوزارة ، حتى اتصـــل به روزفلت وأسر له أنه لم يتســـلم رئاسة الوزارة ، ويقوم بتطهير جهاز الدولة من المرتشين والفاسدين ، ويكون رائدا للثورة السلمية ، فان الثورة لن تبقى سلمية أبدا . ولذلك فقد قام الهلالي بابعاد المسؤولين عن الفساد والفوضى في الحكومة ، استبدلهما بآخرين أكثر لصوصية ، ولكنهم من انصاره . فكانت النتيجة أن اضطر روزفلت في أيـار (مايو) ١٩٥٢ أن يرفع يديه مستسلما وموافقا على إن الجيش وحده هو القادر على مواجهة الموقف المتدهور في مصر ، وعلى اقامة حكم يستطيع الغرب أن يقيم معه علاقات ود وتفاهم . وكان « كافري » أيضا يعرف مصر جيدا فهو اقدم سفير في السلك الديبلوماسي للولايات المتحـدة . ولم يبق بعيـدا عن مجرى الحوادث ، بل كانت له وسائله الخاصة التي تختلف كليا عن وسائـل بقية أفراد السفارة . فقد اعتمد على بعض الامريكيين من أصدقائه خـارج سلك السفارة ، كما اعتمد على أحسن اثنين من رجاله ، وهما : الملحـــق العسكري المساعد العميد دافيد ايفان والمسؤول السياسي وليام ليكلاند . أما بقية أفراد السفارة فقد كانوا يعتبرون القاهرة والاسكندرية أماكن نزهة مريحة للطبقة الارستقراطية وللسلك الديبلوماسي ولكن ليس لهما أي مستقبل سياسي بسبب تدهور الاوضاع ، الى حد اليأس . وقد اضطر كافري في أحد المرات أن يلفت نظر أفراد سفارته الى الكف عن استعمال بعض الالفاظ النابية بوصف المجتمع المصري بها.ومع أن كافري نفسه يرى أن السياسيين القدامى هم وحدهم الفئة الاليفة التي يجدر بها أن تحضر حفلات الكوكتيل الديبلوماسية . وفي خضم مثل هذه الاحداث لم يكن ليدرك مدى أهمية الدور الذي سيلعبه الجيش المصري ويعيره انتباها كافيا الا كافري نفسه وبعض المقربين منه .

ولقد كره روزفلت الانقلابات العسكرية ، وخصوصا بعد ما شاهد بأم عينه الفوضى التي آلت اليها الاوضاع في سوريا . ولكن كان كرهه هذا قبل اجتماعه ببعض الضباط الذين أشارت اليهم وكالة المخابرات المركزية على أنهم القادة المحتملون لتنظيم الضباط الاحرار الذين يزمعون القيام بانقلاب عسكري . وقد حصل هذا في آذار (مارس) ١٩٥٢ قبل أن يقوم عبد الناصر بانقلابـه

بأربعة أشهر . وعندما علم عبد الناصر بمعرفة وكالة المخابرات المركزية بتنظيمه ، وافق على التقرب منها ، وأرسل بعض ضباط التنظيم من المرتبة الثانية للالتقاء بروزفلت في البداية . ولكن في الاجتماع الثالث أوفد عبد الناصر أحد أكثر ضباطه ثقة وأمانة كمبعوث شخصي له . ويومها توصل الضابط الى اتفاق رائع مع روزفلت وجدير بالاهتمام والانتباه .

وتم الاتفاق فورا على ثلاث نقاط جوهرية :

الاولى منها نصت على عدم امكانية جماهير شعب ما القيام بثورة تطيح بالنظام القائم بدافع من سوء الاحوال الاقتصادية . ولقد بذل روزفلت قصارى جهده لاقناع وزارة الخارجية الامريكية بذلك ، داعما رأيه بشواهد من كتاب كرين برينبتون حول « تشريح الثورة » ، وأن العوامل الاقتصادية لم تشكل في يوم من الايام قوة دفع رئيسية للثورات الكبرى في التاريخ . وأن حكومة الولايات المتحدة لا يمكنها التخلص من نظام حكم قائم بمنع القمح عنه . ولقد استفاد عبد الناصر من هذا الرأي فيما بعد ، عندما هاجم الولايات المتحدة بعد سنوات من انقلابه لانها أوقفت شحن القمح لمصر واتهمها بتجويع شعبه ، وألقى على كاهلها مسؤولية تردي الاوضاع الداخلية وبرأ نفسه منها .

وكانت النقطة الثانية تؤكد عدم امكانية جماهير الشعب المصري القيام بأية ثورة ضد أي نظام قائم مهما ساءت الظروف وتردت الاوضاع . وكان في مصر يومها حركتان ثوريتان ، هما : حركة الاخوان المسلمين والحزب الشيوعي المصري . وكل منهما يعتقد أن الشعب المصري بكل طبقاته الممثلة في العمال والفلاحين والمهنيين والموظفين في غليان شديد . وأن تفجير الازمة يمكن أن تحدثه نداءات مناسبة للظروف التي تمر فيها الامة . ولكن عبد الناصر لم يوافق على هذا الرأي ، وكان اعتقاد ممثليه في الاجتماع أنه بغض النظر عن نوع حكام القطر المصري فان احتياجات الشعب المتزايدة ستضعهم ثانية أمام التحديات الاقتصادية الملحة .

ولقد قال أحد كبار مندوبيه في أحد الاجتماعات : ان الشعب المصري لا يرغب في الحصول على الكثير وأنه أمضى آلافا من السنين على كفاف العيش وباستطاعته أن يمضي ألفا آخر من السنين معتمدا على موارده الثانوية . كما

ان الشعب المصري غير مهيأ لان يثور بسبب هذه الدوافع . وان ثار فانه غير راغب في عيشة جد وعمل بعدها . وسوف يبذل الضباط الاحرار قصارى جهدهم لبعث هذه المفاهيم في شعبهم ، ولكنهم لا يجدون الوقت الكافي الآن . ولذلك فالجيش المصري سيقوم بالاستيلاء على السلطة في أول فرصة مناسبة تكفل له تأييدا سياسيا من سكان المدن ومن ثم بقية أنحاء البلاد .

وكانت النقطة الاخيرة في الاتفاق تبحث طبيعة التعابير المتبادلة بين حكومة الولايات المتحدة والحكومة المصرية الجديدة . فان الجزء الذي سيكشف منها للجماهير ، يجب أن يحتوي على شعارات للاستهلاك المحلي مثل « اعادة الحياة الديمقراطية » و « اقامة حكومة نزيهة حرة » ولكن يجب أن يكون مفهوما بيننا ، وبصورة أكيدة أنه لا أصل لهذه الشعارات في حقيقة الامر . وأن الشروط اللازمة لتطبيقها غير متوفرة على الاطلاق . ولن تتوفر الا بعد سنوات عديدة وجهود مضنية تقوم بها الحكومة الجديدة مثل :

١ ـ نشر التعليم وتعميمه .

٢ ـ التشجيع على ظهور طبقة متوسطة كبيرة ومستقرة .

٣ ـ نشر شعور عند الجماهير بأن الحكومة الجديدة هي حكومة الشعب ، منه واليه ، وليست حكومة مفروضة من قبل الفرنسيين أو البريطانيين أو طبقة الاقطاعيين والرأسماليين المصريين .

٤ ـ كل ما سيسود من المثل والمبادىء يجب أن يصبغ بالصبغة المحلية الوطنية حتى لا تكون الانظمة والمفاهيم الجديدة ، محض تقليد لمثيلاتها في الولايات المتحدة أو بريطانيا . وقد تأكد لروزفلت وممثل عبد الناصر أن عامة الامريكيين من صحفيين وموظفين وأعضاء في الكونغرس ورجال الحكم وحتى وزير الخارجية بالذات لن يكفوا بسهولة عن ترديد الشعارات القديمة . وبنفس الوقت فلقد أدرك الجميع أن أية محاولة مبكرة لاعادة الحياة الديمقراطية لن تعني سوى العودة الى الفوضى والفساد السابقين . فالانتخابات ستجري بين مرشحين تدعمهم الولايات المتحدة وبريطانيا ضد مرشحين تدعمهم السوفييت . ومن أصل ٢٨ مليون مصري ، كان هناك حوالى ٢٤ مليونا من الفلاحين المصريين لن يدلوا

بأصواتهم الا حسب تعليمات الاقطاعيين وتوجيهاتهم • وستلجأالجماهير في المدن الى الاضطرابات كوسيلة وحيدة للتنفيس عن آلامها والتأثير على الوضع السياسي ، ولن يجدوا أمامهم سوى الانضواء تحت راية الاخوان المسلمين او الشيوعيين ، المُتَنَفَّسَيْنْ الوحيدين في ذلك الوقت لفئات الشعب •

وكانت هناك مشاكل عديدة لم نتمكن من الوصول الى اتفاق صريح حولها • ولكنها ساعدت كثيرا في الوصول الى تفاهم مشترك حول الدوافع الاساسية وراء حركة الانقلاب المقبلة • وقد اشتملت على الامور التي يجب علينا أن نبحث عنها تحت المظاهر السطحية للاحداث • وكان بعض هذه المشاكل ذا أهمية لا بأس بها • الا أن واحدة فقط تستلفت انتباهنا فوق العادة وهي قضية فلسطين • فالجماهير العربية على اختلاف فئاتها وطبقاتها تولي فكرة استرجاع فلسطين الاولوية على سائر شؤون الحياة الاخرى بصورة لا تقبل البحث في هذا الموضوع ابتداء • وعبد الناصر نفسه مع ضباطه الذين خططوا للانقلاب كانوا يعتبرون هزيمة الجيش المصرى سنة ١٩٤٨ على أيدي القوات الاسرائيلية ، هزيمة مريرة يصعب تناسيها • وأن شعور الكراهية لاسرائيل من العناصر التي لا يمكن التغاضي عنها كمبررات لأية ثورة تقع في البلاد •

ولكن لم تمض خمس سنوات على تلك الهزيمة في فلسطين حتى كانت احاديث التكتات ، ومناقشات عبد الناصر ورفاقه مع المئات من الضباط قد انتهت الى رأي معاكس • فقد لمسوا أن حشدهم لموارد الدولة المصرية وطاقات شعبها سوف يساعدهم على الوصول الى أهداف أبعد من خدمة القضية الفلسطينية • ولكنهم لن يستفتحوا فترة حكمهم بمثل هذه الشعارات التي لن تفيد الثورة اطلاقا • وقد أخبر عبد الناصر كيرميت روزفلت صراحة أنه مع ضباطه لن ينسوا ذلك الاذلال الذي لاقوه على أيدي الاسرائيليين سنة ١٩٤٨ • الا أن نقمتهم ستنصب بالدرجة الاولى على كبار ضباط الجيش المصري ، ثم على بقية حكام العرب والبريطانيين ، وأخيرا على الاسرائيليين • ولقد توصل روزفلت الى نفس النتيجة من خلال محادثاته مع الزعماء المدنيين في مصر ومن بينهم فاروق نفسه • وكان السفير كافري قد حصل بدوره على نتائج مشابهة •

وبعد كل ذلك الاستعراض لجميع النواحي ، وصلنا الى مسألة أكبر

حساسية ودقة ، الا وهي مشكلة القومية العربية . فلم يكن لدي أي من المسؤولين المصريين يومها ، سواء من العسكريين أم من المدنيين ، أى مفهوم واضح حول « العروبة والعرب » . وكان أول المبادىء المتبعة في صناعة الانقلابات ، في أي بلد عربي ، هي أن ترفع شعارات وطنية اقليمية ، فمصر للمصريين ، وسوريا للسوريين ، والعراق للعراقيين . وكل الكلام عن الاخوة العربية وشعار « كلنا عرب » لم يكن ليتعدى الحدود العاطفية الضيقة ، ولم يكن له أي اعتبار في ميزان القوى لأى انقلاب عسكري ، ويبقى الولاء للانقلاب هو المقياس الرئيسي لنجاحه وفشله . ولقد انطبق هذا الوضع تماما على المصريين عامة ، وعبد الناصر خاصة . فعندما قام بانقلابه لم يكن يعرف الا القليل عن العرب ، بل ولم يكن يشعر أنه عربي . وكذلك لم يكن قد زار أي قطر عربي أو واجه أي شعب عربي . ولكنه أصبح زعيما عربيا بعد أن دخلت كلمة « عرب » القاموس السياسي لشعوب المنطقة . ولم تفلح معرفته المحدودة وقتئذ بالعرب في تحريك محبته لهم . ولم تساعده زياراته لبعض الدول العربية منذ سنة ١٩٥٢ على اكتساب اية خبرة جديدة في هذا المجال ، وانما أكدت له شكوكه السابقة بالعرب . فقد بقي العراقيون في نظره متوحشين ، واللبنانيون مرتشين فاسدين، (ولم تكن بيروت في نظره أكثر من ناد ليلي مترامي الاطراف) ، والسعوديون قذرين ، واليمنيون اغبياء متخلفين ، والسوريون مخادعين لا يقدرون المسؤولية ولا يثقون بغيرهم . ولكن عبد الناصر بالتأكيد ، ينكر الآن جميع مواقفه وآرائه تلك ، بل وعلى العكس فهو يعتقد أن في العالم حقيقة ملموسة هي « العالم العربي » (وبدأ هذا بعد عودته من مؤتمر باندونغ) . كما أنه يتمتع بشعبية لا بأس بها في أوساط السوريين واللبنانيين والليبيين والاردنيين ... الذين سيطرت على مشاعرهم فكرة الوحدة والعروبة وتجاوزت نزعاتهم الاقليمية بعد تخلصهم من أنظمتهم الفاسدة، ومن الجدير بالذكر أن رفاق عبد الناصر الذين ساعدوه في الوصول الى السلطة ، ويعود لهم الفضل في بقائه فيها حتى الآن ، لا يشاطرونه رأيه ولا يسايرونه في مواقفه العربية الا ضمن حدود المصالح المصرية المحضة . وقد كانت النزاعات المصرية العربية تعكس نوعا خاصا من التصورات داخل قصور الساسة المصريين ، ساعدت على تامين توازن مستمر بين الازمات الداخلية

والانتصارات الخارجية . على أن عبد الناصر نفسه سرعان ما يصبح أكثر تعصبا لمصريته واقل حماسا لعروبته كلما نشبت الازمات داخل مصر . وأما في تخطيطه لاستراتيجيته السياسية فلا يتردد في وضع المصالح المصرية فوق غيرها معتبرا مصالح العرب كلهم تبعًا لمصالح مصر .

ولقد أتيت على ذكر هاتين النقطتين : عدم أهمية موضوع تحرير فلسطين وعدم قيام أية علاقة بين القومية العربية ودوافع الثورة المصرية بسبب ما أثارتا من سوء تفاهم أدى الى تعكير صفو علاقاتنا معه ، وارتكابنا أخطاء فادحة معه ومع الزعماء العرب الذين لهم نفس الاهداف والغايات .

وقد احتل موضوع عدم رضى المصريين عن وضع البريطانيين في مصر وسخطهم عليه ، جانبا مهما من الاحاديث التي دارت بين الضباط الاحرار ومندوب وكالة المخابرات المركزية كرميت روزفلت . ولكن لم تكن النظرة ذاتها تجاه بعض الشخصيات أو التقاليد البريطانية التي كانت تستحوذ على اعجاب المصريين والضباط الاحرار . ولا أزال أذكر استهزاء عبد الناصر ببزة أمريكية أهديتها له ووصفها بأنها مدعاة للضحك . فسألته أية البزات تفضل ؟ فأجاب : البريطانية طبعا . ومع أنهم أحبوا الامريكيين لامتزاج المساعدة مع الصداقة ، فقد حافظوا على اعجابهم بالبريطانيين وكان عدم تجاوب البريطانيين مع هذه النظرة سببا في جرح شعور المصريين وانكار خدمات البريطانيين لهم . وقد اتضح هذا عندما قام مراسل الاسيوشيتدبرس ، مستر ولتون واين ، بمحاولة انتزاع كلمة مدح أو ثناء للبريطانيين من عبد الناصر بعد تذكيره بجهود المسؤولين البريطانيين ، أمثال اللورد كرومر ، في الاصلاح المالي ، ونظام الحكم ، ونظام المجاري ، وحماية الفلاحين من عمل السخرة . ولكن عبدالناصر أنكر فضلهم قائلا : انهم قد جعلوا منا مواطنين من الدرجة الثانية ونحن لا نزال داخل بلادنا .

ولا بد من التنويه الى نقطة مهمة بهذه المناسبة ، وهي أن عبد الناصر (وأمثاله من الحكام) كانوا في ذروة عدائهم للاجنبي (وهو هنا البريطانيون) يصبون جام غضبهم على طبقة السياسيين القدامى (الطبقة المرَوِّضَة) التي لولا تخاذلها واستكانتها لما امتد نفوذ الاجنبي وتمادى داخل البلاد . وكان هذا الموقف مشابها تماما لموقف قادة الحكومة الامريكية عندما سخطوا على القادة

العسكريين في موقعة ميناء بيرل هاربر ، بدل أن يسخطوا على اليابانيين . فَسَخَطُ ناصر ورفاقه على طبقة السياسيين القدامى من الشعب المصري كان متأصلا دفينا . في حين كان سخطهم على البريطانيين لا يلبث أن تذهب ريحه على أثر معاملة حسنة يلقونها من السفير البريطاني . وكان عبد الناصر (وأمثاله من الحكام) مدركا تمام الادراك لهذه العقدة النفسية . كما أدركها من قَبْلُ السفراء البريطانيون من همفري تريفيليان الى هارولد بيلي . ولكن لسوء الحظ لم يدركها الديبلوماسيون الامريكيون أبدا ، باستثناء واحد أو اثنين .

وعندما عاد روزفلت الى واشنطن ــ قبل شهرين من وقوع الانقلاب في مصر ــ قدم تقريرا الى وزير الخارجية الامريكية دين اتشيسون ، تضمن النقاط التالية :

١ ــ لم تعد الثورة الشعبية التي كان يسعى اليها كل من الاخوان المسلمين والشيوعيين ــ وتخشاها وزارة الخارجية الامريكية ــ واردة في الحساب .

٢ ــ لم يعد هناك أي أمل في ابعاد الجيش عن القيام بانقلاب قريب ، وإثنائه عن عزمه على استلام السلطة ، رغم كل التحفظات التي كان يبديها واضعو مخططاتنا في واشنطن ، من أن تكون النتائج مشابهة لما جرى في سوريا على أيدي العسكريين .

٣ ــ ان قادة الانقلاب المحتمل ، يرفعون شعارات قياسية تخالف ما اقترحه كثير من المراقبين الديبلوماسيين ، وتجعل منهم ، وهم في السلطة ، طرفا لينا ومرنا في أية مفاوضات نخوضها معهم ، كما أنها تزيد من فرصتهم في النجاح .

٤ ــ يجب أن توافق الحكومة الامريكية على إقصاء الملك فاروق ، وربما دفن النظام الملكي نهائيا في مصر . ولا يمنع هذا من اتباع بعض الشكليات الديبلوماسية ، وارسال مذكرة احتجاج رقيقة تفسح المجال أمام السفير كافري لاظهار قلقه المصطنع على سلامة الملك فاروق .

٥ ــ وعلى الحكومة الامريكية أن لا تفكر على الاطلاق ببذل أية محاولة بعد وقوع الانقلاب لاقناع العسكريين باعادة الحياة الدستورية واجراء

الانتخابات وما الى ذلك ٠٠ وعليها أن تبني علاقاتها مع العهد الجديد على أساس أن الحياة الديمقراطية ومؤسساتها يجب اعادة بنائها من جذورها

٦ – وعلى الرغم من الاجتماعات التآمرية العديدة التي مهدت للانقلاب ، فمن المستحسن أن لا يحاول أيٌّ من المسؤولين الامريكيين أن يفكر بأن الانقلاب انقلابا ، بل إنه مجرد حدث داخلي متحرر الى حد ما من نفوذنا ، وكل ما علينا أن نقدمه من مساعدة وتأييد هو عدم وقوفنا في طريقه ٠ وأما بشأن الحاجة الى عدو يلتقي الجميع على كراهيته والخوف منه – وفقا لمبادىء برتراند رسل – فان هذا العدو لن يكون اسرائيل ، بل طبقة السياسيين القدماء والاقطاعيين « الطبقة المروضة » في مصر ، ثم البريطانيين سواء رضينا بهذا أم أبيناه ٠

وقد أفاض روزفلت في حديثه عن صفات الحاكم الذي سيبرز على مسرح الاحداث عاجلا أم آجلا ٠ وأول ما تم الاتفاق عليه في اللجنة التابعة لروزفلت هو الحاجة الى حاكم يستطيع أن يضفي على نفسه صبغة القدسية والانقاذ ٠ ولكن الظروف السائدة في مصر وقتئذ لم تكن بحاجة لاكثر من حاكم يرفع شعارات أضيق ومفاهيم أبسط ٠ وعلى هذا الحاكم أن يتمتع بشيء من قوة السلطة وسحر الشخصية ٠ ليتمكن على الاقل من السيطرة على مجموعة من الرجال تتمكن مجتمعة من ادارة دفة الامور في البلاد ٠ وكان كل ما طلبناه متوفرا في مجموعة الضباط الاحرار ٠ ثم ذكر روزفلت أنه : « سواء بقي الحاكم مسيطرا على زمرة صغيرة تمكنت من حكم البلاد ، أم تحول الى زعيم ذي شعبية كبيرة ، فانه يبقى دون مقومات الزعامة كما نتصورها نحن الغربيين ٠ وفي أسوأ الظروف ، فان لم نحقق أي نجاح من تفاهمنا مع زعيم كهذا ، فلن نخسر شيئا ، وسيكون ذلك درسا نافعا لنا في مواجهتنا لامثاله ، سواء في مصر ، أم في بلاد عديدة أخرى ، تمر في نفس الظروف وتعاني من نفس الصعوبات » ٠

- ٤ -

حليفنا المستقل : ناصر في الحكم

... ونجاح مخططاتنا رهين بزعيم يتخذ منها اهدافا ومبادئ ... .

كان كيرميت روزفلت يخشى رفض لجنة المتابعة في الكونغرس لمناوراته . فعندما عاد الى واشنطن لم يفصح أمامها عن كل خفايا نشاطه في مصر ، فغدا تقريره لها مريحا غير مخيف . فلم يذكر فيه حقيقة الجهود التي بذلها مع غيره من المسؤولين الاميركيين حتى أمكنهم العثور على زعيم متعطش للسلطة ، بونابرتي الطراز ، ذي قدرة على جمع شمل شعبه حول قضية ما تتوحد فيها مخاوف الأمة وآلامها . أما تقارير روزفلت الشفوية فقد اتسمت بطابع الصراحة والوضوح . فقد أخبر المسؤولين أنه من العسير لرجل ما يتأجج فيه حب جامح للسلطة وحرص بالغ عليها أن يبقى مكتوف اليدين منتظرا أحد عملاء دبلوماسية ما وراء الكواليس الامريكيين ليلهبه حماسا ويدفعه الى تحقيق أمانيه . واوضح أيضا ان صفات كالتي سبق ذكرها لا يمكن تطويرها وابرازها نتيجة بحث طويل واستقصاء شامل لمواهب وكفاءات بني الانسان ، وانما هي محض فطرية وشخصية . وانتهى روزفلت الى النتيجة أن لقاءاته في مصر أفهمته أن لجميع من قابل من الضباط علاقة وثيقة بضابط ما قد استوعب كليا شروط أي استيلاء على السلطة والمحافظة عليها ، وأنه لا محالة مقدم على هذا . ومن خلال الملاحظات والافكار التي أرسلها روزفلت الى ذلك الضابط فقد تأكد له أن الاخير أدرك تماما مقاصدنا ومرامينا وقبول التزامنا بتسديد تكاليف تحقيقها . ونتيجة لذلك، فان قيام أي تفاهم متبادل وعلاقات وطيدة لم يعد أمرا عسيرا عندما يحين الوقت المناسب .

ولم تعلم الحكومة الامريكية بوقوع الانقلاب الا من الصحف الصادرة صباح ٢٢ .يوليو (تموز) ١٩٥٢ ، ولكن سبق هذا سيل من المعلومات تدفق من خلال تقارير وكالة المخابرات المركزية ، مشيرا الى ان أحداثا ما ستقع في مصر بدون

تحديد زمانها أو تحركاتها · وأيدت الصحافة المصرية الانقلاب الابيض بكليتها ، ووقف الشعب مع رجال الثورة بدون اي أسف أو ندم على الاطاحة بالملك الخليع · وظهر اللواء محمد نجيب وديما أنيسا بغليونه الجذاب كانه الآمر الناهي ، وان لم يكن كذلك حقيقة · كما ظهر مساعدوه من الضباط الشبان بقاماتهم النحيلة وأجسامهم الرياضية على أنهم آمال الشعب واحلامه في بناء كيان الدولة المصرية الحديثة · ولم تردد الاذاعات المصرية أيا من البلاغات المثيرة أو البيانات العنيفة التي كانت ديدن الانقلابات العسكرية في سوريا ، وانما اكتفت بتعريف الشعب عن عزمها على تطهير الحكومة من الفساد واقامة حكم قادر فعال ، واصلاح الاحزاب السياسية ، وغير ذلك· ولكن البلاغات كلها لم تتطرق البتة الى مشكلة فلسطين او اي ذكر لاسرائيل ولا على الاقل بكلمة واحدة ·

وأما السفارة الامريكية فلم تقف على تفاصيل الانقلاب الا من فم علي صبري، أحد ضباط عبد الناصر الذي أصبح فيما بعد من أشد خصوم الإمريكيين · وقد وقع الانقلاب في الساعة الثالثة ليلا · وفي ساعة متأخرة من صباح ذلك اليوم أرسل عبد الناصر السيد علي صبري للاجتماع رسميا بالسفير كافري وتقديم تقرير شامل له عن وقائع وأحداث ليلة الانقلاب الى جانب تأكيد الحكومة الجديدة عن عزمها على اقامة علاقات وطيدة مع الولايات المتحدة · وتلا ذلك تأكيد علني آخر من اللواء محمد نجيب ـ وكان يعتبر آنئذ أب الانقلاب ـ أن قضية فلسطين لا تعنيه في شيء · ولكنه سرعان ما قام بزيارة السفير كافري بعد ساعات،طالبا سحب ذلك التصريح واستبداله بآخر « أقل » تقبلا للراي العام في الولايات المتحدة ولكنه أكثر انسجاما مع المبادىء والاسس التي لاتفقنا وعبد الناصر على أنها ضرورية وهامة لكسب الرأي العام المصري ونيل تأييده للعهد الجديد ·

أما المسؤولون في واشنطن فقد غمرتهم موجة من السرور نتيجة هذا الانقلاب ، وأدركوا جميعا انه أصبح في حوزتهم على المسرح العالمي لاعب جديد من الطراز الذي بذلوا قصارى جهدهم للعثور عليه ، وأن كل ماسيصنعونه معا من الخطط سيحظى بنسبة عالية من التعاون المثمر واحتمالية ضئيلة من الخلاف والشجار ·

كانت التقارير والتفسيرات الاولية تشير الى أن اللواء محمد نجيب كان رأس الثورة وعلى هذا الاساس بنت الحكومة البريطانية والامريكية علاقاتها مع العهد الجديد · ولكن سرعان ما ذاب الثلج ، وانتزع عبد الناصر زمام الامور منه ، ولم يمض بعد أكثر من عدة شهور على الانقلاب · والغريب ان كيرميت روزفلت قد اقتنع عندما أكد له عبد الناصر انه ليس هو رأس الثورة مع أن وليم ليكلاند المسؤول السياسي في السفارة الامريكية في القاهرة وبعض موظفيها قد أكدوا أن اللواء نجيب لم يكن أكثر من ستار اتخذه عبد الناصر لنفسه حتى يحين موعد ظهوره على المسرح شخصيا · وزادت العلاقات قوة بين ليكلاند والضباط الاحرار عن طريق حسنين هيكل الذي كان صلة الوصل بينهم · وقد أصبح هيكل فيما بعد من أقرب المقربين لعبد الناصر في حين لم يكن آنئذ أكثر من محرر في صحيفة سياسية يملكها مصطفى أمين أحد أصدقاء عبد الناصر · وقد هيأ هيكل الجو للعديد من المقابلات بين ليكلاند وقادة الضباط الاحرار بما فيهم عبد الناصر نفسه ، واعتاد ليكلاند أن يستقبلهم في شقته المطلة على النيل بترحاب واكرام زائدين ·

وكانت نتيجة هذه اللقاءات أن بدأت سفارتنا في القاهرة ترسّخ علاقاتها مع عبد الناصر نفسه كرجل الدولة الحقيقي والآمر الناهي بلا منازع ، في حين بقي الشعب يصفق للواء محمد نجيب ويهتف له في الشوارع والساحات · ولكن السفير كافري لم يقطع علاقاته الرسمية باللواء نجيب وقام بزيارات تقليدية متقطعة له ناقلا بعض الرسائل الرسمية من حكومته في واشنطن التي لم تنطو على أكثر من مجاملات وتقاليد دبلوماسية · في حين كانت العلاقات الحقيقية للحكومة الامريكية مع الثورة المصرية تتم عبر الصلات الوطيدة التي نشأت بين عبد الناصر وليكلاند بفضل جهود هيكل نفسه الذي أضحى ذا دور رئيسي فيها بعد نجاحه في البلس وجهات نظر كل من عبد الناصر والسفارة الامريكية حلة بهية قبل نقلها الى الطرف الآخر ·

أمسك كيرميت روزفلت وأعضاء لجنته الخاصة عن الاتصال المباشر بعبد الناصر بعد الانقلاب ، وقنعوا بمراقبة تطورات الاحداث في مصر بدون الانغماس فيها · فقد تطورت الامور بهدوء تم حسب الخطة المرسومة لها · وكان الكف عن الاتصال المباشر بعبد الناصر ضروري لاستبعاد أية شبهة

لتواطئنا مع النظام الجديد · وكانت رغبة جميع المهتمين بشـؤون الشـرق الاوسط ترك الحرية كاملة لحكومة الانقلاب،لمعالجة مشاكل البـلاد وحلها بطريقتها الخاصة · ولم نعثر على أي مبرر للكشف عن القـوى الحقيقيـة وراء الانقلاب واظهار اللواء نجيب على انه ليس أكثر من ستار ما يلبث أن يزاح · ولكن لم يكتب لهذا الوضع أن يعمر طويلا فما لبث أن تبدل في عام ١٩٥٣ بعد مجيء الرئيس ايزنهاور الى البيت الابيض وابداء رغبته في العودة الى ممارسة دورنا مباشرة فيما نزمع تخطيطه وانجازه مع نظام حكم عبد الناصر · وكـان الدافع الاول لهذا هو اتقان دراستنا لدور هذا اللاعب الجديد في مسرحياتنـا والتأكد من تحركاته وفق توقعاتنا · وكان الدافع الثاني ضمـان حصولنـا بتحركاته هذه على استراتيجية نصر عند نشوب أول نزاع مع أعدائنا · وأمـا ثالث الدوافع فكان الاستفادة من هذا التقارب والتفاهم لتحقيق تعـاون أوسع وأعمق بيننا قدر الامكان · ومع أننا أدركنا أن مساعداتنا لعبد الناصر سوف تزيد من قوة مركزه في مسرحياتنا الدولية ولكننا لم نستبعد تَحَوُّلَ دوره فيها الى خصم لنا ومنازع · وكل ما بقي لنا وقتئذ هو الامل فقط في أن نفلح فـي موازنة خطرخصومته لنا بزيادة طاقتنا وتوطيد عزائمنا على أن يكون سلوكنا هذا يخدم أهداف ومصالح كلا الطرفين معا ·

وبينما كان وزير الخارجية جون فوستر دالس يحزم حقائبه عشية جولة له في الشرق الاوسط في أيار (مايو) ١٩٥٣ أبلغ كيرميت روزفلت عن رغبته في الوقوف على نيات ومطالب رجال الثورة في مصر بعدما استتبّ لهم الحـكم ودانت لهم قطوفه · وانتهى الرأي الى قيام روزفلت بانتقاء رجل عسكري مـن طراز ضباط الانقلاب وانتدابه لتلك المهمة · وكان اختيار روزفلت موفقا عندما انتزع من زوايا النسيان المستر ستيفن ميد ، حيث كان يمضي وقته في الصين الشيوعية بمهمات كانقاذ العلماء الالمان المعتقلين هناك والتواطؤ مع قادة العشائر الكردية على الحدود السوفييتية لاغراض تجسس على الامور الحربية وبمهمات أخرى كالتي عهدت اليه سنة ١٩٤٩ في سوريا (انقـلاب حسنـي الزعيم) وسماها وقتئذ « بالعهد الحزين » · فروزفلت ضئيل الخبرة بشؤون الضباط في الجيوش العربيـة الناشئة ، في حـين أن تاريخ انسـان مليء بالمغامرات كستيفن ميد سيكون له انطباع حسن في نفوس « الضباط الاحرار »

في مصر . وكان روزفلت موفقا في رأيه ذلك،فلم يكد يمضي على وصول ميد الى القاهرة (وقبل زيارة دالس) اسابيع قليلة،حتى حاز على اعجاب ضباط الثورة وملك عليهم لبهم . كان مظهر ميد شبيها كل الشبه بمظهر الابطال في الافلام الامريكية . فهو من رجال المظليين المتواضعين الذين انضموا الى وكالة المخابرات المركزية الامريكية نتيجة خطأ في جهاز الفرز الالكتروني قضى بارساله الى المخابرات مع احتمال نزوله بمظلة في الاراضي السوفياتية،بدلا من ارساله الى جبهة القتال . ويملك ميد قدرة هائلة على التقاط اللغات الاجنبية المعقدة بسهولة فائقة ومنها اللغة العربية . اما سلوكه فكان سلوك ضابط نموذجي في أي جيش من جيوش العالم وحتى في الجيش المصري . في حين كان تاريخ حياته المليء بالمغامرات يشكل مادة شيقة لاحاديث السهرة وولائم الليل . على أن انتداب ميد أثار حفيظة عبدالناصر الذي رأى فيه أن وزير الخارجية دالس ما يزال ينظر الى الثورة المصرية من خلال نفس المنظار الذي ينظر فيه الى الانقلابات العسكرية في دول امريكا الجنوبية . وحدث مرة أن حاول أحدهم التدليل على قيمة ميد وفعاليته بذكره احدى مناقبه أمام عبد الناصر،وهي أن ميد هو الوحيد من العرق الابيض الذي فاز بعضوية الشرف في منظمة « الماو ماو »،فما كان من عبد الناصر الا أن طرده خارج القاعة .

أما وجهة نظر الحكومة الامريكية وراء انتداب ميد فهي تمتعه بموهبة فائقة في معرفة الناس ووزنهم وتحليل دوافعهم ونياتهم دون اقحام نفسه في مناقشة ميولهم السياسية . وبالرغم من صداقته لكثير من العسكريين في بلدان مختلفة (بما فيها صداقته لاديب الشيشكلي رئيس الجمهورية السورية)، فانتدابه لم يثر أية شكوك بخصوص التأثير على اتجاهات الثورة المصرية ، الى جانب أنه لم يقم حقيقة بمثل هذه المحاولة مطلقا . وما لبث ميد أن سجل ملاحظات مهمة أثبت التاريخ صحتها وانطباقها ليس فقط على صفوة عبدالناصر المختارة من ضباطه الاحرار ، بل أيضا على أية صفوة عسكرية في بلدان غير غربية ، بما في ذلك فيتنام وافريقيا الغربية واليونان . وبصدد حديثه عن هذه البلدان الناشئة قال روزفلت للوزير دالس مرة : « انه يستحيل صنع ثورة بغير ثوار » وأن الجماهير (على حد زعم بيان كروزيه) لا تثور بدافع سوء أحوالها المعاشية « ولكن الثورة هي التي تولد الثورة » .

وبخصوص استقرار الثورة المصرية ، أخذ ميد يميل ـ بعد أسابيع من لقاءاته المتكررة مع الضباط الاحرار ـ الى الاعتقاد أنها لن تكون شبيهة بالانقلابات في سوريا التي كانت تفتقد ميزة الاستقرار والثبات لكثرة الثوار فيها • فالثورة المصرية من تصميم واخراج عبد الناصر لوحده،وأتباعه ينقادون له بسهولة ويسر • وبعد مدة لـ غير بعيدة ـة كتب ميد الى روزفلت يقول : « ان هؤلاء الفتيان يرون أنفسهم كأفراد عصابة « روبن هود » المرحة وهم مسرورون بهتاف الجماهير لهم على أنهم أبطال الثورة ، ولكنني لم أجد واحدا منهم قادرا على شرح ما تريده هذه الثورة لي ، فهم لا يكترثون للسياسة ولعل هذا من حظنا وحظ عبد الناصر معا • انهم بحاجة الى من يدلهم الى ما عليهم التفكير به وانجازه ، ولست أرى صعوبة في اعادتهم الى تكناتهم والاحتفاظ بهم هناك » •

ولم تخل مقابلات ميد للضباط الاحرار من فترات حرجة • فقد حاولوا أن يدفعوه بعد أيام قليلة من وصوله للقاهرة الى اقناع عبد الناصر بنصب صف طويل من أعواد المشانق أمام قصر عابدين ، الى جانب سرادق خشبي يتسع لمئات المشاهدين ، لتنفيذ أحكام الاعدام بأعداء الثورة • الا أن عبد الناصر وضع حدا لانتشار مثل هذه الافكار الهدامة عندما طلب من رجاله أن لا يتفوهوا بهذا الموضوع ثانية • غير، بعضهم استمر في ترديد مثل هذه الافكار الى أن تسربت الى الرأي العام • وكان سبب ذلك وجود خليط ضخم من الافراد اتهموا بأنهم أعداء الثورة وباستغلالهم مناصبهم لاغراضهم الشخصية مما اضطر ضباط الثورة الى مراقبتهم والتضييق عليهم • ومع أن الالسن بقيت تلوك مثل هذه الافكار حتى خشي البعض من تطور الاحداث وتدهورها على غرار ما حدث في سوريا ، لكن، ستيفن ميد ما لبث أن تحول عن مثل هذا الرأي ومال الى اعتبار مثل هذهالوقائعشيئا عاديا في المراحل الاولى التي تلي الانقلابات والثورات ، فقد شهدت فرنسا مثلها عندما دخلتها قوات ديغول الحرة بعد انسحاب الالمان منها •

واستمد ميد كثيرا من آرائه حول الضباط الاحرار من خلال أحاديثه معهم حول طريقة التحاقهم بتنظيم عبد الناصر ، وتمكن منها من تحديد أبعاد هذا التنظيم السري الواسع ، وكشف الكثير من العهود والوعود التي قطعها الافراد على أنفسهم • ومع مرور الايام وكثرة الاحاديث واللقاءات،بدأ ميد

يرسم صورة أكثر واقعية ـ ولكنها اقل جاذبية للعقلية الشرقية ـ حول ذلك التنظيم للضباط الاحرار • فقد اتضح له أن التنظيم قد أصبح مقتصرا على البقية الباقية من ضباط الجيش بعدما تم صرف الكثير منهم من الخدمة وتطهير صفوفه من المتنفعين الانتهازيين الذين كانوا وكأنهم خُشبٌ مسنّدة لهم من القادة العسكريين اشكالهم ، وعقولهم بريئة من الشؤون العسكرية فهما واكتراثا تطبية الجيش لأنهم أولاد الذوات، يرثون مناصب أسلافهم العسكريين • الا أن عبد الناصر انتقى ضباطه من العناصر الجدية والفعالة الذين شغلوا مراكز حساسة في القطعات العسكرية • ولم يحدث انقلابه أية فوضى أو اضطراب، بل ساعد على ترسيخ السلطة واستتباب النظام • ولم يدع عبد الناصر انقلابه أن يحمل طابع العصيان المسلح الذي لا يهدف إلا الى اغتصاب السلطة ، بل عمد الى تسليم الادارات المدنية الى ضباطه المقتنعين بآرائه السياسية والمعاهدين على تنفيذها ليتيح لهم الفرصة لاصدار أوامرهم وتبليغ تعاليمهم من خلال هذه المؤسسات العامة • وقد حالت رتبته الصغيرة نسبيا دون تصدّره لقيادة الثورة ، واضطراره لدفع اللواء محمد نجيب أمامه الى الواجهة • ولكن لم يلبث أن ملك مفاتيح الامور كلها وانتزعها من يد اللواء نجيب عندما حان الوقت لذلك •

تابع ميد كافة تفاصيل الانقلاب بحذافيرها وعلم أنه لم يخلُ من مضاعفات ومتاعب (شرحها عبد الناصر شخصيا للجنرال كابل الذي كان يشغل نائب رئيس وكالة المخابرات المركزية) • فقد كان أحد ضباطه المكلفين بالسيطرة على مراكز الاتصالات يحضر عرضا سينمائيا مع زوجته عندما وصلته رسالة التكليف • وأوقف شرطي المرور سيارة عبد الناصر وهو في طريقه لموعد هام بسبب خلل في المصابيح الخلفية ، في حين لم يتعرف قائد احدى قطعات الانقلاب على عبد الناصر بصفته رئيسا للضباط الاحرار، بل وكاد يدهسه في الشارع • وتسربت أنباء حركته الانقلابية الى الملك عن طريق والدة أحد ضباطه في سلك الامن العام ، فقد غادر الاخير منزله في ساعة متأخرة من الليل مما أثار قلق والدته عليه ، فاتصلت بالشرطة للاطمئنان عليه خشية أن يكون قد ألمّ به مكروه ، ولكن ما ان حانت ساعة الصفر حتى كانت الاجراس تقرع معلنة بدء الثورة • وانقلبت بعض تلك الاخطاء الى عوامل مساعدة في

النجاح · فقد استفاد عبد الناصر من تأخر أحد ضباطه في قطع الاتصالات من الاتصال بالقطعات الصديقة في الاسكندرية واصدر لها أوامره بالتأهب والتحرك · (ولا تزال هذه العقدة لغزا محيرا :فكيف كان سيتصل بالاسكندرية لو قطعت الاتصالات كلها كما كان مخططا لها) ؟ وانقلبت الوحدة العسكرية التي وصلت لاعتقال عبد الناصر الى وحده مؤازرة له في اللحظة التي حاول عبد الناصر اعتقال ضباط القيادة العامة الذين تداعوا لاتخاذ خطوات مضادة للانقلاب بعد ابلاغهم بأنباء التحركات العسكرية من قبل والدة الملك · فقد اتصلت بمراكز المخابرات والامن العام للهدف نفسه ، فعلمت تلك المراكز وقتئذ بالانقلاب بصورة غير مباشرة وأيدته واخذت تبلغ عبد الناصر شيئا فشيئا عن التحركات المضادة له ·

ان أمر تنظيم واعداد قطعات ووحدات عسكرية داخل جيش كبير للقيام بانقلاب عسكري ليس سهلا ويسيرا وخصوصا في التاريخ الحديث · وعبّر عبد الناصر عن هذا الرأي خلال لقائه مع الجنرال كابل كما حدثه أيضا عن خطوات الاعداد التي مهدت لقيام الانقلاب ونجاحه · وكان يرى أن الفعالية التامة في العمليات العسكرية لا تكمن دائما في السرية المطلقة ، ولكنه مع كل هذا تبنى السرية التامة في التخطيط والاعداد بغض النظر عن عواقبها · واعتقد أنها كفيلة باحراز النجاح اذا ما قورنت باختيار الوقت المناسب ، وترك الشكليات والتفاصيل لانظمة الجيش الروتينية · أما بعض الاخطاء القاتلة التي لا بد منها،فان سرعة الاندفاع في تنفيذ الخطة ، وعنف صدمة المفاجأة عند تحرك الوحدات كفيل بتلافيها والقضاء عليها ·

وقام ستيفن ميد بجمع شتات أحاديث تلك اللقاءات وما فيها من أفكار مبعثرة وبتدوينها وإرسالها لواشنطن بشكل مذكرة قيمة للاستعانة بها كدراسة علمية لانقلابات آتية ، وكان منها ما يلي :

١ ـ ان قوة أي جيش (دون استثناء جيوش الدول غير الغربية التي لها اهداف غير عسكرية سكم) تعتمد على توفر فررجال اداريين من طراز رفيع على رأس قيادته ، مدركين كل الادراك حقيقة دورهم في اصدار الاوامر وتنفيذها ، وحقيقة كونهم جزءا لا يتجزأ من قيادته وتركيبه العام · ويعود

سبب انتصار عبد الناصر الى ادراكه هذه الحقيقة وسيطرة رجاله الاداريين الأكفّاء على وحدات الجيش وقطعاته . وسواء أكان عبد الناصر وأصحابه الأوائل ثوارا بحق أم لا ، فان بقية أتباعه من الضباط ليسوا كذلك . وكان أتّباعُ عبد الناصر للاساليب العسكرية في التحضير للانقلاب وفي انجازه ، ضمانا لفوزه ، لسهولتها المأمونة في اصدار الاوامر وتنفيذها .

٢ ـ وينبغي أن يكون زعيم الانقلاب من نفس الطبقة الاجتماعية المؤيدة له ، أو أن يكون قادرا على التظاهر بهذا حتى يتحقق نوع من التقارب والانسجام بينه وبين أتباعه ليشاركوه انتصاراته ويشاطروه مشاعره . وهذا ما حدث فعلا : فالانقلاب انقلاب الجميع من الضباط الاحرار وعبد الناصر ، وعبد الناصر ـ برأيهم ـ لم يكن أكثر من منسق لعلاقاتهم ومنظم لتحركاتهم . وخيم نفس الشعور على علاقات الفئة الاولى من الضباط الاحرار مع الفئة الثانية ، وكذلك بين الاخيرة والفئة التي تتلوها ، وهكذا دواليك . وكانت هذه طريقة فنية مكنت عبد الناصر من ضبط أمور الدولة وكسب تأييد ذلك الجزء المهم سياسيا من جماهير الشعب المصري (والذي لا يتجاوز ١٠٪) وبذلك سلك أحدث الطرق في ادارة أضخم المؤسسات الصناعية ومراقبة الاوضاع فيها .

٣ ـ وسيستبدل العديد من أفراد الادارة في النظام القديم بغيرهم بغية اقامة نظام ادارة العهد الجديد على أساس من الانضباط والنظام الدقيقين ، وليس على أساس الولاء للاشخاص ، ويتوقع أن يتم ذلك حال استكمال قادة الانقلاب سيطرتهم على اركان الدولة . ولم يكن ولاء أنصار ضباط عبد الناصر له مباشرة ، وانما كان ذلك من خلال ولائهم لاحد اولئك الضباط الاحرار فكانوا يعرفون « برجال زكريا » أو « رجال البغدادي » . وكان على عبد الناصر أن يتخلص من هذه الظاهرة الخطيرة دون اقصاء أعوانه الرئيسيين الذين كان لبعضهم دور رئيسي في نجاح انقلابه ، ولكنهم أضحوا عالة عليه بعدئذ (وهذه ظاهرة مشتركة بين جميع قادة الثورات) ، واضطره ذلك الى تعيينهم في مناصب شكلية . وقام باسناد المناصب الرئيسية الى ضباطه الموهوبين والموثوقين حتى يشغل عليهم كامل أرقاتهم . في حين قام بنقل من يدين لهم بالولاء الشخصي الى مراكز أخرى . وأدرك ستيفن ميد أن هذه الظاهرة التخطيطية التي بدرت من عبد الناصر يجب اعتبارها مبدأ اساسيا

يحتذى به، لتثبيت دعائم حكم قادة الانقلابات العسكرية عامة (وهذا ما أخفق حسني الزعيم في سوريا في تنفيذه بناء على اقتراح ستيفن ميد نفسه) ·

٤ ـ وكان اعتقاد عبد الناصر أن الاعتماد على الجيش ، حتى يقف النظام الجديد على قدميه ، أمر لا بد منه في كافة أرجاء البلاد ، كما أن استرضاء كافة السياسيين المتطرفين ، والمفكرين الصوريين والمتزمتين من كافة الاحزاب والهيئات لاظهار تأييدهم للثورة واعرابهم عن أنها أمل الجماهير لتحقيق الاصلاح والازدهار ، أمر لا يقل أهمية عن السابق · وفي حال منح هؤلاء الافراد أي قسط من الحريات فلن يكون هذا سوى هدف لتشكيل واجهة منهم للرأي العام مهمتها تهدئة هياج الجماهير ، وتبرير كافة تصرفات الحكومة وقراراتها (وعلى أساس اقتصار مهمتهم على هذه الشكليات رفض عبد الناصر اقتراح قبولهم أعضاء مؤسسين في مجلس الثورة) · واتفقت آراء جميع ضباط الثورة من رؤساء ومرؤوسين على أن من مهام عبد الناصر تحويل الجيش الى مؤسسة ذات نظام دقيق وانضباط رفيع (كالتي كانوا يحلمون بها قبل التحاقهم به) · كما اتفقوا على الوقوف ضد أصحاب الفكر والاضطرابات العامة واباحة المحرمات وتفرنج المجتمع والتحلل الجنسي وغيرها من مفاسد حكم الملك فاروق التي تهدد نظامهم المدلل · أما قيام المظاهرات فقد خشي منه بعض أتباع عبد الناصر ،واعتبروه ظاهرة خطيرة لتحريك المشاعر وتهييجها ، وبالتالي فتح الطريق امام الهيئات السرية للاستيلاء على الحكم في البلاد · ومع أن عبد الناصر وقف ضد هذه الفكرة في البداية ولكنه حقيقة لم يشذ عن هذا المنحى من التفكير اطلاقا ·

وفي الوقت الذي اعتبر ميد أن الانقلاب في سوريا في ١٩٤٩ كان قطعة فنية نادرة من ناحية تنفيذه بدقة متناهية ، فان حسني الزعيم مع الاسف لم يعثر بعد نجاحه على خطأ الا واستهواه ارتكابه · ولكن الامر في مصر كان عكس هذا · فلقد نجح انقلاب كان من المفروض أن يفشل لو نفذ في أي بلد آخر لاخطاء عديدة · أما بعد نجاحه فان عبد الناصر التزم بالمبادىء السالفة الذكر ، وأفلح في توحيد البلاد واقامة حكومة اتصفت بالمناعة ضد الانقلابات، فقد كان عبد الناصر يعتقد أن تقوية مركزه ، وتوطيد سلطة شخصه ، يجب اعطاؤهما الأولوية وتقديمهما على أي هدف آخر · وبسلوكه هذا المسلك ، تمكن

من اتخاذ اجراءات أقلقت يومها المراقبين الغربيين . فَدَفَع عبد الناصر بالعلاقات المصرية ـ السودانية الى الحضيض مثال لا ينسى على خطته هذه . فقد انتهز بعد ذلك فرصة تردّيها للانقضاض على أحد ضباطه (صلاح سالم) ، وقام بتحميله تبعاتها ، وتوجيه اتهامات مدمرة لسلطانه ونفوذه ، الذي شعر عبد الناصر بتزايده الى حد المنافسة الخطيرة له . وأما ستيفن ميد فقد أدرك سلوك عبدالناصر هذا ، ونوّه اليه في أحد تقاريره لواشنطن ، واعتبره أساسيًا جدا لبقاء واستمرار أي زعيم انقلاب ناجح ، وعلى الامريكيين أن لا يقلقوا البتة حيال تصرفات كهذه .

ولكن القلق بقي ينتاب المسؤولين عن وضع خططنا في واشنطن بخصوص أفكار عبد الناصر حول « الصفوة المختارة والمؤهلة للحكم فطريا » . وكانت مثل هذه الافكار تصلهم عن طريق هيكل ـ ليكلاند (بدل طريق ستيفن ميد) ، وتدعي الحق لهذه « الصفوة » في التمتع بنفوذ واسع وامتيازات لا حصر لها ، لكفاءتها العالية ، ولنظرة الشعب اليها على انها « منه واليه » ، فلا يمقتها بعدئذ ولا يثور ضدها . ولم تكن تطلعات عبد الناصر هذه الى «الصفوة المختارة » في بلده الا على غرار وجود مثلها في كل البلدان المزدهرةوالمجتمعات المستقرة ،كما كان يشك بقدرة شعبه على اختيار ممثليه للحكم وتقييم كفاءاتهم. وعودة النظام الحر بدون أي قيد أو شرط لا تعني (في نظره) سوى عودة تلك الشرذمة من السياسيين الانتهازيين للحكم ثانية،التي صبر عبد الناصر عليها كثيرا قبل قيامه بانقلابه العسكري . وتعزّز اعتقاده يومها بضرورة عزلها مهما كانت الامور ، واحلال « الصفوة المختارة » من العسكريين مكانها ، ولكن مع ضرورة ابعاد الجيش عن الشؤون السياسية للدولة . الا أن النمو المطرد لهذه الفكرة كان مصدر قلق لنا،فهي لن تقلل من فرصة مشاركته لنا كلاعب في « لعبة الامم » (ان لم يكن العكس) ، ولكنها تضعنا في مواقف حرجةٍ أمام الرأي العام الامريكي ، بعد أن اتهمت حكومة الرئيس ايزنهاور بأنها نصيرة الديكتاتوريات العسكرية اليمينية،واضطررنا يومها للرد على أن تساهلنا معها مؤقت ريثما يستتب النظام والهدوء في أقطارها ، وأننا لا نفعل هذا الا نتيجة اقتناعنا بعزمها على اعادة النظام البرلماني . الا أن تصميم تلك الديكتاتوريات العسكرية الفاشيستية على البقاء،وتوطيد العزم على ذلك ، كان بمثابة عقبة في

وجه تحركاتنا تعيق مرونة مناراتنا في رسم مخططاتنا • وأما تردد عبد الناصر في اتخاذ موقف نهائي من شكل التركيب الاجتماعي المقترح لمصر فكان مصدر ازعاج لنا وخصوصا أنه طلب وقتا أطول للتفكير به ، كما أنه أراد منح الشعب المصري نفسه فرصة لمناقشته والاعراب عن رأيه فيه • وبعبارة أخرى، فقد أراد تطوير ملكة التفكير عند المصريين في بناء أهدافهم وتحديد مطاليبهم ايجابيا ، ورأى أن منح الشعب حريته قبل الاوان (كما أخبر السفير كافري بذلك مرة) لا يعني سوى ترك أطفالك في الشارع تحت رحمة الظروف ، وتحويل البلاد الى ميدان للصراع بين المتطرفين من جهة والسياسيين الانتهازيين والمرتزقة من جهة اخرى • كما أن افساح المجال أمام المواطنين للتدخل في طريقة سيره بالدولة المصرية ، بثقافتهم المحدودة وضيق افقهم في شؤون الحياة ، لن يسهل له تحقيق أهدافه البعيدة المدى في مجالات السياسة العالمية • وباختصار ، فقد كان عبد الناصر يطالب بأقصى الحريات لشخصه ، ولاطول مدة من الزمن ، ليتمكن من تحقيق ما يأمل به، دون أن يمارس الرأي العام أي ضغط عليه ، أو يفرض أية مراقبة على سلوكه • واقتضى هذا اللون من تفكيره تركيبا اجتماعيا هرميا : تتمركز « الصفوة المختارة » الحاكمة في القمة ثم تليها الفئة الثانية ، فالثالثة ، فالرابعة ، وهكذا دواليك ، على أن تبقى كلها مترابطة متماسكة مع بعضها البعض عن طريق الوعود تارة ، والمداهنة تارة أخرى •

وأما ستيفن ميد ، الخبير بدوام الانقلابات وبقاء زعمائها ، فلم تثر هذه الاعتبارات أي قلق في نفسه أو انزعاج ، ولكنها فعلت عكس هذا في نفس كيرميت روزفلت ، فعندما أرسل ميد تقريرا الى واشنطن ينوه فيه الى نية عبد الناصر لاقامة ديكتاتورية عسكرية من وراء تعديل أركان حكمه ، بذل روزفلت قصارى جهده لاقناع السفير كافري باستدعاء أحد الخبراء في الانظمة العسكرية في الدول الناشئة وأحد رجال العلوم السياسية في وزارة الخارجية الامريكية لدراسة الوضع في مصر عن كثب ، وكان هذا جيمس ايخلبرغر • وكان هدف روزفلت أن تساعده دراسة ايخلبرغر للوضع في مصر في تبرير سياسة عبدالناصر المترعرعة أمام الوزير دالس، أو اقناع ناصر بتعديلها ان لم تحظَ بموافقة الوزير • وكان هذا مهما لروزفلت بعد أن قدّم توصياته بمنح

مصر مساعدات اقتصادية ضخمة ، واوشك على تقديم توصيات أخرى بامدادها بالمساعدات العسكرية ٠

وأما السفير كافري ، فقد طلب من جيمس ايخلبرغر، ان يعمل تحت امرته مباشرة وبمعزل عن كامل جهاز السفارة الامريكية في القاهرة ٠ كما مهد له سبيل الاطلاع على كافة المعلومات الواردة من وزارة الخارجية في واشنطن ومن ملحقي السفارة ومن موظفي وكالة المخابرات المركزية الامريكية ،كما طلب منه أن ينهي دراسته بوضع تقديرات للحالة السائدة في مصر وتقديم اقتراحات بشأن مستقبلها ٠ وبقي السفير كافري يومها ممسكا بزمام الامور ، مراقبا التقارير المرفوعة الى واشنطن بأكملها دون التمييز بين وجهتها (وزارة الخارجية او وكالة المخابرات المركزية أو الى بعض المسؤولين فيهما مثل كيرميت روزفلت) ، ومتخذا بنفسه آخر القرارات والتوصيات ٠

أما جيمس ايخلبرغر ، فقد عقد محادثات طويلة مع أفراد حاشية عبد الناصر ، العسكريين منهم والمدنيين ، وكان منهم المحرر الصحفي محمد حسنين هيكل الذي قيل أنه كان وراء كتاب عبد الناصر « فلسفة الثورة » ٠ فقد برع هيكل في التمييز بين ما يجب أن يكون فلسفة حقيقية للثورة ، وبين ما يجب أن يبقى في حيز الاستهلاك المحلي لالهاء الشعب به داخل حدود البلاد ٠ وساقت الصدفة ايخلبرغر أخيرا للالتقاء بأستاذ هيكل الصحفي المشهور مصطفى أمين ذي الذكاء المتوقد ٠ فقد كان مصطفى أمين من المعجبين بعبد الناصر ، الا انه أقل افتتانا به من تلميذه هيكل ٠ كما اجتمع ايخلبرغر الى الصاغ صلاح سالم ، وزير الارشاد القومي وقتئذ ، والى كثير من أركان وزارته ومساعديه الذين اتى بهم من الجامعات واتحادات العمال وحتى من بعض الاحزاب السياسية السابقة ، لِيُعِدُّوا له دراسات حول الراي العام واتجاهاته ٠ وأخيرا التقى بعبد الناصر نفسه،وتبادلا وجهات النظر حول سلسلة طويلة من المواضيع والمشاكل ، وتمكن خلالها أن يحدد أبعاد ادراك عبد الناصر لدور القوى السياسية التي تاتمر بامره وأهميتها في المعركة داخل مصر ٠ وبعد كل هذه اللقاءات والاحاديث،قدم ايخلبرغر سلسلة من التقارير شرح فيها المصاعب والعقبات التي يتوقع أن تواجهها حكومة عبد الناصر ، وحدد الحلول المقترحة لمعالجتها ٠ ونقلت بعض هذه التقارير من الانكليزية الى العربية وارسلت لعبد

الناصر للاطلاع عليها والعمل بها ، وكان أكثرها اهمية وأجلها شانا ما جاء تحت عنوان « مشاكل السلطة والحكومات الثورية » (ويجد القارىء نصه في أول الكتاب) ٠ وبعد نقله للعربية علق عليه عدد من مساعدي عبد الناصر ونقلوه مع الاضافات الجديدة عليه الى الانكليزية ثانية ، وأعادوه لايخلبرغر حتى يعيد دراسته له ٠ وبقي هذا التقرير مدة وهو ينقل من العربية الى الانكليزية وبالعكس حتى انتهى الى صيغة نهائية عرفت في خارج مصر على انها من تصميم واخراج زكريا محي الدين ، أذكى رجال عبد الناصر وأعمقهم تفكيرا٠ ولاقى ذاك التقرير بحالته تلك ، وبالظاهر من معانيه ، قبولا عند رجال النقد والتحليل في وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وفي بعض الدوائر المختصة التابعة لبعض الحكومات الاجنبية ٠ ومهما كانت قيمة فحواه الفلسفي (وقد استخف ايخلبرغر نفسه بالتقرير فيما بعد ، وأنكر علاقته به) فقد كان التقرير في حد ذاته ذا اهمية فائقة ، اذ كشف النقاب يومها عن أبعاد تصورات عبد الناصر للعلاقة بين أعمال القمع والشدة في الداخل وبين كسب تأييد الشعب والرأي العام له ٠

وقد أبلغ السفير كافري (وكان كاثوليكي المذهب) ايخلبرغر بضرورة مراقبته لمسرح الاحداث في مصر بعين الناقد المحذر ٠ فكافري نفسه لم يظهر أي ارتياح لتأكيدات ستيفن ميد أن نظام عبد الناصر أضحى اقوى من أن يطيح به أي انقلاب آخر ٠ وشعر كافري ان نظام عبد الناصر قد دخل مرحلة الخطر لمرور عام على وقوعه ، اذ أن الحركات المضادة عادة تظهر بعد مرور عام واحد على الحركة السابقة ، وأن الاحداث تشير الى توقع الخطر من ثلاثة مصادر ٠ أولها : بعض الشخصيات التي عوّلت على النظام السياسي البائد وربطت به مصالحها ٠ وثانيها : بعض السياسيين الانتهازيين الذين يفكرون باغتنام فرصة القلق وعدم الاستقرار ٠ وثالثها : العناصر السياسية الهدامة والمكشوفة كالشيوعيين الذين تظاهروا بتأييد عبد الناصر ولكنهم اخذوا يتحينون الفرصة للانقضاض عليه وتحقيق آمالهم في الحكم ٠ ومع هذا فان أخطارا ثلاثة محدقة بالوضع الراهن يومها في مصر ستوقف أي ناقد يتعمد كشف العيوب وانتحال التشاؤم وهي :

(١) انقلاب عسكري شبيه جدا بانقلاب عبد الناصر يقوم به المعارضون

والمنشقون من أفراد حاشيته بالتعاون مع بعض ضباط الجيش والبوليس من ذوي المراكز الحساسة ، (٢) انقلاب عسكري ، ولكنه مضاد للثورة ، يعتمد على عناصر من نوعية شبيهة بعناصر الانقلاب المتوقع آنفا ومدعومة بعناصر سياسية من خارج الضباط الاحرار ، وبيدها قدرة السيطرة على الشارع ، وتأليب الجماهير ضد النظام القائم • (٣) تغلغل بعض القوى داخل حكومة عبد الناصر تحت ستار الصداقة ومظاهر التأييد ، ولكن بأهداف وغايات على نقيض أهداف وغايات عبدالناصر •

كانت الدلائل والمعلومات الواردة من نظام مخابرات عبد الناصر ، الى جانب المعلومات الواردة في كل من وكالـــة المخابرات المركزيـــة الامريكية والمخابرات البريطانية ، تشير الى أن الخطر الاول ذو احتمالية ضئيلة • في حين كان الخطر الثالث يدفع كلا من السفير كافري وايخلبرغر الى اعتباره الخطر الوحيد الذي يجب الاحتياط له ، كما أنهما أثارا الانتباه الى الاحتمالات التالية : تحريف خبيث لبرنامج الحكومة الجديد يرتكبه أحد كبار الشخصيات الموالية لشخص عبد الناصر ولكنها تعارض آراءه وأفكاره ، أو تخزيب عام لمخططـات الحكم يقوم به رجل من نفس الطبقة والمستوى ، ولكن من الذين يشك فـــي ولائهم لعبد الناصر ، أو تسلل الى جهــاز الحكومـــة ، وتغلغل فيه ، لا للضغط عليه والتأثير على خطواته بل لاضعاف قدرتـــه على الامساك بزمـــام الامور ، والسيطرة على أركان الدولة ، مما يؤدي الى قيام حركات ضده بهدف الاطاحة بـــه •

ولم تكن نزعات ضباط عبدالناصر للشهرة ، وحبهم للظهور ، أقل خطرا من العوامل السابقة • أما ايخلبرغر فقد أشار في أحد تقاريره المرفوعة للسفير كافري الى ما يلي :

« ان عبد الناصر نفسه غير واضح الافكار والاتجاهات • وأدركت من خلال أحاديثي مع كل من صلاح وجمال سالم وغيرهما من أعضاء مجلس الثورة أنهم يسلكون في سياستهم مسالك الانحراف والمساومات • كما أنهم فقـدوا اقتناعهم بقدرتهم على السيطرة على أجهزة الدولة أو استمرارهم بسياسة القمع والشدة • ومع أن نزواتهم لا تتعدى حب الهتاف والتصفيق لهم ، فان الطرق

التي يسلكونها لتحصيل هذا ، سوف تثير في النهاية أزمة نفسية مستعصية في ادارة شؤون الحكم . أما اذا حاولوا أن يبسطوا سيطرتهم على الحكم من خلال ارضاء فئة حينا ، واخرى حينا آخر ، فان العاقبة ستكون وخيمة جدا . وستوضع على الرف أفكارهم ومبادئهم حول تقدم البلاد وازدهارها وستبقى الاوضاع تحت رحمة الاقدار وفي مهب الرياح . ولن يمضي وقت طويل حتى يدرك الجميع افلاسهم الفكري وفشلهم الذريع ولن يحالفهم الحظ بعد ذلك في مغامراتهم وسيجدون أنفسهم بعد فوات الاوان مضطرين الى اللجوء الى أساليب القمع والشدة التي طالما يتندر بها عبد الناصر . وأما النتيجة الحتمية لكل هذا فهي قيام حكومة مستبدة تتسكع أمامنا بكل بشاعة وقذارة » .

ولكن ايخلبرغر لم يقدّر عبدالناصر حق قدره،ولم يدرك أن الاخير قد فهم خطورة « الشعبية الزائفة » وزيفها ، فلم يَسْعَ لها الا بعد أن رسخ دعائم سلطته ووطد أركانها . ولم يتخل عبدالناصر طوال سنين حكمه (وحتى عندما كان في أوج شعبيته) عن شعوره بضرورة الاحتفاظ – على الاقل – بالقدرة على استعمال وسائل القمع عندما تقتضي الضرورة ذلك . وفي أواخر أيار (مايو) ١٩٦٧ اعترف عبد الناصر أمام أحد الدبلوماسيين الاجانب بقدرته على حكم البلاد وادارتها بنفس الطريقة التي يحكم بها « بابا دوفاليه » جزيرة هايتي (في الكاريبي) اذا ما اضطر لذلك ، ولكنه يأمل أن لا يضطر الى سلوك تلك المسالك .

أما ظهور الانحرافات ، وازدياد المساومات ، في نظام الادارة بعد الانقلاب ، فلم يكن نتيجة شكوك عبد الناصر بأهدافه وغاياته بقدر ما كان نتيجة تردده حيال انجازها والوصول اليها . ولم يدرك مراقبو عبد الناصر يومها حقيقة أهدافه حيال شكل حكومته . فهو لم يفكر اطلاقا في أن يطور حكومته الديكتاتورية الى أخرى برلمانية ، وانما أراد تجاوزها عن طريق الادعاء بوجودها ومن ثم ينتقل الى صيغة بونابرتية يحكم فيها بتفويض من الشعب يحصل عليه عن طريق الاستفتاء أو ما شابه ذلك . وفي بلد كمصر ، فان تحصيل هدف كهذا يستلزم وضع مخطط معقد ، لكنه على جانب كبير من الخبث والدهاء ، حتى ليبدو للناظر الساذج مضطربا ، وغير واضح الا أنه يكون في حقيقة الامر في منتهى الجلاء والتركيز في مخيلة عبد الناصر وتفكيره .

وفيما يخصنا نحن الامريكيين ، فكل ما نطمع اليه لا يتعدى العثور على لاعب ملائم وماهر ، يشاركنا الجلوس الى طاولة « لعبة الامم » ويؤدي دوره بكل انسجام وهدوء • فعلى صعيد السياسة الداخلية ، لم نكن لنتدخل في قرارات عبد الناصر وتصرفاته اطلاقا ، ولم تكن تعنينا شيئا طالما انها لا تضع مخططات سياسته الخارجية موضعا يتعارض مع سياستنا الخارجية ، ويعرض مصالحنا للخطر • وليس لنا أن نوجه أي انتقاد لعبد الناصر بخصوص طريقة توطيده لدعائم سلطته الداخلية ، واتباعـه اساليب بونابرتية • فقد كانت وجهة نظره حيال أصدقائه الامريكيين ترتكز دائما على قولـه المشهور : « اذا كنتم تعاونون وسائلـي للوصول الى أهدافي فـلا تتلكؤوا في اقتراح وسائل أفضل •• انني ــ على الاقل ــ سأصغي الى ما ستقولون •• » • ولم نفكـر أبدا بامتحان اخلاصه هذا سوى لانه لم يخطر ببالنا طرقا أفضل ، ووسائـل أنجع ، ليسلكها بدل وسائله ، ويستخدمها لتحصيل ما يخططه لنفسه •

- ٥ -

الطراز الناصري للحكم ووسائل القمع

... وكان بقاؤه على مسرح الاحداث معنا أول اهدافه ، مهما كان الثمن .

كم طرح علي ذلك السؤال عبر السنين والايام ، ولم يتغير جوابي عليه أو يتبدل : « لنفترض جدلا، أن القدر أحاط عبد الناصر بظروف ما ، وأوصدت دونه جميع الابواب الا اثنين :اما بقاؤه في السلطة ودمار البلاد ، أو خروجه منها ونجاة البلاد ، فأيهما يختار ؟ » ولم يكن جوابي دائما سوى : « ليس لنا خيار في الجواب .ففي تحليلنا لواقع أي زعيم من فئة عبد الناصر ، يعشق السلطة حبا في التسلط ، يتبين لنا أنه سيفعل كل ما في وسعه للبقاء فيها ولو أدى ذلك الى انهيار البلاد اقتصاديا ، أو دخولها حربا خاسرة متقطعة مع عدوتها (اسرائيل) » . واذا كان الحاكم بونابرتي الطراز ،.فان مبررات استئثاره بالسلطة ستبقى قوية على أمد الدهر ، ولن يتزحزح قيد أنملة عن اعتقاده بان أسوأ الكوارث والنكبات لن تفلح في طي صفحة ذلك التفويض الذي منحه اياه الشعب في يوم من الايام . ولن يجرأ انسان على تجريده من السلطة والاطاحة به . وهذا ما حصل تماما أثناء الحرب العربية الاسرائيلية في عام ١٩٦٧ : فلقد كانت اسوأ كارثة عرفتها مصر في تاريخها الطويل ، كما كانت أعظم فرصة لاعداء عبد الناصر لينقضوا فيها عليه ويطيحوا به . ولكنها مرت ، وانقضت ، وخرج منها عبد الناصر أقوى مما كان عليه في أي يوم مضى .

ولربورت ميشلز كتاب طريف حول « ظاهرة عقدة السلطة عند الزعماء » أو ما يسمى بالبونابرتية . وفيه يسرد بعض خصائصها مثل « الاستمالات النفسية » التي يمر بها بعض القادة مثل عبد الناصر . فنتيجة لتمتعهم بسلطات واسعة ، يتملكهم شعور جامح بازدياد أهميتهم وقيمة أشخاصهم ، وحاجة الجماهير الملحة لقيادتهم . وهذا يورثهم نوعا من الشعور بالتفوق والعظمة . والحقيقة أن كل من يتربع على عرش السلطة ، يشعر بالحاح

مستمر لتجميع أقصى ما يمكنه منها في قبضة يده ، ولبسط نفوذه على أوسع رقعة من الارض ، ولمضاعفة الاسوار التي تحميه ، والنجاة بنفسه بعيدا ما استطاع عن رقابة الجماهير

ولقد كان احتكاكي بعبد الناصر على مر السنين أكثر من أي انسان غربي آخر ٠ ومع أنني لا أزال أملك حرية زيارته ، والتحدث اليه ، حتى الآن في ظروف مريحة ينطلق فيها على سجيته مرة كل شهر أو شهرين ، الا أن الظروف لم تعد لتسمح بتكرار تلك الزيارات العابرة التي اعتدت أن أفاجئه بها حيث كُنّ نتناول معا طعام الغداء ٠ ومع أنني كنت أزوره أحيانا لانجز مهمة لرفيق، أو تكليفا ــ رغم أنفي ــ من طبيب نفساني أو عادي أو مسؤول في وكالة المخابرات الامريكية لأتحرى لهم أية بوادر انهيار في صحته أو انحراف في تفكيره ، فان الطابع العام لزياراتي له كان طابع صداقة وألفة ٠ ولم أكن في يوم من الايام هاويا لادراك ما وراء الوجوه التي اعتادت أن تخفي ما يجول في خاطر أصحابها وتظهر بغير حقيقتها ٠ وان كان في نفس أي انسان حاجة ليعرف رأيي عن نفسية عبد الناصر وحالته الراهنة ، فلن أتردد في القول انه ــ بغض النظر عن سياسته معنا ــ لا يزال يتمتع بكامل قواه العقلية ، ولم يفقد شيئا من قوتها ومرونتها ٠ أما بخصوص سياسته معنا ، فرأيي صريح : أن ما يحل ــ عاجلا أم آجلا ــ بالزعماء من طراز عبد الناصر لا بد وأن يحل بعبد الناصر نفسه ٠ فمهما كانت قوة تحمله الشخصية لضغط التملق والمداهنة ، أو الولاء الاعمى والخوف منه ، فان الاسوار الفاصلة بينه وبين العالم الخارجي غدت أكتم من المعتاد ، فلا ينفذ منها في هذه الايام الا ما يشهد عصمته وخلوده ، ويؤكد ضرورة بقائه حاميا لامجاد الثورة والتحرر ٠ وحتى لو كان ناصر من أكثر الناس عبقرية ، وأقواهم شخصية ، وأشدهم متانة ، وأحدّهم ذهنا ، فمن المستحيل عليه أن يبقى محتفظا بنفس مركزه السابق بينما يمثل أدواره في مسرحيتنا « لعبة الامم » ، أو أن يبقى دون أن تكتنفه الاشواك التي قلما تترك زعيما من نوعه بدون أن تتشابك حوله لتطويقه والقضاء عليه ٠ وفي الوقت الذي يفترض خصومه أنه يقوم بمناقلات متزنة محسوبة على ضوء ادراكه لما يجري على رقعة اللعب ، الا أن ادراكه هذا قد زاغ وضل حقيقة ٠ أما كيف حصل ذلك فانه سيبقى لغزا محيرا ٠ ان عبد الناصر لن يتمكن على الارجح ،

بعد اليوم ، من رؤية مفارق الطرق عند وصوله اليها : مجد شخصي ودمار للبلاد ، أم تنحٍ عن السلطة ونجاة للبلاد ٠

وكان أول ما يبدأ به لضمان الحكم واستتباب السلطة هو توفير «وسائل القمع » ـ كما جاء في تقرير ايخلبرغر ٠ فلو كان تصور عبد الناصر للقيادة ليس أكثر من مجرد بقاء في طليعة الغوغاء أينما حلت وارتحلت ، فان الامر ليس صعبا ٠ وعندها تعتمد حلول القضية على تحركات وتنقلات مزخرفة أكثر مما تعتمد على دور القيادة الحقيقية ٠ الا أن عبد الناصر قد رأى أنه ـ ببركاتنا ورضانا ـ سيتمكن من البقاء في القيادة طويلا وبدون صعوبة ٠ وكل ما كان عليه أن يفعله وقتئذ هو أن يتعرف على آمال الجماهير وأحلامها ثم يهتف بها بأعلى صوته دون منافسة احد له ٠ ولكن « لتكون زعيما صالحا » فان الامر أكثر مشقة وعسرا ٠ انه عليك هنا أن تدفع الجماهير الى أن تتشوق وتطمح الى ما يفيدها ويصلح احوالها ٠ وعلينا أن نتذكر ، للمرة الثانية ، نقطة مهمة في مقامنا هذا وهي : ان الهدف الرئيسي من دعمنا لعبد الناصر هو رغبتنا في توفر زعيم في بلد عربي رئيسي يتمتع بنفوذ قوي على شعبه وعلى بقية العرب وله من القوة ما يمكنه أن يتخذ ما شاء من القرارات الخطيرة وغير المقبولة عند الغوغاء ـ مثل عقد صلح مع اسرائيل ٠ واستنادا الى قواعدنا المدروسة وقواعد عبد الناصر ، فان استتباب النظام ورضوخ الامة أمر يجب تحقيقه ولو اقتضى الامر استخدام القوة واتباع أساليب البطش والارهاب ٠

ولم تكن هذه مواقف وقرارات مطلقة وقطعية لا تقبل الاخذ والرد على طريقة « الكولونيلات » اليونانيين (بعد عدة سنوات) ٠ فقد كان عبد الناصر يفكر بالقضية ويناقشها مع ضباطه وكبار سياسيي عصره ، ثم لا يلبث أن ينقل اهتمامه هذا وقلقه الى أصدقائه في الغرب الذين كانوا سرعان ما يتجاوبون معه بخصوص اصراره على ضبط النظام واحترام القانون ٠ وكان تفكيرنا يعزى الى رأي عبر عنه الديبلوماسي الليبرالي جون دافيس بقوله : « ليست المشكلة مشكلة كون الحكومة ديكتاتورية أو برلمانية دستورية ، ولكن المشكلة هي في قدرة الحكومة مهما كان نوعها على توحيد المجتمع وجعله متماسكا متراصا بصورة تتمكن من الانتقال معه الى مراحل متقدمة للرقي والازدهار » ٠ ولكن الجزء الآخر من تفكيرنا كان ضعيفا وركيكا ٠ فلقد ظننا أن جميع وسائل القمع

والبطش بما فيها الجيش والبوليس وأجهزة المخابرات ستكون بجانبنا ، في حين ستتجه القاعدة الشعبية لعبد الناصر وجهة يسارية لعدة أسباب ·والتقرير الشهير بـ « مشاكل السلطة والحكومات الثورية » يشرح كيف حققنا بعض التوفيق بين وجهات النظر المختلفة ·

واستنادا الى هذا التقرير (أو بعبارة أخرى ، استنادا الى « الذوق العام ») فقاعدة القمع التي تعتبر ركيزة الحكومات الثورية للبقاء ، يجب أن تعتمد على المؤسسات التالية : التشريعات ، البوليس (قوى الامن الداخلي) ، أجهزة المخابرات الدقيقة ، أجهزة الدعاية ، القوة العسكرية أو الجيش · ومن الاهمية بمكان اعطاء لمحة عن تطورات هذه المؤسسات وكيفية تصميمها ·

● **التشريعات :**

لا يختلف اثنان ليبراليان على ضرورة بقاء الاحكام العرفية لفترة ما بعد استلام الحكم نتيجة انقلاب عسكري · كما أنه من الضروري اتخاذ الخطوات اللازمة لاستئصال شأفة الفساد واقتلاع جذورها من جميع مؤسسات الدولة وادارتها ، لان ذلك هو السبب الرئيسي لقيام مثل ذلك الانقلاب · ولهذا ، فللنظام الجديد اذن الحق في ممارسة السلطات التشريعية ليتمكن من كشف الخطر وتحديد مواطن الفساد ، وبالتالي ليتمكن من فرض اجراءات رادعة وعقوبات زاجرة · وهذا ما فعله عبد الناصر بتشريعاته : فقد حدد مهمة البوليس وأجهزة المخابرات والمباحث وأعطاها حرية التصرف المطلقة والاخذ بزمام المبادأة في الكشف عن كل مؤامرات الاطاحة بنظام الحكم والتحريض على أعمال العنف ، والاباحة بأسرار الدولة ، وكل ما يشتبه بأنه ميول لارتكاب مثل هذه الجرائم · وكانت هذه التشريعات تصدر على الامة بشكل مراسيم وأوامر صادرة من مجلس قيادة الثورة وفي صياغة جيدة واسلوب محكم · ولقد وصفها المستشار القانوني للسفير كافري بأنها من الدرجة الاولى ، وفريدة من نوعها في مثل هذه البقعة من العالم · وقد فاقت مثيلاتها في فرنسا ·ولكن الطريقة التي اتبعت في تنفيذ التشريعات قد وضعت نظام عبد الناصر في مهب رياح النقد والتشهير التي ما تزال صاخبة حتى يومنا هذا · ويوجهها بعض المصريين المنفيين في سويسرا وأماكن أخرى · وقد كان الافراد يعتقلون

بدون أن توجه اليهم أية تهمة ، وكانت الممتلكات تصادر ، وخضعت المطبوعات كلها للمراقبة • وقد نفذ كل ذلك بطريقة منتظمة ولكن بدون أن تكون العلاقة بينها وبين التشريعات واضحة بينة • وقد أطلق سراح بعض المعتقلين ، وسمح لهم بمزاولة نشاطهم السياسي السابق ، بل وشُجعوا على ذلك • ورفعت أوامر المصادرة عن بعض الاملاك ، ورفعت المراقبة عن الصحف عندما لم يعد ثمة حاجة اليها • ولكن لم تمض أسابيع قليلة على موجة اطلاق الحريات هذه ، حتى عاد الاضطهاد والكبت مرة ثانية ، وعادت الاعتقالات بصورة أكثر ، وكذلك مصادرة الممتلكات ومراقبة المطبوعات • واستمر عدم الاستقرار : مرة اطلاق للحريات ثم يتلو ذلك موجة من القمع والشدة ، حتى اضطر بعض أصدقاء عبد الناصر من المراقبين الغربيين للاعتقاد بأنه يمارس نشر الرعب والفزع في أرجاء البلاد بصورة تهدد نظامه كما لم يكن شك هناك انه قد ولّد تأثيرا سيئا على العالم الخارجي • وبدات غالبية السفارات الاجنبية تردد شكوكها حيـال احتمالية قيام ديكتاتورية عسكرية فاشستية في مصر • ولم يكن قلق (وحرج) السفارة الامريكية يسبب اشمئزازها من أعمال الاعتقال ومصادرة الممتلكات وتكميم الصحافة ، بل كان بسبب الطريقة التي ترجمت بها الحكومة تلك الاعمال للشعب • وهكذا نشأت علاقة متردية بين الحكومة وشعبها • وقد تجلى الخلاف بين المفهوم الليبرالي للتشريعات ومفهوم عبد الناصر في أن المفهوم الليبرالي يعتبرها وسائل سلبية ومجموعة أنظمة يبقى الانسان خارج السجن اذا لم يَتَحَدَّها • في حين كان عبد الناصر يعتبرها شيئا ايجابيا ، بمعنى أنها المبررات لتصرفاته وقراراته ـ التي ستطيل عمر ولايته على الشعب ـ ضد بعض العناصر المعروفة في المجتمع المصري ، تلك العناصر التي لا يمكن أن تبقى مسالمة له ومهادنة لنظامه ، ولن يثنيها عن عزمها على الاطاحة به مهما كانت ميزات ناصر وحسناته وسيبقى عداؤها لنظامه قائما وان تظاهرت بعكس ذلك • وكان يعلم هذه الحقيقة المؤلمة السفير كافري ، وبعض أعضاء سفارته ، لما كان لهم من صلات مع بعض تلك العناصر • كما كان يعلم هذا تمام العلم عبـد الناصر وجميع الجماهير المصرية • وهكذا فان التطهير الذي قام به عبد الناصر لم ينشر الذعر والخوف • ولقد قال مرة احد ضباط الامن الموالين له « ان اولئك الذين لهم العذر في أن يخافوا قد عزلوا مدنيا » •

● البوليس ـ قوى الامن الداخلي :

لم يكن للبوليس أي دور في الانقلاب ، ولم يكن الا لواحد أو اثنين من كبار ضباطه علاقة بسيطة مع زكريا محي الدين رئيس جهاز المخابرات العسكرية · ولكن رجال زكريا قد تغلغلوا في البوليس جيدا ، وساعدوا في القيام بحملة تطهير بعد الانقلاب مباشرة · وقد استلم عبد الناصر وزارة الداخلية واعتنى بالبوليس بشكل خاص بعد تسريح ثلاثين أو أربعين ضابطا ، وحوالي مئة من رجال البوليس المشكوك في ولائهم · وفي غضون اسابيع اصبح البوليس جهاز أمن قوي أحسن من أي وقت مضى ولم يعد مصدر خطر على النظام الجديد ·

ولم يكن جهاز المباحث في وزارة الداخلية يدار من قبل أحسن العقول في البلاد وانظفها ، بل كان (كغيره من أجهزة الامن الاخرى) يعاني من عقلية ذاك الصنف من البشر الذيتقوده نزواته للالتحاق بأجهزة الامن عامة ·.فقد أخبرني مرة أحد ضباط عبدالناصر في أجهزة الامن قائلا « اننا نتصرف على أساس أن الشعب كله موال للنظام وذلك ليعلم الجميع أننا على استعداد لمعاملة من يشك بولائه واخلاصه بمنتهى القسوة » ·

وعندما يملح انسان ما ، في استنباط وسائل تقنع بعض الرجال من ذوي حساسيات الطف ليصبحوا ضباطا في الامن العام ، فسوف تختفي كل الوسائل البشعة ولن يغد ليسمع بها عبد الناصر أو مستشاريه الامريكيين · وأكثر ما كنا نأمله هو تحقيق القسوة في اجراءات الامن وزيادة المراقبة والمتابعة ·

أما المراقبه (عمل المباحث) فكانت تجري عن طريق نظام « عيون المدينة » الذي ورثه عبد الناصر عن العهد البائد وقد مضى على وجوده في مصر عدة قرون . لكنه نظام غير فضولي · فقد قام أحد رجال وكالة المخابرات المركزية ـ وسابقا أحد رجال مكتب المباحث الفيدرالي ـ وهو خبير في شؤون المراقبة المباحثية ، بالتجول من أقصى مدينة القاهرة الى اقصاها ، واقسم أنه لم يكن تحت المراقبة ولا حتى لدقيقة واحدة · ولكن أحد ضباط الامن طمأنه الى أن جميع تحركاته ومكالماته الهاتفية وكل اتصالاته قد سجلت وضبطت ·

والسر في هذا بسيط : فالبوابون ، وسائقو التكسيات ، وعمال التلفونات ، والشحاذون ، والبائعون الجوالون ، وغيرهم يعلمون أنهم سيمنحون بضعة قروش مقابل اعطائهم اية معلومات لرجال الامن الذين يستفسرون منهم عن اجنبي عبر منذ لحظات · ان اشخاصا كهؤلاء يشغلون الاحياء المتفرعة حول احسن الفنادق وبعض الاماكن الاخرى حيث يتجمع الاجانب عادة ، ولقد أحسن اليهم كثيرا في الماضي ، وأجزل لهم العطاء ، حتى أن مواهبهم قد تحسنت ، وقويت ملكة الملاحظة والمراقبة عندهم الى جانب نمو ذاكرتهم وقدرتها الفائقة على تمييز التفاصيل التي عادة ما يهتم بها البوليس السري ·

● اجهزة المخابرات الدقيقة :

لم يشغل عبد الناصر منصب وزير الداخلية أكثر من أربعة اشهر · وقبل أن يتركها لخليفته زكريا محي الدين ، أذكى وأمهر ضباطه ، والذي كان وقتئذ رئيس المخابرات العسكرية ، نظم كلا من جهاز المخابرات والمباحث العامة ووضع كافة التفاصيل لهما · ثم أدخل عليها زكريا بعض التحسينات ووضعها قيد العمل · وقد كان قسم المخابرات العامة يقبع في قمة الهرم (وقد أسس على غرار وكالة المخابرات المركزية الامريكية) والحق به بعض الضباط الاحرار الذين كانوا تحت امرة زكريا أثناء فترة ما قبل الانقلاب · وكان عديد منهم من ذوي الكفاءات العالية والقدرة التنظيمية الفائقة ، ولم تقل أهميتهم بعد الانقلاب عنها قبله ، (ومنهم حسن بلبل وكيل وزير الخارجية للشؤون الادارية ، وفريد طولان محافظ بور سعيد ، وحسن التهامي السفير في النمسا سابقا ، وسعد عفرة السفير في بولندا ، وغيرهم كثير) · وباتباعهم الاساليب الامريكية في هندسة الادارة فقد بنوا الوكالة الجديدة على أنها الرأس والمهيمن المنسق ، وبعدها المباحث العامة لوزارة الداخلية ثم مخابرات الجيش على أن يكون كل واحد متمماً للاخر وساعده الايمن · وأخيرا أنشأوا (النظام الخاص) للمخابرات والتحريات المتصل مباشرة بالمخابرات العامة العليا · وكان بعض هذه الدوائر يختص بالمسائل الخارجية مثل تدريب رجال حرب العصابات ، والتجسس على اسرائيل ، وخطف العملاء المزدوجين ، الذين يعملون مع اسرائيل أو مع العربية السعودية ، مخدرين في صناديق ، من روما الى القاهرة ، وغير

ذلك . ولكن اغلب تلك الدوائر كانت تهتم بمعالجة شؤون الامن الداخلية . والى جانب أجهزة « عيون المدينة » ذات الفعالية الجيدة ، فقد اضافوا الى ذلك أدوات وطاقات علمية للمراقبة . كما أنهم اشتروا سلسلة كاملة من الاجهزة الاليكترونية صنعتها المنظمات الامريـــكية للتجسس ومكافحـــة التجسس . واستعانوا بعدد من ضباط المخابرات الالمان النازيين (وزاد عددهم فيما بعد) ليدربوهم على استعمالها . ولكنهم غرقوا في طوفان من المعلومات والاخبار ، واضحى تصنيف ذلك والاستفادة منه بطيئا جدا ، ان لم يكن بدون فائـــدة . وعندما أدركوا أن مراجعة ومراقبة الاشرطة المسجلة يحتاج الى وقت يساوي تماما الوقت الذي استغرقه تسجيل المحادثات عليها مع كل التفاصيل المملة ، كان قد تكدس عندهم أكواما كبيرة من الاشرطة ـ دون مراجعة ـ في أقبيـــة المخابرات العامة ومباحث وزارة الداخلية ، ومضى وقت طويل حتى تعلموا كيف يهتمون بالخطير ويتركون الغث الضعيف . وفي عام ١٩٦٠ أصبح لديهم من الوسائل ما يمكنهم من تركيب الميكروفونات الدقيقة في اي من الفنادق او موائد الضباط ، في البيوت الخاصة أو السيارات الخاصة ، في القاهرة والاسكندرية. كما اتقنوا التنصت على المحادثات في الشارع عن بعد ، والتصوير عن مسافات بعيدة وفي الليل . ولكن بناء على الحاح وزارة السياحة ولعقبات كثيرة مـــن الناحية العملية (مثل الوقت الطويل لمراقبة الاشرطة وقدرة المترجمين) فقد اقتصر استعمال هذه الفنون على الحالات الخاصة والهامة والى حد يكفي للكشف عن مصادر الخطر على العهد الجديد .

● **وسائل الدعاية :**

كان موضوع الدعاية مجال خلاف كبير بين الامريكيين ـ وخاصة السفير كافري وايخلبرغر ـ وبين عبدالناصر . فعبد الناصر نفسه لم يكن ذا ماض عسكري عريق حتى يشكل عنصر دعاية . ولم يكن حتى ليدرك العقبات التي تعترض اتصاله بالشعب مباشرة . ولكنه بنفس الوقت أدرك حدود نشره دعايته في أوساط شعبه ، كما ادرك مدى تقصيره فيما كان يجب عليه فهمه منذ حين ، وما يجب عليه أن يتصف به من حذر وخبث تجاه الرأي العـــام الخارجي . فايخلبرغر (الذي كان يوما ما المسؤول عن تنفيذ التقارير في أضخم مؤسسة للدعاية والعلاقات العامة في العالم والتي يملكها « ج. والتر طمسون ») قد

توصل الى أن الانسان يجب أن يتقرب الى غيره أو الى الجماهير عن طريق مصالحهم هم وليس عن طريق مصلحته الشخصية · ولقد اعترف عبد الناصر يوما بانه جاهل باصول التقرب الى الجماهير المصرية · ولكنه كان مقتنعا بان ذلك يجب أن لا يتم عن طريق مصالحه الخاصة · وكان يشك في أن يكون عامل التقدم الحضاري ذا نتيجة جيدة في تقرب الثورة من الجماهير ·

وكوسيلة للقمع في الفترة التي كان فيها عبد الناصر يجمع قوى الانقلاب ، كان التفكير منصبا على خط ثانوي ، وهو مسألة مراقبة المطبوعات · وسرعان ما ثارت المشاكل بسبب انعدام خبرة المراقب العسكري التابع لعبد الناصر ـ وهذا ما كان متوقعا · فقد أثار ذلك حفيظة المراسلين الاجانب لايقاف رسائلهم وحذف كل ما يثير الشك من عباراتها · وكان ذلك في غاية الازعاج للامريكيين الاصدقاء الذين حرصوا على أن يكسب العهد الجديد الصحافة الى جانبه · وكان هذا مثبطا لعزائم المراسلين المصريين الموالين لنا وذوي القدرة الكبيرة على صياغة وسبك التقارير · فقد كانت مساعدتهم لنظام الحكم ضرورية لابراز صورة الثورة جذابة ومشوقة للراي المحلي ، وللعالم العربي ، بل وللعالم كله · وكان هذا عملا صعبا وعلى جانب كبير من الدهاء والخبث ·

ولقد عولجت المسألة على الطريقة التي اعتاد أن يسلكها أي نظام من طراز نظام عبد الناصر فقد جرى تصنيف المراسلين الصحفيين في قائمتين : الاولى ، تحوي الموثوق بهم والذين سيرسلون تقارير لصالح الثورة · والثانية ، تحوي الصنف المعاكس للاولى · وبناء على ذلك فقد أعطيت اللائحة الاولى مطلق الحرية وحرمت الثانية من أي منها · وانتبهت الحكومة الى مشكلة المراسلين الاجانب الذين لم يتخذوا بعد مواقف صريحة من الثورة ، فعمدت الى الاحتفاء بهم ، ومن ثم زودتهم بمعلومات لها تاثير لا باس به عليهم ولصالح الثورة · وهكذا انقلبت قضية مراقبة النشر والصحافة الى مسألة روتينية امتدت حتى الحرب العربية الاسرائيلية في عام ١٩٦٧ ، باستثناء بعض الشطط العارض بسبب عدم كفاءة المشرفين عليها · وهكذا فلم تكن مراقبة المطبوعات جزءا من وسائل القمع عند عبد الناصر سوى مدة وجيزة وذلك لاتباعها بعدئذ القاعدة الروتينية المبينة اعلاه ·

أما الدعاية الموجهة من قبل الحكم ، فقد كانت مُنْصَبَّةً وبكثرة على اعداء النظام لكشفهم ، وتسليط الاضواء على مساوئهم ، ولتبرير الاجراءات التعسفية التي كانت تتخذ صدهم . ومن أبرز الامثلة على ذلك اقـــدام الاخوين علي ومصطفى أمين (اللذين كانا يملكان أضخم دار للنشر في القاهرة ، اخبـــار اليوم) على نشر اعلان وعدا فيه بتقديم المكافآت للذين يخبرون عن قصص الفساد في الحكم البائد أو في حياة البلاد السياسية . ولقد أتاحت هــــذه القصص للاخوين امين وحسنين هيكل وغيرهم اغراق صحفهم بمثل هذه القصص الدراماتيكية ، مظهرين شرور النظام البائد مع ذيوله ، والحاجة الى اجراءات قاسية لاستئصاله وطمس آثاره نهائيا .

وبارك الامريكيون هذه الخطوات الى الحد الذي دعا السفير كافري الى اعارة النظام المصري أعظم الاختصاصيين في الدعاية السوداء والرمادية (١) وهو « باول لينبارغر » الذي كان مسؤولا عن الدعاية في مكتب الخدمات السرية الامريكي أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان يذيع ما كان يظهر أنه المانـــي ولصالح الالمان ولكنه في الحقيقة كان مثبطا لعزائم الالمان ومحطما لهممهم . وقام لينبارغر بتعليم المختصين بالدعاية من المصريين كيف يقومون بتحطيم الشخصيات المحبوبة (ومنها اللواء نجيب على سبيل المثال) بطريقة مدحهم والثناء عليهم . ولا يزال هذا الاسلوب متبعا حتى اليوم من قبل الغربيين في سياسة العالـم العربي .

● الجيش :

اننا في غنى عن القول أن الجيش المصري كان حصن عبد النـــاصر

---

(١) الدعاية البيضاء : مصدرها معروف وغالبا أحد الاجهزة الحكومية .
الدعاية الرمادية : لا توضح اي مصدر .
الدعاية السوداء : تدل على انها تنبعث من اي مصدر غير المصدر الحقيقي ، ويشترك هذا النوع من الدعاية مع عمليات الحرب النفسية السرية المغطاة .

الحصين وقاعدة قمعه المنيعة . وقد تمكن عبد الناصر من ذلك عن طريق تاكده من عدم وجود أي شخص ذي طموح سياسي او اتجاهات ثورية في مركز حساس (أو في اي مركز على الاطلاق) . اما ضباط عبد الناصر ذوو الطموح السياسي المعروف فقد اخرجوا من الجيش واسندت اليهم مناصب مدنية ، اما شكلية أو مهمة . ولكنهم في كلتي الحالتين اما أن يكونوا أهلا للمنصب الجديد او ان يتحطموا ويظهر عجزهم عن الادارة . أما الضباط الذين ما زالوا ينوون القيام بانقلاب جديد ، أو أولئك الذين أظهروا امتعاضهم لاقصائهم عن مراكز القيادة في الثورة ، أو أولئك الذين ما زالوا يدينون بالولاء للنظام القديم ، فقد اعطوا الفرصة تلو الفرصة كي يتآمروا ، وبالتالي ليحكموا على أنفسهم بالاجرام او انهم كانوا يستدرجون الى ذلك عن طريق بعض المحرضين المدسوسين ليعتقلوا بعد ذلك من قبل البوليس السري .

وبقي هناك الضباط الذين لا غبار على سلوكهم ، ويمكن أن يخضعوا للنظام ويضمن ولاءهم عن طريق ارضاء رغباتهم ، كمنحهم بعض الامتيازات لرفع مراكزهم وبعث الفخر في نفوسهم ، الى جانب بعض العلاوات والتسهيلات التي لا تضر وطالما أنهم غير ثائرين ضد علاقة عبد الناصر بأصحاب الفكر واليساريين وأشخاص آخرين غير مرغوب بهم (أو بالاحرى طالما انه لا يترك لهم الوقت الكافي ليفكروا بمثل هذه المسائل) فلا مانع من اعتبارهم قوة موالية يعتمد عليها اذا مادعت الحاجة لذلك . أما بحث موضوع المساعدات العسكرية الغربية والسوفييتية فسيكون في فصل لاحق . وتجدر الاشارة هنا الى وجهة النظر الامريكية بخصوص استخدام عبد الناصر للجيش كقوة للقمع فهي تقول : عندما طلب عبد الناصر في الايام الاولى من حكمه مساعدات عسكرية ، لم يكن هناك اي بحث في أن تكون هذه المساعدات لاهداف قتالية عادية مثل قتال الاسرائيليين أو اليمنيين او غيرهم كما لم يكن هناك أي بحث في أن تكون كميات السلاح ضخمة أو فوق المتطلبات الداخلية المحضة . فلقد أكد عبد الناصر بوضوح لجميع السفراء الامريكيين ان نظامه يعتمد على الجيش لضمان بقائه . وأنه يعتبر اي جيش رث الثياب مهلهل المظهر جيشا تفوح منه رائحة العداء والتوثب . وقد طالب عبد الناصر في أيامه الاولى بأربعين مليونا من الدولارات كمساعدة عسكرية وما لبث أن اختصرها الى عشرين مليون

دولار ، ثم مسخت الى مليون او مليونين من الدولارات لتغطي شراء أجهــزة وأدوات للاستعراضات العسكرية كالخوذ وقرابات المسدسات الجلدية وقطع براقة من مختلف الانواع تكفي لاظهار الجيش بمظهر جميل عند استعراضه في شوارع القاهرة وبحيث تعكس على الضباط والجنود الشعور بالاعتزاز والفخر. وكما ساشرح فيما بعد فان تلكؤ وزارة الخارجية في الموافقة على منح مثل هذه المعونات المحدودة هو الذي دفع بعبد الناصر للاتجاه نحو السوفييت والحصول منهم على مساعدات ضخمة تفوق الاربعين مليون دولار (التي طلبها في البداية) مرات عديدة .

ولعلني أجد نفسي مضطرا للخروج عن موضوع هذا الكتاب واذكر بعض الملاحظات حول دورنا في ادخال المستشارين الالمان الى الجيش المصري ، حتى تكتمل صورة مساعدتنا في استكمال وسائل القمع عند عبد الناصر .

فقد كانت الاشاعات الضخمة التي نشرها الحلفاء في الحرب العالميـــة الثانية حول قوة المخابرات الالمانية وعلمها بكل شيء ، من قبيل خدمة أهدافهم ولكي يتظاهروا أنه ما من مواطن يختلي بصديق له ليتبادلا أطراف الحديث في أي مقهى كان حتى تكون المخابرات الالمانية قد التقطت حديثه وأبرقت ملخصه الى مركزها في برلين .

ولقد شككّت المخابرات البريطانية والامريكية وقتئذ (وتأكد هـذا فيما بعد) بأن يكون للمخابرات الالمانية وجود حيوي كشبكة واسعة الانتشار . ولكنها كانت موجودة على مستوى بعض العمليات معتمدة على بعض كبـــار الموظفين الغربيين المدسوسين والذين كانـــوا يستخدمونها لتزويد برلـــين بالمعلومات المضللة الزائفة . وكنتيجة لدراسات عميقة ومتعبة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد ثبت لدينا بالتأكيد أن العملية الوحيدة التي قام بها الالمان للتجسس في الغرب هي العملية الشهيرة باسم « سيسيرو » الـذي سرق الاسرار من الصندوق الحديدي للسفير البريطاني في تركيا . ولكنها لم تكن ذات أهمية لمقر الاركان في برلين ، لكثرة الاخبار المتضاربة التي غطت على هذا التقرير الصحيح ، والتي كان يرسلها لهم عملاؤهم الذين كانوا تحت نفوذ الامريكيين والبريطانيين .

وكان ازدراؤنا للمخابرات الالمانية يشاطرنا اياه عدد غير قليل من ضباطها انفسهم وقد قام العديد منهم بعقد صفقات مع عملاء مخابرات الحلفاء عندما شعروا بانتهاء الحرب وان كان بعضهم قد فعل هذا قبل انتهاء الحرب بكثير ٠

كما أن عددا آخر من الذين لم يفكروا بالتعامل مع الحلفاء أبدا قد وطدوا أواصر الصداقة مع بعض الحلفاء وبالتالي فقد حصلوا على عناية خاصة قبل فوات الاوان ٠ ولكن مع وجود أشخاص مرموقين في الولايات المتحدة وبريطانيا (ولا نذكر فرنسا أو بلجيكا أو هولندة أو حتى المانيا نفسها) متعطشين للدم النازي ، فانه لم يكن هناك ضابط أمريكي أو بريطاني واحد يتمتع بعقل « موزون » يتوقع منه أن يدافع عن أي من النازيين السابقين على أساس انه كان ضابط مخابرات أو — على الاقل — أنه مفيد كعنصر في المخابرات في حرب مقبلة مع الاتحاد السوفييتي ٠ وعندما قام السوفييت باحتجاز أحسن الادمغة الالمانية (وكان بعضها من النازيين المتزمتين الذين أقسم الروس على الانتقام منهم) ولم يفرطوا بأي منها ، لم يعد أمامنا — نحن الاميريكيين — الا ادخار كل ما كان متوفرا لدينا من الالمان الذين لم تعرف عنهم ميول نازية ٠ وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد عمداء المخابرات الامريكية في الفرع ج — ٢ قائلا « ثق تماما أن بعضنا لا يزال يضع مصالح أمريكا في المستقبل فوق لذة الانتقام »٠ ولو قال هذا علنا فانه كان سيطرد من الخدمة حتما ٠

وعلى أية حال ، فان وزارة الدفاع (ولربما بالاشتراك مع وزارة الخارجية) كان متوفرا لديها (ما بين ١٩٤١ — ١٩٤٧) بعض الالمان الذين لم يكونوا من مجرمي الحرب ٠ ولحسن حظنا فقد تمكنوا بأقل ما يمكن من الاحراج والانزعاج أن يختفوا في دول مختلفة ، وتمكنوا من مزاولة أي عمل لكسب معيشتهم بدون أن يظهروا علانية ٠ ولقد بذلنا جهودا كثيرة نقلب أضابيرهم محاولين الكشف عن بعض المواهب للاستفادة منها في الولايات المتحدة أو في غيرها من بلدان العالم (كما استفدنا من وارنر فون براون عالم الصواريخ الشهير في هونستفيل في ألاباما) ٠ وقد أثمرت بعض هذه الجهود في الوقت الذي طلب فيه عبد الناصر مساعدات خارجية لجهاز مخابراته ودوائر أمنه ٠ وكانت حكومتنا تجد حرجا في مساعدته مباشرة ٠ ولاسباب تتعلق بسياسته ، فقد ألح ناصر على طلب خبير عسكري يتقن ادخال النظام البروسي الى جيشه

الحديث ، واقترح الملحق العسكري الامريكي اسم الجنرال « ويلهام فارمباشر » الذي كان يجد صعوبة في العودة الى المانيا لميوله النازية السابقة . كما أن فقدانه لأية مواهب خاصة تتناسب ورتبته العالية لم تجعل منه شخصية مرغوبة في أي مكان آخر . الا أن جرأته التي ذاع صيتها في الحرب العالمية الثانية قد جعلته مؤهلا للاضطلاع بمسؤوليات كتلك التي كانت في مصر يومها – على حد رأي بعض ضباط المخابرات الامريكية . (وهذا ما حدث فعلا . فقد كانت أولى مناورات الجيش المصري تحت امرته . ولكن لم تحظ القوات « الخضراء » بالقوات « الحمراء » طيلة المناورة في الصحراء ، لان « فارمباشر » كان قد أعطى كل فئة خرائط الآخر بالخطأ . وكانت التعليمات والاوامر معقدة لدرجة أن القوات لم تتمكن من ملاحظة الخطأ) . وعلى كل حال فقد كان ذا رتبة عالية جدا مما نال اعجاب عبد الناصر وزادنا حظوة عنده . وبعدها كانت قصة « اوتو سكورزني » الذي اشتهر بخطفه لموسوليني من معتقله الحصين . وكان أوتو من المفضلين عند الهيئة الامريكية للعمل ضد مخابرات الاعداء وقد أقام صداقات قوية مع الذين أسروه قبل أن يفلت من قبضتهم . وكان من المعتقد أنه يصلح للسير مع عبد الناصر من ناحية طباعه وشخصيته . وجرى الاتصال معه روتينيا ، ثم على مستوى أعلى ، وبعد ذلك عن طريق زيارة شخصية قام بها لواء في الجيش الامريكي له ، وأخيرا بواسطة والد زوجته الدكتور هجالمر شاخت ، وزير مالية هتلر . ومع أنه كان قد فقد شغفه في أعمال المخابرات والامن وكان يدير أعمالا أكثر ربحا ، فقد وافق أخيرا على زيارة مصر ليقف بنفسه على مدى ما يمكنه تقديمه في زيارة قصيرة . ومهما كانت النتائج فقد قيل (وهذا غير صحيح) أن سكورزني مكث في مصر عدة أشهر كمساعد لعبد الناصر للشؤون العسكرية ولشؤون الجغرافيا السياسية . الا أن طول المدة التي مكثها سكورزني في القاهرة قد أثارت موجة اتهامات ضد نظام عبدالناصر وأظهرته على أنه يدار خلسة من قبل نازيين متعصبين . ولم يكن باستطاعة سكورزني مغادرة مصر بسرعة تخفف من حدة الهجوم على ناصر . الا أنه أخيرا عاد الى مزرعته التي اشتراها في ايرلندا ومن ثم التحق ثانية بمقر عمله في شركة هندسية في اسبانيا كانت تدر عليه ربحا وافرا .

وقد فكر سكورزني بشيء من الاخلاص بارسال حوالي مائة من الالمان

الى مصر كانوا سبب الضجة المعادية لناصر يومها • وحقيقة هؤلاء أنهم : (١) كانوا ـ باستثناء واحد أو اثنين ـ من ذوي المناصب المتواضعة ، (٢) ولم يكونوا من النازيين المتزمتين بدليل سرعة تأقلمهم مع التفكير اليساري لحكومة ناصر وقد اضطرتهم لهذا حاجتهم لكسب عيشهم وليس غير ذلك ، (٣) لم يحاول المصريون الاعتماد عليهم رئيسيا بل اكتفوا بسماع بعض نصائحهم كما كانوا يعاملونهم بشيء من عدم المبالاة وخصوصا عندما يضطر أحد الالمان الانتظار لساعات لمقابلة أحد المسؤولين المصريين للادلاء ببعض النصائح أمامه ، (٤) لم يدفع المصريون أية مرتبات مغرية للالمان على عكس ما كانوا يدفعونه للخبراء من الجنسيات الاخرى كالبريطانيين والامريكيين • فالجنرال فارمباشر (كمثال) لم يكن يتقاضى أكثر من خمسين جنيها مصريا في الشهر الى جانب بيت قريب للسكن • في حين كان يتقاضى بعض المستشارين الامريكان أكثر من ٥٠٠ جنيه شهريا الى جانب مسكن فخم وسيارة مع سائقها • وقد بذل سكورزني قصارى جهوده لخدمة عبد الناصر تحت تلك الظروف • ولا يزال على علاقة وطيدة به الى يومنا هذا •• كما أن له علاقات حسنة مع أصدقائه الامريكيين الذين كانوا وراء استدعائه الى مصر • هذا وتجدر الاشارة الى أن سكورزني قد برئت ساحته من أية تهمة بارتكاب جرائم حرب •

والحق يقال إن عبد الناصر وزكريا ، بالرغم من كل المستشارين الاجانب قد بنيا أجهزة المخابرات والامن بدون أية مساعدة خارجية تذكر • وعلى حد زعم أجهزة المخابرات الغربية ـ عن طريق تسللها الى هذه الاجهزة ـ ان هذه الاجهزة تتمتع بكفاءة عالية وافية بالغرض •

وأخيرا : فبالقوانين والمراسيم ، وبالبوليس وأجهزة المخابرات ،وبالدعاية والجيش ، شكل عبد الناصر قاعدة للقمع تمكنه حقا من حكم مصر بنفس الطريقة التي حكم بها بابا دوفاليه جزيرة هايتي ـ دون أن يستعمل كل تلك الوسائل دفعة واحدة • وقد اعطته مركزا قويا يستطيع أن يصدر منه أية قرارات ايجابية بدون أن يخاف ويخشى أية انتفاضات شعبية • ولقد قيل الكثير عن اتباع عبد الناصر للاساليب البوليسية في الحكم والادارة مثل منع ممارسة حرية الراي والتعبير ، ولكن الحقيقة أن عبد الناصر لم يفعل أكثر من التخلص من بعض الصحف التافهة التي اعتادت أن تستقي أخبارها من الاذا ـ

البريطانية والاسرائيلية . ولذلك لم تشعر طبقات الشعب المتوسطة أنها قد سلبت أية حرية من حرياتها بتصرفاته تلك . أما المصريون أعداء عبد الناصر فهم أعداؤه سواء منحهم اية من هذه الحريات أم لا ، وعلى هذا فانه سيخسر بعقد أية صفقات صلح أو مساومة معهم ، ولن يربحهم اطلاقا .

وكان أمرا محرجا وكريها للمراقبين الغربيين أن يروا حجز الممتلكات واعتقال الناس لمجرد الشبهة ، مع تكميم الصحافة ومعاملة المراسلين الاجانب برعونة وفظاظة . ولم تكن هذه الاعمال محببة الى نفوس أصدقاء عبد الناصر الذين كانوا في السلك الديبلوماسي ، وكان لهم علاقات اجتماعية متشعبة مع طبقة المصريين المروضة (البورجوازية) والتي عانت الكثير .. ومن جهة أخرى فان اجراءات عبد الناصر في الشدة والقمع ــ بغض النظر عن مظهرها أمام العالم الخارجي ــ كانت تخطط بهدوء ولم تكن لتتخذ اعتباطا . وهذا يعني أن عناصر محدودة هي التي عانت من ذلك وليست عامة الشعب . وقد كان عبد الناصر يبرر أعماله القمعية بحجة (الدفاع) عن النفس تماما كما يفعل اليهود بمنعهم الهيئات غير اليهودية من العمل في بلادهم . وكان يعتقد بضرورة اخضاع الفرد الى الدولة في جميع مظاهر الحياة وان كان لا بد من الاعتراف بالحقيقة أن هذه السيطرة ستمارس بنفس التخلف الذي تدار به شؤون الدولة الاخرى . كما أنه من طبيعة الاشياء أن يكون البوليس في بلد شرقي أكثر غباء من أمثاله في الدول الغربية .

ومن جهة أخرى فلا مانع من القول بأن المصريين قد حصلوا على نتائج أفضل فيما يختص بقضايا الامن ، وبتباه وعجرفة أقل من السائدة في بقية دول الشرق الاوسط . ومع مرور الاعوام فقد حافظ عبد الناصر على وسائله في القمع بشتى الطرق ، مع أن الناظر العديم الخبرة لن يراها من وقت لآخر الا ألغازا محيرة . وذلك أن عبدالناصر كان يدفع الى المسرح عملاء جددا ذوي أهداف وغايات تظهر بأنها للقمع . ولكنها كانت انتهازية ميكيافيلية مثل « بوليس ضد الاقطاع » ومحققي الاتحاد الاشتراكي العربي وغيرهم من الذين كان يحركهم ضد بعضهم البعض ليحصل على فوضى منظمة ومحسوبة ، في الوقت الذي يريده ويحتاجه في سياسة العنف والشدة .

ان أهم ما يجب أن يفهمه المراقب الديبلوماسي من أسرار تصرفات

وسائل القمع عند عبد الناصر هي :

أولا : بالرغم من بعض المظاهر الآنية المعاكسة (مثل أخبار الاحتكاك بين عبد الناصر والجيش) فان وسائل القمع كانت دائما على أهبة الاستعداد ، ولها المقام الاول في اهتمام عبد الناصر واعتنائه . كما أن كثيرا من تحركات عبد الناصر على المسرح العالمي ، من التي اعتبرها المراقبون الاجانب مخالفة للمزاج المصري ، تفسر على أنها احدى حاجات عبد الناصر للاحتفاظ بوسائل القمع في داخل بلاده .

ثانيا : وبالرغم من أن كثيرا من الرسميين الغربيين الذين يكرهون عبد الناصر قد هاجموه ونعتوه بانه ديكتاتوري فاشيستي (وكان معظمهم من المسؤولين في الحكومة الامريكية والبريطانية) الا أنهم كانوا على علم تام بكل خطواته عندما كان يبني وسائل القمع وأجهزته متجاهلين عمدا كل تصرفاته في هذا المجال .

***

وفي كتابه « مصر الجديدة وعبد الناصر » ، يشرح « كيث ويل لوك » وجهة نظر يعتبرها ممثلة لوجهة نظر المراقبين المطلعين في الخارج في الثورة المصرية . وفيها يشير الى ذاك « التردد » الذي كان يتصف به عبد الناصر ، كما يشير الى « تذبذب » مجلس قيادة الثورة الظاهر بين النظام البرلماني والدكتاتورية العسكرية . ويتأسف ويل لوك على تلك المبادىء التي هجرتها حكومة الثورة في مصر بعدما رفعتها عاليا وانتهى أخيرا الى ان أي مؤرخ يحاول أن يدون تاريخ تلك الفترة المضطربة في مصر سيكون معذورا ان كال لعبد الناصر وجماعته القذف والإتهام .

الا أن الحقيقة لم تكن كذلك (وسنرى هذا لاحقا) . فلقد كان عبد الناصر أبعد ما يكون عن التردد والتقلب طوال تلك الفترة .

وان تذبذبه الظاهر بين الحكومة البرلمانية والدكتاتورية العسكرية كان موضع دراسة عميقة وعناية فائقة من قبل الرسميين الامريكيين وغيرهم من بعض الشخصيات المدنية الشهيرة بميولها الليبرالية . ولكنهم كانوا كلهم

ينظرون الى الاوضاع في مصر نظرة واقعية وقد أدركوا أنه لا طريق آخر أمام عبد الناصر ليسلكه غير هذا الطريق · وأن أية محاولة مبكرة (وقبل أوانها) للعودة الى تلك المبادىء التي نادى بها الضباط الاحرار سابقا سوف تنتهي الى فوضى واضطراب كاملين · واذا كنا لم نشارك ناصر فعلا في انقلابه وفي توطيد سلطته وفي بناء وسائل القمع في بلاده · فذلك يعود الى رفض ناصر لمساعدتنا له فيما عدا بعض النصائح التي كانت تهم الطرفين معا ، كما أننا لم نبد أية شكوى من سلوك ناصر مسلك الديكتاتورية،لاننا كنا نعتقد أنه سيشرع في أول فرصة مناسبة في ايجاد الظروف الملائمة التي اتفق عليها مع روزفلت كمتطلبات ضرورية لاعادة الحياة الديمقراطية الحقة وهي : محو الامية ، وتقوية وتوسيع نفوذ الطبقة الوسطى ، وانتشار الشعور عند الشعب أن الحكومة منه واليه ، ورسوخ الافكار والقيم الوطنية حتى يصبح من السهل قيام مؤسسات ديمقراطية وطنية وليس مجرد تقليد أعمى لما هو في الولايات المتحدة أو بريطانيا ·

وبغض النظر عن كيفية نمو وسيطرة وسائل القمع ، فعلينا أن نقرّ في تعاملنا مع ناصر أن وجودها مهم بالنسبة لبقائه · ويجب أن لا تعترينا الدهشة عندما نرى أن عبد الناصر وضباطه جلسوا بعد أشنع هزيمة في التاريخ العسكري الحديث (حرب ١٩٦٧) لا ليتباحثوا في طريقة اعادة بناء مصر من جديد بل لينسقوا خططهم حيال طريقة اعادة الثقة الى الجيش · وستبقى هذه الفكرة ذات المنزلة الاولى في التفكير المصري ولسنوات طويلة مقبلة ·

- ٦ -

الطراز الناصري للحكم ووسائل البناء .

.. وهدفه الثاني توطيد سلطته بالبناء والاصلاح .

في أوائل عام ١٩٥٦ قضيت مع الرئيس عبد الناصر والسفير المتجول اريك جونستون أمسية طويلة في حديقة قصر الاول نتباحث حول ما يستطيع عبد الناصر تقديمه من مساعدة لعرض مشروع نهر الاردن على زعماء الدول العربية الاخرى . وكان مشروع جونستون يهدف الى اغراء العرب للدخول في تعاون محدود مع الاسرائيليين على الاقل . ولم يكن المشروع أكثر من فكرة من الدرجة الثالثة ، ارتفعت الى الدرجة الثانية لمجرد اختيار مفاوض من الدرجة الاولى لها ، هو اريك جونستون . وأما فرصة نجاح المشروع فهي وجود شيء من المنطق فيه . ففي حالة تنفيذه سيستفيد السوريون واللبنانيون والاسرائيليون والاردنيون من اصلاح ٣٠٠ ألف فدان من الاراضي الصحراوية مع توفير القوة الكهربائية للصناعات اللازمة لتشغيل اللاجئين الفلسطينيين الذين سيتعرضون للفاقة والمجاعة لسنين طويلة قادمة ان بقوا دون موارد ثابتة . وقد تأثر عبد الناصر كثيرا بحجج جونستون العملية ، غير ان العقبات السياسية كانت أكبر من أن يتحداها بنفسه ويتخطاها .

ومع ذلك فقد بقي الموضوع شيقا ومغريا لاستمرار المناقشة ، فقد قضينا النصف الاول من الامسية نتلمس الطرق المؤدية الى انشاء هيئة نهر الاردن على نفس منوال « هيئة سهل تينيس » ، التي يمكن لها أن تحل محل خطط مشاريع التنمية الاقليمية التي تزمع الجامعة العربية وغيرها اخراجها الى حيز الوجود . (وفي هذه المرحلة من حكمه ، كان عبد الناصر يشك في جميع مشاريع التنمية الاقليمية . وبالسوق العربية المشتركة ، وبالآراء الاخرى التي تدور حول التعاون الاقتصادي العربي ، وان كان لا يمانع من تمضية الوقت ببحثها) . وامضينا القسم الاخير من الامسية نستعرض المضاعفات السياسية

المنفرة من المشروع • فقد أبدى عبد الناصر عطفه الشديد عليه عموما ، ولكنه قال لجونستون : « لقد جئتني في وقت لا أملك فيه القدرة على الاقدام على أي عمل لا يحظى بموافقة الجماهير الشعبية»• واندفع بعدها في محاضرة كانت تفيض « بتوابل » الفلسفة الليبرالية ، مثل « المرونة السياسية » و « اطارات التسامح » بصورة جعلته يعتقد أنه كلما زادت شعبيته فانه يصبح أكثر حرية في تفكيره فيمايعود بالفائدة على مصر • أما أثناء شعوره بضعف مركزه وشعبيته فان عليه أن يسلك طرقا يتوقع مناصروه أن يسبقهم اليها ، بغض النظر عن نتائج ذلك على مصر نفسها •

وكان جونستون يصغي بصبر متزايد ما لبث أن نفد ، فقال لناصر انه قد أمضى الاسبوع الفائت وهو يصغي الى عديد من المقترحات البديلة التي اقترحها الزعماء السوريون واللبنانيون ، ولكنه أصيب بخيبة أمل عندما سمع زعيم العالم العربي بلا منازع يتحدث عما يمكنه ، وما لا يمكنه فعله بنظر الغوغاء (الديماغوجيين).ووقف جونستون مهما بالانصراف • وصافح عبد الناصر واتجه نحو الباب . ولكنه ما لبث أن التفت بطريقة دراماتيكية (مليئة بالحركة والانفعال) وقال : « سيدي الرئيس لقد تذكرت الآن كلمات مأثورة لزعيم الثورة الفرنسية « الغوغاء في الشارع ، وعلي أن أعرف الى أين وجهتها وذلك لانني أنا زعيمها »»• وهنا ارتسمت ابتسامة الابتهاج على شفتي عبد الناصر وقال : « تماما ، هذا صحيح بالضبط » •

كان قبول عبد الناصر للملاحظة البليغة التي أبداها جونستون على غاية من الطرافة (وما كان له أن يترك رجل الاعمال الامريكي يفلت منه بهذه السهولة) ، ولكنه في قبوله اياها أراد أن يعيد الى ذاكرة جونستون أن أي زعيم ، في أي مكان وخصوصا في بلد كمصر ، ليس لديه المام بوجهة الغوغاء وأهدافها ، لا يكتب له البقاء كزعيم لمدة طويلة • وفي اجتماع لاحق بجونستون قال ان المهمة الاولى الملقاة على عاتق الزعيم هي أن يدرك أنه هو الزعيم وليس غيره ، ولا يمكنك أن تصبح « زعيما صالحا » الا بعد أن تجتاز المرحلة الاولى ، اي أن تصبح « زعيما عاديا » • ومضى عبد الناصر يثبت أنه كزعيم قد أدرك (أكثر من غيره) أن الغوغاء اذا ما أطلقت غرائزها ، وأفلتت من عقالها فسوف

تدمر نفسها بنفسها ، ولكن لا يعني هذا أن باستطاعتي أن أتجاوز ما تريده مني وتفرضه علي ·

ويومها لم يتوفر زعيم في التاريخ الحديث يعرف تمام المعرفة ماذا تريد الغوغاء والى أين وجهتها أكثر من عبد الناصر نفسه · وبعبارة أخرى ، لم يكن هناك من أدرك ـ أكثر من عبد الناصر نفسه ـ الحقيقة المحزنة بأن الغوغاء لا تدري أنها ضائعة ، ولا تعرف الى أين هي ذاهبة ، ولا حتى على ضوء مصالحها الذاتية · فالغوغاء لا تريد مصالحها الحقيقية التي ان تحققت أعطتها كفاية وراحة ، وليس مجرد تهدئة آنية للآلام · وكانت مهمة عبد الناصر التلاعب بإرواء الرغبات ذات المدى القصير (أو المستعجلة) وذلك لكسب الوقت بينما يسعى لإعداد الوسائل اللازمة لإرواء الرغبات المؤجلة (البعيدة)·

ومن حظ عبد الناصر أن مفاهيمه هذه لم يكن من السهل ادراكها ·فعندما كان يخطط للثورة كانت لديه فكرة عما يجب على الشعب المصري أن يطالب به (وذلك ما كان هو نفسه يطالب به) ولكنه بعد ثورته تأكد عنده أن مطالب الشعب المصري الحقيقية أبعد من أن يحيط بها فهمه ، أو فهم أي زعيم مصري آخر · وبعبارة أخرى ، فقد كانت مشكلته أنه لم يجد الغوغاء المصرية تنتظره في الشارع ، وكان عليه أن يخرجها الى الشارع حتى يدرك الى أين وجهتها · فلدى الشعب المصري دوافع كامنة للتعصب (كما قال باول ليتبارغر) وكانت كافية لتبرير حرق سفارة أجنبية بين الفينة والأخرى ، ولكنها ليست بالقدر الكافي لدفع عجلة النشاط الثوري الى الامام · وكان على عبد الناصر أن يخلق ظروفا ما يمكنها أن توقظ الدوافع في الشعب بنفس الطريقة التي يتمكن الماء البارد ، أو الساخن ، من التأثير على الاميبا (وحيد الخلية) · وهذا يعني أن عدم الرضاءأو عدم النفور(وجود ظروف مناسبة أحيانا وغير مناسبة أحيانـــا أخرى) هي التي توجد عند الشعب حوافز جديدة للتحرك والتهييج وبالتالي يمكنها التجاوب مع زعامة حركة عبد الناصر ·

ولم يبخل الخبراء على عبد الناصر بنصائحهم في هذا السبيل · وبشيء من تطفل مستشار أمريكي (لا أملك حرية الكشف عن اسمه) قام صـــلاح سالم ، وزير الارشاد القومي ، بحملة واسعة لدراسة الراي العام لتزويد عبد الناصر بأهم المقترحات التي يمكنه بها أن يوقظ الشعب · وقد قامت سيدتان

أمريكيتان بأول الخطوات في هذه الدراسة وهما من مكتب الابحاث الاجتماعية التطبيقية في جامعة كولومبيا · كما قام الباحثون باشراف صلاح سالم بالبحث والتدقيق في جميع أنحاء البلاد، واتصلوا بالفلاحين والعمال والطلاب والحرفيين وغيرهم · وكان البحاثون في البداية ثلاثة مصريين وبريطاني واحد والماني ، واتبعوا طريقة السؤال المباشر (اسلوب كالوب بول في تصور المسؤول انها رغبة السائل) ، فوجدوا أن أفراد الشعب كانوا يجيبونهم بما يودون سماعه ، فللمصري :« نحن نكره الانجليز والاستعمار واسرائيل»، وللبريطاني :« نحب البريطانيين وقد ساءنا أنهم تركوا بلادنا » ، وللالماني : « اننا نأسف لان المانيا خسرت الحرب » · وبعدها قاموا باستخدام طريقة أخرى تقوم على فهم آراء الناس عن طريق تحريك عواطفهم واثارتهم · فسيتكلم المسؤول عرضا عن أفضل الافلام له ، وأحب الالوان اليه ، ورأيه في المواضيع الاجتماعية غير الاساسية ·· وبهذه الطريقة توصلوا الى نتائج أفضل حول حقيقة مشاعرهم تجاه البريطانيين والعرب وغيرهم ·

وقد اشتركت وكالة المخابرات المركزية الامريكية في هذه الابحاث · وكان رئيس فرعها في مصر في ذلك الحين يتمتع بتغطية عرقية (عندما يكون المظهر الشخصي واللغة والعادات وجواز السفر بشكل يساعد رجل المخابرات على الاندماج مع الجو المحيط به دون تمييز) ، وهذه عكس التغطية الثقافية والحضارية (وفيها يستقبل رجل المخابرات على أساس مشاعره السياسية وعواطفه الاجتماعية) · ولقد أنشأ شبكة من المخبرين لهم من الوسائل المؤثرة والفعالة ما لرجال « عيون المدينة » المستخدمين في جهاز الامن المصري · وقد ركز نشاطه حول موضوع « مدى استعداد الشعب المصري لقبول الشيوعية السوفييتية » محاولين التعرف على آراء كل فئة من الشعب مصنفة حسب مهنة الفرد مثل الفلاحين ، العمال ، الحرفيين ، المثقفين ··· وهي الجهات التي يحاول الشيوعيون خداعها والتأثير عليها · وكثيرا ما وضع رئيس فرع الوكالة المركزية نفسه مكان الشيوعيين كي يتعرف على الوسائل التي يحتمل أن يقوموا على باتباعها · ومع أنه محظور عليهم من قبل قيادة وكالة المخابرات المركزية أن يتوسطوا بأي تجسس مكشوف مثل التغلغل في الحكومة المصرية، والحصول على أسرار الحكومة الرسمية ، أو اغراء مواطن مصري بصراحة

لخدمة سلطة اجنبية فان جهازه الذي نشط تحت ستار ما ، قد تمكن من الاستماع الى احاديث صريحة (في كل المناطق) وادراك آراء ما ، لا يمكن الحصول عليها بطريقة مخبري صلاح سالم ، أو حتى التقاطها بطريقة الاستفسار أو التحري بواسطة رجال « عيون المدن » ٠

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ قام باول لينبارغر ، خبير البنتاغون الفريد بفن الدعاية السوداء ، بزيارة للقاهرة ، وكان صلاح سالم قد استبدل بالعقيد عبد القادر حاتم الذي بقي في منصب وزير الارشاد القومي (وأصبح بعدها نائب رئيس الوزراء لشؤون الثقافة والارشاد القومي) لمدة عشر سنوات أخرى ٠ وقام لينبارغر بتدوين نتائج دراساته ، وقدمت في شكل تقارير للعقيد حاتم ، الى جانب ما أُنجز من أبحاث على عهد صلاح سالم ، وقام عبد الناصر بتوسيعها بعد تدوين ملاحظات ذكية جدا عليها نتيجة خبرته في السنة السالفة ٠ وبعدها جمعت كلها في دراسة موحدة احتفظ بها عبد الناصر نفسه في درج مكتبه وأقفل عنيها ٠ وكما سنرى فان عبد الناصر قد أدرك أن المراكز المختلفة التي عليه شغلها في مسرحيات « لعبة الامم » تتطلب أن يكون لدى العالم فكرة عن الدوافع والاهداف المصرية غير الحقيقية ٠ (إن عقدة التوفيق بين الرأي المصري الخاص والرأي المصري الرسمي الذي يحرص ناصر على عرضه للعالم جعل ثانيهما مقبولا عند أولهما لا تزال قائمه الى يومنا هذا ٠ في فصل لاحق ، فان احدى المحاولات الصريحة لاظهار الرأي الخاص والتي جرت في عام ١٩٦٨ انتهت الى النتيجة أن الشعب المصري لا يملك سوى حماس ضعيف (ان لم يكن معدوما) لاسترجاع هيبة العرب الضائعة في فلسطين ٠ كما أنه لم يكن متحمسا أبدا لتحسين مكانة حزب ناصر السياسي الوحيد في البلاد ٠ وقدعرفت هذا عن طريق جمع الاحاديث المتداولة في المجالس والسهرات الخاصة التي اظهرت أيضا رغبة الشعب في أن يرى ذاك الحزب ممزقا اربا اربا ٠ وقد اضطر ناصر للادعاء أن الجماهير تطالب بصخب والحاح استمرار الحرب ضد اسرائيل ، وذلك حتى يتمكن من رص صفوف الاتحاد الاشتراكي العربي ثانية ، وليضيق الفرصة أمام الانهزاميين وأمام أولئك الذين فتنتهم دعاية العدو ، وليبقى محافظا على بعض الاهداف التي ما زال في نفس الشعب المصري بعض العطف عليها) ٠

وآراء ناصر في موضوع التوفيق بين فن القيادة وبين طريقة طـــرح الاهداف غير الحقيقية أمام العالم ذات أهمية خاصة · ونضطر هنا لمناقشة بعض جوانب التاريخ حديثة العهد بنا (وان كانت بعيدة الصلة عن موضوع كتابنا هذا) وذلك بسبب سوء تصوير المؤرخين للعلاقات بين ناصر واللواء محمد نجيب ، والذي لم يكن لهم الخيار في تصويرها بغير ذاك المظهر الذي يتناظر مع ما سمعوا به وقرؤوا عنه · وحتى البروفسور « ليرنر » في كتابه الدقيق « ذهاب المجتمع التقليدي » يقارن بين نمط نجيب ونمط عبد الناصر كطريقة لشرح امكانية التقبل عند الشعب المصري لوسائل الاعلام العامة كطريقة للتغيير الاجتماعي · وكانت جميع النقاط التي بيّنها صحيحة وجديرة بالملاحظة ·

والحقيقة فان نجيباً لم يكن ذا طراز مستقل عن ذلك الطراز من الرجال الذين يظهرون في دعايات التليفزيون · وقد قابلت امرأة انجليزية نجيباً مرة وأخبرت السفير كافري بعد ذلك بأنه « شيطان بصورة مبهجة ، وبشع المظهر ولكن بقدسية ، ويغطي ذلك بابتسامـــة حارة · انه مظهـــر الاب المثالـي للمصريين » · وقد شعرت بنفس الانطباع خلال اللقاءين الطويلين مع نجيب · فكان نجيب يحاول أن يضفي على نفسه صبغة المهدي ، أو صاحب الكرامات ، وينتشر هذا في ربـوع الشرق الاوسط · وخاصـــة أن المصريين سيبتهجون بخيالات وتصورات من هذا القبيل ، وهي صورة المحتال الودود · وكان نجيب من نوع المعبودين الذين يلتجيء اليهم المصريون في لحظاتهم الهادئة التي تتخلل فورات العنف التي يدفعهم اليها المتزمتون من قادتهم · ولكن نمط كلامـــه وتفكيره لم يكن من ذلك النمط الذي وصفه به البروفسور ليرنر ·

وأما كتاب اللواء نجيب ، فقد كتب بقلم آحد الامريكيين الاذكياء مستر ليه وايت ، الذي كان أيضا مصمم الاقوال البليغة التي اشتهرت عن اللـــواء نجيب · فقد طلب ليه وايت اجازة لمدة سنة يسافر خلالها خارج البلاد لاسباب شخصية (ولم يكن بوسعه أن يعطي عذرا أوضح لتغطيـة مركز انطلاقه في العمل) ووصل – ولربما فجأة – الى مصر في وقت كان نجيب فيه قد أصبح شخصية بارزة في الصحافة العالمية · وقد استطاع أن يؤمن سلفة مالية من صاحب دار النشر التي يتعامل معها وحصـــل على موافقـــة نجيب للمشروع (وكذلك موافقة عبد الناصر الضرورية ولكن بعد جهد) ومكث في القاهرة سنة

من الزمن يقتفي أثر نجيب في أوقات طعامه ويطيل الجلوس في غرفة الانتظار ولم ينس أن يشاركه حتى في العديد من اجتماعاته كما أغراه بمناقشات وأحاديث طويلة .

كان ليه وايت من أشهر من برع في سرد القصص وروايتها . وقد أبهج السفير كافري بالقصص التي تدور حول نجيب ، كما أعطتنا تلك القصص صورة رائعة لعمدة قرية ماكر ، لكنه محبوب ، ولديه من الوقت ما يكفي لمقابلة كل انسان يواجه متاعب ومشاكل في حياته: مثل زوجة تشتكي من زوجها المدمن على الخمر ، ورجل دين رأى رؤيا وعليه أن يجمع مالا لبناء مسجد في الحال ، واقطاعي يشتكي من مستأجري اراضيه .. ولكن عندما تكلم الكتاب عن فلسفة نجيب فقد كان يتكلم عن « ليه وايت »،بدون أدنى التباس ، وكانه ليبرالي أصيب بخيبة أمل ولم يجد مصرفا لطاقاته منذ انتهاء الحرب الاهلية الاسبانية .وكان وايت ومدير فرع وكالة المخابرات الامريكية الاقليمي (والذي كان كما ذكرنا آنفا تحت تغطية عرقية) يكرهون بعضهم البعض (مع أنني اشك في أن يكون « ليه » قد عرف أن ذلك الرجل عميلا لوكالة المخابرات المركزية) . وبدت الاحاديث والمسامرات التي جرت بين « ليه » ونجيب (والتي كان يغلب عليها الطابع الديموقراطي) لاول وهلة على أنها ردود « ليه » في الدفاع عن نفسه أمام مدير فرع وكالة المخابرات المركزية الذي كان مؤيدا لناصر من رأسه حتى أخمص قدميه . وقد حاولت مرة أن أجر نجيبًا الى احدى مقطوعات حكمه البالغة وسرعان ما ظهرت لي الحقيقة أنه ليس لديه حتى فكرة بسيطة عما كنت أتكلم عنه .

ولقد أتيحت لي الفرصة لكي أسمع من كبار الضباط ومن ضباط الصف الثاني الروايات الحقيقية حول ادخال نجيب ضمن مجموعة ضباط الانقلاب . وكان هناك ثلاث نقاط تبدو مشتركة بين هذه الروايات كلها :

١ ـ عندما كان عبد الناصر وأعوانه بصدد تنظيم شبكة الضباط الاحرار ، شعروا بحاجتهم الى قائد برتبة عالية : « انسان كمكم تعرفوه وتولوه احترامكم ، ولكم الشرف والسرور أن تنضووا تحت لوائه حال سماعكم باسمه . وقد امتنعوا عن الافصاح عن اسم معين ، الا أن الحقيقة لم يكن لديهم أي اسم محدد يومها .

٢ - لم يكن نجيب هو الاحتمالية الوحيدة ، بل كان واحدا من جملة اشخاص للانتقاء منهم . وحتى اللحظة الاخيرة عندما أفلح عامر باقناع عبد الناصر بأن نجيباً هو الاختيار المنطقي ، لم يكن نجيب لتلك اللحظة على رأس القائمة .

٣ - مع أن لنجيب ماض ناصع في الشجاعة ، وله شعبية واسعة عند الضباط ، فقد كانت ميزته الرئيسية فقدانه للطموح أو رغبته في السلطة . وقد اعتقد الضباط الاحرار أن بامكانهم التعامل معه وتسييره .

وفي الحقيقة فقد استطاعوا ذلك.فقد قام خالد محي الدين العضوالشيوعي في بطانه عبد الناصر مع أصدقائه بالتلاعب بسلسلة من الاحداث أدت الى اختيار نجيب لسدة الرئاسة ، ظنا منهم أنهم اقدر على سياسته والسيطرة عليه من عبد الناصر نفسه ، وانه بالامكان أن يحل محل عبد الناصر فيما اذا شق الاخير عصا الطاعة عليهم .وكان عبد الناصر بالتأكيد مدركا لهذه الغايات . وعلى أية حال ، فان لم يكن كذلك ، فناصر يدعي الآن أنه كان يعرف ذلك . ولكنه لم يكن يخشى أيا من خالد وأصدقائه ، بل تركهم يعتقدون أن عليهم قائدا من اختيارهم . ومهما كان فبعد نجاح الثورة واعتلاء نجيب سدة القيادة لم يكن أنصار نجيب - الذين يستطيع عبد الناصر أن يسوسهم - هم الذين أخذوا يوحون له أنه هبة التاريخ لمصر ، ولكن كان ذلك الايحاء من « ليه وايت » . ومع أن أحد الضباط كان يكتب لنجيب خطاباته فان « ليه وايت » كان يقوم بتجميلها وتزيينها (بعد أن تكون قد ترجمت له الى الانجليزية) مدعيا بأنه يجعل منها أكثر ملائمة للاجيال القادمة كلها ، أو بعبارة أخرى حتى تصبح مادة مناسبة لكتابة ترجمة حياة نجيب التي كان « ليه وايت » بصددها .

وأما مفاهيم عبد الناصر حول مركز القيادة في الثورة - سواء قيادته أو قيادة أي فرد آخر أو أي رئيس صوري وضعه عبد الناصر نفسه أو غيره في مركز صوري لقيادة الثورة - فإنها مفاهيم مهمة وشيقة . وليس ذلك لإظهارها ناصر على أنه شخصية تاريخيّة لكفاءاته ومواهبه ، ولكن لانها حازت أيضا قبول واعجاب المستشارين الامريكيين ممن كانوا حول ناصر يومها .

وكان ذلك دليلا على نوعيـــة مفاهيم وتصورات رجـــال ديبلوماسية ما وراء الكواليس الامريكيين حول دور القيادة في المجتمعات غير الغربية ·

ومع أن كيرميت روزفلت والمستشارين الذين أرسلهم الى مصر (مثـل ستيفن ميد وجيمس ايخلبرغر وباول لينبارغـــر ، وغيرهم) لم يتمكنوا من سياسة عبد الناصر أكثر مما يفعله الروس به اليوم ، الا أن مفاهيمهم حول موضوع القيادة وانطباقها على مفاهيم عبد الناصر نفسه بهذا الخصوص قد جعلت فلسفة ناصر في فن القيادة موضع عطفنا وتقديرنا ، مع أن كثيرا مـن النقاد الغربيين قد أخفقوا في ادراكها وفهم مغزاها · ولا يهمنا ما كان بقدرة عبد الناصر انجازه سواء رضي الغرب عليه أو سخط ، ولكن يهمنا اثبـات الحقيقة أن كل ما أنجزه عبد الناصر قد حظي – وعلى الاقل وقتئذ – بتأييد الغربيين الذين كانوا حريصين كل الحرص على مصالح بلادهم دون أن يتبنوا مبادئ تتعارض ومبادىء العالم الغربي ·

كان عبد الناصر يعتقد في البداية أنه لا يمكن حمل فرد واحد ، أو أمة كاملة ، على فعل شيء معين باتبـــاع أسلوب الترغيب والترهيب وانما بخلق ظروف معينة تحمل الموجود في خضمها على أن يطالب بفعل ما يراد منـه أن يفعله · فرغبات الجماهير ومنطلباتها هي التي تحفزها على التحرك وليست رغبات قائدها أو طلباته · فالقيادة بمعنى آخـر هي مهنة « خلـق الدوافـع والحوافز » · فعليك ، أولا ، أن تحرك الشعب وتهيجه بخلق حافز عنده لشيء ما ، وبعدها توجهه لهذا الهدف بأن تريه طريقة الحصول عليه والوصول له · وان كنت لا تستطيع هذا (وهذا ما يحدث عادة في البلدان الناشئة التـي تتلهف للوصول الى الازدهار والرقي) فحاول أن تريه ما تظنه ، ويبدو لك ، انه الطريق الصحيح ·فإن هذا يجعلك تبقى في سدة القيـــادة حتى يكتشف الشعب خطأ ذلك ويقرر غيره ، أو حتى يبرز انسان آخر بحلول أفضل وآراء أصوب ·

وعندما دقق عبد الناصر قبل الانقلاب في أوضاع بلاده وحالتها، اكتشف أن الشعب فاقد الحوافز والرغبات ولا يود التحرك في أي مـن الاتجاهات · ولهذا رأى عبد الناصر أن عليه أن يحيط الشعب بظروف وأجواء تساعد على

تحريك الحوافز في نفسه وتوليد الرغبات عند أفراده · وما القائد الا جزء لا يتجزأ من هذا المحيط · وليس من الضروري أن يكون عبد الناصر هو القائد بنفسه طالما باستطاعته أن يخلق تلك الاجواء ويبقيها تحت سيطرته · وبعد استلام عبد الناصر علنا لمقاليد الامور بدلا من بقائه يوجهها من وراء الكواليس أضحت هذه الفكرة مدعاة للشك والتحقيق · فأما الذين يعرفون عبد الناصر عن قرب فيصدقونها . ويعتقدون أن السبب الذي أدى الى تغيير الاحوال ليس تلهف عبد الناصر للسلطة بقدر ما هو تزايد نهم نجيب لها وشراهته اليها · فقد كان عبد الناصر يريد قائدا شكليا للثورة فقط · وكان بامكان نجيب البقاء هكذا الى أبد الابدين طالما بقي اقتناع عبد الناصر بهذا الموضوع قائما · فعبد الناصر من الطراز الذي يهتم بخلق الظروف وايجاد الاجواء المناسبة بدلا من اهتمامه بتفرده بالسلطة على النمط الهتلري · وانني ـ «والذين يعرفون ناصر ـ أشك أن تكون رغبته في أن يصبح معبود المعجبين» به كانت رغبة» دفينة في نفسه متاصلة فيها منذ قيامه بالانقلاب ولبست مجرد حدث طارىء تملكه يومئذ ·

لقد اختير نجيب لملء منصب القيادة بسبب ميزات معينة أدرك عبد الناصر معها صلاحية نجيب للمرحلة الاولى من المراحل الثلاثة لتطوير البلاد · فقد كان الشعب المصري تحت ظل حكم الملك فاروق ساخطا ومستاء ـ بدون تطرف ـ وبدأ ينفس عن كربه بالتذمر والدمدمة ، وكانت تلك الفترة أكثر الاوقات ألما في التاريخ المصري ، حتى الحالي منه · فالاطارات الاجتماعية للشعب لم تتفسخ بعد ، والمواطن المصري العادي كان لا يزال يشعر بأنه جزء من عائلة وعسيرة ومجتمع · ولكن الفرد في أفقر العائلات بقي قانعا بحرمانه لانه لم يكن وحيدا في آلامه وعذابه ، ولانه اعتاد على الفاقة والحرمان حتى أضحى ذلك عادة في حياته وطبيعته لا مجال للتشكي منها · ولم يكن يشعر بتأثير الثقافة الغربية واهتمامها بحرية الفرد واستقلاله الا بعض الضباط والمفكرين وبعض من نبذهم المجتمع وتشردوا · وقد كان عند هؤلاء فقط استقلال شخصي واطلاع وتصورات كافية لتوليد الشعور بالنقمة وبالاضطهاد وكان عبد الناصر مقتنعا بضرورة تفتيت المجتمع الاقطاعي الموروث ، واعادة تنظيم هيكل السلطة وأنظمة الحكومة كلها · (وكان هذا شبيها بما فعلت

القوى المستوطنة (أو المستعمرة) في بلاد عديدة في افريقيا وآسيا ولم يتحقق ذلك الا جزئيا في مصر) ·وبعد ذلك عليه أن يستعد لمواجهة نتائج الاستيقاظ السريع عند الامة · ثم بتصرف مدروس وباتزان وهدوء سيثير شعور السخط والاستياء عند الشعب ويثير نقمته ضد التقاليد المتفسخة ، وبعدها ينشر بينه التلهف للتطور والازدهار · ولن يفعل هذا حتى يكون في مركز يمكنه من تحقيق هذا التشوق والالحاح · ففي « الحالة الاولى » ــ ويكون على رأسها نجيب ــ اعتقد عبد الناصر أن بامكانه ازاحة العناصر التي يخلد وجودها بقاء المجتمع القديم مثل الاحزاب السياسية السابقة والاقطاعيين المقيمين بعيدا عن أراضيهم والشركات الاجنبية المتحكمة بالتجارة · بينما يدع التركيب الاجتماعي سليما حتى يشعر بالثقة والطمأنينة الكافية فيبدأ عندها بغمزه في جنباته ليرى ردود فعله · وعلاوة على صفاته السلبية (مثل رغبته بالبقاء زعيما شكليا) فقد وقع عليه الاختيار لمظهره كالأب العطوف بالشكل القديم وبدون دوافع ثورية ·

لقد تخيل عبد الناصر أن « الحوافز للبناء والازدهار » هي المرحلة الثالثة في مراحل توعيته للشعب والنهوض به · وكان يعلم أنه ربما كان هناك بعض الوقت قبل الوصول اليها ·ولم يكن ليسلم بتفسير تشاؤمي للفرص التي أمامه حتى أخبره أحد أفراد فرق الاستشارة الامريكية التابعين له (آرثر ليتـــل كومباني في بوسطن) بما يلي : « حتى لو حصلت على مليار من الدولارات التي تحتاج اليها في خطتك الخمسية ، وحتى لو نجحت خطتك الخمسيـــة نجاحاً كاملا بدون أي تعثر وتوقف ، وحتى لو بذل كل فرد في المجتمع المصري قصارى جهده وغاية طاقته مستخدما كل الخبرة والمعرفة الاجنبية ، فان افضل ما تستطيعه حينئذ هو المحافظة على الوضع الراهن والحيلولة دون تقهقر أكثر الى الوراء » · وبعبارة أخرى ، فان على عبد الناصر أن يمارس أقصى مهارته لحث شعبه وتحميسه ، وعلى الشعب أن يستجيب له كليا وبفعالية مائة بالمائة حتى يتمكن فقط من المحافظة على الحالة كما كانت سابقا دون أي انهيار · ومع كل هذا المجهود فلن تتوفر لقمة واحدة من الخبز كزيادة لاي فلاح ، كما أنه لن تزداد وسائل الراحة للفرد العادي في المجتمع · ولن يكون هناك تعليم أفضل أو أي تحسن في أي شيء على الاطلاق · وذلك لان الزيادة القصوى في الانتاج القومي تعادل زيادة عدد السكان سنويا · ولم يكن ثمة أحد على الاطلاق ـدون

استثناء عبد الناصر نفسه أو آرثر ليتل كومباني أو أي انسان ينظر نظرة واقعية الى المجتمع المصري ليعتقد أن تحديد النسل سيكون موضع ترحيب الى الحد الذي يظهر اختلافا واضحا ، وتعديلا جذريا ، للوضع المتدهور ٠

ولم يكن عبد الناصر ليقبل هذه النظرة المتشائمة للحالة في مصر ، حتى أنه قال مرة لاريك جونستون : « يجب أن يكون هناك طريقة أخرى للعيش على وجه هذه البسيطة تتمكن بها الدول المماثلة لمصر من احراز بعض التقدم الذي لن يحوز على اعجابكم أنتم الغربيون ، أو على اعجاب أفراد شعبنا الذين يشاهدون الافلام السينمائية الغربية ، ولكننا نعتبره نحن (من وجهة نظرنا) تقدما حقيقيا » ٠ وعلى أي حال ، فقد أدرك ناصر أن شعبه يشاهد الافلام السينمائية الغربية ، وأنه حال تحرره من ربقة الحنين الى المجتمع الذي اعتاد عليه وألفه ، فان شهية افراده وتلهفهم ستتخطى الطريقة الجديدة التي يحاول عبد الناصر ابتداعها للعيش على وجه هذه البسيطة ، والتي لا يزال يلزمه وقت طويل لاستنباطها والتعرف عليها ٠ وهكذا فقد أدرك عبد الناصر أن عليه التوصل الى حل وسط (أو مرحلة متوسطة) وهو ما نسميه « بالحالة الثانية » ٠ وهي حالة تطوير البلاد بالحث وبالترغيب ، والتي يمكنه فيها أن يخفف من شدة التباين بين الرغبات وبين فرص تحقيقها باللجوء الى اشياء أخرى بديلة ٠

« والحالة الثانية » هذه هي أكثر مراحل حكم ناصر اهمية لنا ، وذلك لانها تساعد في فهم سلوك الحكام من النموذج الناصري **Nasser Type Leader** الذين تزدحم بهم طاولة « لعبة الامم » ، وتغلب نوعيتهم على حكام الدول غير الغربية الذين يواجهون باستمرار أزمة الاختيار عند مفارق الطرق ٠ وتتضمن هذه المرحلة المقومات التالية : (١) رفض القيم الغربية وكذلك النظرة الغربية لمستقبل العالم ، (٢) نكران الذات في سبيل القضية ، (٣) الثورة على النظام القائم والاطاحة به دون اعطاء أي فكرة عن النظام الجديد البديل ، (٤) تفضيل الموت على الانصياع لقواعد أساسية وذات مغزى تتطلبها اعتبارات « الحالة الثالثة » كالازدهار ومضاعفة الدخل القومي ٠٠٠ ولكي ندرك أبعاد الرعب الذي تنطوي عليه هذه القواعد فمن الضروري أن نتصور الاوضاع العالمية في سنة ٢٠٠٠ م (كما تصورتها مؤسسة هدسون في كتاب جديد أصدرته حديثا) التي

سعيدو لسكان الشرق الاوسط بصورة توجب عليهم بالضرورة البقاء في « الحالة الثانية » ٠

ان المصري (أو الباكستاني أو الافغاني أو اليمني) الذي أثيرت فيه كوامن ،) يرى أن عام ٢٠٠٠ سينطوي على نقص فادح في الغذاء والمواد الاولية ، وزيادة كثيفة في السكان تتنافس لاجل الحصول على تلك الحاجات الحيوية ، وعلى القوة التي ستقرر من سيفوز بما ينتجه العلماء بتزايد من اكتشافات لاساليب ذات مردود أفضل وبمادة أقل ٠ وللفرد المصري في أوائل عصر نهضته ، فان ظاهرتين اجتماعيتين لمجتمع « أساطير العلم » تلوحان في الافق وهما تتوعدان وتتهددان ، أولاهما : الهيمنة المستمرة «للصفوة المختارة» في الغرب التي تمارس شبه سيطرة احتكارية كاملة على المعرفة العلمية ، وثانيهما : ازدياد سطوة « الصفوة » الغربية الظالمة على كل فرد آخر من الغالبية العظمى لبني الانسان ، حتى تتمكن من تامين توزيع عادل للفضاء والغذاء ولكثير من الحاجات الضرورية الاخرى بغية الابقاء — على الاقل — على أقل حد أدنى من الحياة ٠ ولعبد الناصر عقل حاد وبصيرة نفاذة حيال الامكانيات العلمية ٠ فهو — أكثر من أي انسان غير غربي — يعترف بحتمية الوصول الى مثل تلك الظروف والاحوال (الآنفة الذكر) وأن الغرب هو الوحيد الذي يملك امكانية معالجتها ٠ ويتصور ناصر أيضا أن « الصفوة » الانكلو سكسونية ستبقى منيعة ومسيطرة على لعالم وستكون حياتها شبيهة بالطراز الامريكي الذي يراه في أفلام السينما وفي التلفزيون ، في حين ستقتات البقية الباقية من العالم بما ستقدمه لها الليبرالية الغربية من هبات ومنح (ما عدا اليابان التي لم تجل ذاكرته في ارجائها بعد ليفكر في مصيرها) ٠ وبالحقيقة ، فان ناصر يتصور العالم كما يتصوره اولئك الطلبة المشاغبون ٠ فهو لا يتمكن من اعاقة مجيئه ، ولكن مع هذا فلا يزال يصر على رفضه ويحرض شعبه المهمل واللامبالي على العمل عن طريق تخويفه بما يخبىء له مستقبل العالم من أخطار واهوال ٠

وخلال « الحالة الثانية » فانه يجب على القائد أن : (١) يشوه سمعة النظام القديم الى حد يشعر معه الشعب بالخجل من أن يبقى ذاك النظام جزءا من كيانه ، (٢) يقدم ويعرض منافع ومكاسب مادية ومعنوية كان الشعب محروم منها بسبب « العدو » مع أنها حق طبيعي للشعب لا ينازعه فيه أحد ،

(٣) يحشد ضد « العدو » كل القوى والطاقات التي عانت من الحرمان والفشل وخيبة الامل · وكان كل من ناصر ونكروما وسوكارنو وغيرهم يجرون حساباتهم على القاعدة التالية : في « الحالة الاولى » يمنع الشعب من اهدار طاقاته وينصح بتوفيرها لاستعمالها في « الحالة الثانية » ، وفي « الحالة الثانية » تحشد الطاقات ضد العدو مع استمرار الشعب بتوفيرها دون توقف · وطالما أن الشعب لا يستعمل هذه الطاقة ضد النظام القائم فان هناك بارقة أمل أن يتمكن القادة من اعادة توجيه هذه الطاقة في « الحالة الثالثة » واستخدامها في سياسة البناء والاصلاح ·

ومن مستلزمات حشد العواطف وتهييج المشاعر في « الحالة الثانية » نكران الذات · ان الفرد العادي من اهالي الشرق الاوسط يرى نفسه شخصا من الدرجة الثانية (وهو في نظرته هذه أكثر وضوحا من أهالي الغرب الذين ينظرون اليه على أنه من الدرجة الثانية لاسباب عرقية ـ عنصرية) وبالتالي فلا يمكن اثارته عن طريق التلويح له بالمنافع والمكاسب الشخصية كما نفعل نحن الغربيون في الخطابات السياسية وافتتاحيات الصحف والاعلانات التجارية · ولقد أدركت هذه الناحية من أحد ضباط عبد الناصر الذي سمعني أكثر من مرة وأنا أعرض أفكاري بنفس الطرق التجارية التي تعرض بها البضائع في « أوكازيونات » شارع ماديسون في نيويورك والتي بصراحة تبرز المصلحة والكسب الشخصي · فقد قال لي : « انك في هذه الثورة لن تفلح في حملنا على فعل ما تريدنا أن نفعله بأن ترغبنا بمكاسب نحصلها لاشخاصنا ، فلقد تخلينا عن هذا منذ زمن بعيد · اننا كلنا خدم لقضيتنا فأغرنا على فعل ما تريد بالوسائل التي تخدم قضيتنا » ·

ان « المتزمت » هو الذي يضحي بمصالحه الشخصية في سبيل هدفه · وبالتالي ، فان تحديد هدف ما ، مثل أن يكون « عدو مشترك » ، يضمن التضحية ويحقق الانقياد الاعمى · فالانسان الذي يضن بحياته في سبيل تحقيق بعض المصالح الشخصية الآنية يسترخصها ان كان الهدف ساميا وجديرا بذلك المستوى من التضحية والبذل ، كالنضال ضد « العدو » ·

ان الطلاب الذين يتظاهرون للحصول على أوضاع أفضل والذين لديهم

فكرة واضحة عما يسمونه « أوضاعا أفضل » هم نوع مختلف تماما عن ذلك النوع من الطلاب الهائجين الذين لا هدف لهم سوى تحطيم أنظمة الحكم بدون أن يكون لديهم أية فكرة عن النظام البديل الذي سيحل محل الانظمة القديمة · وعليه فان الحكام من طراز عبد الناصر يفضلون النوع الثاني لهدف واحد لا لسواه · وهو أن اولئك الهائجين الثائرين ليس لديهم أفكارا واضحة محددة بخصوص الاوضاع الافضل (ولهذا يقبلون بأي شيء) ، الى جانب ملاحظة اخرى وهي أن الصنف الثاني هو أكثر النوعين استعدادا ليصبح متزمتا ومتعصبا ، في حين يصعب التلاعب بالنوع الاول لوضوح مفاهيمه ودقتها ·

وهكذا فلاهداف « الحالة الثانية » كان عبد الناصر بحاجة الى شيء من التزمت الموجه الذي يكفي فقط لايقاظ افراد الشعب من سباتهم وليس أكثر من هذا وذلك خشية أن يفلت الامر من سيطرته فيصبح خارج نطاق وسائله لتصريفه وتفريغه · وهذه هي النقطة التي بدأ عبد الناصر عندها يواجه الصعاب في الشؤون الداخلية · فكما سنرى لاحقا ، فان تحركات عبد الناصر الممثلة حول طاولة « لعبة الامم » كانت تتطلب شيئا من التأييد المطلق والاعمى في داخل البلاد (وهذا معناه « التضحية » بالمكاسب الشخصية في سبيل الاهداف) · ولكن الفرد المصري لا يمكنه أن يمنح هذا بسهولة · وبالتأكيد ، فمن الصعب أن يقتنع الفرد المصري بهذا النوع من التعصب عن طريق زعيم أو حاكم لا يؤمن هو نفسه بهذا النوع من التعصب والتزمت في داخل بلاده ، بل يؤمن به فقط عندما يُستخدم في أراضي اولئك الزعماء الذين يناصبونه العداء بغية ارهاقهم واحراجهم · كما أن ذاك الزعيم يرفض أن يكون هذا التعصب نتيجة عقائد متأصلة (أو غوغائية مطلقة التي لها نفس الاخطار) بل بل يريده أن يكون نتيجة منافع ومكاسب آنية وشخصية ·

ان رجل الشارع في مصر لا يتمتع بفهم سريع أو بثقافة واسعة كابن عمه السوري (الذي يتصف بسرعة تجاوبه مع مثل تلك الاغراءات) ولكنه أكثر هدوءا وأقل انفعالا ولا يميل الى تصديق كل ما يقال له ·

ويجب على عبد الناصر أن يكسب مقدارا أدنى من التأييد الشعبي لدعم تحركاته التي يقوم بها في « لعبة الامم » والتي هي في الحقيقة من النوع الذي

يتطلب تاييدا شعبيا « متعصبا » . وكان عليه وعلى حكومته أن يبذلا أضعاف الجهد الذي يبذله القادة السوريون للحصول على مثل هذا التأييد . ويعجز المراقبون الغربيون عن فهم ضرورة توظيف عبد الناصر لقسط هائل من الجهد القومي فيما يسمى بالاتحاد العربي الاشتراكي (وهو حزب عبد الناصر الوحيد المسموح له بالعمل في البلاد) بسبب عدم ادراكهم « لنوعية » ذلك التأييد الشعبي الذي يحتاج له (وهو من النوع « المتعصب ») الذي يتطلب انفاق مقدار مدهش من الجهد القومي لتأمينه وضمانه .

ومع اننا سنعالج « الحالة الثالثة » بشكل أوسع وأعمق في فصل لاحق، الا أنه لا مانع من القول انهنا|كافة المغريات التي كان ناصر يقدمها للشعب في « الحالة الثانية » انما كانت تخدم تماما أهداف « الحالة الثالثة » . وهذا هو السبب الكامن وراء عدم تجاوب الشعب معها واضطرار ناصر للصياح بملء شدقيه داعيا لها . ولقد أشار المستشارون الامريكيون الى أن مصر لن تشكل مصدر خطر وقوة الا اذا تركت معتمدة على مواردها المحلية فقط . ولهذا فان المساعدات الخارجية تشكل منطلقا حيويا لها . ولقد أدرك عبد الناصر نتيجة خبرته مع حكومة الولايات المتحدة ومع السوفييت أن حصوله على المساعدات الخارجية يتناسب طردا مع مدى اقتناع « هاتين الدولتين » بأهمية دوره وأنها قوة لها وزنها في « لعبة الامم » . والسبيل الوحيد للوصول الى هذه المرتبة لا يستلزم سلوك طريق نموذجي في البناء والاصلاح وانما يستلزم تطوير قضية تسبب قلقا وخوفا للدول الكبرى التي – على الاقل – لن يكون لها الخيار في أن تنظر اليها بعين الجد والاهتمام . وكان بامكان ناصر أن يستحث جهود شعبه عن طريق وعده بحياة اقتصادية أفضل ، الا أنه:(١) لن يمر زمن طويل حتى يكون الشعب قد اكتشف زيف هذه الوعود ، و (٢) لن تكون يقظة الشعب كافية لان تجعل من ناصر عاملا حاسما في « لعبة الامم » حتى يتمكن من الحصول على المساعدات الاجنبية بغية تدعيم وضعه .

ان مشاكل ناصر في « الحالة الثانية » تستدعي سلوكا غوغائيا مطلقا . وكما قلت سابقا ، فان ناصر ينطوي على قسط كبير من الغوغائية لا يقل عن ذلك الذي يتصف به كثير من السياسيين الناجحين ومنهم المرشحين لرئاسة الجمهورية الامريكية . الا أن هناك فارقا واحدا : فالزعيم الغوغائي العادي

يحاول أن يحدد وجهة الجماهير وذلك ليتصدر بعدها المسيرة بنفسه . الا ان الزعيم الفوغائي الناجح هو الذي يفلح في اقناع الجماهير أن تطالب من نفسها بالتوجه الى حيث يرى الزعيم أنه المكان الذي يتوجب عليها أن تتوجه اليه وهذا ما يفعله الحكام من الطراز الناصري بوسائل غير مباشرة ، حيث يدفعون الجماهير لان تطالب بالتوجه الى المكان الذي يريدونه لهم ، ومن ثم ليتصدروا مسيرتها بطرق لا تختلف عن تلك التي يسلكها الزعيم الغوغائي العادي . ولعلنا نستطيع القول أيضا ان عبد الناصر بوسائله غير المباشرة يخلق عند الجماهير ميولا واتجاهات تجعلهم يمارسون الضغط عليه لاتخاذ اجراءات طالما تمناها وسعى لها . واتباع ناصر لكل هذه الاساليب لا يخرجه عن القواعد العامة المطبقة في « لعبة الامم » . وقد قال ناصر مرة لاحد السفراء الامريكيين : « انني أفعل ما أفعله لان الرأي العام لا يسمح لي بفعل غير ذلك ». الا أن السفير الامريكي كان أكثر دهاء وخبثا عندما أجابه قائلا « ولكن ،سيدي الرئيس ، من هو الذي دفع بالجماهير الى هذه الحالة وتلك المواقف ! ؟ » وهنا ارتسمت على شفتي الرئيس ابتسامة كلها رقة وعذوبة .

وبعدما مررنا مرور الكرام على هذه الطرق غير المباشرة ، يجدر بنا الآن أن نعطي ملخصا عنها . فهي .

● الدعايـــة :

ان الدعاية التي كانت احدى أركان جهاز القمع ، قد اعتبرت أيضا من ضمن وسائل اكتساب التأييـــد الشعبي وأصبحت احدى أركان سياسة البنـــاء والاصلاح . وأما أهدافها فهي :

١ ـ تشويه سمعة الاعداء داخل البلاد باظهارهم مظهـــر المفسديـــن والمستهترين بأبسط قيم المجتمع واعتباراته الحقيقيـــة . ومع أن المصريين يدّعون أنهم ضد الفساد المالي الا انهم حقيقة عكس ذلك . ولهذا فان ثبـــوت الرشوة على أي سياسي لن يكون له سوى تاثير بسيط على حياته السياسية . ولكن اظهاره بمظهر الخليع الداعر غير المتدين يعني شيئا آخر أكثر تأثيرا . فالحملة التي سمح بها ناصر خلال سنتي حكمه الاولى والثانية كانـت مليئة بالقصص البذيئة والروايات الفاحشة . ولقد شنت هذه الحملة لانها كانـت

الوسيلة الوحيدة المجدية لجر أفراد الطبقة الحاكمة المصرية القديمة خارج أبراجهم العاجية وتعريتهم أمام الشعب ·

٢ ـ وكان هدف الدعاية الثاني الاطاحة بكل الامتيازات الإجتماعية التي كانت تحمي الطبقات الارستقراطية ، والتي بقيت الى ما بعد تعريتهم من الاخلاق والقيم الفاضلة · فلقد كان الخوف والرهبة من أفراد الطبقات الارستقراطية متأصلا في نفوس أفراد الطبقات الفقيرة الى حد اعتبر فضح الاسرار الجنسية للارستقراطيين أقل ما يمكن فعله لنزع خوف الطبقات الفقيرة منهم · فقد كان أحد موظفي سفارتنا يقول : « ان المصريين يحبون « البكوات » (ولهذا السبب فقد أحبوا الديبلوماسيين البريطانيين ولم ينل أمثالهم من الامريكيين احترام المصريين) ، لكن عبد الناصر قام بتحطيم هذا الخنوع لحاملي ألقاب « البكوات » التقليدية في مصر بشتى الوسائل الخبيثة ، ومنها الافلام السينمائية وتمثيليات التليفزيون التي تمثل رجلا عاديا يطالب بحقوقه ويضرب الاقطاعي صاحب الارض · ان مشاهد كهذه في قاعات السينما المحلية قد أثارت الاشمئزاز في البداية ولكن سرعان ما ألفتها الجماهير · فمشاهدة عامل على المسرح الآن ثائر على رب العمل ، أو مجموعة من الفلاحين تلقي الاحجار على ملاك اقطاعي سابق لن تثير سوى موجة من الهتاف عند النظارة، مع أن أعمالا حقيقية كهذه غير مقبولة اطلاقا في الحياة العامة خارج المسرح ·

٣ ـ وهدفها أيضا احداث موجة من الخوف والذعر في الطبقات الارستقراطية (طبقة البكوات) عن طريق اثارة الشكوك حولها واتهامها باجراء اتصالات سرية مع فئات أجنبية تنوي غزو البلاد واحياء النظام البائد وانزال العقوبات بالطبقات الشعبية البائسة لعصيانها وتمردها · ونظرا لانه لا يتصور وجود فئة أجنبية فاقدة العقل والتفكير الى الحد الذي يخطر ببالها الاعتماد على فئة البكوات المصرية للقيام بانقلاب ضد حكومة عبد الناصر ، فقد كان لزاما على الحكومة اذن أن تقوم بتزييف الادلة ضد المتآمرين المزعومين ، ونشر خطط خياناتهم المصطنعة والمختلقة · وكانت بعض القصص المنتقاة بعناية والمعززة بالاشاعات ، تنشر بمهارة كافية للغرض ذاته· وفي خلال أزمة السويس (التي اعتبرتها الغالبية الجاهلة برهانا على وجود طابور خامس موال للاستعمار) ،

قام فريق من الخبراء الاجانب باجراء استفتاء للرأي العام (بعد الحصول على موافقة عبد الناصر) ووجد أنه كان هناك فعلا خوف من الطبقة الارستقراطية المطرودة من المجتمع المصري وخاصة اولئك الذين يشك باتصالاتهم الاجنبية . ولم يكن هذا الخوف كافيا فقط لتمرد قسم كبير من المجتمع المصري على الروابط الاجتماعية التقليدية التي كانت تحول دون قبولهم بالثورة ، بل كانت كافية أيضا ـ بالاضافة الى عوامل الخوف الاخرى ـ لأن تشكل عنصر الخوف الرئيسي الموحد للامة حول رئيسها ـ كما سبق أن تكلمنا عن ذلك .

● **الحزب السياسي الواحد :**

استغرب كثير من الدبلوماسيين الاجانب ورجال الصحافة الاذكياء اعتماد عبد الناصر الحزب الواحد في النطاق السياسي ، واضطربوا من القيود المفروضة على الحريات المدنية . ولكن بما انهم كانوا مطلعين على أهداف عبد الناصر للمرحلة الثانية، فانه من العجيب أن يدرك الانسان انهم كانوا يتوقعون من عبد الناصر اي شيء غير تلك الاجراءات . فكيف يمكن لنظام فيه حزبان سياسيان ان يخدم تلك الاهداف وينجزها ؟ وكيف يمكن عندئذ تفادي حدوث أي تشويش أو اضطراب ، وذلك ما يجب على عبد الناصر أن يتجنبه بأي ثمن كان ؟ وان كان من الطبيعي بالنسبة للغربيين أن يدافعوا عن فكرة المعارضة الحرة كأساس لتطوير المجتمع السياسي المتمدن ويناقشوها مع دى توكوفيل (كاتب مشهور) فان مناقشتهم لعبد الناصر وتوقعهم اياه أن يفعل ذلك يوحي الى أنهم سذج وبسطاء جدا . وسواءا كان ناصر على صواب أم على خطأ ، فمن الطبيعي له وعلى الاقل أن يعتقد أن نظام تعدد الاحزاب السياسية سوف يتمخض ـ كما أخبر عددا من الزوار الغربيين ـ عن استمرار المنافسة بين الحزب المدعوم من قبل الامريكيين ضد ذلك المدعوم من قبل الانكليز وكذلك ضد الثالث المدعوم من السوفييت . وهكذا تبقى البلاد عرضة للتنافس بين هؤلاء الثلاثة الا اذا كانت لدى الحكومة القدرة المالية على منافسة هؤلاء المموّلين الثلاثة الكبار لتدعم حزبا من أفكارها وآرائها . وأكثر من هذا فهو مدرك تمام الادراك قابلية انجذاب العناصر المتفوهة من المجتمع المصري نحو الحركات المتطرفة ، وكذلك نزعة هذه الحركات المتطرفة في أن تكون ضد

الفئة الحاكمة مهما كانت نوعيتها وطبيعتها • واخيرا ، وبـــدون الموافقـة او المعارضة ، يجب على المراقب الغربي أن يدرك تمام الادراك أن مرحلة عبد الناصر الثانية ـ كما يراها بنفسه ـ تتطلب فترة من الانضباط والخضوع السياسي والاقتصادي والاجتماعي • وفي اثنائها يتمكن من حشد افكار وطاقات الشعب لدخول « الحالة الثالثة » الشائكة المرعبة • ان عبارة « الشعب الحر » ، كمـا يراها عبد الناصر ويفهمها ، بامكانها أن تفعل وتنجز كثيرا في دولة غربيـــة مثالية • ولكنها لا تعني ، في دولة عربية نموذجية ، الا هدر الطاقات في طرق معطلة للانتاج ومعوقة له •

انني أوصي القارىء المهتم بالموضوع بقراءة كتاب « الجيش المصري فـي السياسة » لمؤلفه د• ج• ڤاتيكيوتس ، للوقـوف على تفاصيل أكثـــر وأدق • وللاستمرار في موضوعنا فانه يجب علينا أن نقرر ما يلي : استنادا الى نظرة الحكام من الطراز الناصري الى الامور ، فان كل ما تحتاج اليه الجماهير ـ على حد رأيهم ـ هو حرية التصويت وليس حريةمناقشة أو معارضة ما هم مدعوون للتصويت عليه (الا ضمن حدود الحزب الواحد الحاكم) • ففي الديموقراطيات الغربية يعتبر الحزب أداة يستعملها أفراده للضغط على الحكومة وحملها على أن تفكر بطريقتهم • الا أن الحزب في مصر هو أداة الحكومة لحمل الشعب على أن يفكر بالطريقة التي يريدها له حاكم الدولة • ومن السذاجة المطلقة والغباء الصرف أن نتصور مهمة نظام الحزب الواحد غير هذا •

● الآلاف المؤلفة من الموظفين :

عندما ذهبت وفريق من المهندسين في فن الادارة الى مصر سنة ١٩٥٣ ، كانت بعثتنا ذات طابع رسمي وبهدف تنظيم ادارات ومؤسسات الدولة المصرية لتعطي أكبر مردود في الخدمة العامة وبأقل عدد ممكن من الموظفين • وبعبارة أخرى ، جعل الادارة ناعمة وفعالة • ولكن سرعان ما أدركـــت أن النظــــام الاستعماري البريطاني (أو النظام الذي كان سائدا في امريكا في عهد فرانكلين د• روزفلت) هو المفضل لبلد مثل مصر • ولا تزال ماثلة في مخيلتي صــورة رئيس دائرة الجمارك عندما ارتعدت فرائصه أمام اقتراح قدمه أحد زملائـي

بخصوص طريقة تصريف شؤون دائرته ٠ فقد كانت الطريقة الجديدة المقترحة تساعد على الاسراع بالاجراءات الجمركية الشائكة ، وتقدم خدمات أفضل لشاحني البضائع ، وتقلل من فرص التهرب من تسديد الرسوم المتوجبة٠ ومع ذلك فقد كانت موضع اشمئزاز وامتعاض رئيس الدائرة لا لشيء سوى أنه لا يحتاج تنفيذها لاكثر من عشرة موظفين بدل الثلاثين موظفا المداومين يوميا في تلك الدائرة ٠ ولكن دهشتي قد زالت عندما التقيت بصديق بريطاني كنت أسعى حثيثا لاسمع بعض نصائحه ، فقال لي : « لو كنت المسؤول عن معالجة الوضع ، فباعتقادي انه يجب علي استخدام خمسين موظفا وليس عصر الثلاثين الى عشرة موظفين » ٠ ان غاية الحكومة في مصر (من وجهة نظر اكثر عمقا) ليست خدمة الشعب وتسهيل مصالحه بقدر ما هي تجنيب القسم الاعظم من الشعب التسكع في الشوارع بدل تركه عاطلا عن العمل مشردا ، الامر الذي يجعله يشكل خطرا كاسحا ٠ ولو أن بريطانيا لم تنفذ هذه الفلسفة في مستعمراتها ، فان بلادا مثل الهند والباكستان ونيجيريا وغانا كانت ستحرم من قسم كبير من لابسي الياقات البيضاء الذين يشكلون الطبقة الوسطى فيها ولن يجد عبد الناصر بعدها من ينتسب الى اتحاده الاشتراكي العربي ٠

وفي أوائل ١٩٦٧ كان عند عبد الناصر حوالي مليون موظف مدني في جهازه البيروقراطي ، باستثناء ادارات الجيش والشركات المؤممة ٠ ان مؤسسة بوز آلن آند هاميلتن (وهي اكثر مؤسسات الدنيا جدارة في قضايا الادارة العامة) قالت ان الحكومة المصرية لا يمكنها أن تستخدم أكثر من ٢٠٠ الف موظف ٠ ولقد دفع عبد الناصر ثمن فوضى الادارة في بلاده ٠ ان في حوزته مليونا من لابسي الياقات البيضاء من أفراد الطبقات الوسطى التي يقطن معظمها في مدينتي الاسكندرية والقاهرة ، والذين عليهم أن ينضووا تحت لواء الاتحاد الاشتراكي والا لما خدموا أهداف زعيمهم ٠ أما بخصوص موجة الفساد فذلك نتيجة لا بد منها لظاهرة حشو الادارات بما لا يلزم من الموظفين٠ وقد استخدمها عبد الناصر كما استخدم دامون رونيون الاتجار بتذاكر السينما (١) لتمويل مشروع مكافحة السرطان ٠ وبدلا من الاكتفاء بملء الجيوب بالطرق غير المشروعة ، فقد عمدت طبقة عبد الناصر البيروقراطية (طبقة الموظفين وخاصة التي

---

(١) البيع بسعر أعلى من سعر الشراء بقصد الربح ـ يقصد ان الطريقة تجر ويلات أشد ٠

هي في تماس مباشر مع الشعب مثل وزارة الشؤون الاجتماعية والداخلية والتربية) الى خدمة الامة والنظام تماما بنفس الطريقة التي خدمت بها قاعة التاماني (١) مرة الحزب الديموقراطي في نيويورك ٠

● الأسطورة :

كان ناصر طرفا في العديد من الدراسات والمناقشات التي دارت بيته وبين المتآمرين معه من الضباط ، وقد تحلى فيها بالصبر والاناة ٠ الا أن تلك المناقشات لم تكن سوى من النوع الذي يرمز له بأنه « جيد ان كان بسباقين وسيء ان كان بأربع » ٠ وقد أدرك ناصر دائما أنه حتى أقل الناس ثقافة ـ الى جانب غيرهم من المثقفين ـ لا بد من استمالتهم عن طريق تقديم مغريات أكثر واقعية وحيوية من تلك التي بمقدور ضباطه الاعلان عنها أمام الشعب ٠

لقد بذل ناصر قصارى جهده للعثور على « باعث ومحرض » يملك توحيد الامة وتجميع شملها حوله ٠ لقد كان ناصر بحاجة الى « عامل ما » ذي تأثير شبيه بتأثير الاضراب العام على نقابات العمال في فرنسا ، أو شبيه بتأثير الثورة الحمراء الذي يريده ماركس ٠ وبعبارة أخرى ، لقد كان ناصر بحاجة الى ما عبر عنه « جورجس سوريل » منذ أكثر من سبعين سنة ، وحدده باسم « الاسطورة » وهي : « عبارة عن مجموعة تصورات وانطباعات تملك القدرة على اثارة كل العواطف والمشاعر بطريقة غريزية وأن تتخذ طابعا مماثلا لاحد أوجه الحرب التي تشنها «الاشتراكية» ضد «المجتمع الحديث» » ، الا أننا يجب ـ في مقامنا هذا ـ أن نستبدل كلمة « الاشتراكية » بلفظة « الثورة » وكلمة « المجتمع الحديث » بلفظة « أعداء الثورة » بغض النظر عن قصد ناصر الحقيقي من وراء هذه الألفاظ ٠

وليس من المهم أن يعني ناصر أي شيء محدد من وراء تلك الألفاظ ٠ فلربما تنجح الاسطورة في حشد العواطف ضد أي « مجهول كبير » وذلك لان الاسطورة لا تعني حقيقة سوى مناشدة العواطف دون العقل والتفكير السليم٠ وكل مستلزمات الامر ـ كما يقول سوريل نفسه ـ هو « توفر مجموعة من الرجال ليشاركوا في حركة اجتماعية ضخمة شريطة أن يتوفر عندهم الانطباع

---

(١) مقر قيادة الحزب الديموقراطي في نيويورك ويعني انها لم تنفعه بشيء ٠

أن عملهم هذا انما هو المعركة التي سيتحقق لقضيتهم فيها الانتصار بصورة اكيدة لا شك فيه ولا التباس » · ولربما تكون الاسطورة على درجة كبيرة من الغموض والابهام ، أو أنها ناقصة التفاصيل · ولربما تظهر على انها ليست أكثر من مجرد أحلام لا وصف لها ولا تحديد وليس من الضروري أن يكون هناك أي ارتباط بين الحقائق الملموسة وبين الانطباع الذي كوّنه الشعب لنفسه قبل أن يباشر العمل (ولا يشترط وضوح هذه العلاقة ـ ان كان هناك أي منها ـ للرجل المفكر) · فالاساطير ليست شروحا وأوصافا لاشياء محددة ، ولكنها تعابير عن التصميم على العمل والعزيمة على النضال · ولا يمكن دحض الاسطورة أو تكذيبها وذلك لانها تكون في الاساس منسجمة مع اعتقادات المجموعة ، كما أن الاسطورة هي بحد ذاتها تعبير عن تلك الاعتقادات ولكن بلغة العمل والحركة · وبالتالي فانها صعبة التفكيك ولا يمكن ردها الى العناصر التي تكونت منها لاعادة دراستها وتسلسلها التاريخي والتحقق من أصلها ·

ومن غير أن أكون واثقا من أن ناصرا قد قرأ كتاب سوريل أم لا ، وبدون استعمال كلمة «الاسطورة» نفسها، فان ناصرا كان يعبر بين الحين والآخر عن أفكار مشابهة للافكار السالفة الذكر مع فارق بسيط · ولم يختلف ناصر كثيرا عن مدير تلك المدرسة التي ينتسب طلابها الى طبقة « أصبحت غنية حديثا » والذي اجتمع بهيئة المدرسة وطلب منها تقرير تقاليد جديدة تتبناها المدرسة وتكون ذا تأثير على عائلات الطلاب · فقد قرر ناصر أن يتخذ لنفسه طابعا مميزا وبالتالي أن « يتبنى أسطورة » معينة · ومع أن ناصرا قد اختار أسطورة لا تمثل أيا من طموح الشعب وآماله الا انه تفاءل أن يتخذ الشعب من تلك «الاسطورة» مبادىء له وأهدافا ·

ولا ندّعي أن عبدالناصر بدأ من الصفر : لقد بدأ بادراك تام لتخيلات وأحلام الشباب المصريين بنفس الطريقة التي يحلم بها المراهق الغربي بانقاذ فتاة رائعة الجمال من عمارة تستعر فيها النيران ، أو بطريقة الموظف العابس كثير الصياح الذي يتخيل أنه (على طريقة والترميتي) يستطيع أن يبز رب عمله المستأسد ويتفوق عليه · فالفتى المصري يتصور أنه بطريقة ما سيتغلب على الاوربيين الذين احتقروه لزمن طويل · ولقد سمعت ضباط عبد الناصر الاحرار وهم يتبادلون القصص المفصّلة لساعات طوال من غير انقطاع ، عن

بطولاتهم ضد قوات الاحتلال البريطانية ، وكل تلك القصص مزيفة من غير شك . وكان عبد الناصر مدركا تمام الادراك للشيء الذي سيجعل منه بطلا في أعينهم . وكما قال دانيال ليرنر : « المتفائلون ـ فقط ـ في الغرب فسّروا استيلاء عبدالناصر على السويس (كمثال) على أساس انه قام به بدافع الحصول على رسوم القناة وعائداتها » . لقد عرف عبد الناصر كيف يصبح رمزا لنهضة الشعب المصري المضطهد . وكما قال مورد برغر : « لقد حاول اذلال كل من أذلّ العرب » . وبعبارة أبسط ، فلقد ظهر على أنه أول « منتصر » ، منذ سنوات طويلة خلت ، وفي دولة اعتاد شعبها على أن يعتبر نفسه من الخاسرين دائما .

وكونه منتصرا ، فلقد حاول أن يظهر في مظهر متواضع عندما كان يصف نفسه على أنه مجرد ممثل أعلى للشعب، ولا يستبعد أن يكون ذلك أصيلا في نفسه. وهكذا فهو يشبه كلا من موسى وكرومويل ولينين . ان ثقة ناصر الفائقة بنفسه يشعر بها كل من يقابله، وسبب ذلك أنه ـ كأولئك النماذج: موسى، كرومويل، لينين ـ قد ملأ دورا في مسرحية كان يفتش مخرجها عن ممثل ينجح في تأدية ذاك الدور ، كما أنه قد أفصح عن هذا في كتابه « فلسفة الثورة » . ولهذا فان تأديته لذاك الدور عمل أخلاقي ومثالي بدون أدنى ريب ، كما أنه جزء لا يتجزأ من « الاسطورة » . وأما أتباعه فانهم ـ شعوريا أو لا شعوريا ـ يرون علاقتهم بتلك القوة العظمى قد تجسدت فيه ولكن دون أن يكون لديهم أي تحديد لتلك القوة العظمى ، (وبالطبع فان هذا غير ضروري لاستكمال الاسطورة) ، ولكنها ـ على الاقل ـ هي تلك القوة التي وضعت المصريين مع الاوربيين حول طاولة واحدة دون تفريق أو تمييز . (ويرى عدد من علماء الاجتماع أن حب المصريين للاوربيين وكراهيتهم لهم في آن واحد جزء هام في التكوين العاطفي للمصريين) . كما أن تلك القوة قد جعلتهم أعلى بمرتبة ـ أو بمرتبتين ـ من سائر الشعوب العربية الاخرى . (ولا بد من ادراك حقيقة مهمة جدا وهي أن فكرة « القوميةالعربية » ليست جزءا من « اسطورة » ناصر ، الا أن مفهوم كون مصر «رائدة العرب » قد غدت جزءا مهما من الاسطورة) .

وبعبارة أخرى ، فان أسطورة عبد الناصر هي مجموعة تصورات وانطباعات تحيط بمعركة الرجل الملون (العرب والمسلمين والافريقيين ، وهي دوائر عبد الناصر الثلاث) ضد الاوربيين (السوفييت والغربيين) : معركة

يثق فيها الرجل الملون كل الثقة من أنه سيفوز في النهاية . كما أن استخدام عبد الناصر لرصيده في أجهزة البناء والاصلاح (مثل الدعاية ، الحزب السياسي الواحد ، الآلاف المؤلفة من الموظفين) يهدف الى تخليد تلك « الاسطورة » . ومع اننا سنستعرض في الفصول اللاحقة كيف انتقل ناصر الى مرحلة الحكم البونابرتية (مفوض الشعب) فان نظرتنا حول ناصر واسطورته ستكون ذات خدمة جليلة خلال استعراضنا لمحاولات ناصر للربح ولاكتساب التاييد الشعبي وكيف أنها قد أثرت كثيرا على مرونة حركته ومناوراته في « لعبة الامم » (١) .

---

(١) ملاحظة للقارىء :

وسائل القمع تعني : القوات المسلحة ، وسائل الدعاية ، المخابرات ، الامن العام (البوليس)، التشريعات والانظمة .

وسائل البناء تعني : الدعاية والاعلام ، الحزب الواحد الحاكم ، الاجهزة البيروقراطية الضخمة (الآلاف المؤلفة من الموظفين) وكلها تخدم تخليد « الاسطورة » .

ونلفت نظر القارىء أن المؤلف يعني بكلمة « المرحلة » على أنها احدى تلك المراحل التي سبق ذكرها صفحة ٢٣ في « التقرير » . واما كلمة « الحالة » فهي شيء آخر (انظر اسفل صفحة ١٥٤) . (المعرب)

- ٧ -

ناصر والحياد الإيجابي

... أما استراتيجية الضعيف العاجز فهي الايقاع بين الاقوياء عله ينجو بنفسه

في أوائل ١٩٥٣ ، لم يعد خافيا على عبد الناصر أن الاقتصاد المصري لن يقوى على الوقوف دون مساعدات خارجية · ومع أن تقرير آرثر ليتل لم يكن يومها قد نشر بعد فان عبد الناصر كان يطمع بمساعدات ضخمة تفوق تقدير أكثر الجهات احتمالا لتقديمها ألا وهي الولايات المتحدة · وقد حدد عبد الناصر بدقة ووضوح معالم الدور الذي يتحتم عليه أن يلعبه على المسرح العالمي حتى تقتنع الولايات المتحدة باعادة النظر في سياسة مساعداتها الخارجية لصالحه · الا أن ناصرا قد أدرك أن ذلك الدور لم يكن منسجما مع أوضاع البلاد الداخلية ، فهو ليس في « الحالة الاولى » (١) ، وهذا ما اضطره الى الاخذ « بالحالة الثانية » (٢) · وكان المراقبون الغربيون يميلون الى أخذ تصرفات ناصر في « الحالة الثانية » والاهداف التي يعلن عنها على اساس معناها الظاهري ودون النظر الى ما وراءها من دوافع ، ولهذا فقد كانوا يحكمون عليها بالفشل · لقد كسب عبد الناصر الحد الذي يطمح اليه من عواطف الجماهير دون أن يدفع بها

(١) الحالة الاولى (من الفصل السابق) : يحاول ناصر أن يزيل القوى التي تكرس بقاء المجتمع القديم وهي مثل الاحزاب السياسية ، الاقطاعيين ، الشركات تحت السيطرة الاجنبية مع ترك التركيب الاجتماعي دون تغيير ·

(٢) الحالة الثانية (من الفصل السابق) : حل وسط ، وهو تطوير البلاد بالحث والترغيب للتخفيف من شدة التباين بين الرغبات وفرص تحقيقها باللجوء الى اشياء بديلة· ومن مقوماتها : رفض القيم الغربية والاعتبارات الغربية لمستقبل العالم، نكران الذات في سبيل القضية ، الاطاحة بالنظام القائم دون توفر صورة واضحة عن النظام البديل ، رفض الخضوع الى القواعد التي تتطلبها « الحالة الثالثة » حالة الازدهار الحقيقي · وتستلزم الحالة الثانية سلوكا غوغائيا ·

الى تطرف يفقده السيطرة عليها • الا انه قد أبقاها من القوة بحيث لا يتجرأ معها أصحاب النظرات الواقعية من المصريين أن يفصحوا عن رأيهم أن «مصر أولا»، ذلك أن اي احتجاج على أساس من هذا الرأي سيضيع الكثير على ناصر ويجعله سلاحا أمضى بيد الوزير دالس • وعندما حان وقت بحث المساعدات المالية مع الحكومة الامريكية كان ناصر قد هيأ مسبقا الرأي العام بصورة مدروسة يظهر معها أمام الامريكيين وكأنه مقيد بسياسة معينة لا خيار له فيها (وهي السياسة التي يريدها لنفسه) •

وقد تميزت الرسائل التمهيدية بين مصر والولايات المتحدة ، بخصوص موضوع المساعدات المالية بامتلائها بالعبارات المبتذلة مثل « السلام والاستقرار في المنطقة » ، وببعض المقتطفات من خطابات الرئيس آيزنهاور ، مثل « لقد ولدت امتنا لان شعبها سيكرس نفسه للحرية والعدالة » ، ومن مذكرة رسمية للوزير دالس « اننا نبغي سلما عالميا وعادلا للجميع » • وقد استمر تبادل مثل هذه العبارات الى الحد الذي أثارت شكوكا مخيفة في نفس عبد الناصر • وظن أن الامريكيين مهتمون حقا بكل هذا الهراء والسفسطة ، وبدأ يعتبرنا على أساسها اما مغفلين أو نحسبه ــ هو ــ كذلك • وعندما بدأ بحث الامور بالتفصيل ارتد الامريكيون الى انتقاء الفاظ ومعاني يفهمها عبد الناصر وضباطه جيدا • فالرئيس ايزنهاور بكل خطاباته الممتازة (والتي كان فيها صادقا من قلبه) كان يمثل اليانكي الوطني القديم • فلم يكن فهمه للسياسة الخارجية التي تهدف الى رعاية المصالح الامريكية المحضة فهما أجوفا • بل كان ينظر من خلال ذلك الى الطموح الشيوعي • فهو كعسكري يرى أن هذا الطموح معزز بوسائل عسكرية ، مثل الوسائل التي اجتاح النازيون بها أوربا • وان الدفاع المنطقي ضدهم ، هو الدفاع العسكري ، الذي يبدأ أولا عن طريق منظمة حلف شمالي الاطلسي (ناتو) ، وتشترك فيه الدول الاوروبية ، ومن ثم بأحلاف شبيهة به في بقية أجزاء العالم • وأما منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط «ميدو» فكانت أولى تلك الاحلاف الواجب تنفيذها بعد حلف شمال الاطلسي •

وفي ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ اجتمع انتوني ايدن وجون فوستر دالس مع الرئيس ايزنهاور ليتباحثوا في أمور الدفاع عن الشرق الاوسط بصورة متكاملة• وفي الوقت الذي كان يعني ذلك الاجتماع ، بالنسبة للرئيس ايزنهاور ، ضرورة

اخراج « حلف الميدو » الى حيز الوجود فقد كان لا يعني ، بالنسبة لانتوني ايدن ، سوى الاحتفاظ بالقواعد العسكرية في الشرق الاوسط تحسبا لنشوب اي نوع من النزاع العسكري : من الحرب المحلية التي ربما تعيق استخدام قناة السويس ، الى حرب عالمية ثالثة ، أو من حرب بين فرقاء آخرين ، مثل حرب بين العرب واسرائيل ، الى حرب بين بريطانيا وحلفائها وبين الروس · وكان هناك سؤال خاص يتعلق بمصر · فقد كان عبد الناصر ومجلس قيادة الثورة يخشون على أنفسهم من الانجليز ، أكثر مما يخشون الروس · وليس الشرق الاوسط برأيهم معرضا لخطر أي هجوم مسلح من الروس · ولم يكن لعبد الناصر أية رغبة بالمشاركة في معاهدة « الميدو » ، كما انه لم يكن له رأي في بقاء أو زوال القواعد البريطانية من الشرق الاوسط لما كان أيا منها لن تبقى في مصر · ومن ناحية أخرى كان عبد الناصر يلح على طلب المساعدات العسكرية من الولايات المتحدة الامريكية · وكان يطلبها حثيثا لاغراض الامن الداخلي وليجعل من جيشه الرث المهلهل — كما أخبر ناصر دالس — جيشنا فخورا بنفسه ليصبح الدعامة الاساسية في جهاز الامن داخل البلاد · واذا ما قدر وكان لجيشه أية مهمة عسكرية فلن تكون ضد السوفييت ، أو أية قوة أوربية أخرى ، وانما للدفاع ضد اسرائيل وللتدخل ضد بعض الدول العربية المناوئة له ·

ولم يكن أي من الامريكيين أو البريطانيين مخدوعين بوجهات نظر عبد الناصر · فآراؤه بالدفاع عن المنطقة واضحة لا غموض فيها في تقاريرالمخابرات الامريكية المعاصرة له يومها · ومع كل ذلك فان اجتماع ٥ آذار (مارس) كان يدور حول فرضية أساسية وهي : انه ضمانا لسلم عالمي عادل لجميع الشعوب ، فان الامريكيين يرون ضرورة قيام منظمة دفاعية اقليمية كمنظمة « الميدو » أو قيام اتفاقيات (حسب اعتقاد البريطانيين) تخول البريطانيين — بدون أو مع الامريكيين — حق اقامة القواعد في حالة نشوب أي نوع من الحروب أو الثورات التي تهدد القناة · ولم يكن في صالح عبد الناصر أن نحقق كسبا لأي من هاتين الفرضيتين · ومع أننا كنا على معرفة بموقفه هذا فاننا قد تجاهلناه عمدا · ولماذا تجاهلناه ؟ لان هذه هي الطريقة التي تنجز بها الامور بين دولتين ذات سيادة في محاولتهما الوصول الى اتفاق ، طالما أن مرونة هذا الاتفاق وسهولة تنفيذه هما الهدف وليس الهدف معاني الاتفاق ونصوصه ·

وأما الذي حدث بين البريطانيين والمصريين في الوصول الى اتفاقيـة حـول قاعدة السويس فقد ذكر باسهاب في مواضع أخرى (وعلى سبيل المثال كتاب انتوني ايدن « الحلقة الكاملة ») · ولكن هناك جانب من جوانب هذه القصـة يجدر ذكره في كتابنا هذا لانه : أولا لم ينشـره أحد بعد ، ولانه ثانيا ، على علاقة قوية بموضوع ديبلوماسية ما وراء الكواليس · ففي كتابه ، قال انتوني ايدن : « رفض المصريون فكرة وجوب مشاركة الامريكيين في المفاوضات ،بينما راى الرئيس أيزنهاور أن موافقة المصريين شرط ضروري للمشاركة » · وبعدها بقليل ذكر ايدن : « لقد كان من سوء الحظ أن لا يكون عند الحكومة الامريكية أو خاصة عند سفيرها في القاهرة ، أي استعداد لممارسـة أي ضغط عـلى المصريين للحصول على موافقتهم » · وأظن أن عند اليابانيين مثلا دارجا يقول « اعرف أنني أراه ولكنني اتجاهل ذلك » وذلك للدلالة على ما يقع عندما يجتمع ذكر وأنثى عاريان تماما في بحيرة سباحة واحدة ، ولكنهما يتجاهلان بعضهما البعض لياقة، في حين ان كلا منهما عنده القدرة الكاملة على رؤية الآخر ، ولكنه يتفادى – على الاقل – الالتقاء به صدفة · اننا بحاجة لعبارة مماثلة مثل « اننا ندرك ما هو كائن ولكننا نتجاهل علمنا به » لكي نفسر تاريخ حيـاة الرجـال الشرفاء ، الذين كانوا وقت وقـوع بعض الاحـداث السياسية على اطلاع تام بالاجراءات خلف الكواليس التي كانت تمد المفاوضات بالحياة ، ولكنهم بعـد ذلك غسلوا ادمغتهم وتناسوا كل ذلك · حتى أن ذاكرتهم لتحتفـظ بالصـور التي تتناسب فقط مع مبادىء ومقومات أدبهم واحتشامهم · (في كتاب ايـدن « الحلقة الكاملة » سيتذكر القارىء كيف يتنصل ايدن من أية مفاوضـات مـع الفرنسيين والاسرائيليين ، سبقت تحركاتهم ضد مصر في سنة ١٩٥٦) ·

والحقيقة أنه خلال اجتماع ٥ آذار (مارس) ١٩٥٣ وافـق الرئيـس ايزنهاور على ارسال اللفتنانت جنرال ر· آ· هول (ضابط يثق به كثيرا) الى القاهرة ليساعد المفاوضين البريطانيين · ولكن السير انتوني لم يتحمس كثيرا لهذه الفكرة · وبعبارة أوضح ، فان مساعدي السير انتوني لم يتحمسوا لتلك الفكرة خلال جلسات التفاصيل التي كانت تعقد بين الموظفين المسؤولين من كلا الطرفين الذين كان يقتصر عملهم على التقاط الفتات من الارض بعدما يـكون رؤساؤهم قد جرفهم الحماس في اجتماعات تاريخية اعطوا فيها مواثيق ، وقطعوا

على انفسهم عهودا ، لا يعلمها الا الله · ولم يكن عدم حماس مساعدي ايدن أقل من عدم حماس السفير الامريكي كافري في القاهرة عندما نقلت اليه انباء البرق نفس الفكرة الآنفة الذكر ، فقد سارع كافري الى توضيح الحقيقة أن الحكومة الامريكية قد حققت اتصالا وثيقا مع المصريين ولكنه شخصي وغير رسمي (وكلمة « غير رسمي » تعني في لغة « ديبلوماسية ما وراء الكواليس » اشخاصا ـ أو نشاطا ـ يمكن أن يتخذوا طابع الرسمية بعد أن يتحقق النجاح ، ولكن في حالة اكتشاف الاشخاص فانهم يوصفون بأنهم لا يتمتعون بصلاحيات رسمية) وان هذا الاتصال المذكور سيكون مساعدا للبريطانيين أكثر من حضور مفاوض امريكي ـ مهما كانت جدارته ـ على طاولة المفاوضات · بل وأكثر من ذلك ، فان مجيء أي من المسؤولين في البيت الابيض بواشنطن سيضعف مركز كافري في هذه العلاقة · وأخيرا فان المسؤولين في وزارة الخارجية ، الذين كانوا يلاحقون حثيثا الاقتراح القائل بارسال الجنرال هول ، رفضوا نفس الفكرة لخشيتهم أن الجنرال هول (مثله مثل ايزنهاور) سينظر الى موضوع معاهدة « الميدو » على أنها اقتراح جدّي ، وسيجعله مدار بحث مباشر مع عبد الناصر دون أن يمهد له بغمزات ولمزات يتبادلها معه بالذات ·

وبخصوص الطرف المصري ، فقد ادرك عبد الناصر تماما أن المعاهدات بين دول كبيرة ودول افريقية آسيوية صغيرة ، هي معاهدات سريعة الزوال ، سهلة النقض ، وبالتالي فبأستطاعته أن يتملص من أي من بنودها التي لا تروق له بعدما يتسلم المساعدات العسكريةُ التي تعتبر جزءا من الصفقة · وأما جنرالاته فقد كانوا أقل حنكة وخبرة · فناصر ـ مثل كافري ومثل كبار المسؤولين الاذكياء على طرفي الاطلسي ـ قد تخيل الجنرال هول جالسا مع الجنرالات المصريين ، يتباحثون بجدية واهتمام ويتبادلون ما لديهم من أدلة وبراهين وردود عليها ـ بخصوص معاهدة دفاع اقليمية ـ الى الحد الذي يفقدون فيه صبرهم تجاه بعضهم البعض · وتكون النتيجة ضياع الاتفاقية الانجليزية المصرية بين الاقدام ·

وبدرجات متفاوتة من الصراحة ، فان المشكلة كلها كانت موضع نقاش بين الامريكيين والبريطانيين (على مستوى مسؤولين ومنفذين) ، وبين المصريين والامريكيين (كافري ـ ناصر) ، ولربما بين البريطانيين والمصريين · وتحت تلك

الظروف كان الطريق الوحيد لانهاء القضية هو أن يقوم المصريون باعلان رفضهم لها رسميا • وعندما بدأ ايدن يدوّن مذكراته ، كان قد نسيها • ولكنه اخبر وقتها أن الامريكيين سيقدمون مساعدة « غير رسمية » ، ولكنهم (لاسباب يستحسنها هو دون سائر الناس) لا يستطيعون المشاركة في المناقشات فعلا •

أدت محادثات الوزير جون فوستر دالس مع عبدالناصر في القاهرة في أيار (مايو) ١٩٥٣ الى وضع فكرة منظمة « الميدو » على الرف نهائيا • وان لم يكن كذلك ، فلقد حولتها على الاقل الى فكرة للمستقبل بدلا من كونها محتملة التنفيذ في الوقت الحاضر • وأصبح السفير كافري حرا لاستئناف مهمته التي أولاها كل اهمية كبيرة وهي : التوصل الى اتفاقية عسكرية بين المصريين والامريكيين تسهل لحكومتنا تزويد عبد الناصر بالاسلحة اللازمة لحفظ الامن الداخلي ، وبنفس الوقت تعزز الفرص أمام البريطانيين لان يحصلوا على أي اتفاقية من أي نوع يثلج صدورهم ويشفي غليلها • وعلى خلاف ما يتذكر ايدن ، فالامر السابق كان وقفا على الامر اللاحق • وكما فهمها يومها عبد الناصر ، وكما يفهمها اليوم ، فان التنسيق بين الامريكيين والبريطانيين فيما يختص بسياسة الدفاع الدولية له الاولوية الكبرى ـ عند واضعي خططنا ـ على علاقاتنا مع أي زعيم في الشرق الاوسط (منذ عهد الرئيس ايزنهاور الى عهد أي رئيس سينتخب في المستقبل) •

وقد احتجزني السفير كافري في آب (اغسطس) لمدة من الزمن ، بينما كنت في طريقي الى تناول طعام الغداء مع عبد الناصر ، ليقف على مدى استعدادي ـ بصفتي امريكيا « غير رسمي » ـ لتفهم الموقف النهائي الذي يود عبد الناصر اتخاذه في مفاوضاته مع البريطانيين ، ولاقترح طريقا مختصرة متجاوزين كل المساومات لنصل الى ذلك الموقف ، أو الى موقف معتدل بين الموقف البريطاني (الذي كان كافري على علم به) وموقف عبدالناصر النهائي • وقد قال لي كافري يومها : « حاول أن تحدد اقصى ما يطمح اليه عبد الناصر ، وأدنى ما يرضى به ، واقنعه أننا سنحتفظ بجوابه هذا لانفسنا » •

وكانت تلك المرة الاولى التي طلب الي فيها مباحثة عبد الناصر في شؤون سياسته الدولية • ولم يكن سهلا تجنب الخوض في السياسة الداخلية، لانها كانت تمت الى ما اهتم به من بعض مشاكل « العلاقات العامة » بصلة

وثيقة · كما انني لم أجد نفسي على استعداد لاخيره بأكثر من اقتراح كافري « بأن عليه أن يكون واضح الذهن بخصوص « اقصى ما يطمع له وأدنى ما يرضى به » سواء أكان راغبا بابلاغي ذلك أم لا » · وعندما نجحت في طرق الموضوع ، ونحن على مائدة الطعام ، قلت له انه ليس من الحكمة اعلامي شخصيا بموقفه ، لان اطلاعي على موضوع المفاوضات وقتها كان معدوما تقريبا ، ولن أتمكن من استيعاب أي شيء عن الموضوع · واقترحت على ناصر أن نقوم معا باختيار رجل اعمال ذي مصالح في الشرق الاوسط ، ويهمه أن يرى الموضوع منتهيا بطريقة ما ، وان لم تكن لصالح البريطانيين ، ونستثير همته لانهاء الصفقة على أحسن وجه ممكن · ولم نعثر يومها على رجل أعمال مناسب لمثل هذه المهمة ، ولذا تباحثنا في صلاحية كيرميت روزفلت لمثل هذا الامر · وقد ظننت اننا موفقون بالاختيار ، الا ان ارتباط روزفلت بوكالة المخابرات المركزية سيكون عقبة كأداء في طريق انجاز المهمة · ولكن عبد الناصر خالفني في هذه النقطة ، ورأى أن روزفلت يمكنه أن يأخذ الصفة الرسمية كما كنا نبغي تماما ·واعتقد ناصر أن موظفا كبيرا في وكالة المخابرات المركزية مثل روزفلت سيكون لديه نفس فرصة أي مواطن عادي ، ذلك لانه لن يكون ممثلا لحكومة الولايات المتحدة كما هو معروف ، ولن يكون في موقف يضطره الى اضطلاع البريطانين على حقيقة موقف عبد الناصر ، كما أن اشرافه على قضايا الامن الهامة في حكومة الولايات المتحدة سيمكنه من فهم الموضوع جيدا · وكذلك فان علاقة روزفلت الوثيقة بالاخوين دالس ذات أهمية عند عبد الناصر · كما اطمأن ناصر الى عدم اعتراض كافري على هذا الاختيار ·

لم يصدق عبد الناصر في قرارة نفسه أن روزفلت لن يخبر البريطانيين على ما سيطلع عليه · فلم يكن بوسع عبد الناصر أن يصدق أن أي شخص « غير رسمي » في أي بلد كان ـ بغض النظر عما يقسم من أيمان مغلظة كأي انسان ـ لن يفشي الاسرار ان رأى ذلك مناسبا لمصالح بلاده الخاصة · وقد قادته خبرته السابقة الى الاعتقاد بأن روزفلت هو من النوع الذي يعلم كيف يتظاهر أمام البريطانيين بجهله لحقيقة الموقف الذي يساوم عبد الناصر عليه البريطانيين ـ والذي لن يخبره عبد الناصر به ولن يخبر غيره كذلك ـ وبهذا يتمكن ناصر من الحصول على صفقة رابحة من البريطانيين أكثر من تلك التي يمكن لمندوبي

ناصر انفسهم أن يحققوها · وكما حدث فعلا ، فقد تمكن روزفلت من أن يكون صريحا مع الطرفين · وقد أخبرت كافري بحديثي هذا مع عبد الناصر حال انتهاء تناولنا طعام الغداء · وقام كافري بابراق الفكرة الى واشنطن ، بدون تأخير ، في نفس بعد ظهر ذلك اليوم · ووصل روزفلت الى مصر قبل نهاية الاسبوع بعد توقفه في لندن ليتزود من وزارة الخارجية البريطانية بآخر المعلومات المهمة ـ أو الثانوية ـ عن المفاوضات · وفي أول اجتماع له مع عبد الناصر كان قد أصبح على علم تام وفهم عميق بمسألة « الحالة الاولى » و « الحالة الثانية » ، وألمّ بجميع جوانبهما الماما كافيا لان يهيىء للامريكيين والمصريين معا أحسن الظروف للوصول الى حل عسكري ، أو الى أي نوع آخر من الحلول بين مصر وبريطانيا وأمريكا · ومنذ ذلك الحين ، انحصر عمل روزفلت في تحديد رغبات المصريين والبريطانيين ـ وهي عكس ما يعلنون عنه ـ وفي اعداد الصيغة التي سيقبل بها كل طرف لاحتوائها على النقاط المهمة ـ والغامضة أحيانا ـ ويدع كل طرف منها الطرف الآخر يربح ما ليس مهما (وإن كان يظهر أنه مهم أحيانا) · وهكذا ، فان « حيلة » ديبلوماسية ما وراء الكواليس ليست في بعض الاحيان اكثر من طرح مطول ومتعمد على الطاولة لمواضيع عديدة ، ومن ثم مناقشتها بصورة صريحة ، وبطريقة لا يمكن أن تكون جزءا من مباحثات ديبلوماسية رسمية ، أو أن يحتفظ بها مدونة في مذكرات وتقارير ·

ومع انه لا فائدة ترجى من الدخول في تفاصيل تسوية مشكلة قاعدة السويس ، فان أحد أهداف كتابنا هذا هو المساعدة على فهم ما قصدناه آنفا من أن بعض النقاط الواردة في التسوية تعتبر حقا مهمة مع أنها قد أغفلت ولم تعط الاهمية اللائقة بها ، في حين أن نقاطا أخرى كانت تثير اللغط وترتفع الاصوات لاجلها مع انها في الحقيقة غير مهمة · ففي المحادثات الاولية اقترح البريطانيون ثلاثة حلول لمشكلة قاعدة السويس ليتم اختيار أحدها :

(أ) يعطي البريطانيون للمصريين حق السيادة على القواعد ـ كما تمارس اسبانيا سيادتها على القواعد الامريكية ـ مقابل السماح لعدة آلاف من البريطانيين بالبقاء في مصر للاشراف عليها وخدمتها · (ب) يقوم رجال الصيانة المصريين بخدمة القاعدة ورعايتها تحت اشراف المراقبين البريطانيين · (ج)

يقوم المصريون بصيانة القاعدة ورعايتها تحت اشراف مراقبين مصريين ، على أن يكون للبريطانيين حق التفتيش عليها من حين لآخر · وقبل لن يتبادل روزفلت الآراء مع عبد الناصر ، كانت المفاوضات عبارة عن مماحكات ومساومات تدور كلها حول الحالة (أ) ، التي كانت تمثل الحد الاقصى الذي لن يتجاوزه البريطانيون في حين كانت مرفوضة كليا من قبل المصريين ، وحول الحالة (ج) التي كانت أدنى ما يقبل به البريطانيون ، ولكنها نالت موافقة المصريين لانها ـ فيما عدا ظاهر القول فيها ـ لا يترتب عليها شيء ذو بال · ولو أن المفاوضات استمرت على تلك الاسس لقبل المصريون ـ على ما يبدو ـ بالحالة (ب) · ولكن روزفلت أكد أن المقترحات الثلاثة المذكورة ليست هي الحلول المقترحة للمشكلة ·

ولا أقصد أن أقول هنا ان روزفلت، نفسه، هو الذي أوجد تسوية مشكلة قاعدة السويس ـ فقد توصل الى التسوية فريق من المفاوضين المهرة باشراف السفير البريطاني في ذلك الوقت وهو رالف ستيفنسن ـ ولا أن روزفلت كان أول من لاحظ عدم جدوى الحالة (أ) و (ب) و (ج) كحلول للقضية · الا انني لؤكد أن روزفلت قد ساعد المفاوضين البريطانيين على تجنب كثير من المماحكات التي لا تمت الى الموضوع بصلة ، وبذلك يكون قد خدم قضية المفاوضات أكثر من مشاركة الامريكيين المباشرة (التي افتقدها ايدن) ، أو الضغط المباشر الذي كان يود ايدن لو أن السفير كافري مارسه على المصريين · وان أي شخص في وزارة الخارجية البريطانية لديه المام بسيط بطريقة تنظيم صيغة الدفاع الانكلو أمريكي عن العالم الحر ، لكان باستطاعته أن يدرك النقاط التالية :

(١) ان منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط (ميدو) كانت من المفارقات التاريخية التي جاءت في غير وقتها · (كما ان منظمة الناتو تكاد تصبح من هذا القبيل أيضا) · والسبب الوحيد الذي دفع بوزارة الخارجية الامريكية الى بحثها (بجدية متكلفة) هو وزير الخارجية نفسه المستر دالس الذي لم يتمكن من تناسي هذه الفكرة مع أنه رجل لامع ذكي · فاذا كانت الحالات (أ) و (ب) و (ج) تؤخذ بعين الاهتمام، واذا كانت تنال أي اعتبار، فليس لان لها علاقة بمخطط الدفاع عن المنطقة · ومع أن الحالات الثلاث تستأثر بقسط وافر من اهتمامنا ، فان ذلك لن يجعلها ، بأية صورة ، جزءا من مخططات الدفاع الانكلو امريكية عن المنطقة ·

ولكنها بصراحة ستبقى في خطة الدفاع البريطانية (وليست الامريكية) عن المنطقة شرقي السويس .

(٢) وعلى أية حال فان نقل القوات البريطانية من السويس الى شرقها كانت على وشك أن تكون ضرورية لاسباب لا تمت الى الشؤون الدفاعية بصلة مباشرة.

(٣) لم يكن المصريون على استعداد لان يحافظوا على نصوص أي اتفاق يتوصلون اليه ، كما كانوا يصرون على الحالة (ج) أو ما يعادلها لما تتيحه لهم من دعاية وشهرة . فلو أن المصريين وافقوا على الحالة (أ) فانهم سيبدأون بالصراخ منها بعد شهر واحد من توقيعها ، وربما يشنون موجة تخريب انتقامية ضد القاعدة . وأما الحالة (ب) ، فانها ستدوم حتى يجد عبد الناصر عذرا يبرر وضع المشرفين البريطانيين على القاعدة على متن مركب لاعادتهم الى وطنهم ، متحديا الحكومة البريطانية أن تتخذ أية اجراءات مضادة كما فعل معها عندما أمم شركة قناة السويس فيما بعد . أما مصير الحالة (ج) ، وهي الوحيدة التي نالت الموافقة أخيرا ، فقد كان يتوقف على مدى اطلاع الراي العام عليها . ومما تجدر الاشارة اليه هو أن كل اولئك الذين كانت تعنيهم المفاوضات ، من قريب أو من بعيد ، من البريطانيين والمصريين والمتطفلين الامريكيين كانوا على علم تام بكل ما سبق ذكره ، ولكنهم لا يتمكنون من الكشف عنه . الا أن روزفلت ـ وهو ديبلوماسي ما وراء الكواليس ـ كان يقدر على كشفه كله ، وقد فعل ذلك .

وأما ناصر ، فقد كان على علم بأن العلاقات الانكليزية ـ الامريكية كانت تعاني من بعض الاحتكاكات العائلية ، لنفور شخصي بين دالس وايدن ، الا انها لم تفقد صفة التفاهم والاتفاق كعادتها فيما يتعلق بأوضاع ناصر ومشاكله . وكان ناصر يتعجب حيال هذا النوع من المناورات السياسية بين البريطانيين والامريكيين وكيف أنها لوحدها تتكفل في تحديد صلاحيات وسلطات كل طرف في ادارة وتوجيه منظمة حلف الاطلسي ومنظمة الدفاع عن الشرق الاوسط والقواعد العسكرية الاخرى . وأما بخصوص تحديات الروس للغرب (على غرار ما فعله هتلر في الحرب العالمية الثانية) فقد كان ناصر يعلم تمام العلم أن الفرص أمامهم لفعل ذلك عديمة الاهمية (وأن البريطانيين والامريكيين يعلمون هذا أيضا أكثر من ناصر نفسه) . الا ان تصميمنا ـ نحن الامريكيين ـ على

ايقاف هذا الخطر الذي لا وجود له ، سيظهرنا بمظهر مثيري الحروب ، وذلك كما كانت الدعاية السوفييتية توصمنا به · ورأى عبد الناصر أيضا أن الهجوم السوفييتي على العالم العربي وعلى الشرق الاوسط هو من النوع السياسي التآمري الذي لن يتأخر عن استغلال وجود « الامبريالية » العسكرية في بعض الدول ليزيد من حدة هجومه هذا · ولم يكن لعبد الناصر أن يتصور اهتمامنا الجدي بموضوع المعاهدات · أما نحن فمن المؤكد ـ نظرا لخبرتنا الطويلة وحنكتنا الديبلوماسية ـ أننا نعلم بما فيه الكفاية انه في اللحظات التي تنشب فيها الازمات فان الامم تتصرف على أساس مصالحها المطلقة وقتئذ ،سواء أكانت هناك معاهدات أو لم تكن ، وأن الازمة المتوقع نشوبها في المستقبل ستكون سياسية بطبيعتها وخارج نطاق ما يحل بالمعاهدات (مع اضطرابات وحروب عصابات وهجمات يقوم بها ما يظهر أنهم « عناصر داخلية » لتقديم العون المادي بدلا من غزو عسكري مكشوف) · وقد اعترف عبد الناصر بصراحة لكيرميت روزفلت أنه اذا « ما تفضل » وأولى فقرات اتفاقية قناة السويس بعض اهتمامه فانه يفعل ذلك من باب مداعبة ايدن ودالس وملاطفتهم · ذلك أن كل ما كان يهمه هو اخراج البريطانيين ، وهو على استعداد لان يعطي أي وعد طالما ان الشعب المصري يعرف أنه ليس بنيته المحافظة على وعوده وانجاز عهوده ·

أما بالنسبة لنا : فانه لم يفهم وجهة نظر عبد الناصر الا البريطانيون والاميركيون الذين اتاحت لهم ظروفهم أن يتتبعوا مراحل الثورة من اولها ، أو الذين لاحظوا مشاكلها المصاحبة لآمالها وتطلعاتها المتزايدة · ولقد فهمنا أن عبد الناصر قد ألزم نفسه بسياسة ترفض فكرة التحالفات مع الدول الكبرى · ولهذا كان ملزما بنقض أية معاهدة بشأن قاعدة السويس ـ أو غيرها من المعاهدات ـ يضطر الى توقيعها لاسباب « تكتيكية » · وكما أخبر ناصر كلا من السفير البريطاني والسفير الامريكي وروزفلت ومن أرسلهم روزفلت من الاختصاصيين الى القاهرة ، أخبرني أيضا ـ من جملة الذين أخبرهم من أصدقائه الغربيين الذين تعاملوا معه بمسائل ادارية واقتصادية ومالية ـ أن هدفه الرئيسي هو أن يتسلل الى مركز يتيح له أن يقرر المسائل الفردية في السياسة الدولية على اسس موضوعية بغض النظر عن كونها تلائم مصالح دولة كبرى

معينة أم لا٠ ولحين قيام روسيا بشن هجومها على الشرق الاوسط ، فان ناصرا كان يرغب بان يتمتع بحرية كاملة في معارضة الدول الكبرى أو محالفتها وفي كيفية انجاز ذلك ، تاركا ايانا نضرب أخماسا بأسداس بدون ان نعرف ما يريد حتى اللحظة الاخيرة ٠ ومن الطبيعي أن يكون من مخططه أن يفهم الغرب والسوفييت هذا ، ويقبلوا به ، ويعاملوه على اساسه ، بل ويلاطفوه ويداهنوه٠

وبالاضافة الى قوة المساومة التي سيكسبه اياها استقلاله هذا ، فقد كانت تواجهه مشكلة اشباع كبرياء الشعب المصري المتقد حديثا ، والذي دفع عجلته الى الامام برنامج « الحالة الثانية » الذي لا يجوز التخفيف من شأنه ٠ فعندما ينظر المرء فيرى أن اللاجئين الفلسطينيين (الذين نبعت « الحالة الثانية » من الواقع التعيس الذي يعيشونه وليس من طموح أي زعيم عربي) قد جمعوا خيامهم وأغطيتهم في احدى ليالي الشتاء القارسة وأشعلوا فيها النار ٠ يبدأ بادراك الحقيقة التالية وهي : أن اشباع كبرياء شعب محروم أكثر اهمية من تأمين الغذاء والمسكن له ٠ وبعد ان أرسى عبد الناصر قواعد راسخة « لاجهزة القمع » في نظام حكمه ، وبعد أن بدأ العمل على انجاز « أجهزة البناء » فقد أخذ يعتقد أن اشباع كبرياء شعبه يشكل بديلا مناسبا عن اشباع حاجاته الاقتصادية التي لم يتمكن وقتها من تحقيق اي منها ٠ ولقد اكتشف عبد الناصر سريعا أن الهاء الشعب المصري في « نهضته الحديثة » ، يؤثر اشباع كبريائه في اغتنام اية وحتى أواخر كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ ، وبعد الضربة الكاسحة التي تلقتها مصر من اسرائيل بعدة أشهر ، وفي خضم الصعوبات الاقتصادية التي لم تر مصر مثيلا لها طوال تاريخها ، قال أحد المصريين الذين لا يشك بذكائهم الا وهو مصطفى أمين ، الذي كان قد أمضى حتى ذلك الوقت ثلاث سنوات في السجن) : « ان عبد الناصر قد أساء كثيرا الي والى أصدقائي ، وحتى الى بلادي كلها ، ولكن يجب ان أعترف أنه علمني كيف أكون فخورا بكوني مصريا » ٠ وفي الوقت الذي أصبح فيه منصب عبد الناصر « لمدى الحياة » (ونستعمل هذه العبارة على غرابة معناها في الشرق الاوسط) كان قد حفظ عن ظهر قلب أن الشعب المصري في « نهضته الحديثة » ، يؤثر اشباع كبريائه في اغتنام اية فرصة لتحسين اوضاعه الاقتصادية ٠

وأما اشباع كبرياء الشعب المصري ، فقد قطع شوطا بعيدا عندما اصبحت

مصر دولة مستقلة حقيقة ، وتتمتع بحريــة كاملــة لتقرير ما يعنيها من المشاكل الدولية على أساس من حالتها الراهنة ، بدون أن تلتزم باطــار يصنع في لندن أو واشنطن او موسكو • وقد اعطت عبد الناصر ـ على الاقل ـ منطلقــا لخطوات اخرى ، تعزز أهدافه الاخرى الاكثر واقعية في الوقت الــذي يتابع فيه اشباع جوع الشعب للكبرياء • وكان عبد الناصر بحاجة الى تأييد وطني قوي ليعقد صفقة جديدة في مجال الوحدة العربية ، تعطي مصر فرصا أكبر من تلك التي تقدمها مقترحات البريطانيين مثل فكرة الجامعة العربيــة ، وفكــرة سوريا الكبرى ، والهلال الخصيب •

ان تمتع مصر باستقلال حقيقي بدون أن يكون فيها أمثال لورنس العرب يديرون سياستها من وراء الحجب ، وهم قابعون في غرف خلفية ، هو العامل الوحيد الذي يرسي فكرة القومية العربية على الاسس الجديدة التي يتخيلهــا عبد الناصر • وقد كان من اهم المخططات عند عبد الناصر هــو أن تثير مصــر اهتمام الدول العربية الاخرى بالموضوع حتى يتمكنوا من الحكم على قياداتــه السياسية على اساس المبادىء الجديدة التي تفرضها العروبة الجديدة • ولــم يكن من المهم الوصول الى ما يسمى « بالامة العربية » • وعندما يتحرر عبــد الناصر من الاحتلال البريطاني ـ حسب تعبيره ـ يصبح واقفا على أرض صلبة يتمكن معها أن يلهب كبرياء المصريين عن طريق رفع راية قيادته للعالم العربي •

أما كيف كانت هذه الفكرة من نيات ناصر الواقعية الغريبة ، فان ذلك سيكون موضوع بحثنا في الفصل اللاحق • ولكن يجدر بنا أن نشير هنا الى أن عزمــه الحقيقي على هذه الفــكرة ، كان معروفا من قبــل الوزير دالس نفسه ومن غالبية الموظفين العاملين في وزارة الخارجية ووزارة الدفاع • وكان هؤلاء الموظفون ـ بالرغم من ارتباك رؤسائهم ـ يبذلون قصارى جهدهم لوضع وتطبيق الخطط السياسية التي تأخذ جميع حقائق الحياة ـ مهما كانت مرّة ـ بعين الاعتبار • وكانت حقائق الحياة هذه تميل الى بروز قائد ـ ناصر أو غيره ـ يدرك تماما كيف يستغل نزاع الشرق مع الغرب لمصلحته الخاصة وبالتالــي يحرز قوة كبيرة في «لعبة الامم» تتعدى حدود قوة بلاده الاقتصادية والعسكرية•

وقّع المصريون والبريطانيون اتفاقية قاعدة السويس في تشرين الاول

(اوكتوبر) ١٩٥٤ · وبعدها بشهر واحد أرسل البنتاغون اثنين برتبة كولونيل (مقدم) ، هما البرت جيرهارت وويلبر (بل) ايفلاند ، الى القاهرة ، ليتفقا على الاسس الجديدة للعلاقات المصرية ـ الامريكية التي ستقوم حكومتنا بموجبها بتزويد المصريين بالسلاح الذي يحتاجونه للامن الداخلي · وكان من الضروري أن تكون في منتهى السرية ولا يدوّن بها سجل أو يوضع عنها تقرير · وقد طلب
أن تكون في منتهى السرية ولا يدوّن بها سجل أو يوضع عنها تقرير · وقد طلب
مني السفير كافري أن أرتب المقابلة ، واحضرها بنفسي ، ثم أنقل له ما يدور فيها · ومن الطبيعي أن يكون وجودي كمراقب ودون أية صفة رسمية ·

وقد تم اللقاء في الساعة الثامنة مساء في بيت حسن التهامي ـ كبير أعوان عبد الناصر ـ في ضواحي القاهرة · وحضرها ناصر وعامر والكولونيلان الامريكيان وحسن التهامي بالاضافة الي · كان الجو وديا وبعيدا عن التكلف والشكليات الا أن المرء يخدع بذلك المظهر · فبالرغم من كل الآراء التي تبادلتها حكومتنا مع ناصر شفويا ، فقد كانت تلك الجلسة اولى الجلسات التي يبرز فيها التباين في وجهات النظر بين الامريكيين والمصريين كما بدأ فيها يتحدد شكل رقعة اللعب بين ناصر ودالس · وقد خلع الحضور ستراتهم وعلقوها على مساند الكراسي وراءهم ، واخذوا ينادون بعضهم بالاسماء دون الالقاب مثل « عال » و « بيل » وحتى « جمال » · ثم وضعت وجبة طعام منزلية على مائدة مستديرة تناولها الجميع وكانهم عائلة واحدة · وبعد ساعة من مرح العسكريين، بدأنا الحديث لننتهي الى ما أطلقنا عليه بعد سنوات اسم « الاحاديث الصريحة التي اعتدنا على تبادلها »

بدأ جيرهارت الحديث بشرح الفلسفة التي تكمن خلف فكرة منظمة حلف شمالي الاطلسي ـ ناتو ـ قائلا : « لنعطي حلفاءنا فرصة نرتبط بها معا على قدم المساواة قبل نشوب الحرب لكي لا يكون هناك سوء فهم وتباين في المسؤولية مثل « ماذا يدين كل منا ولمن ؟ » كتلك التي حصلت في الحرب الأخيرة » · وأجابه ناصر بأن فكرة الارتباط معا على قدم المساواة جميلة ومغرية ، ولكنه أبدى شكه فيما اذا كان فرنسا مثلا ، ستبقى مهتمة بالفكرة بعد عشر سنوات !

ثم شرح ايفلاند ، فكرة «المساواة» في الارتباط وقال انها ليست بأهمية «الفعالية» في الارتباط ، وأن كل من شارك في وضع مخططات منظمة الناتو ادرك يومها أن القدرة العسكرية الاجمالية للدول المرتبطة أصبحت أكبر من مجموعها الحسابي وهي منفردة · ثم التفت الى عامر قائلا : « انك كرجل عسكري يجب أن تعترف أن الدفاع الاقليمي عن منطقة الشرق الاوسط هو الاسلوب الوحيد ذو الفعالية في المنطقة ، وأن الطاقات العسكرية الفردية لكل دول الشرق الاوسط ، اذا ما جمعت معا ، فانها لربما تفي بحاجة أمنكم ، ولكن لن تقوى على الدفاع عن أي طرف آخر » ·

فأجاب عامر : « صحيح ان ترتيبات اقليمية قد تخدم أهدافكم ، ولكن قبل أن احدد ما يخدم أهدافنا علينا أن نحدد من هو عدونا الذي سنقاتله ؟ » وبعد هذه المحاورة جرت مجادلة كان كلا الطرفين فيها متحفظا · فالامريكيون لم يذكروا مرة واحدة عبارة « العالم الحر » كما أن المصريين لم يذكروا أبدا عبارة « المستعمرين الامبرياليين » · فقد حاول كل من جيرهارت وايفلاند أن يبرهن على أن فكرة « الوحدة العربية » أو أية وحدة اقليمية أخرى لن تكون ذات مدلول ومغزى طالما أن الدول القائمة في المنطقة تصر على برامج الدفاع الفردية · ولكن عامرا أصر على سؤاله « دفاع ضد من ؟ » وهنا اضطر جيرهارت وايفلاند أن يقرّا بأن « افتراضات التخطيط في واشنطن تظهر أن الروس هم العدو المتوقع ، ولكن لا لزوم هناك لابراز هذه الفكرة في الخطط الاقليمية ، وأن موقف واشنطن هو أن تكون خطط دفاعكم الاقليمية موجهة ضد أي عدو يظهر بعد ذلك » · واختتم جيرهارت قوله : « لنجرب ونرى فيما اذا كان يمكننا معا أن نتعرف الى العدو المشترك لحظة مواجهتنا الخطر الحقيقي » ·

أما ناصر فقد أخلد الى الهدوء طيلة فترة تبادل الآراء ، ولكن لم يلبث أن قاطعهم معترضا على أن كل هذا الغموض في النظريات حول تعريف من هو العدو لا يلائم سوى المناقشات الثقافية المحضة ، ولكنها ستنقلب الى مجرد هراء حال وصولها الى واضعي الخطط العسكرية من العرب· ففي لقاءات الاستراتيجيين العرب لن يجد أحد منهم أي صعوبة أو التباس في الوصول الى أن العدو هو اسرائيل بالنسبة لنا ، وروسيا بالنسبة للامريكيين · ثم قال : « ان العرب

سيقولون انكم تحاولون أن توحدوهم ليحاربوا عدوكم ، في حين أن مجرد ظهور نياتهم في محاربة عدوهم هم ـ اسرائيل ـ فانكم ستوقفون مساعداتكم على الفور. وان أية معاهدة دفاعية اقليمية لا تأخذ هذه النظرة بعين الاعتبار فستكون محض احتيال وخداع » .

وحدث بعد ذلك تبادل في الآراء حول عبارة أفادت التقارير أن الوزير دالس قد قالها ، ومعناها « على العرب أن يشعروا ان عدوهم الحقيقي هو الشيوعية العالمية » . وقد دافع جيرهارت وايفلاند عن هذه الفكرة بحماس ، مدّعين أنها كافية لتحريك الحوافز عند العرب لعقد تحالف يدفع خطر الغزو العسكري السوفييتي . ولكن ناصرا أجاب بمحاضرة طويلة ، ومملة ، دارت حول التفريق بين خطر التغلغل الشيوعي « الذي هو مسالة امن لكل بلد على انفراد » ، وبين خطر الغزو العسكري السوفييتي الذي ـ ان وجد ـ سيكون حافزا لترتيبات دفاع اقليمية . وأضاف ناصر بعد ذلك : « ولكننا في هذه المنطقة من العالم لا نعرف سوى عدوين : أولهما اسرائيل التي لا نزال في حرب معها بحسب العرف والعادة ، وثانيهما : البريطانيون ، الذين ما زالوا يحتلون بعض المناطق العربية . والعرب لا يعرفون شيئا عن الروس ، ومن الحماقة أن نحاول لفت انظارهم واخافتهم من الغزو السوفييتي .

وانتهى اللقاء بعدما تبادل الجميع الآراء ، وأفرغوا ما في جعبهم من مقترحات وبراهين . وقد قدم بيل ايفلاند تقريره للامريكيين ، وذكر فيه ، بعبارات خفية ، أنه مهما كانت فكرة ايجاد خطة دفاع ايجابية لمنطقة الشرق الاوسط مقبولة أو مرفوضة فان ذلك ما يريده المخططون العسكريون في امريكا . وبناء على ذلك فان كل مساعداتنا الاقتصادية والعسكرية لدول الشرق الاوسط يجب أن تتناسب مع درجة حماستهم لفكرتنا هذه .

أما ناصر ، فقد قال للمصريين الشيء الذي أصبح فيما بعد الهدف الرئيسي لسياسته الخارجية ، وموطىء قدمه في مواجهة الدول الكبرى ليحصل على ما كان يريده منها لتأييد اهدافه الاخرى وتعزيزها . ومما قاله مرة في هذا الصدد : « ربما لا يجد نوري باشا أي حرج في اتخاذ قراراته بناء على مدى انسجامها مع استراتيجيتكم العالمية . ولكنني لا استطيع أن أفعل ذلك » .

وكان نوري باشا رئيس وزراء العراق « يعبح » عبد الناصر في تلك الفترة . وأضاف ناصر : « وانني عازم على أن اتخذ مواقفي من القضايا بناء على ما لها من الآثار الموضوعية ، وستكون كلها مما يناسب مصر ويخدم مصالحها. ان تمتعنا بمثل هذه الحرية هو من اهم الاهداف لنا ، ولا يقل أهمية عـن الازدهـار الاقتصادي . وانني أعتقد أخيرا أن حكومتك ـ في النهاية ـ ستفضل مساعدة امة حرة على مساعدة أمة تدور في فلكها » .

وهكذا فقد انتهى اللقاء المذكور آنفا بنفس العواطف التي سادت بدايته من بشاشة غير متكلفة ، ونكات عابرة ثم ترتيب العودة الى المدينة . ولم يكن ظاهر الاجتماع اكثر من دعوة لتناول طعام العشاء في سهرة اجتماعية بحتة . ولم يتولد عندي يومها اي شعور بأنني كنت من حضور الجلسة الافتتاحـية للعبة بين الحكومة الامريكية وعبد الناصر التى بدأت يومها بدايـة سيئـة ، واستمرت في ذلك حتى يومنا هذا ، مرورا بأزمة الحرب العربية الاسرائيليةفي حزيران (يونيو) ١٩٦٧ .

وفي صبيحة اليوم التالي تكونت لدي فكرة غامضة عن ذلك عندما سألت بيل ايفلاند : « ما رأيك بما قاله جمال البارحة ؟ » فأجابني : « انهـا مقامـرة خاسرة ، فليس هناك مايسمى باستقلال كامل لاية دولة في هـذا العالـم ، وخصوصا لدولة مثل مصر ، لا يمكنها أن تعيش أبدا بدون الاعتماد عـلى المساعدات الخارجية . واذا ما اعطيناه المساعدات التي يريدها فسيشعر أن من واجبه النظر الى مصالحنا بعين الاهتمام . فاذا كان لا يريد أن يسير معنا فهناك كثيرون غيره سيفعلون ذلك » . فقلت : « ولكن ما رأيك لو انه شكّل مع البقية جبهة واحدة كما يقف اتحاد العمال مع العمال صفا واحدا ضد مجلـس الادارة ؟ » فأجابني : « لقد تأخر كثيرا ، فلقد كسبنا لجانبنا كلا من العراق ولبنان والاردن وتركيا وايران والباكستان » .

وهكذا فان الوزير دالس قد قرر أن يسلك الطريق الاسهل « طريق اغراء الامم بالمساعدات » . وقد سنحت لي الفرصة مرة أن اختلس نظرة الى جـواز سفر ايفلاند اثناء ايصاله مع زميله الى المطار ، وتأكدت انه قد زار فعلا لبنان والعراق والاردن . ولعلمي بعلاقة ايفلاند الحسنة مع كل من الرئيس شمعون

ورئيس وزراء العراق نوري السعيد والملك حسين ، لم يعد عندي أي شك بانه قد جمعهم بشكل ما لانشاء منظمة دفاع عن الشرق الاوسط · ومـا اظـن ان ايفلاند كان يهدف الى دفعي لممارسة ضغط متزايد على ناصر · فلو انه قـال : « أرجو منك أن لا تخبر ناصرا بهذا » ، فساجزم عندئذ انه يحاول أن يخدعني · لقد كان الطيش المدروس في ذلك الوقت قياسيا ولا يزال كذلك حتى يومنـا هذا ·

ان الطريق الاسهل « لفن ادارة الدولة والديبلوماسية » (الذي كان يعرف عند البنتاغون ووكالة المخابرات المركزية باسم « عمل الجواد ») كان يعتمد على الراي القائل بأن جميع أمم العالم تطمح بطرق أفضل للحيـاة اقتصاديـا واجتماعيا ، وان طريق انشاء علاقات مشتركة معهم فيها نفع للجميع هي في تقديم مساعدات اقتصادية وتكتيكية بمقادير مغرية · ولكن المؤمن بهذه الطرق السهلة لاستمالة واغراء الامـم سيصاب بالذهول عندمـا يرى جمهورا من اللاجئين الفلسطينيين يجمعون خيـامهم وأغطيتهم ، التي قدمهـا لهم الغرب كمساعدات ، في يوم قارس من أيام الشتاء ويشعلون فيها النار · واعجب من ذلك عندما يرى ذاك المؤمن المصريين ، بعد هزيمة نكراء أنزلها بهم الاسرائيليون ، يتفقون مع السوريين والجزائريين ليضعوا الخطط لتجريب عضلاتهم مـرة أخرى · وبنفس الوقت يمارسون أشد أنواع الاعمال التي تنفر الدول الغربية التي هم في أمس الحاجة الى مساعدتها · ولقد علق مؤخرا احد كبار المؤمنـين بسياسة الاغراء بالمساعدات على ذلك بقوله : « لا يمكنني أن أصدق أن العرب سيصرون الى الابد على قطع أنوفهم نكاية بوجودهم » · أما الذين يؤمنون بعكس ذلك ، أي بالطريق الصعب ، فيعتقدون أن العرب ـ ولنفس السبب ، عديد من شعوب البلدان المتخلفة ـ سيدأبون على مثل هذه التصرفات ، ويعود سبب هذه المواقف الاعتزالية ـ الكئيبة ـ الى أن شعوب تلك البلاد تشعر عند انتمائها لمثل هذه المخططات أن ذلك لا يمكن أن يكون الا على أساس أنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، ومعزولون عن المشاركة في تقرير الامور المشتركة · ولقد أخبرنـي حديثا أحد السفراء الامريكيين في أحد الدول الافريقية عن انطباعاته فقال ما يلي : « ان هذه الشعوب لن تتمكن أبدا من انتاج ما تحتاجه من أجهزة المذياع الترانزستور أو من الثلاجات بنفس الاسعار الرخيصة التي تشتريها من الخارج ·

كما انه لن يكون لهم أي دور في الاقتصاد الغربي أو السوفييتي أكثر من تصدير المواد الاولية التي تعاد لهم مصنعّة جاهزة ٠ ومهما كانت سرعة تقدمهم مع كل ما نقدمه لهم من مساعدات فان الدول الغربية ستحرز تقدما بصورة أسرع بكثير ٠ وبعد عشرين عاما من مراقبة تأخرهم وحرمانهم فانه نادرا ما تصيبني الدهشة عندما أراهم يرفضون المنطق والقيم الغربية حتى مع أنهم لا يملكون ما هو أحسن منها للتمسك به » ٠ هذه هي نظرية الطريق الصعبة التي تصل الى حد الاعتقاد أن شعوب البلدان المتخلفة تعاني من الحرمان وخيبة الامل الى الحد الذي فقدت فيه عقلها السليم وتفكيرها القويم ٠ والسياسة الغربية ، التي تظن أن هذه الشعوب ستتصرف بناء على رغبتها في تامين أقصى ما يمكنها من المنافع المادية ، تبوء بالفشل الذريع ٠

لقد اختار الوزير دالس « الطريق السهلة » وكان يمكن أن نرى كثيرا من نتائجه قبل انهياره ٠ ولكن مستويات العمل والتخطيط في وزارة الخارجية والبنتاغون كانت تسير منحدرة في اتجاه « الطريق الصعبة » ـ أي الدفع بدون تجاوب ـ على مرأى ومسمع الوزير دالس نفسه ٠ ان تنفيذ سياسة المساعدات كان على الغالب متعارضا مع سياسة الوزير الاساسية ، ومع هذا فقد لعب ذلك دورا رئيسيا في تحديد شكل العديد من الوقائع اللاحقة ٠ وبعبارة أوضح، فبعد أيام من تأكيد جيرهارت وايفلاند لناصر ، أن حصوله على المساعدات يعتمد على مدى موافقته على السياسة الدفاعية للمنطقة ، وجواب ناصر الصريح بعدم عزمه على الموافقة ، حصل ناصر على أربعين مليون دولار كمساعدات اقتصادية كانت معلقة ٠ وبدأت أيضا المحادثات بين ناصر والحكومة الامريكية حول السماح له بشراء ما يعادل عشرين مليون دولار من المعدات العسكرية بأسعار مقبولة وبشروط دفع مخففة ٠

ومع أننا سنخرج عن موضوعنا الاساسي فانني أشعر بضرورة الاشارة الى رجل اسمه « هنري هانك بايرود » الذي شغل منصب مساعد وزير الخارجية ٠ وكان في واشنطن في أواخر مدة خدمة السفير كافري ثم حل محله كسفير لنا في مصر في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ ٠ كان بايرود يبلغ من العمر ٣٩ عاما فقط ـ نفس سن ناصر تقريبا ٠ وقبل مجيئه الى وزارة الخارجية

كان ضابطا ناجحا جدا فقد وصل الى رتبة عميد قبل الثلاثين من عمره ٠٠وكان شخصا متواضعا بعيدا عن التكلف بصورة تكسبه محبة كل من يلتقي به ، وعلى الاخص ناصر ٠ وكان مخلصا صدوقا جديرا بالثقة وخدوما مرحا ، وشجاعا وقورا ٠ وبالاختصار فقد كان من النوع الذي يوصف بأنه سفير نموذجي ٠

صدر الاعلان عن تقديم الاربعين مليونا من الدولارات كمساعدة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ ـ وبعد ستة أسابيع نشرت أنباء الاتفاقية العسكرية التي تحدث عنها ايفلاند وكان ذلك في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ ٠ ووصل بايرود الى القاهرة في الاسبوع التالي ٠ كما أن الاتفاقية العسكرية التي عرفت فيما بعد باسم « حلف بغداد » بدأت كاتفاقية بين رئيس وزراء العراق نوري السعيد ورئيس وزراء تركيا عدنان مندريس ، ثم انضمت اليها فيما بعد الباكستان ، لتشكل منظمة الصف الشمالي التي فضلها دالس على منظمة الدفاع الاقليمية كوسيلة للوقوف في وجه السوفييت ٠ ومع أنها لم تضم سوى دولة عربية واحدة فقد كانت مصدر ازعاج كبير لناصر ، لانها أفسدت عليه خطته في ايجاد جبهة عربية محايدة ٠ وقد قمت مع جيمس ايخلبرغر بابلاغ ناصر نبأ التوقيع عليها ٠ فقد كان ناصر قد اعتبر كلام ايفلاند وجيرهارت مجرد خدعة وايهام : فكيف يحذره كل من ايفلاند وجيرهارت من أن معاهدة كهذه على وشك التوقيع ، وبنفس الوقت تقوم الحكومة الامريكية بدفع (أربعين مليون دولار) كمساعدة اقتصادية له ثم تعطيه تسهيلات بعشرين مليون دولار كمساعدة عسكرية لشراء المعدات !؟ لذلك فقد اضطرب عبد الناصر تماما للامر ، وطلب مني أن أخبر السفير بايرود برغبته الملحة للاجتماع به فور وصوله الى القاهرة ٠ وقد كان تنفيذ طلب كهذا صعبا لان بايرود فضل السفر بحرا ، وكعادته فقد انشأ علاقات صداقة مع كثير من الذين كانوا على ظهر السفينة من سائحين مسنين وبحارة وبعض الموظفين المتجهين الى مراكز أعمالهم ، ومما لا شك فيه أنه دعاهم الى المجيء الى القاهرة في عطلة الاسبوع ٠ وكانت هناك مسألة تقديم أوراق الاعتماد ٠ فحسب الاصول الديبلوماسية لا بد للسفراء من تقديم أوراق اعتمادهم رسميا وقبولها من رئيس الدولة رسميا أيضا ، ليتسنى لهم التكلم باسم حكوماتهم ٠ ومع أن غضب عبد الناصر من نشر أخبار حلف بغداد لم يهدأ ، فانه لم يمانع أن يجري الاحتفال بتقديم أوراق الاعتماد على أن يعقب ذلك

لقاء بالسفير بايرود مباشرة • وللاسراع بذلك فقد دعوت كلا من ناصر وبايرود بالاضافة الى حسن التهامي وعبد الحكيم عامر لتناول طعام العشاء في بيتي •

كانت تلك الوليمة بداية العلاقات بين ناصر وبايرود تكونت على أثرها الحقبة المسماة « ناصر موضة المستقبل » • وعقب ذلك الاجتماع نزهة حضرها معي كل من ناصر وبايرود والتهامي ، وتم خلالها مراجعة كاملة لكل المسائل التي تهم البلدين مع اعطاء اهمية خاصة لكل من النقاط التالية :

١ ـ ان يبدا مستقلا حقيقة كمصر جدير بأن يؤخذ كصديق ، في حين أن مصر ان كانت مرتبطة معنا بأية معاهدة فانها ستظهر بمقاييس النهضة العربية الحديثة على انها مجرد تابع •

٢ ـ ان العرب يملكون نفورا فطريا من الشيوعية لكونهم مسلمين ، بالاضافة الى ان الروس لا يمكنهم تحدي قوة الاقتصاد الامريكي عند بدء التنافس على منح المساعدات الاقتصادية • ولهذا لا داعي للخوف من المنافسة الروسية في المنطقة •

٣ ـ ستتمكن مصر وهي مستقلة من أن تلعب دورا طليعيا في حركة الوحدة العربية بصورة تتناسب وأهداف الحرب الباردة (أو أي صراع بين الشرق والغرب) • وستكون هذه الحركة مضادة للفكرة التي يدعمها الوزير جون فوستر دالس بالتعاون مع البريطانيين ، والتي ترتكز على الوصول الى شكل الوحدة عن طريق التحالفات العسكرية التي لا تختلف كثيرا عن انطباع « لورانس العرب » البالي عن العقلية العربية •

٤ ـ واكثر من هذا فانه يمكن لمصر المستقلة ، القوية ، أن تأخذ بزمام المبادرة ، في تخفيف حدة التوتر بين العرب والغرب منذ قيام اسرائيل • وهنا قال ناصر : « لا يمكنني أن اتخذ مثل هذه القرارات غير الشعبية الا عندما أصبح في مركز قوي ! » • ولمح الى انه لربما يستطيع القيام بخطوات ايجابية لتخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل اذا ما أصبح في ذلك المركز القوي•

وبالتاكيد لم يكن بايرود مقتنعا تماما بمثل تلك الاقوال • ولكن بعد

تلك النزعة في ضواحي المدينة ، أصبح مقتنعا بأن ما سمعه هو موقف ناصر في الواقع ، وأن ناصرا لن يجر الى أكثر من هذه النقاط· وقد اعتقد بايرود أن «الموقف» الذي عند ناصر له ما يبرر تأييد الاول له · وأخيرا فان سياسة ناصر على الأقل أصبحت مفضلة على غيرها من السياسات التي بدأت تظهر فيها موجة القومية العربية التي تنبأ بها كل من بايرود ووزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وأي انسان آخر يدرك الاوضاع العامة · كما ان لسياسة ناصر ميزة أخرى على سياسة نوري السعيد في العراق ، وشمعون في لبنان ، المؤيدتين للغرب ·فهي تملك فرصة البقاء في الايام التي تظهر بها السياسة الامريكية والبريطانية ــ بطبيعة الاشياء ــ على انها بشكل متزايد لصالح اسرائيل وضد العرب ·

وقد ساند بايرود طلب ناصر للمعدات العسكرية بعدما أخذ موقفه السابق بعين الاهتمام · وكرجل عسكري ، فقد أدرك بايرود أنه ليس هناك ثمة خطر من احتمال استخدام ناصر لهذه الاسلحة ضد المصالح الامريكية · وبما أن بايرود كان مساعدا لوزير الخارجية لشؤون الشرق الاوسط وافريقيا ، فقد أدرك مدى التأثير النافع الذي يمكن ان يحدثه ناصر في المنطقة كلها اذا كان يميل حقا الى فعل مثل هذا الشيء · وقد تولد عند بايرود انطباع أن ناصرا هو القائد الوحيد في العالم العربي الذي يمثل الاتجاه الجديد ، والذي بنفس الوقت يمكن لدبلوماسي غربي أن يجري معه مناقشات مفيدة ومتزنة ، كما أن ناصرا هو من النوع الذي يمكن للانسان أن يباحثه بأي موضوع ــ حتى موضوع الصلح مع اسرائيل ــ دون أن يخرج عن تحكيم العقل ويلجأ الى العواطف عند سوق الحجج وسرد البراهين · ولهذا السبب فقد رأى بايرود ضرورة بقاء ناصر في الحكم ، كما رأى أن تحويل جيشه من رث هزيل الى آخر عزيز وفخور بنفسه هو من أول ما يضمن هذا البقاء ويعززه ·

وكما ذكرت سابقا ، فقبل وصول بايرود الى القاهرة كانت الحكومة الامريكية قد منحت ناصرا أربعين مليونا من الدولارات كمساعدات اقتصادية له، كما انها وافقت مبدئيا على ان تقدم له تسهيلات بحدود عشرين مليونا من الدولارات لشراء تجهيزات عسكرية باسعار معقولة وبشروط مخففة للدفع · (وبالمناسبة ، فمن المغالطة الظن أن المساعدات الاقتصادية أو العسكرية تدفع نقدا وعدا ، حتى ولو أنها قد منحت تحت قيود شديدة · وذلك لان تقديم

المساعدة لأية حكومة ما ، بغيـة أي هدف ما ، يعني رفع القيـود عن مدخرات الحكومة المانحة للمساعدة ، ووضعها تحت تصرف الحكومة الاخرى التي لربما تستعملها لأي هدف آخر غير هدفها الأساسي) وكان كل ما تبقى من القضية هو تحديد التفاصيل مثل نوع التجهيزات وهل ستكون حديثة أم مستعملة وعلى وشك التنسيق من الخدمة ، وكيف سنبيعها ، وكم سنتقاضى ثمنها ؟ ونظرا لان مثل هذه الامور الآنفة الذكر هي تفصيلات محضة ، فقد قام وزير الحربية المصري بتنظيم قائمة بالاحتياجات أرسلها الى واشنطن · ومن ثم قامت وزارة الدفاع الامريكية باجراء بعض التعديلات عليها ، وأعادت القائمة ثانية لوزير الحربية المصري ، الذي بدوره أعادها ثانية الى واشنطن بعد اضافة تغييـرات جديـدة عليها · وهكذا بقيت القائمة تتناقلها الايدي بين واشنطن والقاهرة مرات عديدة وبقي الخلاف على أسعار التجهيزات قائمـا · فالمسؤولون في وزارة الدفـاع الامريكية قد وضعوا نظاما مرنا لترتيبات الاسعار، ولكنني لم استطع فهمه يوما· فهو يتيح الوصول الى سعر ما نتيجة مساومـات ومباحثـات · الا أن قائمـة التجهيزات التي نالت أخـيرا موافقة الطرفـين لم تتعد ، مع قائمة الاسعار ، مرحلة ما قبل الاخيرة اطلاقا ·

وبنفس الوقت ، لم يكن هناك اية بادرة تشير الى أن المشاكل المعلقة ــ مهما كان نوعها ــ لن تجد في النهاية حلا مناسبا · فقد استمر ناصـر وبايـرود في توطيد العلاقات وتوثيق عرى الصداقة بين المصريين والامريكيين بغية الوصول الى حلول مثمرة لجميع المشاكل التي تعاني منها المنطقة بأسرها ، ممـا يحقـق السلام والازدهار اللذين بقيا هم مخططي سياستنا المثالية وشغلهم الشاغل · الا أن الرياح لم تجر كما اشتهاها كل من ناصر وبايرود · وشـاءت الظـروف أن تبقى المشاكل مستعصية الحل · وبقيت مشكلة المساعدات العسكرية معلقة دون تنفيذ لعدة أشهر ، مع استمرار التأكيدات المتقطعة من واشنطن: « اننا على وشك أن ننجز دراستها ، الا أن مسائل كهذه عادة ما تستغرق زمنا غير قليل » ·

وسأريح القارىء من عناء الاتيان على كل تفاصيل المناظـرة التي جـرت يومها في واشنطن حول أمر تزويد ناصر بالمساعدات العسكرية أم لا · ولـم يخطر ببالنا ــ ونحن في القاهرة ــ أن مناظرة كتلك قد دارت رحاها في دهاليز

وزارة الدفاع في واشنطن ، فلقد كان بايرود يتابع بسرور ترتيب أموره على اساس أن بعض شحنات الاسلحة سوف تكون في طريقها الى القاهرة قريبا . وكان بايرود يأمل في أن تتمخض خطط التعاون المصري الامريكي ـ على الاقل ـ عن تسوية مؤقتة (أو تجميد) للنزاع العربي الاسرائيلي ، وبالتالي فان أحد مصادر الاحتكاك الرئيسية بين الامريكيين والعرب ستجد طريقها الى الزوال . وفي ١٦ تموز (يوليو) ١٩٥٥ ، أنهيت زيارتي التي دامت عامين للقاهرة وعدت متباطئا الى وطني حيث قضيت شهرا كاملا على الطريق . ولدى وصولي الى واشنطن في أواخر آب (أغسطس) كانت هناك في انتظاري رسائل من بايرود وناصر تستعجلني لبذل ما في وسعي لانتشال مسألة المساعدات العسكرية من مأزقها الذي وقعت فيه ، كما كانت هناك صورة عن الرسائل المتبادلة بين جيم آلن (الذي أعمل برئاسته في شركة بوز آلن اند هاميلتن) وبين هربرت هوفر (وكيل وزير الخارجية) يطلب فيها الاخير استعارتي لوزارة الخارجية ، ولفترة غير محدودة ، لاخدم في فريق أطلق عليه اسم « لجنة التخطيط السياسي للشرق الاوسط » . وكان الهدف الرئيسي من تاليف هذه اللجنة ، وضع الخطط لاستغلال فرصة الصداقة النامية بيننا وبين ناصر .

وكان أول ما قمت به في واشنطن ـ بشكل مهمة رسمية ـ هو بحث موضوع المساعدات العسكرية لناصر مع جورج آلن ، الذي حل محل هانك بايرود كمساعد لوزير الخارجية لشؤون افريقيا والشرق الاوسط . وكان جُلُّ دراية جورج بالموضوع ، هو أنه معلق لاسباب ادارية ، وطلب مني أن أجد مكانا مريحا في غرفة مجاورة لمكتبه لاطلع على البرقيات المتبادلة بين واشنطن والقاهرة خلال الشهر الذي كنت فيه بعيدا عن العمل . وقد فعلت ، وقلبت نظري في تلك البرقيات جيئة وذهابا ، كما يتابع لاعب التنس بنظراته الكرة في مباراة مثيرة . وسرعان ما اتضح لي أن الامر برمته قد غاص في مستنقع الاجراءات البيروقراطية . ولاحظت أن الملفات الاضافية قد اشتملت على رؤوس أقلام مناظرة واسعة النطاق ، جرت حول موضوع المساعدات العسكرية لناصر وفيما اذا كان يمكن تقديمها له دون لن نحصل منه على ضمانات أنها لن تستعمل في عمل عدواني ضد اسرائيل . الا أن تلك المحاورات والمناظرات أضحت غير موضوعية ، عندما طلب مني السفير المصري في واشنطن في اليوم التالي ونحن

نتناول طعام الغداء ، أن أخبر جورج آلن أن في وسعنا تخفيف الضغط على ناصر عن طريق تزويده ببعض التجهيزات العسكرية الاستعراضية كخوذ لامعة ومسدسات في قراب جميلة وغيرها بما لا يتجاوز المليونين من الدولارات ، مما يضفي على الجيش بعض مظاهر القوة والاحترام · الا أن المشاكل الادارية (التي لا أزال أجهل كنهها للآن) قد حالت ثانية دون انجاز طلب ناصر الاخير ، وغاص المشروع الاخير في نفس ما غاص فيه سابقه ·

الا ان البرقية الاخيرة من الملف كانت تفرض علينا أن نعيد التفكير بموضوع المساعدات العسكرية لناصر بصورة ملحة · فقد حذرنا بايرود من ان امتناعنا عن تزويد ناصر بالتجهيزات العسكرية سيلزم الاخير بقبول المساعدة العسكرية الروسية (التي أصر يومها جورج آلن على أنها غير ذات بال) ، وأكد ضرورة تزويده ولو بمقادير رمزية منها ، وبسرعة كافية · وكانت وكالة المخابرات المركزية قد أكدت خبر تقديم الروس فعلا عرضا لتزويد ناصر بمثل هذه المساعدات العسكرية · وأضاف بايرود محذرا ان قبول ناصر للمساعدة الروسية العسكرية سيفسح المجال أمام الروس لتحسين مركزهم في المنطقة ولتثبيت أقدامهم فيها · وقابلت لجنة التخطيط السياسي للشرق الاوسط نبأ العرض السوفياتي بالدهشة والارتباك ، الا أنها لم تتخذ أي تدبير حياله · وفي منتصف أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥ تلقى كيرميت روزفلت رسالة شخصية من ناصر تفيد أن الاخير على وشك التوقيع على اتفاقية مع الروس ، وأنه يرحب بروزفلت في القاهرة ان كان عازما على الرجوع عن عزمه هذا · وفي اليوم التالي غادرت وروزفلت واشنطن متوجهين الى القاهرة ·

وفي مطار القاهرة ، كان أحد أعوان ناصر في استقبالنا · ومن ثم توجهنا برفقته الى شقة ناصر في الطابق الاعلى من مبنى مجلس قيادة الثورة · وكان ناصر في مزاج الشامت الساخر ، ولكنه منبسط الاسارير ، وكان لسان حاله يقول : « لقد قلت لك هذا يا روزفلت ، فما عساك أن تفعل الان ؟ » وجلس الجميع ليتمتعوا برؤية روزفلت يتلعثم عندما يبدأ محاولا الرد على حجج ناصر الدامغة · ولكن روزفلت أدهش ناصرا عندما عزف عن اقناعه برفض الاسلحة (فقد كانت وكالة المخابرات المركزية قد أقنعتنا أن ناصرا قد قبل الصفقة ولا مجال لينثني عن عزمه هذا) وقال له: « ان كانت الصفقة فعلا بهذه الضخامة التي

سمعنا بها ، فما عليك الا القبول بها ، لانها وان أغضبت البعض فستجعل منك بطلا عظيما وتكسبك تأييدا فريدا . فلماذا يا ناصر لا تستغل هـذه الموجـة المفاجئة من التأييد الشعبي لتتخذ بعض القرارات التاريخية حقا ؟! وما أظن أن ذلك التأييد سينحسر أن أعلنت مثلا : « أن هذه الاسلحة دفاعية فقط ، وانني على استعداد لان أقبل مشاركة الاسرائيليين للقيام بمجهود مشترك بغية الوصول الى سلم دائم في المنطقة ، ان هم ارادوا ذلك فعلا » . ولم يتمالك ناصر نفسـه عند سماع هذا الاقتراح ، فقد طار لبه فرحا وقفز مبتهجا وقال : « انما لفكرة رائعة » .

وتابعنا مناقشة الفكرة حتى منتصف الليل : فناصر سيصدر بيانا يدرج فيه نبأ عقد صفقة السلاح الروسي ، وهكذا فلن يهتف له المتطرفون في مصـر لوحدهم بل والمحافظون (وحتى الشرق) ايضا . وبعد ذلك يبدأ ناصر بحملة حياد دولية ترضي الجميع ويستمر ، بنفس الوقت ، في الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الملحة داخل البلاد معتمدا على المساعدات الامريكية . وهكذا توفرت الاحتمالات من جميع الانواع والضروب . فناصر سيلقي خطابا بعد يومين فـي حفلة التخريج في كلية الطيران ، ومن الممكن أن يضمنه نبأ الاعلان عن صفقة السلاح الروسية . واتفقنا على أن أكتب لناصر مسودة المقطع الذي سيتضمن هذا النبأ ، ثم يقوم ناصر في الليلة التالية بالتعاون مع روزفلت بتوضيب هذا المقطع في شكله الاخير وانزاله المكان الملائم من الخطاب .

وحضر عدد غير قليل من المتطفلين اعداد مسودة ذلك المقطع من الخطاب . الا أن السفير بايرود لم يكن بينهم ، فهو لم يعلم بعد بوصولنا الى القاهـرة . وخلال النهار التالي للاجتماع بناصر ، وصل حشد من الزوار الى فندقنا لاعطاء الرأي فيما يجب أو لا يجب أن يدرج في البيان ، وكان بينهم مصطفـى أمين ــ صاحب جريدة أخبار اليوم ــ ومحمد حسنين هيكل ــ المحرر في أخبار اليوم ــ وكلاهما من امناء سر عبد الناصر ، وحسن التهامي المساعـد الوطنـي الاول لناصر ، وجيمس ايخلبرغر من السفارة الامريكية في القاهـرة (الذي علـم بوصولنا من حسنين هيكل دون أن يذكر ذلك لبايرود) وأحمد حسين السفير المصري في واشنطن ، الى جانب حشد آخر من بعـض الشخصيات الاخرى .

ويبدو أن الجميع كانوا على المام تام بالانباء السرية لصفقة السلاح الروسية . وعلى الرغم من الجهود المشتركة ، فقد كان نص البيان مقتضبا ، ولم يتعد توضيح النقطة التى وافق عليها ناصر دون أن يمس ذلك بشعور أحد او أن يخفف من الاثر الدراماتيكي الذي كان يريد أن يتركه خطابه على جماهير الشعب .

وفي الساعة الثامنة من مساء اليوم التالي لوصولنا الى القاهرة ، ذهبت وروزفلت الى شقة ناصر في المبنى الخاص بمجلس قيادة الثورة الذي يقع مواجه السفارة البريطانية عبر نهر النيل ، ونالت المسودة اعجاب ناصر ، ولم يمانع في حشرها بين فقرات خطابه . الا أنه أبدى رغبته باجراء تعديل طفيف عليها . فهو لا يستطيع ذكر عبارة « الصلح مع اسرائيل » صراحة ، ويفضل أن يستبدلها بعبارة « تخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل » ووافق روزفلت على هذا ، بل واعتبره خطوة جليلة نحو مستقبل أكثر هدوءا واستقرارا ، فقد كان يخفي في جعبته عديدا من الاقتراحات لانهاء حالة العداء بين العرب واسرائيل ، الا انه تريث في طرحها حتى ينتهي ناصر من خطابه .

وبينما كان ناصر منهمكافي اخراج زجاجة من « السكوتش ويسكي » الذي يحتفظ به عادة لضيوفه البارزين ، قرع جرس الهاتف ليقول له الضابط المناوب في الطابق الادنى ان السير همفري تريفليان ، السفير البريطاني ، يطلب مقابلة مستعجلة مع ناصر .

والتفت ناصر الينا متساءلا : « ما تظنون وراءه ؟ »

فأجب روزفلت : «طبعا ، يريد مباحثتك بشؤون صفقة السلاح الروسية» .

فقال ناصر : « واعجبا ، انها سر ، فكيف بلغته أنباؤها ؟ »

فرد عليه روزفلت قائلا : « حتى ولو اخفى أصحابك أنباءها فان السوفييت لن يفعلوا هذا ، فليس من مصلحتهم أن يدعوها طي الكتمان ، أليس كذلك يا جمال ؟ »

فقال ناصر : « هذا صحيح ، وما أظن غير ذلك ! »

وفي تلك الاثناء كنا ننظر الى ساحة السفارة البريطانية عبر النيل (١) فرأينا سيارة السفير تغادرها الى الشارع الرئيسي ، لتشق طريقها عبر الازدحام ، ومن ثم تعبر الجسر لتصل الى الشارع الذي يطل عليه مبنى مجلس قيادة الثورة . وفي هذه الفترة كنا نتناقش في الموقف الذي يجب أن يتخذه ناصر من السفير البريطاني الذي لم يكن ـ كسفيرنا بايرود ـ على علم بوجودنا في القاهرة . ذلك أن الوزير جون فوستر دالس ـ تمسكا بالتقاليد ـ لم يخبر باقي أعضاء وزارة الخارجية ، ولا البريطانيين ، ولا حتى سفيره بايرود في القاهرة ، بالدعوة التي وجهها الينا ناصر أو بحقيقة هدف زيارة روزفلت للقاهرة (فقد كان الهدف منها محاولة اقناع ناصر بانتهاج سياسة جديدة وجريئة ، لتوثيق عرى الصداقة وتطوير البلاد اقتصاديا) . والآن ، وتحت ظروف مماثلة ، ما الذي يجب على ناصر أن يخبر السفير البريطاني به ؟.

قال له روزفلت : « وعلى سبيل تسويف اعلامه بالحقيقة حتى مساء الغد، أخبره أن الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا ، فان هذا لن يثير قلقهم ، فتشيكوسلوفاكيا تعتبر من مصادر السلاح الرئيسية لاسرائيل . »

وهكذا غادر ناصر الشقة ليلتقي بالسفير البريطاني ويخبره أن الاسلحة من براغ Prague ، الا أن ناصرا لفظ حرف « P » في كلمة براغ على الطريقة العربية كحرف « B » فلم يفهم السفير الا ان مصدر السلاح Brague ، وهذه ليست مدينة في تشيكوسلوفاكيا . وقدر أن ناصرا قبل صفقة السلاح الروسية . ولم يكن بوسعنا أن نقابل السفير البريطاني لنصحح له لفظ ناصر لكلمة Prague وكانت النتيجة أن أبرق السفير بالنبأ حالا الى وزارة الخارجية البريطانية ،التي بدورها أشارت على هيئة الاذاعة البريطانية BBC أن تذيعه دون تأخير .

ولم تستمر مقابلة السفير تريفليان لناصر أكثر من خمس دقائق . وما كدنا ننتهي من مراجعة مسودة خطاب ناصر ، الذي سيلقيه في حفلة خريجي مدرسة الطيران ، حتى دخل علينا عبد الحكيم عامر وزكريا محي الدين وذهبنا بعدها معا لتناول طعام العشاء عند السفير المصري (في واشنطن) أحمد حسين.

---

(١) تقع السفارة البريطانية مقابل مجلس قيادة الثورة مباشرة عبر نهر النيل في الزمالك ـ القاهرة.

وكانت ساعات المساء التي أمضيناها في شقة ناصر ـ قبل ذهابنا الى بيت أحمد حسين ـ مليئة بالمرح والبهجة ، تعرضت خلالها لمضايقات من صديقي زكريا محي الدين الذي لم يكن يعلم بوجودنا في القاهرة الا قبل دقائق معدودات · وتبادلنا النكات حول ما كان يمكن أن تتحول اليه تقاسيم وجه السفير البريطاني، لو أن روزفلت ـ أو أنا ـ قطعنا عليه خلوته مع ناصر لنسأل الاخير : « عفوا يا جمال ، لقد نفدت الصودا،فمن أين لنا بمزيد منها !؟ » · وتبادلنا النكات الشائعة حول ميكروفونات التجسس المدسوسة في غرفة الاجتماعات · وبعبارة أوضح ، فقد تبادلنا جميع أنواع المزاح البريء الذي يدور عادة بين المراهقين من حضارات مختلفة وخاصة بعد تحررهم من قيودهم وانطلاقهم من كبتهم ·

واستمر هذا المزاح وتراشق النكات طوال الطريق الى بيت السفير احمد حسين وحتى خلال القسم الاول من حفلة السمر هناك · الا أن موضوع المزاح ـ وهو مقابلة السفير لناصر ـ ، لم يكن ليسمح لأي قادم جديد بالمشاركة فيه لجهلة بما جرى · وقد وصلنا متأخرين ساعة من الزمن الى بيت السفير حسين · الا أن السفير بايرود كان قد سبقنا الى هناك ، ولم يعلم بوجودنا في القاهرة الا عندما رآنا ندخل بيت السفير حسين مع رئيس الدولة وكبار نوابه، والكل مستغرقون في الضحك يتبادلون النكات التي كان بايرود غريبا عنها كليا ··

ربما لا يدري القارىء الا القليل عن طبيعة نظام التشريعات في المؤسسات الضخمة ، مثل وزارة الخارجية الامريكية ، أو شركة جنرال موتورز ، أو الكنيسة الكاثوليكية ، أو الجيش الصيني · ولهذا فمن دواعي السرور أن أخبره انه ليس هناك ما يزعج احد كبار الموظفين أكثر من تسلل موظف آخر الى مملكته دون علم مسبق منه ، أو أن يتصرف ذاك الموظف الاخر بصورة مستقلة تماما عن الاول وعلى مستويات رسمية عليا · وكان يحدث هذا كثيرا على عهد الوزير دالس · فعندما تواجه الوزير أية مشكلة ـ وليكن مثلا أفغانستان ـ كان يتلفت يمنة ويسرة ليتفرس في وجوه هيئة وزارته ، ثم يخاطبهم قائلا : « والآن، لنرى من منكم ضليعا في معالجة الشؤون الافغانية ؟ » · ثم ما يلبث الوزير أن يختار أحد الموجودين لمجرد تذكره أنه قد سمع منه حديثا عن « أفغانستان »

منذ زمن غير بعيد ، واعتبره الوزير صحيحا · ولم يكن دالس من النوع الذي له في مجلسه من يرغب أن يقول له : « يا حضرة الوزير ، لكننا نملك سفيرا جيدا في افغانستان ! » · وعلاوة على ذلك ، فان الوزير لا يثق باولئك الذين يعملون مباشرة تحت امرته بل ولا يتذكر غيرهم ·

وبعد أن ينتقي الوزير دالس مبعوثه الخاص ، فانه لا يقوم بابلاغ السفارة المعينة بالامر ، أو أنه يعلمها بصورة شكلية فقط مثل : « افريل هاريمان يصل على البان اميركان رحلة رقم ١٠٠ ، لا يرغب بالنزول في البيت الخاص ، نرجو حجز جناح له في الهيلتون » · وان ذكر احيانا سببا للرحلة فلا يكون السبب الحقيقي · وفي خلال عهد الوزير دالس ، كان أي سفير لنا في الخارج يخشى أن يلتقي عرضا ، وهو في طريقه من مسكنه الى مبنى السفارة ، باي من تلك الشخصيات التي كانت تعمل في مجال دبلوماسية ما وراء الكواليس (مثل روبرت مورفي أو روبرت أندرسون) مستقلا « الكاديلاك » المخصصة للضيوف، وسالكا اتجاها معاكسا في الشارع وهو في طريقه لمقابلة ما في القصر · الا أن السفير الامريكي بايرود كان أكثر السفراء مرونة ، واقلهم حقدا وحسدا ، واكثرهم رحابة نفس وسعة افق · وكان ايضا من أقل كبار الموظفين اهتماما بالشكليات والرسميات · ومع كل هذا ، فمن المحتمل جدا أنه قد أصيب بذهول ودهشة لدى رؤيته كيرميت روزفلت ــ وغيره ــ بين المدعوين لحفلة العشاء ، ويدخل القاعة متابطا ذراع رئيس الدولة واثنين من وزرائه ، وبمظهر لا يمكن أن يوحي الا أنهم قادمون لتوهم من اجتماع عقد بينهم · وعلاوة على هذا ، فان ذاك المزاح الذي كان مقتصرا عليهم ، دون غيرهم ، لا يمكنه أن يعطي الا ذلك الانطباع · فمهما كانت الظروف ، فمن المزعج حقا أن يجد الانسان نفسه ضمن فئة من معارفه تمزح وتمرح ، وهو لا يدري من أمرها شيئا

وبين المدعوين ، كان جيمس ايخلبرغر ، الذي نسي أن يخبر بايرود أنه رآنا صباح نفس ذاك اليوم · وكان السفير المتجول اريك جونستون من بين الحاضرين ايضا · فقد أمضى فترة في القاهرة يجري مشاورات بخصوص مشروع نهر الاردن فاثار في الحفلة موجة من المرح والتنكيت لعلها تنسيه آلام الفشل الذي لاقاه في جولته · واخيرا كان هناك صاحب الدعوة نفسه

السفير المصري في واشنطن ، أحمد حسين ، جالسا يشاطر ايخلبرغر زجاجة من البراندي · وأما السفير بايرود ، فقد انتحى زاوية لوحده ، وعليه امارات الكآبة والنكد ، وفي يده وتد من الحديقة يعبث به ·

كان اللقاء مبهجا للجميع باستثناء بايرود · واستهله السفير جونستون بقصة تشبه قصص المتشردين من الاحداث ، والقاها بلهجة ايرلاندية احتوت كثيرا من العبارات مثل : الراهبة الحاملة ، موسى ، اليهــود ، الخــروج الى الغائط · وبينما كنت والسفير حسين منهمكين في ترجمة القصة الى العربية ، اذ بالسفير بايرود يتنحنح ويقاطعنا قائلا :

« جمال ، هناك قضية أود أن الفت انتباهك اليها · »

وهنا انقطع الضحك ، وانصت الجميع ، واندفع بايرود يلقي خطبة طويلة ضد الحكومة البوليسية في مصر ، وضد مجلس قيادة الثورة الذي يتصرف مثل « الاحداث من المجرمين » ، وضد بعض مظاهر نظام حكم ناصر التي ذكّرته بها تلك المعاملة السيئة التي لقيها الملحق الامريكي لشؤون العمال في سفارة بايرود على أيدي رجال البوليس في الاسكندرية لايام خلت · وكانت الخطبة مسهبة ، وبالفاظ بليغة ، وكأن أحد مشاهير كتّاب المسرح قد خطها بقلمه · الا أنها ، مع الاسف ، لم تكن مناسبة أبدا ، لا في زمانها ولا في مكانها ، ولم تلق الا على مسامعأقل الناس اتعاظا بها · وما كان من ناصر الا أن اطفأ سيجارته ، وهب واقفا ،وغادرالقاعةبخطى سريعة · ولحق به وزراؤه وغادروا الحفل معه · الا أن روزفلتسبواقفا ولحق به حتى السيارة ، محاولا أن يعتذر عما حدث · وجلس بايرود بعدها الى الطاولة لا ينبس ببنت شفة ، فلم تذهله مغادرة ناصر الدراماتيكية للحفلة بقــدر ما أذهلته المضاعفـــات التي ستترتب على حضور جونستون وروزفلت الحادثة · ولقد أدرك بايرود هذا تماما · وعندما سمع جونستون صوت « كاديلاك » ناصر تبتعد ، ربّت على يد بايرود وقال له : « هانك ، لقد حان وقت الانصراف » · وانصرفوا ، وبايرود بينهم « كالسائر غافيا » يؤخذ بيده الى الفراش ·

ومع أنني تأكدت أن هذا النظام قد ألغي فيما بعد ، فقد كان سهلا يومها أن تستعمل احدى الشخصيات الزائرة تسهيلات السفارة لارســال برقيــة الى

واشنطن دون علم السفير وخبره . ففي الوقت الذي كان بايرود في فراشه يتقلب أرقا ، كان روزفلت وجونستون يأمران موظف الشيفرة في السفارة بارسال برقية للوزير دالس ، يذكران له فيها كثيرا من الاخبار التي لا تعطي انطباعا حسنا عن بايرود . ومع أن روزفلت قد شعر بالاثم لاهماله اخبار بايرود بوصوله ، الا أن سلوك الأخير في بيت أحمد حسين سوف يعرض الخطة التي جاء روزفلت لتنفيذها في القاهرة للخطر بأكملها . أما جونستون ، فقد علمته التجارب أن على رجل الاعمال ألا يفقد أعصابه مع زبائنه وحتى مع خصومه . وظن جونستون أن بايرود يواجه حالة انهيار نفسي ، الا انه كان ألطف من ذلك عندما قال في سياق برقيته للوزير دالس : « انه ـ بايرود ـ في حاجة ماسة للراحة » . ووصلت البرقية واشنطن ، ورفعت الى الوزير دالس في صباح نفس ذاك اليوم (وذلك لوجود سبع ساعات كفرق زمني بين القاهرة وواشنطن) الذي سيلقي ناصر فيه خطابه المتضمن ذاك المقطع الذي صممته مع روزفلت بعناية ودقة .

في الساعة السابعة صباحا بتوقيت القاهرة المحلي ، اتصل بايرود بي هاتفيا ، وطلب مني الحضور الى مكتبه . وعندما وصلت الى هناك بعد نصف ساعة ، بدا بايرود بنفسية جديدة تذكرت معها ما ذكره أحد الكتاب عن « السفير النموذجي » وقد نسي كل ما حدث الليلة السابقة بعد عدة جولات في لعبة التنس . وكان مرتديا سترة الرياضة وهي من صوف خشن ، وبدأ يومه بخفة ورشاقة رجل الاعمال . الا أن ردود فعله تجاه ما جنت يداه الليلة الماضية كانت أقل من أن تثير قلقه حيال مهمته كرجل دولة كاد استهتاره وقلة اكتراثه أن يسببا تصدعا خطيرا في العلاقات المصرية الامريكية . وبطريقة لا تختلف عن تلك التي وصف بها « ادوارد سيهان » السذج في روايته « مملكة الاوهام » ، رمى بايرود بورقة أمامي وسألني عن رأيي فيما كتب عليها .

لم أعد أذكر النص المكتوب تماما ، الا أنه كان شيئا من هذا القبيل : « عزيزي جمال : انني جد آسف لاثارة موضوع كريه في لقاء لطيف مساء أمس . ولكنني لا أزال متألما جدا بسبب ما حل برجال سفارتي من ضرب واهانة ، وانك بالتأكيد ستتألم ان واجهت نفس الظروف . ومهما كان فانني

أكرر اعتذاري راجيا منك القبول • المخلص : هانك » • واخبرت بايرود أنها رسالة جيدة وانني ساعطيها لناصر حالا •

قابلت ناصرا في الساعة التاسعة صباحا وهو يهم بمغادرة سيارته « اللوموزين » ليدخل مكتبه الرسمي • الا أنه امسك بيدي ، وادخلني معه وهو يصف ذربا سهرة الليلة الماضية وكم كانت ممتعة للجميع ، وقال : « أظن أن قصة أريك (جونستون) حول موسى وخروجه للغائط كانت طريفة ! » • وبعد دخوله لمكتبه ، اعطيته رسالة بايرود ، فرمقها بنظرات سريعة ، ورمى بها داخل أحد أدراج المكتب مع غيرها من الاوراق ، وقال : « حسنا ، ارجو أن أراك مع كيم (روزفلت) هذه الليلة » • الا أنه لم يعط أي تعليق حول رسالة بايرود • وعندما هممت بمغادرة الغرفة سالته : « وماذا بخصوص رسالة بايرود ؟ »

قال : « وماذا تعني ؟ »

قلت : « ماذا ستفعل حيالها ؟ »

قال ، وهو يلوح لي بيده مودعا : « حسنا ، سأضمها الى ملف مثيلاتها !»

قلت : « وما ••• مثيلاتها ؟ »

قال : « حسنا ، فمن عادة هانك أن ينفجر هكذا • ارجو أن لا يكون كيم واريك قد تأثرا كثيرا بسببها ! »

وجلست ثانية وانا افكر في جملته « لم يتأثرا بسببها » • واحسرتاه ، ان ناصرا لا يدري أنهما معا ـ أريد وكيم ـ قد ذهبا توا بعد السهرة الى السفارة ليلا ، وأبرقا الى الوزير دالس بما يكفي لنفي بايرود الى جزيرة فرناندوبو (جزيرة اسبانية فى غرب افريقيا) •

وسألت ناصرا : « وماذا تعني تماما بمثيلاتها ؟ » وفهمت منه أنه لم يمض أكثر من أسبوع واحد على تقريع بايرود لناصر لسماحه لاحد الطيارين الذين تخرجوا حديثا بالتحليق في أول مهمة طيران له فوق اسرائيل ، حيث أسقطت طائرته هناك • وفي مناسبة أخرى ، اتخذ بايرود من أحد تصريحات ناصر المعادية لامريكا مثارا لنقاش وخلاف بينهما • ومما لا شك فيه أن بايرود كان قد وطد علاقاته بناصر الى حد سمح له هذا الأخير أن يناقش علنا أيا من تصرفاته

التي لا تروق له • وفي الوقت الذي كان ناصر ينظر الى بعضها بعين الاعتبار ، كان لا يعير البقية أي اهتمام أو اكتراث ، ودونما أدنى انزعاج أو اضطراب• ومما لا شك فيه أن ناصرا لم يكن راغبا اطلاقا في أن يسمع أيا من ملاحظات بايرود في تلك السهرة بالذات خشية أن تثير له بعض المتاعب • وعندما هممت بالمغادرة قال لي : « الا أنني عازم على مفاتحة كيم بهذا الامر عند لقائنا هذا المساء » •

ومع أن الفارق الزمني في التوقيت بين واشنطن والقاهرة يقارب سبع ساعات (التاسعة صباحا في نيويورك تعادل الرابعة بعد الظهر في القاهرة) • غير أن الفارق الزمني في سرعة العمل أقل من هذا بكثير • فهو لا يتجاوز ساعة واحدة من الزمن • ففي العاشرة صباحا في واشنطن (الخامسة مساء في القاهرة) من نفس ذاك اليوم وقعت حوادث عدة أهمها :

● الوزير دالس قرر ارسال جورج آلن ـ مساعده ـ الى القاهرة ليحقق في صحة تصرفات بايرود ، وسلامة عقله •

● وليام رونتري ، نائب مساعد وزير الخارجية ، وضع مسودة رسالة قاسية لناصر يحذره فيها من أخطار قبول الاسلحة الروسية •

● مساعد نائب وكيل وزير الخارجية، مستر سومبودي، جعل أنباء قصة السلاح الروسية تتسرب الى الصحافة بشكل يبرر ظهور بعض العناوين في الصحافة مثل « آلن في القاهرة ليقدم انذارا لناصر » • وما لبثت ان أبرقت وكالة الاسوشيتد برس بالنبأ الى القاهرة قبل الساعة السادسة مساء (الحادية عشر صباحا بتوقيت واشنطن) • وبحلول الساعة السادسة والنصف كنت وكيرميت روزفلت في غرفة الاستقبال ننتظر مقابلة ناصر • الا أن ناصرا وقتها كان محاطا بكبار موظفيه وهو يصدر الاوامر لهم :

لموظف أول : « اشطب ذاك المقطع السخيف (الذي كتبته مع روزفلت) من مسودة الخطاب واستبدله بآخر أكثر تحديا وعداء للامريكيين » •

لموظف ثان : « اتصل بوزارة الخارجية واطلب منها تفاصيل مضاعفات قطع العلاقات مع دولة عظمى » •

لموظف ثالث : « اتصل بالاذاعة لتطلب بدورها من الشعب انتظار أخبار هامة » •

وعلى الغالب ، فانه قد التفت الى موظف رابع وأمره أن ينتقي أحقر السيارات المخصصة للزائرين ليرافقني بها وكيرميت روزفلت الى المطار دون مقابلتنا لناصر · ولعلم القراء - غير الرسميين في واشنطن - فان سلسلة تصرفات ناصر الآنفة الذكر تسمى « صفعة » ، الا أن « صفعة » أخرى كانت تاخذ مجراها وفي نفس الوقت في واشنطن ·

ويعود الفضل لمصطفى أمين الذي تكرم بالسيطرة على الحالة المتدهورة ، واقنع ناصرا بأنه لا ضرر من مقابلتنا - أنا وكيرميت - وذلك - على الاقل - لسماع رأينا في الاحداث قبل أن يتخذ ناصر أية اجراءات عنيفة · وتواضع ناصر أخيرا ، وصعد الى شقته في الطابق الأعلى حيث كنا بانتظاره · ولم يكن لي أو لروزفلت أي علم بما أبرقت به وكالة الاسوشيتدبرس · كما أن مكتب الوزير دالس في واشنطن لم يبرق الى السفارة في القاهرة - وذلك جريا على عادته - بالغرض من زيارة جورج آلن للقاهرة : ألتقديم انذار ، أم لغير ذلك · ولهذا فقد دهش كيرميت روزفلت حينما وجد ناصرا - وبدون أي علم مسبق بما جرى - غضبان مزمجرا ·

بعد عدة شهور ، ألقى ناصر خطابا ذكر فيه أن «أمريكيا» ما حضر لعنده ليعلمه بأمر انذار آلن (قبل وصول آلن نفسه) ، وأوصاه أن لا يعير الانذار أي اهتمام · لقد ثار لغط كثير حول هذا النبأ بالذات يوم نشر في الصحافة ، وكان النبأ يومها أحد الامثلة على غلو العرب · ان كل ما قاله روزفلت في ذاك اللقاء لم يتعد : « لماذا لا تؤخر خصامك - يا ناصر - حتى تتسلم الانذار ، وذلك بدلا من العكس ! فلربما تكون الاسوشيتدبرس مخطئة كما هو الحال أحيانا ؟»· ولكن ناصرا لم يوافق على ذلك ، واصر على أن الاسوشيتدبرس ليست مخطئة بل انها نادرا ما تخطىء · (لقد كان مراسل الاسوشيتدبرس في القاهرة ، ولتون واين ، يتجشم المشاق في سبيل مراقبة الانباء والتحقق من صحتها · فأخباره الى المركز الرئيسي للوكالة كانت على جانب كبير من الصحة والدقة) · ولم يكن بمقدور روزفلت أن يقول لناصر : « اذا قدم آلن اليك أي انذار فلا مانع من أن تجيبه بالطريقة التي تراها ضرورية ومناسبة للموقف · الا أنني لا اعتقد أن الوزير دالس قد أرسل اليك أي انذار بدون أن يخبرني بذلك » · لقد

كان هذا تخمينا مقبولا من روزفلت ، لكنه غير صحيح ٠ وما لبثت أن هدأت ثائرة ناصر ، ونال اقتراح روزفلت موافقته ، وقرر أن يرجىء اتخاذ أي ردود فعل قاسية حتى يرى بأم عينه الانذار بين يديه ٠ الا أنه أصر على حذف ذاك المقطع « المدلل » من خطابه ٠

ومع أن خطاب ناصر (الذي ألقاه في متخرجي الطيران) كان ملطّفا قدر الامكان نظرا لما احتواه من أنباء مثيرة ، الا أنه خلا كليا من أية ايماءات وجل الدولة التي كنا نحرص على وجودها في سياق الخطاب ، مثل تخفيف حدة التوتر مع اسرائيل ٠ وعندما حان وقت القاء ناصر لخطابه ، كانت الاسوشيتدبرس وهيئة الاذاعة البريطانية ، قد أذاعتا كثيرا من أخبار صفقة الاسلحة الروسية (أو التشيكية) الى الحد الذي لم تتركا لناصر أية فرصة لاعلان أخبار جديدة على الشعب ٠ وكل ماتبقى لناصر أن يقوله هو : « نعم لقد قبلت أسلحة روسية (أو تشيكية) فما عساهم أن يفعلوا !؟ » ولم يأت الخطاب على ذكر أن الهدف من شراء الاسلحة هو دفاعي محض ، بل تركه مبهما ٠ وعندما قابلنا أنا وروزفلت ناصرا بعد الانتهاء من خطابه ، خرج عن صمته وقال : « لم يكن ذلك ما رغبتما به تماما ، الا أنه لا يزال أمامنا متسع من الوقت » ٠

وفي صبيحة اليوم التالي ، وصل جورج آلن الى القاهرة وذلك بعد ساعة تقريبا من استلام رجال السفارة لبرقية من واشنطن تقول : « احجزوا له جناحا في الفندق » ٠ واحتشد عدد غفير من رجال الصحافة والمراسلين في مطار القاهرة ، وكان بينهم بايرود ومساعدوه ٠ والتقط المصورون له صورا عديدة وهو لا يزال على سلم الطائرة ، كما التقطوا صورا أخرى لبايرود وآلن وهما يتصافحان ، وكذلك لآلن وهو يصافح موظفا مصريا بسيطا من موظفي التشريفات ٠ واحتشدت الجموع على شرفات المطار وهي تهتف بشعارات معادية للامريكيين ٠ وكان المنظر بكل عناصره يؤلف مسرحية مؤثرة تخفي وراءها نفسية التحدي الناصري بالصورة التي يطرب لها العرب ويعشقونها ٠ وقبل أن يتمكن أي مراسل من الاقتراب من آلن ليطرح عليه بعض الاسئلة ، تسلل حسن التهامي من خلال حزام حرس البحرية الامريكية المضروب حول آلن وسلمه مذكرة من روزفلت وجونستون مكتوب فيها :

« لا تعترف بالانذار ، أو على الاقل لا تأت على ذكره حتى نلتقي معا ونتباحث بشأنه » .

وبعد نصف ساعة من الزمن عقد اجتماع في مكتب بايرود ضم كلا من روزفلت ، وأريك جونستون ، وجورج آلن ، وبايرود ، ولويس جونز (مساعد بايرود) وأنا . لقد أرسل الوزير دالس آلن الى القاهرة ، وبصورة رئيسية ، لاستبدال بايرود المخبول . الا أن هذه الفكرة قد أصبحت الان غير ذات بال : فها هو بايرود في مكتبه يترأس اجتماعا يحضره على الاقل ثلاثة من كبار موظفي واشنطن في آن واحد ، وهم كيرميت روزفلت وجورج آلن وأريك جونستون . ثانيا ، ان الستار الذي أسدل على الانذار قد حجب كل شيء آخر الى الحد الذي لم يتمكن روزفلت وجونستون أن يفهما المقصد الحقيقي من زيارة آلن . وبقي الأمر هكذا حتى انعقد لقاء سري بينهم بعد بضع ساعات . ثالثا ، لقد تجاوز رد فعل العالم العربي لانباء صفقة الاسلحة الروسية أسوأ الحدود التي توقعناها ، وأصبح بحد ذاته مسألة لا تقل أهمية عن الصفقة نفسها . وكان سبب كل ذلك تلك البرقية التافهة التي أرسلها روزفلت وجونستون قبل يوم واحد ، والتي سماها الاثنان فيما بعد « برقية منتصف الليل اللعينة » .

ولا ازال أذكر تماما تلك الدمدمة التي أحالت ذلك الاجتماع بين كبار موظفي واشنطن الى مجرد « لعبة صينية » لا يفهم أحد لغة أطرافها . لقد كنت تسمع : « لقد دفعتم بناصر الى احضان الشيوعيين » ... « لو أنكم سمعتم من الكونغرس ما سمعته أنا منه » ... « انها غير مثمرة » ... « والان أين تقف المصالح الامريكية في خضم هذه الاحداث ؟ » ... « في هذه اللحظة المناسبة » ... « انها ايماءة رجل دولة » . ومع أنني أكنّ احتراما فائقا لذكاء جورج آلن ورجاحة عقله ، الا أنني على استعداد لاقسم يمينا على أنه قال : « لماذا لا نناشد ناصرا باسم شعبه ؟ » فكان جواب روزفلت انه خير لنا « أن نرقص تحت المطر » ، وغادر الاجتماع ليلعب التنس . وأما أريك جونستون ، الذي اعتاد أن لا يتكلم الا بعد أن ينهي الجميع كلامهم وهو مستمع لهم وناصت ، فقد قال : « ان القضية لا تزال كتلك التي سمعنا بها قبل شهر من الزمن حول الاسلحة الروسية ، سوى أننا الان بتصرفاتنا الرعناء هذه نساهم فعلا في نفخ اخبارها

وتضخيم انبائها • وهذا ما يريدنا ناصر ان نفعله تماما • اذا كان الانذار ينطوي على أية تهديدات فباستطاعتنا تقديمه مهما كانت العواقب • واذا لم يكن كذلك فدعونا ننساه نهائيا » • وهكذا انفض الاجتماع الذي انسحب روزفلت منه قبل قليل •

وكان هناك « انذار » ، وهو جدير بالقاء نظرة عليه هنا • فلقد أعد ذاك « الانذار » على جناح السرعة ، ونتيجة لامر من الوزير دالس ــ وأي أمر ذاك ! ولعلمي ، فقد التفت الوزير دالس لآلن وقال له :

« يا آلن ، لما كنت الى القاهرة ذاهبا ، فهل تتكرم بانتهاز الفرصة لتعرج على ناصر ، وتقص عليه مايدور بخلدنا حيال صفقة السلاح ؟ »

والتفت الوزير الى موظف اخر اسمه « بيل » وقال له :

« هل لك يا « بيل » في أن تضع لنا بعض رؤوس الاقلام حول هذا الموضوع ؟ » •

ومع أن آلن قد استحسن تقليل روزفلت لاهمية الانذار في حديثه مع ناصر الليلة التي سبقت وصوله ، الا أنه لم يكن له الخيار ، وكان عليه أن يبلغ « انذار دالس » •

وكان الوضع يتطلب بالتأكيد التقايل من شأن ما أرسله دالس ، وليس اظهاره مظهر الجد والاصرار • فعندما ذهب آلن للقاء ناصر، لم يحاول الاول أن يقرأ بصوت مسموع أكثر من بضع فقرات من الانذار • ثم انتقل آلن الى استعراض أمور أكثر طرافة وأسلس حديثا (بدل تصعيده لحدة التهديد كما توقع ذلك ناصر) • وكان من بينها استفهامه من ناصر حول « الطرق التي تنوي حكومة ناصر أن تنفق فيها الاربعين مليونا من الدولارات » (التي نالتها من الحكومة الامريكية كمساعدات اقتصادية قبل عقد ناصر لصفقة السلاح ، وما منعت عنه كعقاب له على شرائه أسلحة السوفييت) •

وأظن أن هذا هو كل ما يتعلق بالموضوع ، موضوع صفقة السلاح • لقد امتلأ قلب ناصر سرورا لتطورات الامور وتعاقب الاحداث • وفرح بصفقة السلاح التي لم تلق اية معارضة حقيقية منا • وفرحت جماهير الشعب بها على

عادتها • وخدمت مسرحية « الانذار » المزعوم تسلسل الاحداث : ناصر يقف ضد الانذار ، والجماهير تؤيد ناصرا في موقفه هذا • لقد فرح ناصر بكل هذا طبعا ، الا أن فرحته قد بلغت الذروة عندما علم في النهاية « أنه ليس هناك أي انذار على الاطلاق » • ولم يكتف ناصر بهذه اللعبة التي رفعت من قيمة أسهمه في العالم العربي (الى جانب منافع الاسلحة) ، بل بذل قصارى جهده لافراغها في قالب مسرحي ولاخراجها مفعمة بالحركة والشعور • وكان ذلك ـ وذلك كله ـ بمساعدتنا •

لقد تمكن ناصر من الاحتفاظ باستقلاله بعد حصوله على السلاح الروسي(١)، ولم يفقده أمام السوفييت • وهكذا فقد وضعنا أمام أمرين لا ثالث لهما : اما أن ندعه لقمة سائغة للسوفييت ، او نحاول كسبه الى جانبنا ثانية • وبعد انتهاء تلك المسرحية التي كان عمادها جورج آلن « وعطلته الاسبوعية الضائعة » (كما اتفقنا على تسميتها فيما بعد) كان الطريق أمامنا واضحا لا غموض فيه : لقد ارتضينا حياده الايجابي ، بل ولقد شاركنا في ولادته •

---

(١) ان نوعية السلاح الذي حصل عليه ناصر ليس بتلك الاهمية التي تفقده استقلاله معها • ولا تزال روسيا للآن تمنع عن العرب (بشهادة ناصر نفسه) الاسلحة الفعالة التي تمكن العرب من مواجهة اسرائيل حقا • ولكن ما فائدة كلامنا اليوم والاعتراف باسرائيل رسميا أصبح على الابواب ؟! (المعرب)

- ٨ -

ناصر واتحاد "المحايدين الايجابيين"

... فان كانت كل تلك المغانم نتيجة جهد لاعب ضعيف لوحده ، فالمغانم أعظم « لاتحاد » من اولئك الضعفاء ...

الحياد الايجابي ـ أو حرية التقرير ، أو ما شئت أن تسميه ـ لم يكن من أهداف ناصر فحسب ، بل كان استراتيجيته العليا · ففي عام ١٩٦٥ نظم بيتر مانسفيلد قائمة بقروض مصر الاجنبية وتسهيلات الدفع الممنوحة لهـا · وتأكدت كل من وزارة الخارجية الامريكية ووزارة الخارجية البريطانية من أن الارقام صحيحة تماما ، وان كان هناك أي شك فهو ـ على الاقل ـ لا يزال قيد المناقشة · والقائمة ، مع مجموع الديون ، مبينة هنا ، على أساس أن قيمـة الجنيه المصري تعادل ٣٠ر٢ دولارا ·

● **من الدول الشيوعية :**

الاتحاد السوفياتي	٣٣٢ر٥	مليون جنيه مصري
تشيكوسلوفاكيا	٦٢ر٠	مليون جنيه مصري
ألمانيا الشرقية	٤٥ر٠	مليون جنيه مصري
بولنـــدا	٢٤ر٤	مليون جنيه مصري
المجر (هنغاريا)	١٢ر٠	مليون جنيه مصري
يوغوسلافيا	٧ر٠	مليون جنيه مصري
المجموع	٤٨٢ر٩	مليون جنيه مصري

● **من الدول غير الشيوعية :**

الولايات المتحدة	٥٣٥ر٦	مليون جنيه مصري
ألمانيا الغربية	٩٣ر٠	مليون جنيه مصري
ايطاليـا	٩٢ر٩	مليون جنيه مصري
اليابان	١٧ر٠	مليون جنيه مصري
فرنسا	١٠ر٠	مليون جنيه مصري

بريطانيا	٤ر٥	مليون جنيه مصري
هولاندا	٠ر٥	مليون جنيه مصري
سويسرا	٠ر٤	مليون جنيه مصري
السويد	٣ر٣	مليون جنيه مصري
وغيرهم	٣ر٦	مليون جنيه مصري
المجموع	٥ر٧٧٢	مليون جنيه مصري
● البنك الدولي :	٧ر١٩	مليون حنيه مصري
● هيئة التمويل العالمي	٠ر٣٦	مليون جنيه مصري
المجموع الكلي	١ر١٣١١	مليون جنيه مصري
	٥٣ر٣٠١٥	مليون دولار تقريبا

وعلاوة على المنافع المالية ، فهناك مساعدات تقنيـــة وهبات لتجهيزات صناعية ومساعدات غذائية • كما أن الولايات المتحدة وغيرها باعت مصر غذاء يسدد ثمنه بالجنيه المصري ـ العملة المحليـــة • وحصل ناصر على تجهيزات عسكرية من السوفييت يقدر ثمنها بخمسمائة مليـــون من الدولارات • ولو رضي ناصر أن يقف في الصف ينتظر دوره ـ كما أراد الوزير دالس ـ لبقيت كل الارقام السابقة مجرد احلام ، وما كان ليحصل يومها على أكثر من اربعين أو خمسين مليونا من الدولارات سنويا من الولايات المتحدة وبريطانيا ودون أي شيء من السوفييت • كماأنه كان سيبقى دون اية مساعدات عسكرية ما كان ليطول بقاؤه على رأس نظام حكمه في مصر بدونها • وهكذا فقد سلك ناصر طريقا عاد عليه بعشرة أضعاف ما عرضناه عليه وقتئذ •

وأول ما نذكر في معرض حديثنا عن استغلال ناصر لفكرة الحياد الايجابي وانتسابه الى « رابطة المتسولين ، جابي المساعدات » (كما سماها المسؤول الاقتصادي في سفارتنا في القاهرة) هو الوقت الذي أثيرت أثناءه مشكلـــة المساعدات الاقتصادية البالغة اربعين مليونا من الدولارات • ففي اللقاء الذي جرى بين ناصروالوزير دالس في أيار (مايو) ١٩٥٣ كان الانطباع السائد عند ناصر آنذاك أن قيمة المساعدات الاقتصادية التي نفكر بها لا تقل عن مائة مليون

دولار ، وأن قيمة المساعدات العسكرية لا تقل عن هذا الرقم أيضا ·
كما كان يظن ناصر أن كل ما يقتضيه فعله للحصول على كل ذلك هو التوصل الى اتفاق مع بريطانيا حول قاعدة قناة السويس · واعتقد ناصر أنه غير ملزم بالانتظار حتى يوقع الاتفاق بل كان كافيا يومها أن يبرهن المصريون على حسن نياتهم واخلاصهم أثناء سير المفاوضات ، وأن يغدو التوصل الى الاتفاق وشيكا · وبناء على هذا سافر علي صبري (وكان أخلص أصدقاء الامريكيين في مجلس الثورة آنئذ) الى واشنطن لمساعدة الملحق العسكري المصري ، عبد الحميد غالب ، في المفاوضات · وقد أصبح علي وعبد الحميد من خصومنا فيما بعد لاعتقادهما أننا اتبعنا معهما أسلوب المراوغة في موضوع المائتي مليون دولار التي وعدنا بها ناصر على شكل مساعدات عسكرية واقتصادية · وهكذا انقلب اثنان من المسؤولين المصريين (أحدهما بقي نائبا لرئيس الجمهورية لمدة قريبة ، والآخر أضحى مساعدا لوزير الخارجية) الى عدوين لدودين لنا ، نتيجة شعورهما بالمذلة والمهانة أثناء المفاوضات في واشنطن والذي أخفقنا في التخفيف من حدته حتى الآن ·

لقد وقعت وزارة الخارجية يومها في حيرة وارتباك · فقد لمس صبري وغالب من كل المسؤولين الذين التقوا بهم في واشنطن برهانا على صدق انطباعاتهما حول المائتي مليون دولار التي وعد دالس بها ناصرا · وعانى السفير كافري كذلك من ارتباك شديد حيال حديث ناصر عن المساعدات الامريكية · فقد شعر كافري أن كلام ناصر فيه كثير من الصدق ولم يستبعد أن يكون لسان الوزير دالس قد زلّ على مائدة الطعام ووعد ناصرا بمبلغ المائتي مليون دولار ، دون أن يصل ذلك الى أسماع كافري أو مساعديه · وفي أحد أيام الصيف طلب مني كافري أن أقوم بزيارة ناصر لسؤاله ان كان بمقدوره اعارتنا « مذكراته عن المحادثات » مع دالس · وعندما التقيت بناصر اقتضى الامر أن أشرح له لعدة دقائق ما أعني بعبارة « مذكراته عن المحادثات » ، فهو لم يعهد من قبل أشياء كهذه . ومنذ تلك الحادثة ، ازداد ناصر دقة وتعقيدا وطفق لا يدع حديثا مع مسؤول مهم الا وسجله صوتيا من خلال الميكروفونات المخبأة في مكتبه وغرف الاستقبال وعرفة الطعام · فقد اعتبر تسجيل موظفينا لما دار في الاجتماع بينه وبين دالس مكرا وخداعا لان اللقاء كان سريا ، ولا يحق لاحد أن يدون ما

دار فيه • فناصر نفسه لم يحتفظ بأية مذكرة عن اللقاء ، ومن المدهش أن يكون دالس قد احتفظ بشيء من هذا القبيل •

ومن خلال حديث لاحق جرى بين ناصر والسفير كافري ، الى جانب حديثي السابق ، بدأت أميل للاعتقاد أن ناصر قد غفر لنا ما سماه « خطأ شريفا » ، الا أن علي صبري وعبد الحميد غالب لم يغفراه لنا • (أخبرني عبد الحميد غالب لاحقا أنهما قد عوملا معاملة الاطفال • فعندما ظنا أن الامر قد تم والموافقة على المائتي مليون دولار أصبحت جاهزة اذا بهما يفاجآن في اليوم التالي بأحد المسؤولين في وزارة الدفاع يخاطبهما وكأنهما « جنود أغرار » ، وبآخر من وزارة الخارجية يلقي عليهما درسا في « السلام والاستقرار » وكأنهما أغبياء) • وكان جل هم ناصر أن يعرف : « حسنا ، وماذا ستكون حصتنا منكم، أيها الامريكيون ؟ » •

وفي أثناء أحد الامسيات التي أمضيتها مع ناصر في حديقته ، وبحضور حسن التهامي ، حاول ناصر أن ينتزع مني جوابا عن سؤاله السابق ، لكنه لم يجد لهذا سبيلا • فقد كان محظورا علينا ــ نحن المواطنين غير الرسميين ــ حسب مرسوم « لوجان » أن نحاول التأثير على تفكير أي من رؤساء الدول الاخرى فيما يتعلق بعلاقاتهم مع حكومة الولايات المتحدة وتوجيهها وجهة معينة • ولهذا فليس من مهمتي أن أجيبه على سؤال كهذا • كما لم أشأ احراج السفير كافري وازعاجه • الا انني قلت لناصر . « كنت أفضل أن تقتصر المطالبة على عشرين مليونا من الدولارات ، ولا مانع من أن أرفق بها المشاريع المزمع تنفيذها بهذا المال • ومتى وضعت تلك المشاريع موضع التنفيذ ، فسأطالب بغيرها » • ومع أن ناصرا لم يبد أي تأثر بكلامي هذا ، فقد انفجر حسن التهامي غاضبا وقال : « انني لا أرغب بالبقاء هنا حتى لا أسمعك توجه الشتائم لرئيس جمهوريتي تحدثوننا بالمائتي مليون ثم تمنحوننا عشرين مليونا كصدقة علينا أن نستجديها منكم ! » • الا أنني لم أجبه بشيء ، وفضلت الصمت على الكلام • وغادر ناصر المجلس الى فراشه ، وعدت الى المدينة مع حسن التهامي بدون أن ينبس ببنت شفة طوال الطريق • الا أنه ودعني عندما وصلت الى منزلي بكلام ساخر وقال : « لن يمضي زمن طويل حتى تستجدوننا لقبول المائتي مليون دولار ! » • الا

ان ذلك لم يحدث قط ، بل العكس قد حصل ٠

وفي صبيحة اليوم التالي ، أسرعت لاقص على كافري حصيلة ما حدث معي في الليلة الفائتة ٠ واستحسن كافري ما فعلته من ذكر العشرين مليونا كرقم معقول طالما كان ذكره نتيجة تخمين مواطن « غير رسمي » ٠ الا أن كافري عزم على أن يطالب وزارة الخارجية بمضاعفة العشرين مليون دولارا ، ثم زيادتها عشرة أخرى ، تحسبا لما قد يطرأ عليها من نقصان ٠

وفعلا ، فقد حدث ما توقعه كافري ٠ فوزارة الخارجية لم تمنح ناصر أكثر من اربعين مليونا من الدولارات ، مع أن طلب كافري كان خمسين مليون دولار ٠ (لقد أخبرني بعض أصدقائي في وزارة الخارجية أنهم أنفقوا وقتا طويلا ، وبذلوا جهدا كبيرا ، قبل أن يقعوا على الرقم « اربعين » ٠ ولم يكن ذلك مجرد صدفة كما ظننا نحن في القاهرة ٠ لقد قال لي أحدهم ان الكونغرس ما كان ليوافق على أي مبلغ يتجاوز الخمسين مليون دولار ، ونظرا لان رقم تسعة وأربعين مليون دولار سيبدو على أنه السعر الادنى للمساومة ، فاننا تمسكنا برقم الخمسين مليون دولار الذي قدّمه كافري لنا ٠ الا أننا خفضناه قليلا بعد أن شعرنا أن كافري قد وضع دسما زائدا فيه) ٠

وخضت غمار كثير من المجادلات والمناقشات في تلك الايام ، الا أنني كنت دائما أبدأها متنصلا بقولي : « هذا ليس من اختصاصي ، ولكن ٠٠٠ » ٠ فلقد جعلت مني تلك الظروف الوسيط المناسب « وغير الرسمي » بين ناصر وكافري ٠ وتقديرا لمصلحتي على المدى البعيد فقد تجنبت المساهمة في الصفقات الفاشلة ٠ وكان اعتقادي أن ما قدمناه لناصر من مساعدات لا يكفي لاقامة علاقات وطيدة معه ٠ ولا أجد مانعا هنا من أن نستعرض معا كيف تم تقديم المبلغ له ٠ ففي أثناء زيارة قصيرة لي الى نيويورك في أواخر صيف ١٩٥٣ ، التقيت ببايرود (وكان يومها مساعد وزير الخارجية) واتفقت معه على أن نوضح لناصر أن مبلغ الاربعين مليون دولار هو « دفعة على الحساب » ومعرض للزيادة (أو النقصان) بناء على الطريقة التي سيستثمر فيها وعلى النتائج التي سيعطيها ٠ وأفلحت في اقناع بايرود باضافة مبلغ آخر لاستعمال ناصر الشخصي ، وللاستعانة به في اتخاذ تدابير أمن استعدادا لمواجهة مصاعب

جديدة بدأت رياحها تلفحه من الداخل (كان هذا عام ١٩٥٣) · كما طلبت من بايرود أن تقوم حكومة الولايات المتحدة بتقديم سيارة « كاديلاك » مصفحة الجدران كهدية لناصر ، وترسل له أيضا خبيرا في المباحث ليشرف على تنظيم الحرس الخاص بناصر ، وتزوده بأجهزة انذار خاصة لحماية منزله وأخرى لاستخدامها في السيطرة على أعمال الشغب والمظاهرات ·

ومع أن اقتراحاتي هذه قد لا تسترعي انتباه القارىء الان الا أنها كانت يومها ضرورية ومعقولة · وقد استحوذت على اهتمام بايرود الذي اعتبر معلوماتي عن الوضع معلومات من الدرجة الاولى ، وباشر في انجاز الاقتراحات جميعا · ورأى بايرود أن مبلغا لا يتجاوز الثلاثة ملايين دولار يمكن تسليمه لناصر نفسه يدا بيد ، وبسرية تامة ، بعد اقتطاعه من مخصصات رئيس الجمهورية الامريكية مباشرة · ويمكن لوكالة المخابرات المركزية أو مكتب المباحث الفيدرالية انجاز ما يلزم من ترتيبات الامن وضروراتها · وهكذا ارتفعت قيمة المساعدة الى ثلاثة وأربعين مليون دولار ، تدفع الاربعون منها حسب الانظمة المرعية كمساعدة رسمية ، وتسلم الثلاثة الباقية سرا ودون أي مستند ، وتقتطع من ميزانية رئيس الجمهورية · ثم يقرر ارسال خبير الامن السري ، وأجهزة الحماية وأدوات السيطرة على المظاهرات والشغب بعد أن تستكمل الخطوة الاولى ·

أما الملايين الثلاثة من الدولارات ، التي سلمت من دون ايصال ولا مستند، فقد كادت أن تبقى سرا ـ لولا هذا الكتاب ـ يحير الباب علماء الاثار عام خمسة آلاف بعد المسيح كماتحير أهرامات مصر الباب علماء الاثار في يومنا هذا · وأعني هنا تلك التحفة المعمارية الرائعة المتمثلة في « برج القاهرة » الذي يفوق في ارتفاعه ارتفاع أهرامات الجيزة ، ويضفي على منظر منطقة الجزيرة المقابلة لفندق هيلتون عبر النيل (في القاهرة) منظرا رائعا · كما يبدو للمشاهد على بعد أميال من القاهرة وهو لا يزال محلقا في طائرته الضخمة قادما من أوروبا أو افريقيا أو آسيا ·

عندما استلم السفير كافري رسالة بخصوص الثلاثة والاربعين مليونا من الدولارات ـ أو بالأحرى الاربعين مليونا بالاضافة الى الملايين الثلاثة ـ اعتبر فكرة تقديم أية منحة شخصية لناصر غير حكيمة ، وان كان لا بد منها فليس

هناك غيري ليسلمها له ٠ وقام كافري في اليوم التالي بزيارة وزير الخارجية المصري الدكتور فوزي ليطلعه على أمر الاربعين مليون دولار بدون أن يشير الى الملايين الثلاثة من قريب أو من بعيد ٠ وأثارت ردود فعل كافري تجاه المنحة الشخصية لناصر شكوكا متزايدة في نفسي ، وفضلت عندها القيام أولا بزيارة لحسن التهامي للبحث معه في الامر ، وأخبرته « بأن حكومة الولايات المتحدة لا تلزمكم بقبول هذا المبلغ ، الا أنه جاهز للتسليم وهو رهن اشارتكم » ٠ وأجابني حسن التهامي (وكان يومها رئيس الحرس الخاص لناصر ، وهو الذي تصدى للذين حاولوا اغتيال ناصر في تلك الفترة وأطلق عليهم الرصاص ، وقد ذكر ناصر هذا في كتابه فلسفة الثورة) قائلا : « اننا ـ بدون شك ـ سنجد طريقا لانفاقها ، ولا مانع من أن نرى كيف تبدو تلك الدولارات ببريقها ! » وهكذا فقد تأكدت من موافقة ناصر على استلام الملايين الثلاثة سرا ٠ وعندما أخبرت كافري بهذا أجابني ساخطا بأن الملايين الثلاثة قد وصلت صباح ذلك اليوم نفسه نقدا بصحبة رسول خاص من بيروت ، وبعد مشاورات مقتضبة مع رجال السفارة ، أخبرني ضابط الامن فيها أن اصطحابي لاي رجال مسلحين للحراسة سيثير كثيرا من الشكوك ٠ وكان منزل حسن التهامي يقع في ضاحية المعادي ويبعد خمسة أميال عن وسط المدينة ٠ وهكذا آثرت التوجه الى هناك دون حراسة ولكن بصحبة أشقى سائقي السيارات في القاهرة ، سالكين الطريق الريفي الوعر ، وبرفقتنا الملايين الثلاثة من الدولارات مدسوسة في محفظة سفر بين حوائج منزلية أوصتني زوجتي أن أبتاعها لها من محلات « كروبي »

استقبلني حسن في منزله في المعادي ـ وكان محاطا باثنين من رجال الامن المصريين ـ دون أن يظهر أي شعور بالانفعال أو الاهتمام ٠ وأحصينا المبلغ مرتين بعناية ، فوجدناه أقل بعشرة دولارات عن الملايين الثلاثة ٠ وعلق حسن على ذلك قائلا : « حسنا ، لن نتشاجر بسبب الدولارات العشر » ، ثم ما لبث أن استقل سيارة مرسيدس ضخمة وغادر المنزل مع حرسه قاصدا منزل ناصر في الطرف الاخر من القاهرة ٠

وعلى حد قول حسن التهامي ، فقد فكر ناصر فيما بعد باعادة المبلغ الينا كما فكر بفضح النبأ أمام الرأي العام وتصويره على أنه رشوة (كما فعل رئيس

وزراء سنغافوره بعد سنوات عندما أعطي نفس المبلغ بظروف مماثلة) . ومع أن شعورا بالانزعاج والراحة معا قد خالج ناصر ـ كما خالج أيضا السفير كافري ـ الا أن ناصرا لم يكن من ذاك النوع من الرجال الذي كان منــه رئيس وزراء سنغافوره . واقترح حسن التهامي أن ينفق المبلغ على تشييد بناء بشكل أبي الهول مؤلف من تمثالين ضخمين ، ويقام على شاطيء « الجزيرة » المطل على النيل في مواجهة المكان الذي كان معدا لتشييد أوتيل هلتون عليه . وكان الجــزء الخلفي من البناء على شكل رأس ضخم ذي أنف كبير متطاول ، في حين كان الجزء الامامي عبارة عن كف يد بحجم يتناسب وضخامة الرأس . ويتجه ابهام الكف نحو الأنف في حين ترتفع الاصابع الاربعة الباقية عاليا في السماء . ومع أن ناصرا قد استحسن الفكرة الا أنه لم يعثر على مغزى لها . واقترح ناصر شيئا آخر صعب الوصف وأكثر ضخامة من الفكرة السابقة الا انه باهظ التكاليف وأكثر اثارة للناظر وصمودا أمام عوامل الطبيعة . وتمخضت كل تلك الاقتراحات عن بناء « برج القاهرة » الحالي الذي يشاهده الامريكيون أصدقاء المصريـين كلما أطلوا من شرفات غرف أوتيل هلتون وهم يتناولون طعام الافطار .

ولم تصل أنباء الاقتراح الى واشنطن الا متأخرة . فتصميم وتشييد برج بمثل هذه الضخامة يستغرق وقتا غير قصير ، حتى ولو كان مجرد برج بدون فائدة ترجى أو منفعة تجنى ـ كما أعرب حسن التهامي مرة عن رأيه فيه ، الا أن كيرميت روزفلت قد استطاع الحصول على أنباء الاقتراح قبل أن تحصل عليها الحكومة الامريكية بعدة أشهر وذلك من تقرير رفعه له أحد عملاء وكالة المخابرات المركزية المندسين في هيئة مساعدي ناصر نفسه . وقد زعم ذلك التقرير أن أعوان ناصر أخذوا يشيرون الى البرج على أنه « وقف روزفلت » ، في حين أن روزفلت نفسه الذي كان في طليعة المتحمسين لموضوع الملايين الثلاثة مــن الدولارات ـ وذلك لاسباب تتعلق بما كان يحيكه من ألاعيب ـ قد وجد نفسه يواجه موجة عارمة من اللوم والتأنيب للطريقة التي ستنفق الملايين الثلاثة فيها . وأخيرا تسربت أنباء البرج في تموز (يوليو) ١٩٥٥ ، وذلك بعد ثمانية أشهر من دفع المبلغ لناصر ، (أو بعد شهرين من مشروع حسن التهامي وبنائيه في تشييد البرج ، أو قبل ثلاثة أشهر من وصول آلن الى القاهرة واضاعته لعطلة الاسبوع ، وفي نفس اليوم الذي وصلت أنباء صفقة السلاح الروسية ـ التي

كانت على وشك التنفيذ ـ الى وكالة المخابرات المركزية)

وفي أوساط وزارة الخارجية ، أثارت هذه الانباء موجة أخرى من اللـوم لروزفلت لظنه أن ناصرا مغفل وساذج ٠ كما تصدى أصدقاء ناصر لروزفلت واعتبروا الملايين الثلاثة محاولة لرشو ناصر ، الا أنهم غفروا له ذلك بعد تفاديها بتدبير انتقامي معاكس ٠ أما ناصر ـ وهو أدهى أصحابه ـ فقد عاتب روزفلت على فعلته تلك لانه كان ـ على الاقل ـ مدركا لاهداف روزفلت البعيدة ، والتي كانت وراء اقناع الحكومة الامريكية بدفع الملايين الثلاثة كتحد لناصر نفسه ٠ ومع أن روزفلت لم يعتبر الملايين الثلاثة على أنها منحة منه لناصر ، الا أنه اقتنع ان تصميم ناصر على اقامة برج بالمبلغ المذكور يخفي وراءه ادراك ناصر للطريق التي بدأت « لعبة الامم » بسلوكه معه ، ولهـذا فقد ترك ناصـر أنباء « وقف روزفلت » ـ البرج ـ تتسرب عن عمد وسابق اصرار ٠

لقد أثارت سياسة المساعدات المتاعب لكلا الجانبين ٠ فقد اعتبر ناصر وضباطه أن قيمة المساعدات غير كافية ، في حين اعتقد رجال الكونغرس وعدد من مسؤولي وزارة الخارجية أنها أكثر مما يجب ٠ ومهما كان فلقد أعادت الطريقة التي قدمت بها المساعدات الى ذاكرة ناصر القاعدة القديمة القائلـة : « لا يوضع الشحم الا على الدولاب الذي يحدث صريرا » ٠ ولم يكن يدرك حقيقة هذا الا ناصر نفسه وزوج من الديبلوماسيين الامريكيين ، ولم يمض زمن طويل حتى أدرك ناصر أنه لا مساعدات بدون صرير ، ولا منافع بدون ضجيج ، وأنه كلما زاد الصرير ارتفاعا والضجة حدة كانت العوائد أكثر ، شريطة أن لا ينفذ كل ذلك الى خارج حدود « الاسطورة » ، أو يفلت من قيودها ٠

ولم تكن وجهة النظر الامريكية تجاه هذه المساعدات لناصر غامضة مبهمة ، بل كانت واضحة محددة ٠ فلا أزال أذكر ما حدث لاحد موظفي وزارة الخارجية الامريكية عندما كان يطوف على مختلف دوائرها حاملا بيده مشروع منح ناصر مساعدات أخرى ٠ فقد قال له أحد كبار المسؤولين في الوزارة وهو يمهر مسودة المشروع بتوقيعه : « اننا لن نواجه أية مصاعب ومتاعب مع ناصر لو أنه يهتم بشؤون بلاده فقط ويقلع عن التدخل في أمور الدول الاخرى » ٠ ولقد قال المسؤول رأيه هذا وهو يوقع مسودة المشروع دون أية ممانعة أو تسويف ٠ ومع

أن تدخل ناصر في شؤون الدول الاخرى في منطقة الشرق الاوسط قد ازداد ، وازدادت معه متاعبنا ، الا أنه من الواضح جدا أن مساعداتنا له لم تتوقف على الاطلاق ، بل على العكس من ذلك ، قد ازدادت باطراد ٠ لقد كنا سعداء جدا أن نرى ناصرا في المستقبل يتوجه في تمثيل أدواره على مسرح الاحداث العالمية بدافع من التحامنا معه ومساعداتنا له بدلا من الوعود الخلابة والعهود المعسولة ٠ ولم يكن ناصر عن هذا ببعيد ٠ فقد فهم بذكائه الحاد مرامينا ، ولم نفشل معه الا قليلا ٠

وبغض النظر عن كافة تصريحات الوزير دالس وغيره من المسؤولين في الحكومة الامريكية حول فكرة « الحياد اللاأخلاقية » فالحقيقة أننا كنا متأثرين بفكرة حياد ناصر أكثر من تأثرنا بفكرة صداقتنا مع شاه ايران ، أو الرئيس شمعون في لبنان ، أو الملك حسين في الاردن ، أو الامبراطور هيلاسلاسي في اثيوبيا ـ مع الاعتذار لذكر الاسماء ٠ لقد دهش ناصر لسذاجة هؤلاء الحكام بقدر ما كانوا هم أنفسهم يدهشون لسلوكنا وسياستنا ٠ لقد أدرك ناصر ردود فعلنا بنفس الطريقة التي كان يتصرف بها كلب العالم النفساني بافلوف * عندما كان يسمع الجرس يقرع له ٠ وبصفته زعيما لدول عديدة انضمت الى « اتحاد المحايدين الايجابيين » فقد أدرك ناصر أن بامكانه خلق ردود فعل عندنا ذات مغانم أوفر وعائدات أكثر ٠ فدخول عامل واحد الى مكتب رب العمل مطالبا اياه بزيادة أجره وتخفيض ساعات عمله لا يتمخض الا عن طرد العامل من المكتب ٠ الا أن ذلك العامل سيكون موضع احترام عندما يتكلم نيابة عن مجموعة العمال ٠ وعلى مثل هذه القواعد التي ارتضيناها « نحن » لانفسنا تعتمد طبيعة « لعبة الامم » ٠

وهكذا كان يفكر ناصر ، بل واظهرت ذلك أرقام المساعدات الامريكية له ، وبصورة صحيحة تماما ٠ واعتقد ناصر أنه في الوقت الذي تصاعد ضغط « اتحاد المحايدين » على مصادر المساعدات الاجنبية الرئيسية ـ وهي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ـ بصورة حسابية بسيطة ، فقد تضاعف ضغطه

* اعتاد الكلب ان يتناول الطعام بعد ان يقرع بافلوف له الجرس فاصبحت معدة الكلب تفرز العصارة الهاضمة حال سماعه الجرس يقرع ٠ (المعرب)

عليها بصورة هندسية مركبة . وعلى سبيل المثال ، فعندما كان ناصر يضمن تأييد المصريين لوحدهم له ، كانت قيمة المساعدات التي يتقاضاها منا لا تتجاوز جدلا « س » . وعندما يضمن تاييد العالم العربي له فالنتيجة أحسن ، والقيمة تتضاعف وتغدو « س^{٢} » (س مربع) . وفي حال وقوف العالم الاسلامي معه فانه يحصل على مساعدات تبلغ « س^{٣} » (س مكعب) . وعند مؤازرة الدول غير الغربية له (الافريقية والآسيوية) ، فانه يحصل على مساعدات قيمتها «س^{٤}» (مرفوعة الى القوة الرابعة) (١) . ولم نكن نشترط عليه أن يكون الناطق بلسان « جميع » الدول الافريقية والاسيوية ، أو « جميع » دول العالم الاسلامي ، بل كان يكفيه أن يبرهن لنا على أنه يملك زمام التأثير عليها حتى يتقاضى كامل أجره ومطلق تعويضاته . ولم نكن لنتفرد في سلوك مثل هذا الطريق لوحدنا بغية تنفيذ مآربنا ، بل كان السوفييت يشاركوننا في هذا أيضا . فكنا واياهم نفضل الاستعانة بناصر لتنفيذ سياستينا وتحقيق أغراضنا بدل الاستعانة بغيره من زعماء « اتحاد المحايدين » مثل نكروما أو سوكارنو أو بدل مباشرة ذلك بأنفسنا .

لقد تفوق ناصر على كل من نكروما وسوكارنو كما تفوق على غيرهما من زعماء « اتحاد المحايدين » أمثال نهرو وتيتو . ويعود الفضل في ذلك ـ كما وصفه فيليب تالبوت مساعد الوزير ـ الى كونه صعبا مع امكانية التحدث اليه والتفاهم معه .

وباستثناء ناصر ، فان أيا من زعماء « اتحاد المحايدين » لا يملك أي نفوذ أو تأثير خارج حدود اقليمه . فلم يكن ليخطر ببال الحكومة الامريكية أن تطلب من سوكارنو مثلا ممارسة نفوذه بغية التأثير على الدول الآسيوية التي تعطف على الشيوعية وحملها على انتهاج سياسة الحياد الايجابي . كما ان السوفييت أنفسهم لم يقتنعوا بصدق ميول سوكارنو الشيوعية حتى يرجوا مساعدته لهم في تعزيز أهدافهم في آسيا . الا أن ناصرا قد أفلح في اقناع الامريكيين والسوفييت بأن يستشيروه في شؤون كثير من الدول الافريقية والاسيوية مثل فيتنام

(١) لو افترضنا ان قيمة « س » هي عشرة دولارات فان س^{٢} = ١٠ × ١٠ = ١٠٠ دولار ، و س^{٣} = ١٠ × ١٠ × ١٠ = ١٠٠٠ دولار، و س^{٤} = ١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠ = ١٠٠٠٠ دولار .

واندونيسيا وسوريا بل ــ والى حد ما ــ اسرائيل نفسها · (ففي عام ١٩٦٢ وقبل تزويد اسرائيل بصواريخ هوك المضادة للطائرات قام الرئيس جون كينيدي بتوضيح القضية لناصر وحصل على موافقة منه على أنه لا يمكن للامريكيين أن يتصرفوا بغير تلك الطريقة ، وعلى الاقل في ذلك الوقت) · وقد صاح الرئيس جونسون في بعض ساعات غضبه قائلا : « ··· كنت أود أن يكون لنا سفير في القاهرة لا يفقه شيئا عن فيتنام ، بل ولا يدري أين موقعها من الخارطة » · الا أنه لم يمض على ذلك أسبوعان من الزمن حتى أرسل جونسون مبعوثه أفريل هاريمان الى القاهرة ليطلب من ناصر التدخل مع فيتنام الشمالية بغية اطلاق سراح بعض الطيارين الامريكيين الذين أسقطت طائراتهم هناك ·

وعندما يذكر ناصر في كتابه « فلسفة الثورة » أن مصر قد حظيت بنقطة تقاطع عوالم ثلاثة ، هي العالم العربي والعالم الاسلامي وافريقيا ، فانه كان يحاول وقتها أن يشيد صرح « الاسطورة » الوطنية · وعندما شرع ناصر في تطبيق استراتيجيته في ايجاد الكتل الدولية في « لعبة الامم » كان اهتمامه في النواحي الجغرافية أكثر من اهتمامه في توطيد نفوذه وزيادة فاعليته · ففي بعض الاحيان ، لم تكن كوبا لتقل أهمية عن الباكستان كحليفة متوقعة لناصر · كما أن بلادا كثيرة في افريقيا الغربية كانت أكثر أهمية عنده من بلاد افريقية مجاورة لمصر · وفي الحقيقة ، كان نفوذ ناصر « المزعوم » في تلك المناطق النائية من ضمن الاسباب التي دعت أحد الدبلوماسيين الامريكيين الى اعتبار ناصر من « العوامل التي علينا أن نحسب لها حسابا » أو بالاحرى الى اعتباره « موضة المستقبل » · ومن وجهة نظرنا ــ نحن الامريكيين ــ فان النفوذ « المزعوم » لا يقل أهمية عن الشكل الآخر من النفوذ « الموجود حقا » · أما ناصر نفسه فقد كان يفضل النفوذ « المزعوم » لانه كالطبل الاجوف ، صوته هائل ومرعب وباطنه أجوف فارغ · كما أن تشييد صرح النفوذ « المزعوم » أسهل بكثير وأقل كلفة من تشييد صرح النفوذ « الحقيقي » الذي غالبا ما يقوم على أسس راسخة وقواعد ثابتة · وبالتالي فان النوع الاول يجنب ناصرا كثيرا من الازمات والمآزق التي تثير له متاعب ومصاعب هو في غنى عنها ·

ومن ضمن تلك المآزق التي كان ناصر يصر على تجنبها ، « المسؤولية

الادارية » ٠ ان كثيرا من الكتاب المطلعين كالصحافيين والمؤرخين والدبلوماسيين الذين تقاعدوا ونشروا مذكراتهم قد أفاضوا في الكلام حول « أحلام ناصر لتأسيس امبراطورية في شمال افريقيا » أو « طموحه لحكم العالم العربي » ٠ وقد سمعت مرارا بعض المسؤولين في الحكومة الامريكية يرددون أن « ناصرا يسلك الطريق الخطأ لحكم العالم العربي ، ان كان يريد ذلك حقا » ، كما لاحظتهم ينظرون الى ناصر بعين الارتياح والسرور لانه « لم يحالفه الحظ في حملته لحكم العالم العربي » ٠ الا أن حقيقة الامر لا توحي بذلك ـ فمعظم الموظفين الامريكيين الذين سمحت لهم ظروفهم بالاحتكاك بناصر لفترات طويلة (أمثال كيرميت روزفلت وروبرت اندرسون ويوجين بلاك وتشارلز كريمنيز وكل سفرائنا في القاهرة) يميلون للاعتقاد أن ناصرا لا يطمح الى حكم العالم العربي أو الاسلامي أو قارة افريقيا ، كما أراد هتلر أن يحكم أوربا ، وان جل ما يريده هو توجيه سياستها الخارجية في مواجهتها للدول الكبرى ـ وكان ناصر يريد اقناع الغرب أنه لن يتمكن من عقد أية صفقات مع حكومات الدول الواقعة في مناطق نفوذه بدون التشاور معه أولا ، وأن ما يعقده الغربيون معه من اتفاقات فانما يعقدونها مع جزء من العالم أوسع من حدود مصر الاقليمية ٠ وهذا الموضوع يشكل المادة الرئيسية في حوار صراعنا مع ناصر ضمن مجال « لعبة الامم » ، والتي عادة ما تكون من النوع الذي « حاصل جمعه صفر مطلق » ٠ ولم يكن صراعنا مع ناصر صراع عقائد وأفكار بل كان حرب خطابات (شديدة أو مسالمة) ومقالات في الصحف (وكل ذلك جزء من « لعبة الامم ») ومنافسة بين ناصر الذي بذل كل جهده لتجميع الدول الصغيرة في منطقة نفوذه وبين اولئك الذين حاولوا أن يضموها الى مناطق نفوذهم هم ، مستغلين بذلك فكرة القومية العربية ٠ وتنطبق هذه الحالة على الصراع في العالم الاسلامي وفي مجموعة الدول الافريقية الاسيوية ٠

ومع أنها ستبدو غريبة ومتناقضة مع التطورات الاخيرة لاوضاعه السياسية، الا أن ناصرا فكر في البداية بايجاد هذا « التكتل الدولي » من خلال الاسلام وليس القومية العربية ٠ فالاسلام هو الدين السائد في الشرق الاوسط منذ عام ٦٤١ بعد الميلاد ، وهو ، في مفاهيمه الاساسية ، دين واضح بعيد عن التعقيد ، وذو جاذبية واغراء ٠ كما أن له رصيدا ضخما من الحضارة والثقافة

التي ـ مع بعض التعديلات الطفيفة ـ تشكل نداء مناسبا للوحدة التي كان يحلم بها ناصر • كما أن النجاح الذي حققته احدى الحركات التي تتبنى الفكرة الاسلامية وهي حركة « الاخوان المسلمين » والتي لم يحالفها الحظ أبدا ، قد أثبت لناصر فعالية النداء الاسلامي في حشد المتطوعين واخضاعهم لنظام صارم وتوجيههم الى أهداف شبيهة بتلك التي اختارها ناصر وارتضاها لنفسه •

الا أن حكومة الولايات المتحدة لم تكن مرتاحة للفكرة السابقة ، واقترحت على ناصر أن يظهر بمظهر « تقدمي » في العالم الاسلامي • ونقل له هذا الراي أحد موظفي وزارة الخارجية الامريكية الذي عرض عليه في الوقت نفسه رأي وزير الخارجية دالس بان يجعل ناصر من مصر « حصنا ضد الشيوعية » • وقد أخذ ناصر هذا الراي بعين الاعتبار في الوقت الذي كان دعاة العقيدة الشيوعية في حاشيته يتضجرون بصراحة من الفكرة القائلة « ان الاسلام عدو الشيوعية اللدود » ويرون أن اقتران الناصرية بالشيوعية يمكن أن يغدو « موضة المستقبل » ويحل محل النزعة الدينية عند المسلمين • الا أن ناصرا بقي يفكر باحتمال ارتكازه على احدى تلك الافكار لتوصله الى مركز عالمي باندفاع وقوة وبطريقة تضمن له قاعدة واسعة يتمكن معها أن ينخس الدول الكبرى بمهمازه لتتنافس حقا على طلب وده وضمان جانبه •

أما قرار ناصر بدفع فكرة الاعتماد على العالم الاسلامي الى المرتبة الثالثة فقد كان سببه وصول رجل ألماني الجنسية الى القاهرة تحت اسم « فرانز بونش » • وكان هذا خبيرا في « الفظائع التي ارتكبها اليهود » وقد الف كتابا رائعا تحت اسم « العادات الجنسية عند اليهود » نقل الى عدة لغات مثل التركية والفارسية والعربية ، كما قام النازيون بتوزيعه أثناء الحرب العالمية الثانية كدليل على أن نفوذ اليهود وقوتهم من أكبر الاخطار التي تهدد الاسلام (كما تهدد قوة الزنوج السود المسيحيين البيض في جنوب الولايات المتحدة الامريكية) • وعندما وصل بونش الى مصر بدأ عملا شبه روتيني ينطوي على كتابة مقالات ضد السامية • الا أن ذلك لم يخدم أيا من أهداف وزارة الدعاية المصرية • وتمكن بونش أخيرا من تقديم اقتراح حاز على اهتمام المصريين سريعا ، وكان عبارة عن خطة لتجميع النازيين العنيدين من مخابئهم في مختلف دول

العالم (كالارجنتين والبرازيل وايرلندا واسبانيا وغيرها) ، واستبدال أسمائهم بأخرى اسلامية وضمهم الى « الموجودات السرية التي تشكلت أثناء الحـــرب العالمية الثانية » · وبهذا يمكن تكوين منظمة مخابرات لاهداف التخريب والتدمير تجمع بين أحسن المواهب المصـرية والالمانية · ومن ثم وضعها تحت تصـرف جمال عبد الناصر في حربه العالمية ضد الشيوعية والامبريالية ·

وعندما قدمت الخطة الى سعد عفرة ، وكان من أكثـر ضباط جهـــاز المخابرات العامة دهاء وكان المسؤول يومها عن شؤون الخبراء الالمان ، تظاهر باهتمامه البالغ بالخطة ، سوى أنه أصر على الحصول على معلومات أوفى حول ما يسمى « بالموجودات السرية » · وكان رد فعل بونش حسنا ، فقد أمضى مدة من الزمن دون أن يلمس أي اهتمام من قبل المصريين بما يفعله · وبتشجيع من سعد عفرة فقد توصـــل بانش الى جمع كافـــة المعلومات المتصلة بالموضـــوع والتي تمكن من استذكارها أو من تجميعها من بقية أفراد المستعمرة الالمانية في مصر يومها · وكانت النتيجة أن توفرت لدى جهاز المخابرات العامة أدلة تكفي للحكم بالاعدام على نصف « الاخوان المسلمين » ، كما بانت أطراف ألغاز تكفي لاشغال موظفي الامن المصريين لسنتين على الاقل بغية ترسيخ أقدام جهازهـــم الجديد في مصر والعالم العربي كله · أما الاخبار المباشرة التي جمعت مـــن المصادر الالمانية فقد افادت أن « الاخوان المسلمين » كانوا عبارة عن خليـــة مخابرات نازية (تعمل ضد الحلفاء) · وبعد تتبع الادلة المتوفرة ، توصـــل التحقيق الى أن هذه الخلية النازية كانت لا تزال محافظة على تماسكها ولها من القدرة على العمل ضد ناصر كقدرتها على العمل لصالحه · الا أنها كانت قوية الى حد أن أي محاولة من ناصر للتعاون معها ستنتهي به الى وضع يجد فيه نفسه مطية لها ، وليس العكس أبدا ·

وليس هذا كل ما في الامر · فلقد دلت افادات مؤسسي « الاخـــوان المسلمين » ، نتيجـــة جلدهم بقسوة بالغة ، أن أجهـــزة المخابرات الفرنسية والبريطانية والروسية والامريكية ، قد تغلغلت في قواعد المنظمة وتسللت الى أعلى مستوى للقيادة فيها · ولقد أضحى بمقدور كل من أجهزة المخابرات تلك أن يستخدم المنظمة كما يشاء ويهوى ، أو أن ينسفها من داخلها نسفا عندما يجد من

مصلحته أن يفعل ذلك . وكان الدرس الهام الذي تعلمه الجميع هو أن التزمت والتعصب لا يشكلان ضمانا أكيدا ضد الفســـاد ، بل ان كليهما متنافسان ويسيران متوازيين . ولم ينس أعوان ناصر المنتشرون في الامصار هذا الدرس عندما بدأوا بتنفيذ المرحلة « السلبية » من المخطط الناصري .

وعندما يتحرك الانسان ضد أية منظمة تزعم أنها تحمي الدين السائد في البلاد ، فعليه أن يفعل ذلك بحذر شديد . وهذا ما قام به يومها رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية في مصر . ففي محاولة لكشف الكفر والزندقة السوفييتيين، قام الأخير بتوزيع منشورات شيوعية عديدة تعود الى عهد ما قبل الحرب العالمية الاولى وكانت تحمل عناوين ذوي طابع استفزازي مثل « محمد : ليس له وجود » و « النتائج السيئة للصيام في رمضان » و « ضد الحجاب » ، وأظهرها على أنها من توزيع السفارة الروسية في القاهرة . وعندما وقع ناصر اتفاقية الجلاء عن قاعدة قناة السويس في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ ، كان ضباط جهاز أمنه منهمكين في التحقيق في تلك الادلة التي وفرها لهـــم نشاط فرانز بونش . وفجأة قام الاتحـــاد السوفييتي بشن حملة عنيفـــة على صفحـــات الصحف الشيوعيـــة ضد ناصر (١) ونعت أعوانـــه بالاستبدادية والظلم (٢) ورفع لواء الدفاع عن منظمة « الاخوان المسلمين » وامتدحها على أنها « أكثر الفئات المصرية مناهضة للامبريالية ، وأجدرها بالثقة » . وعندهـــا قام رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية في مصر بالاتصال بواشنطن وطلب

---

(١) كانت موسكو تعتبر ثورة مصر عام ١٩٥٢ انقلابا عسكريا وقع في القـــاهرة بتأثير من بعض الدوائر الغربية . وكان التعليق الرسمي السوفييتي يشير الى « مجموعة من الضباط الرجعيين الذين تربطهم صلة مباشرة وقوية بالولايات المتحدة » كالمحرضين الرئيسيين لهذا الانقلاب (دائرة المعارف السوفييتية الكبرى ، موسكو ، الطبعة الثانية ، مجلد ١٥ ، ١٩٥٢ ص ٤٦٠) (المعرب) .

(٢) نشر احد الكتاب الروس وصفا لحكومة جمال عبدالناصر في عام ١٩٥٤ يقول فيه : « انها حكومة رجعية بشكل جنوني وارهابية ومعادية للديموقراطية » (الاتحاد السوفييتي والشرق الاوسط لمؤلفه والتر لاكير ، نشر فريدريش بريجر ، نيويورك ١٩٤٩ ، ص ٢٦٢) (المعرب) .

منها أن تقنع الاسرائيليين بأخذ زمام المبادرة لتحطيم منظمة « الاخوان المسلمين » ولكن بطريقة غير مباشرة · وهكذا أخذت الاذاعة الاسرائيلية تظهر ـ على طريقتها الخاصة ـ قدرة منظمة « الاخوان المسلمين » الضخمة على الاطاحة بنظام ناصر · وهكذا أيضا ظهر كل من الاتحاد السوفياتي واسرائيل على أنهما من مؤيدي منظمة « الاخوان المسلمين » · وقد اتبع رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية هذا «التكتيك» استنادا الى احدى قواعد الدعاية، وهي « المدح من العدو » ، التي تستعمل في بلدان الشرق الاوسط · وتستعمل هذه القاعدة بنفس الطريقة من قبل المرشحين المحافظين في الولايات المتحدة وبريطانيا وذلك بتجميع أعداد هائلة من الناس «الذين يشمئز المرء من مظهرهم وينفر من شكلهم ، بغية مضايقة المرشحين بأسئلة كثيرة واحراجهم بتحديات مريرة ·

وفي أواخر عام ١٩٥٧ ، قام النظام في مصر بمحاولة لجمع شتات « الاخوان المسلمين » ، الا أن تلك المحاولة قد صاحبتها دعاية قوية على الطريقة التالية : « اننا بحاجة الى منظمة مسلمة ولكن جيدة ذات طابع عالمي ، ويا للاسف أن لا تكون كذلك منظمةالاخوان المسلمين » · وكانت الدعاية تركز يومها على « أن الاخوان المسلمين أعداء لدينهم وقد أساءوا له كثيرا » بدل أن تركز على « عداء الاخوان المسلمين للدوله وللنظام القائم » · وفي الوقت نفسه ، فقد بذلت جهود ، ظاهرها الاخلاص ، لتأسيس منظمة مسلمة جيدة بدل منظمة « الاخوان المسلمين » الا أن ناصرا لم يكن في نفسه أي ميل لها · فكان رأيه أن أي اتحاد اسلامي حقيقي لا يلبث أن يظهر على أنه شبيه بنظام الخلافة السابق ، وسيصبح مناوئا للسلطة السياسية ، وبالتالي فانه سيبعث النشاط في القوى « اللاتقدمية » ويجعل لها صوتا مسموعا · كما أنه سيثير الخلافات بين مختلف الطوائف (مثل الدروز والشيعة والسنة والزيديين) بدلا من تلطيفها وتسكينها وسيكون مرتعا لانجاب قادة متزمتين باستفزاز كما كان قادة منظمة « الاخوان المسلمين » من قبل · الا أن أنور السادات وحسن التهامي قد أفلحا في اقناع ناصر أن يطلق لهما العنان ليوجها الدعوة الى « مؤتمر اسلامي » وليحاولا أن يستغلانه قدر الامكان ، وحسب ما تسمح به الظروف ·

وفي عام ١٩٥٤ ظهر « المؤتمر الاسلامي » الى حيز الوجود برئاسة أنور

السادات • وبعد مضي سنة من الزمن أصبح حسن التهامي نائبا لرئيس المؤتمر • وقد قام المؤتمر بنشر الثقافة القرآنية في افريقيا ووجه الدعوة لعقد مؤتمرات للبحث في مواضيع مثل القانون الاسلامي والفن الاسلامي وعلم الاثار الاسلامي • واوفد المؤتمر مبعوثين لتعليم أصول الدين والحقهم بالبعثات المصرية الرسمية في الدول الاجنبية • وطفق المؤتمر بعد ذلك يترقب الفرصة ، بغية تحقيق اتحاد « تكتيكي » ، مستخدما المشاعر الدينية المشتركة للوقوف في وجه الدول الكبرى وانتهاج سياسة محددة • ومع أن الحكومة الامريكية ، قد أبدت بعض التشجيع المحدود للمشروع ، بغية فسح المجال أمام المصريين ، لاقناع بعض الدول الافريقية (مثل نيجيريا الشمالية) أن الاسلام لا يتعارض والحضارة الحديثة ، الا أن هذا التشجيع قد انقلب الى معارضة عندما ثبت في أوائل الستينات، أن الملحقين لشؤون الدين قد وجهوا جل نشاطهم الى توثيق الروابط، بغية « السير معا في طريق الصراع مع العدو الامبريالي المشترك ، وليس الى الاقناع بالاخذ بالحضارة الحديثة •

وتأتي الدول الافريقية الآسيوية في المرتبة الثانية اهمية عند ناصر • فلقد اخذت الشعوب الملونة تظهر وعيا متزايدا لحركة ناصر وعلى مقياس جغرافي أوسع مما نخيله سابقا • فالشعار الذي رفعه ناصر في تحديه للعالم الغربي وهو « الرجل الملون يتحدى ال[illegible]ـن الابيض » قد لاقى قبولا فائقا ورواجا واسعا في افتتاحيات الصحف والرسوم الكاريكاتورية امتد من السنغال في غرب افريقيا حتى كوريا الشمالية في أقصى شرق آسيا • ومن البديهي أن ناصرا لم يكن يطمح الى اقامة امبراطورية افريقية آسيوية (كما اعتقد عدد من المعلقين الغربيين لغموض الامر لديهم) ١٠الا أنه تمكن من جعل نفسه في أعين العالم غير الغربي زعيما ، وتمكن بالتالي من تطوير الاحداث بصورة تحث على الاتحاد لاهداف معينة •• كما حقق تقاربا مع بعض الامم الافريقية والآسيوية بغية تحصيل بعض المنافع الآنية في مجال « لعبة الامم » • الا أن الناحية الاخيرة تخدم أهداف الناحية المتقدمة • فكلما زاد ارتباط ناصر بشؤون الكونغوليين أو الغانيين ، وظهر على صفحات الصحف كمشارك رئيسي لهم فيها ، كلما تحسن مركزه وأضحى ينظر له بعين الجد والاعتبار لما له من نفوذ حقيقي (وليس

مزعوما . وهكذا يصبح ناصر من العناصر التي يطلب ودها ويحرص على ولائها على المقياس العالمي الواسع .

وفي شباط (فبراير) ١٩٥٥ التقى ناصر بنهرو . ولم يمض عشرة أيام حتى التقى بتيتو . وفي الوقت الذي لم يحـظ الاول على أية مكانة في قلب ناصر ، ملك الآخر عليه فؤاده وملأ عليه حياته . كان الاول يلقي عليه دروسا في الوعظ في حين كان الثاني يخاطبه الند للند . الا أن الاثنين معا قد أنزلا ناصرا من نفسيهما منزلة الجد والاحترام . فقد بادراه بالتحضير للاجتماع به وقاما بزيارته في عقر داره ـ القاهرة . كما طلبا منه أن يتخذ الاجراءات اللازمة للتحضير للمؤتمر الافريقي الآسيوي ، الذي عقد في باندونغ في اندونيسيا ، وذلك لتتخذ الدعوة اليه اهمية خاصة عندما تصدر عن حاكم له اعتبار خاص . الا أن الفضل كله في بروز ناصر يعود لهذين الزعيمين ، نهرو وتيتو . فقد تملك ناصرا شعور أنه قد أصبح في « الجامعة الكبيرة » قبل أن يحط رحاله في باندونغ بزمن بعيد .

ولم يكن تشجيع أصدقائه الامريكيين له أقل من تشجيع نهرو وتيتو . فقد غمرهم السرور قبل مغادرة ناصر القاهرة الى باندونغ ، وأعربوا له عن اعتقادهم أن مؤتمر باندونغ سيكون فرصة مناسبة له لينضم الى « الجامعـة الكبيرة » . وانهمك بعض الخبراء في واشنطن في كتابة عدة موضوعات حول كيفية اتخاذ المواقف الاستراتيجية . وقام علي صبري ـ وزير الدولـة ـ بترجمتها الى اللغة العربية ليستفيد منها ناصر ويقتبس من أفكارها قـدر الامكان . كما تم تزويده بمعلومات وافية عن سلوك شو ان لاي المتوقع وعـن غيره من القادة الشيوعيين . ووضعت وزارة الخارجية الامريكية تحت تصرف ناصر وأعوانه معلومات غزيرة عن الحالة السياسية الراهنة في اندونيسيا . وكان هذا الموضوع ذا أهمية فائقة لحكومة الولايات المتحدة ولناصر وذلك لان سوكارنو سيكون أحد منافسيـه الاشداء في قاعـات المؤتمر ودهاليزه . أما الخبراء الذين وصلوا الى القاهرة من واشنطن فقد قدموا تقاريرهم الى السفير بايرود في السفارة الامريكية . وقام بعدها علي صبري بترجمتها ومن ثم دونها على أوراق رسمية من أوراق ديوان رئاسة الجمهورية حتى لا تعرف أنهـا

مترجمة عن أصول أمريكية . واستفاد ناصر منها فائدة جمة لما أوحت لـه بمواقف معينة كان نفسه يرغب باتخاذها . وعندما قام بيتر تشيس بإعادة ترجمة تلك التقارير ـ بعد تعديلات المصريين لبعضها ـ الى الانكليزية ، ورفعها الى السفير بايرود ، طرب منها الأول طربا بالغا لانها غمرت قلبه بالسرور ، ووصفها بأنها من أدهى ما عرفه من افكار ومواقف ، ومن أذكى ما يمكن لحكومة في الشرق الاوسط أن تنتجه . وقال بايرود ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية سوف ترى في ناصر كل الامل للتأثير على دول افريقيا وآسيا وحملها على انتهاج نهج « حيادي حقا » بدلا من انتهاجها نهج « حيادي مع عطف على الشيوعيين » وذلك عندما يحين موعد ظهور « الحيـاد الايجابي » على مسرح الاحداث العالمية .

ولم يقم الروس بتغيير وجهة نظرهم تجاه ناصر ، الا في ذلك الوقت عندما لمسوا تزايد نفوذه في افريقيا وآسيا . فقد التزموا بموقف مناهض لناصـر أثناء توقيع اتفاقية قاعدة السويس (وكانوا يمتدحون الاخوان المسلمـين ويؤيدونهم ضد ناصر كما ذكرنا سابقا) . وأخذوا يعتقدون باحتمالية أن يصبح ناصر عاملا رئيسيا في الحرب ضد الامبريالية الغربية التي عدت عدوهم اللدود في الدول الافريقية والآسيوية بدلا من « البورجوازية الوطنية » . وهكذا أضحى دور ناصر الرئيسي في مؤتمر باندونغ موضع ترحيب من الروس أكثر منه من الامريكيين أنفسهم . ولم يخيب ناصر ظنهم في باندونغ . ففي الوقت الذي تعمّد ناصر تمييع الجبهة المعادية للامبريالية في مؤتمر باندونغ ، فانه قد طوّرها الى عداء معتدل ومخفف للغرب حتى يكسب رضى الروس الذين رحبوا بنتائج مؤتمر باندونغ كليا وبدون أدنى تحفظ .

وهكذا فقد أفلح ناصر في مسايرة الطرفين معا ولكن مع فارق مهم . فالسوفييت انطلقوا في استحسانهم لسلوكه دون تحفظ ، في حين أبـدى الامريكيون عليه تحفظات عديدة . فقد تمكن ناصر من الظهور كعامـل مؤثر وهام ، وبدا ـ بالمقارنة مع أقزام كنكروما وسوكارنو ـ وكأنه رجل دولة من درجة شو ان لاي ونهرو اللذين كانا ينزلان عند رأيه في كثير من الامور . وقد أصر شو ان لاي في أحد المرات على ناصر أن يستجيب لدعوته لتناول الطعام ولو

مرة على الاقل ، ولانشغال ناصر اضطر الاول أن يؤخر وقت المادبة الى منتصف الليل • كما أنهما قد حضراها معا بعد انصرافهما من مناسبات ومآدب أخرى • وهكذا لمس ناصر أنه قد نجح في مهمته • وقد أشعره الروس بهذا أيضا في أول مناسبة بعد اختتام مؤتمر باندونغ • الا أننا ـ نحن الامريكيين ـ لم نكن لنظن ذلك ، وبدا لنا أن الطريق لا يزال شاقا وبعيدا •

وبخليط متنافر من حوادث مؤسفة وحظ تعيس ، نقلت أخبار قلة حماسنا وعدم اكتراثنا بناصر بطريقة مزعجة جدا • فلقد أخفق السفير بايرود في أن يكون عند أسفل سلم الطائرة مع أفواج المستقبلين لناصر وهو عائد من باندونغ الى القاهرة على متن طائرة الرئاسة الاولى ، تحف به هالة النصر والنجاح • وبعد أن طاف ناصر في شوارع القاهرة المزدحمة بالجماهير الهاتفة له ، وصل الى مقره ليقرأ في أول تقرير رفع له ، أن السفير بايرود ، لم يكتف بأن أحجم عن استقبال ناصر رسميا ، بل حث بقية السفراء الغربيين على عدم الذهاب الى المطار ، في محاولة لازدراء عودة ناصر الى بلاده عودة الابطال • الا أن بايرود اتصل حقيقة بالسفير البريطاني للاستفهام عن « البروتوكول » اللائق وكان رأي الأخير أن يتفرد سفراء الدول الافريقية والآسيوية بالاحتفاء بناصر يومها دون أن يشاطرهم غيرهم اياه • وعندما اتصل سفراء الدول الغربية بالسفير بايرود ليستطلعوا موقفه من الذهاب الى المطار أجابهم بأنه يعتقد أن استقبال ناصر يجب أن يبقى مظاهرة آسيوية افريقية ، كما أن ناصرا نفسه سيقدر موقفنا ـ نحن سفراء الشعوب البيض ـ ان تنازلنا له عن ذلك اليوم • ولقد قال بايرود هذا الكلام عن حسن نية ودون أن ينطوي على احتقار أو ازدراء • الا أن هيئة مراقبة الاتصالات الهاتفية قامت بترجمة المكالمة لناصر بجفاء ، ودون أن تنقل له لهجة الصداقة التي فيها • وأورث ذلك في نفس ناصر انطباعا بأن بايرود قد قال ذلك الكلام وكأنه أمريكي يفتخر بشرف العضوية في منظمة الكوكلوكس كلان (العاملة في أمريكا ضد السكان السود) • ومما زاد الطين بلة ذلك التقرير الذي رفع الى ناصر وهو يسدد بعض العبارات التهكمية التي يتداولها موظفو السفارة الامريكية عند ذكرهم لمؤتمر باندونغ ومنها : « انه لعبة المحتالين من السود سكان المدن » • ومن السهل أن يتخيل الانسان مدى رد فعل ناصر حيال هذا التهكم والسخرية !

وبعد نجاحه في مؤتمر باندونغ ، شرع ناصر في رعاية الزعماء الافريقيين وتعهدهم ، كما بدأ يفكر بتطوير الوسائل التي تمكنه من استغلال نفوذه الجديد على أوسع نطاق ممكن . وقد أخفق كثير من دبلوماسيينا في ادراك مقاصد ناصر وفهم مراميه ، كما أنهم قد رقصوا طربا لفشله في تحقيق بعضها ــ والتي لم تخطر على باله أصلا ــ مثل الوحدة الافريقية وعدم قبول مصر على أنها دولة افريقية محضة . فناصر لم يكن ليطمح في مجال الدول الافريقية الى اكثر مما كان يطمح اليه في مجال العالم العربي أو الاسلامي ، وهو ايجاد نوع من التنسيق والائتلاف في السياسة العامة تجاه الدول الكبرى وذلك لدعم فكرة الحياد الايجابي . كما كان ناصر يهدف الى معرفة أولئك الزعماء الذين يمكنه الاعتماد عليهم واتخاذهم كحلفاء مهرة له عندما تدعو الحاجة لذلك أثناء مساومة الدول الكبري على مطالبه وغاياته . وكان الامر يستلزم تجشم مشاق عديدة للحصول على تأييد أمثال نكروما رئيس غانا ، وسيكوتوري رئيس غينيا ، وكيتا رئيس مالي ، وعلى تفويض منهم للتحدث باسمهم في المؤتمرات العالمية . (لقد أسرَّ الي كل من نكروما وسيكوتوري أنهما يشجعان ناصر على التحدث بلسانهما والدفاع عنهما في بعض المواقف التي يشعران بالحرج فيها .) وهما بهذا يقومان بأروع المناورات في مجال « لعبة الامم » وهي ما تعرف باسم « منافع الطرف الثالث » . ويهدفان من ورائهما جس النبض بدون التورط مباشرة ، وفي نفس الوقت يدخلان السرور على قلب ناصر الذي يظهر عندئذ أمام الدول الكبرى على أنه زعيم بدون منافس في العالم الآسيوي الافريقي) .

وقد أتبع ناصر وسائل ادارية لتثبيت نفوذه في العالم الافريقي شبيهة بتلك التي استخدمها للغرض نفسه في العالم الاسلامي . الا أنه لم يحاول أن يجعل من نفوذه في افريقيا وآسيا « دائرته الاولى » مع انه كان جادا في تثبيته هناك . وقامت وكالة المخابرات المركزية بتكليف احدى خلاياها بتحديد المناطق التي يرغب ناصر أن يشملها بنفوذه . كما قامت وزارة الخارجية البريطانية بانشاء هيئة خاصة بقصد اسداء النصح حيال الخطط السياسية الملائمة للدول الواقعة جنوب الصحراء الافريقية الكبرى ، على أن تكون متسمة بطابع فريد من المرونة والكياسة . واستدعي الامر أيضا تأليف لجنة صغيرة منحقة بمقر الرئاسة الامريكية للقيام بمهمة التنسيق بين الخطط السياسية

وتنفيذها في افريقيا • ولقد اتخذت هذه اللجنة فيما بعد طابعا أكثر اهمية من سابقتيها من اللجان ، وكادت أن تكتسب هيئة « وزارة » بذاتها •

ومن خلال كل هذا الاهتمام في تنظيم الشؤون الافريقية ، يبدو واضحا وجليا ، أن حماسة مستشاري ناصر حيال الشؤون الافريقية ، قد خرجت عن طورها وافلتت من عقالها • الا أن كل ما وضع لها من مخططات دفعت الى حيز التنفيذ لم تكن لتظهر سوى طموح غير معقول ، يستحيل تحقيقه أو الوصول الى أهدافه •

الا أن آمال ناصر واطماعه في افريقيا كانت أكثر تواضعا وأقل مغالاة • فقد أصبحت القاهرة ملاذ المضطهدين من الحكومات الاستعمارية • وأضحت اذاعة القاهرة نصيرا لحركات الاستقلال في افريقيا بدون كلل أو ملل • وكم اغضب البريطانيين تاييد ناصر لحركة الماوماو في كينيا ، الا أن ذلك لم يكن موضع دهشة أبدا عند كثير من المطلعين وذلك عندما خرج جومو كينياتا من السجن ليصبح أول رئيس وزراء للدولة المستقلة • وأحداث كهذه لا يمكنها أن توحي لمراقب غير مطلع الا بطموح مفرط وآمال عريضة لا حدود لها ، وخاصة انها وقعت في الوقت الذي بدأ فيه ناصر سلسلة من الزيارات الخاطفة لكل من بريوني ومونروفيا وتونس وأكرا وأديس ابابا والدار البيضاء وبلغراد ، في محاولة لبعث الحياة في الاهداف المشتركة بين مصر ومثيلاتها من الدول الافريقية • وقد احتلت أنباء زياراته هذه الصفحات الاولى في الصحافة العالمية ، ونجح يومها في جذب أنظار الدول الكبرى اليه ،كما جنى فوائد جمة كانت مقدمة لكثير غيرها • الا أن الصحافة قد اظهرته وكأنه قد فشل في تحقيق مآربه الرئيسية ـ التي لا وجود لها أصلا • فلم ينجح ناصر في تاليب الدول الافريقية ضد اسرائيل (وهو هدف غير خطير) الا أنه قد كسب تأييدا واسعا من الدول الافريقية والآسيوية لقرارات الامم المتحدة التي تندد بالامبريالية والاستعمار والمؤيدة لحق تقرير المصير • وهكذا فقد أفسح ناصر المجال أمام الدول الافريقية الآسيوية لتتبوأ مركزا أكثر حساسية في الشؤون العالمية • وكان من حصيلة هذا المجهود تبني الفرنسيين والبريطانيين والامريكيين لسياسة أكثر تساهلا مع مصر لكسب ود ناصر وتجنب أذاه •

ولم تسنح لناصر فرصة « لبسط نفوذه ونشر دعايته » أفضل من تلك التي سنحت له في « دائرة العالم العربي » · فقد كان جمع كلمة الدول العربية وتوحيدها حوله أمرا واجبا لا مناص منه · وعرفت هذه المشكلة بوضوح على أنها الجزء من « لعبة الامم » التي يطلق عليها اسم « اللعبة التي حاصلها يساوي صفرا » من وجهة نظر كلا الطرفين · ولا يزال الاشكال يحيط بنصوص هذا النزاع في العالم العربي بصورة لم يعهدها العالم في أيامنا هذه في أي من نزاعاته الرييسية ·

وللمرة الثانية ، فان سبب النزاع في العالم العربي يعود الى اساءة فهم أهداف ناصر نفسها · وأود أن أؤكد ثانية أن ناصرا ليس بعربي ، ولم يعرف الكثير عن العرب الا حديثا · كما أنه لا يشعر بميل وعطف خاص نحو العرب كما نتصور ونتخيل · وهو لا يطمح اطلاقا في ارهاق نفسه وتحميلها مسؤولية حكم العالم العربي · فالقومية العربية قوة ذات أهمية رئيسية في مخططات ناصر ، الا أن أهميتها عنده تكمن في كونها « أسطورة » وليست « حقيقة » · ولننظر الى النواحي التالية :

● **اللغة** : ان من ضمن أشهر الاجابات على السؤال الشهير : « ما هو تعريف العربي » هو : « كل من يتكلم العربية كلغته الاصلية » · الا أن حقيقة اشتراك العرب بلغة واحدة لا تعدو اكثر من كونها صورة طبق الاصل للحقيقة أن أوربا لم يكن لها في القرون الوسطى سوى لغة لاتينية واحدة · ان العربية الفصحى ــ لغة الكتابة ــ هي الوحيدة التي تفهمها القلة المثقفة المنتشرة من العراق شرقا حتى مراكش غربا · وعلاقتها باللهجات العربية المتداولة والمختلفة ليست الا كعلاقة اللغة اللاتينية بكل من اللغات الايطالية والبرتغالية والاسبانية والرومانية في القرون الوسطى · ان سائق التكسي في بغداد يعجز عن فهم زميله السائق في تونس اذا ما نشب بينهم أي حديث ما · وان نجاح مثقف من بغداد في فهم حديث مثقف آخر من تونس مرده الى اطلاع واسع لكل منهما على لهجة الآخر وعلى العربية الفصحى ·

● **الحضارة** : ان تعريفا اكثر شمولا ل « من هو العربي » يعني بالضرورة الاخذ بعين الإعتبار مفهوم « الحضارة المشتركة » · والحقيقة أن هناك تشابها

كبيرا في حضارة مختلف البلاد العربية · الا أن هذه الحضارة لم تكن سوى وليدة الدين السائد وهو الاسلام في تلك البقعة من العالم · كما أن أوجه الشبه هذه ليست وقفا على العرب وحدهم ، بل ويشاطرهم اياها ملايين المسلمين المنتشرين خارج العالم العربي · كما أن التشابه البسيط في الذوق الموسيقي وفي طعام المطاعم (وليس ما يطهى في البيوت) ، وفي بعض المهن الشعبية المختلفة ، مرده الى تأثير الافلام السينمائية المصرية ، وانتشار المطاعم اللبنانية في كل أرجاء الشرق الاوسط وافريقيا · وباستثناء أوجه الشبه هذه فان الفوارق في الحضارة بين القرويين في العراق وقبائل البدو وأهل الريف في لبنان والفلاحين في مصر وغيرها من الاقاليم العربية ليست أقل من تلك التي تبدو بين مجتمعات الشرق الاقصى (الصين واليابان والهند) ، هذا ان لم تكن أكثر منها · وعلاوة على ذلك ، فان الضغائن المستحكمة بين مختلف المجتمعات تجعل الانصهار في بوتقة حضارية واحدة أمرا مستحيلا من الناحية العملية · فالدروز والعلويون والمتاولة والاكراد والاشوريون ومختلف الطوائف المسيحية واليهود والارمن والشيعة ومذاهب أهل السنة المختلفة وغيرهم يميلون الى عدم احترام بعضهم البعض ، الى جانب دفاعهم عن تقاليدهم الاقليمية في اللباس والزواج والاواصر العائلية وغيرها بشيء من التعصب والتزمت اللذين يتحديان جميع نواحي الحياة الاخرى ، باستثناء الأفلام المصرية والمطربة الشعبية الشهيرة « أم كلثوم » ·

● **العرق** : ان نظرة واحدة يلقيها الانسان على رجل من السودان ذي لون مغرق في السواد الى جانب لبناني ناصع البياض ، أو عراقي داكن اللون أسمر البشرة ، أو أحد أفراد القبائل في السعودية الأصليين ، أو سوري ذي شكل يوناني ، يدرك أن فكرة « العرق العربي » فكرة لا تقل زيفا وانتحالا عن فكرة « العرق اليهودي » · ان غالبية سكان الجزيرة العربية هم عرب أصلاء في عرقهم · أما المصريون ـ قادة العالم العربي ـ فليس هناك قطرة واحدة من دم عربي تجري في عروقهم · وكذلك الامر بالنسبة للسودانيين واللبنانيين وعرب شمال افريقيا · كما أن الاتراك والشركس والاكراد هم من أبرز العناصر التي تتركب منها « الخلطة » السورية ، وكذلك الامر بالنسبة الى « الخلطة » العراقية مع اضافة شيء من النكهة الهندية اليها · وخلاصة الكلام ، فان فكرة

« العرق العربي » قد حظت بمقت ناصر لها ونفوره منها الى الحد الذي جردت فكرة القومية العربية من اي خطورة أو اعتبار ٠

● **الطموح السياسي** : لا أزال أذكر كلام صديق « عربي » عندما قال لي : « عندما يقوم اي منا بعمل بناء ايجابي كانشاء جسر ، أو رقع حذاء ، او خبز رغيف ، أو حشو ضرس ، فهو في لحظة قيامه بعمله ليس أكثر من مجرد مهندس ، أو اسكاف ، او خباز ، او طبيب « سوري » أو « لبناني » او « مصري » ٠ ولكنه عندما يقوم بعمل هدام « فهو عندئذ عربي قح » ٠ ففي سبيل الحصول على مصالحه المادية اليومية والاقتصادية العادية ، فان « التفكير الاقليمي » هو المسيطر على العربي آنئذ ٠ ولكنه عندما يتأنف من اسرائيل أو يتشكى من الامبريالية أو يشارك في مظاهرة لحرق سفارة أجنبية ، فان « التفكير القومي العربي » هو المسيطر وقتئذ ٠ وطالما أوقعت هذه المفاهيم عديدا من الدبلوماسيين الامريكيين حديثي العهد في حيرة وارتباك ٠ ففي كل مكان يحلون فيه لا يسمعون سوى عبارات « الاخوة العرب » و « الآمال والآلام العربية » و « الوحدة العربية » ٠ الا أنهم يخفقون في لمس أي حماسة أصيلة لتوحيد التعرفة الجمركية ، أو لانشاء سوق عربية مشتركة ، أو لاقامة دولة عربية متحدة ، وحتى اتحاد فيدرالي بين الدول العربية ٠

وكما ذكرنا سابقا ، فلقد كان المام ناصر بدائرة العالم العربي محدودا للغاية عندما بدأ بمعالجة شؤونه والغوص في مياهه ٠ الا أن جهله بالعالم العربي لم يكن بتلك الاهمية وذلك لبساطة أهدافه وعدم خطورتها ٠ فلم يكن ناصر يطمح الى أكثر من اقناع مختلف زعماء الدول العربية وحكامها الى أنهم يخدمون مصالحهم ، ويجنون فوائد كثيرة من الدول الكبرى ، ان هم أحجموا عن الدخول معها في اتفاقات ثنائية ، ووافقوا على تنسيق سياستهم الخارجية تجاهها ٠ وبذلك تبقى جبهتهم المشتركة قوية منيعة ٠

وسعى ناصر حثيثا على تقوية « أسطورة » القومية العربية الى حد يصبح

معه خروج أي من الحكام العرب عن الصف أمرا عسيرا ، بل ويغدو الحاكم عند ذلك « منشقا خطيرا » • ومن الصعب أن يتخيل الانسان كيف يمكن لناصر أن يحقق هذين الهدفين بعناد واصرار بدون أن يتمتع بالمام كاف ودراية واسعة بأحوال البلاد العربية ، وبدون أن يملك شعورا بالمحبة لها أو العطف تجاهها • لقد كانت تلك الاهداف لخدمة مصر فقط دون سواها ، ولكن لا مانع عند ناصر أن يصيب الدول العربية بعضا من الخير ، أو أن تظفر بشيء من المكاسب بمحض الصدفة ــ لا أكثر ولا أقل ــ وبدون سابق تصور أو تصميم •

وعندما وصلت الى مصر في تموز (يوليو) ١٩٥٣ ، لم أجد عند أي من أعوان ناصر او أصدقائه ــ مع أنني أعرف معظمهم جيدا ــ أي اهتمام في قدرة مصر أن تتزعم فكرة الوحدة العربية ، أو أي نوع آخر من أنواع الاتحاد • ولقد أثار المامي بشؤون الدول العربية الاخرى ــ وخاصة سوريا ــ اهتمام ناصر وفضوله • وأذكر تماما ان مجموعة القصص والنوادر التي كنت أعرفها عن الانقلابات الناجحة والفاشلة في سوريا قد جعلتني من اقرب المقربين لناصر وفي داخل منزله بالذات • وعلى سبيل المثال ، فقد غمر السرور قلب ناصر عندما قصصت عليه ذكرياتي عن المحاولة الاولى الفاشلة التي قام بها حسني الزعيم للاطاحة بالحكومة المدنية في سوريا • فلقد وضع حسني الزعيم خطتها لوحده ودون مساعدتنا ، وحاول تنفيذها قبل تلك التي تكلمنا عنها سابقا • فقد حاول يومها أن يضم اليه كلا من أحمد الشراباتي وزير الدفاع آنئذ وفوزي القاوقجي قائد جيش الانقاذ الفلسطيني • ولكن بعد اجتماع سري ضم الثلاثة لتخطيط الانقلاب ، وانعقد في ساعة متأخرة من احدى الليالي ، ذهب كل من اولئك الثلاثة على التو وبمفرده بدون استثناء حسني الزعيم نفسه ــ الى الرئيس شكري القوتلي للافساد على زميليه الآخرين • ومثل هذه القصص التي تظهر « عدم جدارة السوريين بالثقة » جعلت ناصر يضحك (بينه وبين نفسه) ، ــ وارتسمت على محياه علامات الحيرة والذهول وادرك ما كان ينتظره من متاعب ومصاعب • الا أن دهشة ناصر أمام الطريقة التي كانت الحكومة الامريكية تحاول أن توجد بها نوعا من الوحدة الاقتصادية العربية كانت أشد وأقوى • وقد أعرب ناصر عن رأيه في هذا الموضوع قائلا : « اننا نحن المصريون نفكر بطريقة متشابهة تقريبا ، وباستطاعتنا أن نقف صفا واحدا في سبيل هدف مشترك ، ولكننا لن نخضع للمحاولات التي تفرض علينا التعاون

مع غير المصريين بأية طريقة مدروسة • فلربما نفلح في الاتفاق مع بعض الدول العربية الاخرى حول أهداف مشتركة الا أننا نرفض العمل مشتركين للوصول الى تلك الاهداف وتحقيقها » • لقد كان الانقلاب في مصر مصريا بحتا ، ولم يكن أي من قادته ، وعلى الاخص ناصر نفسه ، يفكر به أن يكون غير ذلك اطلاقا •

الا أنه في أواخر عام ١٩٥٣ قفزت فكرة الوحدة ــ أي نوع من الوحدة ــ الى مركز الصدارة كطريقة لدعم مركز ناصر ضد الدول الكبرى • وليس غريبا أن تكون هذه الفكرة قد خطرت على بال ناصر وأخفاها حتى يحين الوقت المناسب لها • ففي كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٣ استدعى كبار سفرائه في الخارج الى مصر ، ودعاهم الى عقد اجتماع مشترك مع أعضاء مجلس الثورة بغية وضع خطة للسياسة الخارجية المصرية تتألف من شقين : الشق الاول منها يختص بالسياسة المصرية تجاه الدول التي تعاني من نفس المشاكل التي تعاني منها مصر ، وتعيش نفس الظروف المصرية ، وتشترك معا في أهداف واحدة • والشق الآخر منها يختص بالسياسة المصرية تجاه الدول (مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي ودول أوربا الغربية واليابان) التي هي بحد ذاتها أهدافا مشتركة للدول الوارد ذكرها في الشق الاول من الخطة العامة • وتهدف هذه السياسة ، الى اقامة تعاون وثيق مع دول الشق الاول ، للوقوف صفا واحدا في النزاع مع دول الشق الثاني ، دون أن يتطور ذلك الى نزاع « غير ودي » •

استمرت تلك الجلسات حتى كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤ • ولاول مرة تناول البحث وضع خطة سياسية لانشاء « جبهة عربية » من أهدافها ظاهرا حماية مصالح الشعوب الاسلامية والآسيوية والافريقية • وبانت وجهة نظر ناصر بهذا الخصوص جليا عندما سأله أحدهم في احدى تلك الجلسات « لماذا لا نشكل وحدة مع الشمال الافريقي : مصر وليبيا والجزائر وتونس والمغرب ؟ » فكان جواب ناصر انه لو كانت الوحدة الجغرافية دون سواها هي هدفنا ، فالوحدة مع الاقاليم الواقعة الى الغرب من مصر امر لا يخلو من الاهمية • الا أن اتحادا كهذا لا يملك من مصادر القوة التي نحرص عليها شيئا • في حين أن المنطقة العربية الآسيوية تملك مصادر النفط ، وطرق المواصلات ، كما

أنها تعاني من قضية فلسطين التي تكثر حولها المساومات » ٠ ان كل هــذه الامور ذات أهمية كبيرة لكل من الدول الغربية والاتحاد السوفياتي ٠

لقد اعتبر باتريك سيل (في كتابه الشهير « الصراع على سوريا ») أن يوم ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٤ كان يوم اعلان ناصر رسميا أن مصر جزء مــن الامة العربية ٠ وجاء هذا فيالخطاب الذي القاه ناصر في الاحتفال الثاني لذكرى الثورة المصرية ٠ ومما قاله ناصر يومها :

« أيها المواطنون : لقد بدات مصر مرحلة جديدة من علاقاتها بالامة العربية ٠ انها مرحلة تعتمد على الاخوة الصحيحة والصريحة لمواجهة المشاكل ببسالة وايجاد الحلول لها ٠ ان هدف حكومــة الثورة أن يصبح العرب أمة واحدة يعمل كــل أبنائهــا بتعاون وتضافر للمصلحة العامة ٠٠٠ وان الثورة تعتقد أنمسؤولية الدفاع عن الدول العربية تقع أولا وقبل أي شيء آخر على عاتــق العرب انفسهم وهم جديرون بتحمل مثل هذه المسؤوليات » ٠

الا أن هذا الكلام قد قيل بعد اسبوع واحد من تسلم ناصر ـ عن طريق اللواء نجيب ـ تأكيدات من الرئيس ايزنهاوزر تفيد أن التوصل الى اتفاقيــة مصرية انكليزية حول قاعدة السويس سوف يفتح الطريق أمام مساعــدات أمريكية مالية على مقياس واسع جدا ٠ والى جانب هذا ، كانت هناك تأكيدات شخصية من بعض أعضاء السفارة الامريكية في القاهرة أن قيمة هذه المساعدات تتوقف على مدى نجاح ناصر « كعامل تهدئة وتلطيف » في السياسة العربية ضد الغرب ٠ ولقد أسرّ لي ناصر مرة وقال : « عليك أن تبسط نفوذك أولا على المناطق العربية حتى يتسنى لك بعد ذلك أن تمارس سياسة التهدئة والتلطيف وأن تنجح فيها » ٠ ولا أدري ان أدرك ناصر تماما ما نعني بعبارة « عامل تهدئة وتلطيف » أم لا ، الا أن الفكرة بالتأكيد قد لاقت عنده قبولا وفي نفسه ترحيبا٠

وعلى وجه التخصيص ،فقد كان كل من العــراق والسعودية وسوريا ولبنان والاردن والكويت وليبيا من بين الدول التي أراد ناصر أن يبسط نفوذه عليها ٠ وكان قادتها في ذلك الوقت وهم على الترتيب : نوري السعيد ، الملك سعود ، أديب الشيشكلي ، كميل شمعون ، الملك حسين ، سالم الصباح ،

والملك أدريس السنوسي · ومهما اشتط خيال الانسان فانه لا يعقـل أن يفسح أكثر من واحد من اولئك القادة المجال أمام ناصر لوضع سياسة خارجية واحدة للعرب أجمع · في حين كان ناصر يميل الى الاعتقاد بامكانية تحقيق هذا ، وذلك لانه مهما كانت الفوائد التي تجنيها الدول العربية متفرقة من الـدول الكبرى فان الفوائد أعظم اذا ما وقفت الدول العربية كلها مجتمعة في صف واحد أمام الدول الكبرى · وكانت هذه من مبادىء ناصر العامة وليست من مشاكله الخاصة التي ، وان برزت فجأة ، فانها ليست من ذلك النـوع الذي يستعصي التوصل الى اتفاق حوله · ولم يكن يومها ليخطر ببال ناصر أن يتبوأ سدة قيادة أي اتجاه عربي نحو وحدة حقيقية ــ وعلى الاقل فان ذلك لم يكن ليخطر بباله بصورة واضحة ملحوظة تلفت نظر بقية الزعماء العرب · فقد كان اللواء نجيب لا يزال الرئيس الصوري للدولة ، وكان ــ على حد اعتقاد ناصر ــ يصلح تماما لترأس مثل ذلك الاتجاه · كما أن زعماء الدول العربية الاخرى ، مهما كانت انطباعاتهم عن الزعامة المصرية السياسية النشيطة ، فانهم جميعا لا يفكرون برفض الحقيقة أن القاهرة ــ مركز العرب الثقافي ــ هي مركز القيادة منطقيا ·

وعندما بدأ ناصر بجس نبض مختلف الزعماء العرب ، وجد أن الامر ليس بتلك السهولة التي تخيلها قبـلا · فالوفد الذي ارسلـه الى بغداد في آب (أغسطس) ١٩٥٤ لاجراء مباحثات مع الملك فيصل الثاني والوصي على العرش الامير عبد الاله ونوري السعيد ، وجد أن الزعماء العراقيين لا يميلون الى فكرة الحياد لانهم يخشون السوفييت والشيوعية كثيرا ، كما أن علاقات العـراق الوثيقة مع بريطانيا والولايات المتحدة، ستجلب لهم منافع كثيرة بدون أن يدفعوا أي ثمن لها · الا أن نوري السعيد وافق على الاستمرار بالمباحثات حول الموضوع وقام بعد شهر بزيارة للقاهرة بهذا الغرض · وبعد هذه الزيارة اتضح لناصر أن الوفد المصري الذي سافر للعراق لم يكن على المستوى اللائق لشرح أفكـاره وآرائه ، وان نوري السعيد قد سيطر على محادثات بغداد لعلمه التام بنقاط الضعف عند رئيس الوفد المصري صلاح سالم ، التي حصل عليها ــ حسب اعتقاد ناصر ــ من وكالة المخابرات المركزية · كما رتبت الاخيرة لصلاح سالم مؤتمرا صحفيا ملغوما حشدت فيه بعض رجال الصحافة الذين قاموا بتوجيه

اسئلة محرجة لصلاح سالم أربكته ودفعته الى التصريح علنا ببعض العبارات التي اثارت سخط بعض الزعماء العرب وخاصة السعوديين منهم والسوريين

كانت احدى تلك التصريحات على شكل جواب لسؤال حول موقف ناصر تجاه وحدة ثنائية تعقد بين بعض الدول العربية ـ وهذا تلميح واضح لاحتمال قيام وحدة ثنائية بين سوريا والعراق التي كانت مصر تعارضها بشدة . ولم يكن جواب صلاح سالم الا حسب ما يتوقعه الكثير ممن يعرفونه . فقد قال : « اذا ما رغبت أية دولتين عربيتين في الوحدة ، فان مصر لن تكون من المعارضين لهذا » . ومع أن السوريين كانوا متأكدين أن نوري السعيد لم يأت على بحث موضوع الوحدة مع المصريين ، الا أنهم اعتبروا تصريح صلاح سالم على أنه محاولة من رجال الثورة في مصر لتقديم الدعم لنوري السعيد فيما اذا حاول ضم سوريا للعراق . كما أن السعوديين ظنوا أن السوريين كانوا على علم مسبق بتلك المحادثات ، وأن الجميع متفقون ضدهم . وقد تأثر اللبنانيون أيضا بمثل ذلك التصريح لظنهم أن مصر تعد الترتيبات لاعادة تقسيم العالم العربي ، وأن قصة الجبهة المتحدة انما هي للتضليل والتمويه . ومهما كانت النتائج فقد اعتبرها ناصر درسا نافعا في حياته السياسية . فقد أدرك أن العالم العربي لن يترك أي تصريح مهما كان بريئا وبعيدا عن الغمز واللمز الا ووضعه تحت المجهر لفحصه واستقصاء خفاياه . وستكون مثل تلك التصريحات مصدر مضاعفات مشؤومة يحاول المعارضون ترويجها والتهويل من أمرها . لقد أتقن ناصر هذا الدرس الى الحد الذي لم يعد ليتعمد الغموض حتى يدرك تماما كل ما ستثيره « تلك التصريحات الملغومة ـ أو الغامضة عمدا » من تفسيرات وتكهنات .

ولم تنجح الاتصالات المصرية التي جرت مع الزعماء العرب ، سواء التي جرت عن طريق السفراء العرب في القاهرة وعن طريق السفراء المصريين في العواصم العربية ، أو تلك التي تمّت عن طريق زيارات عديدة قامت بها وفود من شتى المستويات . وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) قام ناصر بتوجيه الدعوة لوزراء الخارجية العرب لحضور اجتماع كان يأمل فيه أن تتاح له الفرصة كاملة لشرح أفكاره عن جبهة « الحياد الايجابي » المتحدة . الا أن

الاجتماع قد عجز عن احراز أي تقدم بخصوص بعض القضايا ، وبالتالي فلم يحقق أي نجاح باستثناء بعض المكاسب التي جناها ناصر من جراء رفضه الخوض في مناقشة بعض القضايا التي اكتفى بالقول عنها : « انها مهما تكن فلا بد من ايجاد حلول مناسبة لها ، ولنفترض ذلك جدلا » . كما لمح الى ان مصر لا ترى في تلك القضايا مدعاة لتعريض الوحدة العامة الى الخطر .

وبحلول نهاية العام ، كان ناصر قد أيقن أن محاولته الرامية الى اقناع الزعماء العرب بأفكاره ـ وخاصة اولئك الذين كانوا يومها في الحكم ـ قد باءت بالفشل . الا أنه كان قد احتاط للامر مسبقا . فقد أعد برامج دعائية موجهة للعالم العربي كله ، وأصدر أوامره الى محطة صوت العرب التابعة لاذاعة القاهرة أن ترفع من قوة بثها الى الحد الذي تتمكن معه من اسماع صوتها الى العرب في كل مكان وبوضوح لا يقل عن وضوح اذاعة صوت أمريكا أو اذاعة لندن أو أي اذاعة عربية أخرى . كما أعطى برامجها مادة شيقة تجذب اليها المستمعين . فكانت فيها النشرات الاخبارية والقصص والتمثيليات الدعائية ، وجلها باللهجة المحلية . وكانت موشاة بالموسيقى والمارشات العسكرية ، الى جانب بعض البرامج الترفيهية التي كانت تحوز على اعجاب المستمعين ـ حتى اولئك القابعين في أقاصي الصحارى العربية . وكم ترك المستمع أزرار مذياعه مثبتة على أمواج اذاعة القاهرة دونما تغيير أو تبديل !

كانت مواضيع وشعارات الاذاعة كما يلي :

● « علينا نحن العرب ان نتحد لنحمي أنفسنا من الاستغلال الامبريالي لنا » : ان البريطانيين هم أوغاد الامبريالية الرئيسيون ، ولكننا يجب أن لا ننسى أن الامريكيين والروس هم أيضا كذلك . وقد نشرت قصص كثيرة وكلها تدور حول دخول البريطانيين أو الروس أو الامريكيين البلاد تحت شعار تقديم المساعدات ولكنهم ما يلبثون أن يستغلوا البلاد ويجعلوها معتمدة كليا على تلك المساعدات . ولم يكن هناك أي هجوم على شخصيات الزعماء العرب ، الا أن خطة كهذه ما لبثت أن وضعت المتساهلين مع الدول الكبرى منهم في موقف حرج واشعرتهم فجاةأنهم أصبحوا في وضع يتطلب منهم الدفاع عن تصرفاتهم واعطاء التبريرات لسياستهم .

● « اننا ـ نحن المصريين ـ جزء من أمة العرب » : وهذه هي ـ بعبارة اخرى ـ « الاسطورة » التي تبناها ناصر · فلم يكن هناك أي حماس أو دفاع عن الوحدة السياسية أو تعاون وثيق على مستوى الحكم والادارة (مثل توحيد الجمارك ، وتسهيل انتقال الرعايا العرب من بلد عربي لآخر دون تأشيرات دخول ، وتصفية تلك الخلافات المتنوعة التي ما زالت تعصف بالعالم العربي) · وتحت الشعار المذكور أعلاه ، كانت مادة التوجيه في معظمها ثقافية مثل القصص التاريخية والبحوث الفلسفية وكل ما يمكن أن يشكل مادة تساعد المستمعين وتشجعهم على أن يكون تفكيرهم مشبعا بأفكار مثل « كيان العرب » و « استقلال العرب » ·

● « ناصر يقارع الدول الكبرى وحيدا » : بعد نجاح ناصر في تنحية اللواء محمد نجيب ونجاحه ـ لمرة أو مرتين ـ في الظهور على أنه أول مصري لقرون عديدة ينجح في شق عصا الطاعة على الاوربيين ويرفض الخضوع لهم ، بدأت البرامج الدعائية تذاع على الشعب وهي مبرزة هذا الوجه لشخصية ناصر ومؤكدة حقيقته · وكانت التمثيليات الاذاعية تظهر ناصرا جالسا وراء طاولة المفاوضات بهدوء كامل وببرودة أعصاب فريدة ، ثم ما تلبث أن تنهي حواره مع الكولونيلات البريطانيين باذاعة بعض عباراته المؤثرة والرنانة بصوت رزين هادىء ينبىء عن اصرار وتصميم وعن رفض للخنوع والخضوع · وكان المذيعون يرتلون بعض المقتطفات الشاعرية من خطب ناصر التي تفيض بأخبار الشعوب الآسيوية والافريقية والعربية التي تعاني من اضطهاد الاوربيين واستغلالهم ، الا أنها كانت تختتم بترنيمة شاعرية تقول · « ولكن ناصرا « سوف » ينقذنا من كل هذا » · ومع أن هذه البرامج كانت غاية في الابتذال والركاكة الا أنها كانت ذات تأثير غير قليل في نفوس السامعين من الطبقات ذات الثقافة الضحلة والادراك السطحي · ولم تبق هناك طريقة يمكن استخدامها في اظهار شخصية ناصر الا واستخدمت · فقد وزعت صوره في كل مكان وحتى في الكويت ـ التي لم تكن في يوم من الايام ضمن دائرة نفوذه ـ وكان نادرا ما تجد حانوتا يخلو من صورته معلقة في أبرز مكان فيه ·

● « ناصر في الجامعة الكبيرة » : لم يكن ساسة العرب القدامى يكنون

أي احترام أو تقدير لناصر بعد استلامه زمام السلطة علنا من يد محمد نجيب. وكانت نظراتهم لا تختلف عن تلك التي اعتادوا أن يتبادلوها عن انسان حديث العهد بالزعامة قليل الخبرة بخفايا السياسة وألاعيبها • الا أن سرعان ما تبدلت نظرات الاستخفاف بناصر الى أخرى مليئة بالاحترام عندما طفقوا يشاهدونه متصدرا أفلام « جريدة السينما » وهو يتبادل الانخاب مع كبار زعماء العالم برباطة جاش واتزان ، ودون تنازل أو استحياء • ففي خلال شهر واحد ـ شباط (فبراير) ١٩٥٥ ـ استقبل ناصر في القاهرة كلا من تيتو ونهرو وانتوني ايدن والملك حسين ، الى جانب سيل متدفق من رجال الكونغرس وبرلمانات العالم ومن مراسلي الصحف والمجلات العالمية الذين أخذوا منذ ذلك الوقت يفدون الى القاهرة زرافات ووحدانا •

وأما انعكاسات الشعب العربي فقد كانت شبيهة بشعور أهل الريف عندما يشاهدون ـ وهم في أريافهم ـ أحد أبنائهم يظهر في مقابلة تلفزيونية مع أشخاص على شيء من الاهمية والمكانة • لقد شارك العرب انتصاراته وكان ناصر « منهم واليهم » •

وهكذا أوجد ناصر « الاسطورة » وكانت عبارة عن : « القومية العربية بقيادة انسان كناصر ـ أي انسان بطل ـ ولا يشترط ان يكون بالضرورة ناصر نفسه » • الا أن القومية العربية لم تنتقل الى الواقع الملموس اطلاقا وبقيت بعيدة عن كونها حقيقة • فما زال عليك أن تمضي ساعتين من الزمن واقفا على الحدود بين سوريا ولبنان لانهاء الاجراءات ، وتقريبا نفس الوقت على الحدود الاردنية السورية ، الى جانب تفتيش دقيق للمسافر نفسه واجراءات أخرى مهينة • وما زالت العلاقات بين الحكومات العربية متردية وسيئة ، علاوة عن الاجراءات التعسفية في الشؤون الثقافية والتعليمية بين كل من العراق وسوريا ولبنان ومصر • وأما اللاجئون الفلسطينيون فانهم في الوقت الذي كان ناصر يدعوهم في خطاباته « باخواننا العرب شعب فلسطين » كانوا يعاملون أسوأ المعاملة ـ وكأنهم اجانب ـ في مصر والبلاد العربية المضيفة لهم • ومع كل هذا فقد نمت تلك « الاسطورة » وترعرعت وأصبحت ـ على حد تعبير بعض المصادر المطلعة ـ القوة المسيطرة في سياسة العالم العربي في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات • بل لقد اصبحت بالنسبة للعرب حقيقة بقدر ما أصبح

« بابانويل » حقيقة عند الاطفال يوزع عليهم اللعب والهدايا عشية عيد الميلاد ٠

وعلى أي حال ، فان هذا الاتجاه لم يكن مسيطرا لدرجة كافية ٠ لقد أفلح ناصر في فتح طريق قليل المصاعب والمقاومة أمام الزعماء العرب وهو طريق « أسطورة القومية العربية » ـ أو طريق الترغيب ـ كما تفهمه القاهرة ٠ الا أنه ما زال هناك بعض قادة العرب الاقوياء يكنون كراهة للقاهرة ويصرون على أن يسيروا في ذاك الطريق لوحدهم دون وصاية من ناصر عليهم ، ودون الانتساب الى « جمعيته » ٠ وهكذا وجد ناصر نفسه مضطرا لان يسلك « طريق الترهيب » لاستكمال عناصر « جمعيته » ولاخضاع من شق عليه عصا الطاعة ٠

- ٩ -

الناصرية والإرهاب

... ولن يلين عودهم وينضموا اليك حتى تصير حياة « خوارجهم » شقاء وضجرا .

أمضيت الهزيع الاخير من عام ١٩٥٦ ، وأوائل عام ١٩٥٧ ، منهمكا في شرح أفكار ناصر أمام مجموعات عديدة من الرسميين الامريكيين ، باسطا لهم متاعبه ومشاكله ، ومعلقا عليها بنفس الطريقة التي كان هو نفسه يود أن تعرض شؤونه بها أمامنا . وكنت أنفق الساعات الطوال في مكتب الوزير دالس ، أو في مكتب وكيله هربرت هوفر ، بغية ضم جهودنا معا في محاولة لتحديد معالم أبعاد ردود الفعل التي كنا نتوقع أن تصدر عن ناصر ، ردا على بعض الاجراءات التي كانت الحكومة الامريكية تنوي اتخاذها . ولم أكن أواجه أية صعوبة في شرح سلوك ناصر ، عساه يكسب بعض عطفنا وينال شيئا من ضماننا . الا أنني لم أنجح في تبسيط سائر نواحي سلوكه ، وأخفقت في شرح احداها . كما أخفقت في عدم اثارة حفيظة زملائي ورؤسائي كلما حاولت ذلك ثانية . ولقد أخبرت مرة أن أحد كبار الرسميين في وزارة الخارجية قد التفت الى جاره بعدما غادرت أحد تلك الاجتماعات الهامة التي كان يدعوني اليها الوزير دالس الى تمثيل دور ناصر في « لعبة الامم » ـ وقال له : « انني لا اثق بذلك الانسان ـ اي بي ـ فانه يتكلم بالحاح واهتمام أكثر من ناصر نفسه » . وفي مناسبة أخرى التفت الي آلن دالس (مدير وكالة المخابرات المركزية) وقال لي : « اذا حاول بكباشيك أن يحشرنا في الزاوية فلن نتأخر في شطره نصفين ! » ولا أظن أن انسانا على وجه البسيطة يفوق آلن دالس في فهم وتطبيق أحد مبادىء التحليل السياسي القائل : « ضع نفسك في مكان الآخرين » . ومع ذلك فلن يتمكن آلن نفسه من طرق ومعالجة اي من مشاكل ناصر دون أن يثور ويغضب ، وذلك لانها حقا « مصدر غيظ وازعاج » .

كان اقتران الناصرية بالارهاب ، وتلازمها به ، مصدر تعب لنا وقلق ، أقض مضاجعنا ، دون أن نجد سبيلا لفهمه أو تحليلا لدافعه · فالامريكيون ينفرون من الارهاب ، ويكرهون سماع أخباره ، متناسين أن تحركات الغرب ضد المتمردين من زعماء آسيا وافريقيا لا تعرف غيره غاية وسبيلا · ولكن ما العمل ؟ فناصر نفسه يمتدح العنف وأساليبه ، ويدعو لها جهرا بافتضاح · ففي داخل بلاد ناصر وأراضيه ، يسود القانون ويعم النظام ، وفي خارجها لا تجد لهذا داعيا ولا سببا · فاذاعة القاهرة تحض علنا على اشعال الفتن واحداث الاضطرابات المدنية في البلاد ـ كل البلاد ـ التي يسوسها زعماء معارضون له أو يحكمها رجال يأبون أن يكونوا مطية له · ولا تجد اذاعة القاهرة أحيانا أي حرج في توجيه الدعوات علنا لاغتيال الحكام والرؤساء · وكانت نتيجة كل هذا وذاك اشمئزاز رجال السياسة الامريكيين من هذه الاستفزازات ، وقلق الدبلوماسيين ورجال المخابرات من هذه الحماقات ، وأعمال الطيش والجنون ·

الا أنه لا يستبعد وجود تفكير ذكي خلف ارتكاب ناصر لاعمال العنف والارهاب · فهو يحاول أن يظهر على أنه زعيم « كتلة » ، ولكنه مضطر لمقاومة المنشقين عنه ولاستخدام العنف للبطش بالخارجين عليه والرافضين دخول « كتلته » ، وله ذلك · فاتحادات العمال لا تملك أن تصبح قوة فعالة دون أن تضمن « وحدة الصف » ، ويلتزم قادتها « بوحدة الهدف » · والمتمردون في مثل هذه الظروف ـ مهما قل عددهم وضعفت قوتهم ـ يفسدون جهود الغالبية ، ويحيلون قوتها ضعفا ووحدتها افتراقا · وهكذا يتصرف ناصر · فبالعنف وحده يعامل الخارجين عليه كما يعامل زعماء اتحادات العمال (في الولايات المتحدة ، ولا أظن ذلك) المتمردين عليهم ، بل ان ناصرا أشد بطشا منهم وأكثر تنكيلا · وما مرد الفارق في الشبه الا الى تلك الفوارق بين المجتمعات ·

ومن الصعب التسليم بأن الارهابيين يجيدون فن العنف أكثر مما يجيده شعب وديع ألجأته ظروفه الى تبنيه كسبيل للنجاة · وفي الوقت الذي لا يلعب الارهابيون أي دور رئيسي حتى في أسوأ المظاهرات التي تحدث في أمريكا ، فانهم يفوزون بحصة الاسد منها في البلاد « المنشقة » عن ناصر · وقد أطلق

المشرفون على النشاط السياسي الناصري لقب « المتعصبين » على هذا النوع من الارهابيــين ٠

وفي قاموس السياسة الناصرية ، فان كلمة « المتعصب » ترمز الى ذلك الانسان الذي أنكر ذاته في سبيل المبدأ الذي اعتنقه ، وكرس حياته للوصول الى الهدف الذي ارتضاه ، مهما كانت المشاق وبلغت المصاعب ٠ وبالتعريف ، فان « المتعصب » هو الخاسر دوما ، ولكنه دائما يستخدم سلاحا في أيـدي أولئك الذين يعيشون للاهداف نفسها ، ولكـــن « دون تعصب أو تزمت » ٠ ويدفع ناصر باستمرار أمثال هؤلاء « المتعصبين » الى خوض غمار المعارك تلو المعارك ، مهما كانت الخسائر جسيمة وخرجت عن حدها المألوف ، حتى يحبط مساعي « المنشقين » عنه ويقنع « الخارجين » عليه بالانضمام « للكتلـــة » ٠ وبعبارة أوضح ، فلعبــة « المتعصب » شبيهة جدا بلعبة « التشكن [1] (أو الفرخة) ٠ فلسان حال المتعصب يقول : « انني أعلم علم اليقين أنني لن أذوق طعم النصر ، بل قد أموت ، الا أنني لن أكون وحيدا ، فستكون معي حتما ، ان لم تكن قبلي » ٠

ولاعب مثل ناصر ، لا يملك من الموارد الا أقلها ، لن يتلكأ في استغلال أولئك « المتعصبين » ٠ لقد أثبت التاريخ ، مرارا وتكرارا ، أنه بهذه الطريقة دون سواها تتمكن الاقلية من فرض ارادتها على الاكثرية ـ مهما بلغ تعدادها وقويت حجتها ، ان كان لها حقا أية حجة لتدفع بها عن نفسها ـ وتنال منها ما شاءت من التنازلات ٠ وكلما زاد ضغط الاغلبية على المتعصبين ، وتصاعـد اضطهادها لهم ، فانهم عاجلا أم آجلا سيندفعون في أعمال شغب وعنف ، غير مكترثين بالنتائج ولا مبالين بالعواقب ٠ غير أن ارتباطهم بقيادة « غير متعصبة » يجعل منهم سلاحا ذا مرونة ودهاء ٠ وعندها يمكن ايقافهم فجأة ، ولو قبـــل الانتحار بقليل ٠ وهم يتقنون التصنع ، فلا تلمس منهم الا رغبة صادقـــة أصيلة بالوصول الى حد الانتحار ، ويضيع على الخصم معها معرفة مـــا في قلوبهم حقا : هل سيقفون فجأة ؟ أو هل في نيتهم أصلا أن يقفوا فجأة ؟ أم أنهم ماضون ولن يعودوا أبدا ؟ وغالبا ما يمكن تزيين ذلك الهذيان الذي يتفوهون

---

(١) ورد تفسيرها في الفصل الاول ٠

به وتحسينه ، حتى ليغدو كلاما معقولا ومنطقا مقبولا ، بل ويتراءى لهم كأنه شعار أخلاقي سام • وكلما أمكن عزل الحركات المتزمتة عن المفكرين والمتفوهين، وعن الاحتكاك المباشر بالصحفيين ، فان هذه الحركات تصبح من أحسن وسائل التأثير على الجماهير • وان هؤلاء « المتعصبين » ليسوا أكثر من « مجموعة رجال بواسل ، يكافحون في سبيل أهدافهم ، وضد الاضطهاد والاستبداد » • ان قيمتهم وهم أموات لا تقل أحيانا عن قيمتهم وهم أحياء • انهم يتساقطون رغم أنوفهم في أروع صورة وأجمل مشهد •

وليس من الصعوبه بمكان ، توفير مثل هذه العناصر المتزمتة • ففي أي بلد يسوده الحرمان ويتفشى فيه اليأس ، تعشعش هذه العناصر المتعصبة ، وترتع فيه وتمرح • ويملأ نفوسها التزمت ، ويجيش في صدورها الحقد والكراهية ، وتهدر وتزأر وهي تنتظر انبعاث « المهدي » من مرقده ليوقظها ، ويأخذ بيدها الى شاطىء الكفاية والكرامة • وتهدف الافلام الغربية في دور السينما وعلى شاشات التلفزيون ، الى تثقيف الشباب وتوجيههم الى استخدام العقل وعدم اللجوء الى العنف كما يلقنون الاشمئزاز منه ويرغبون بالوسائل المريحة التي قدمها لهم القرن العشرين • الا انهم سرعان ما يدركون أنه لا حاجة لاستعمال عقولهم • فكل ما يتقاضونه ـ ان هم التحقوا بعمل شريف أو زاولوا مهنة كريمة ـ لا يعادل الا جزءا بسيطا مما تتطلبه حياتهم على الطريقة الغربية ، وكما تعرضها الافلام وبرامج التلفزيون • لقد ترعرعنا ـ نحن الامريكيين ـ في مجتمع يعتقد أن كل انسان ـ وان كان متوسط الذكاء ـ بامكانه أن يصبح رئيس مجلس ادارة شركة (جنرال موتورز) وان كان أصله فلاحا أو مزارعا • وكل ما يحتاجه هو أن يتمتع بالكفاءة اللازمة لشق طريقه بنفسه ، وأن يملك التصميم على التمسك بمبدئه مهما كانت الصعاب • ولقد جرت مناقشات بيني وبين عشرات من شباب الشرق الاوسط ، واقتنعت أنهم جميعا ـ باستثناء بعض المحظوظين ـ قد قضي عليهم أن يعيشوا طوال عمرهم دون أن ينالوا شيئا ، ولا حتى ما لقنوا اياه • ولم يبق ـ مع الاسف ـ سوى طريق واحدة مفتوحة أمامهم ألا وهي طريق التضحية بالمصالح ، والارتباط بأهداف مقدسة ضد أشياء محددة معينة • وهكذا فان هذه الطريق هي أحسن

طريق لتصريف المشاعر السلبية المكبوتة ، مثل الشعور بالخيبة والاحساس بالحرمان ٠

إن حقيقة اعتناق الحركات المتزمتة لاهداف ثابتة محددة ، تعمل لها ، وتناضل في سبيلها ، تجعل منها عنصرا غير مرغوب به في أي بلد ما ، وخصوصا اذا كان من بين تلك الاهداف اسقاط نظام الحكم نفسه ، كما كانت الحالة أيام حكم ناصر الاولى ٠ الا أن الحركات المتزمتة تصبح ذات فائدة ضخمة ان أمكن تسخيرها لخدمة أهداف ما في بلد آخر ، كاسقاط نظام حاكم ما ، أو الضغط على سياسة زعيم آخر ٠ ومن السهولة بمكان اقناع « المتعصبين » بفساد النظام السائد في بلدهم وغرس الكراهية له في نفوسهم ، مهما كان شكله ونوعه ٠ فالجماهير المحرومة واليائسة لا تنظر الى الامور كما يجب أن ينظر لها ٠ وفي هذه الحالة فان نظام الحكم يشكل هدفا مناسبا في حد ذاته ٠ وكان ناصر يسلك هذا المسلك فيكشف عن تقصير أنظمة الحكم المتمردة عليه ، ويفضح أخطاءها حتى يعجل في اسقاطها وزوالها ٠ ولم تكن هناك ضرورة لاقتراح وسائل معينة للمعالجة ، وانما كان يكتفي باطلاق شعارات عامة مثل « القضاء على الاستعمار » الذي لا يشكل اغراءا للمتعصبين فحسب ، بل انه منبع لا يناله نقد ولا يطاله تحليل ٠

وأخيرا نصل الى جوهر التكتيك الناصري في محاربة المتمردين على مؤسسة « ناصر » ٠ ان « المتعصبين » لا يحتاجون البتة الى توجيه محدد وأسلوب منظم ، وانما يكتفون بأن تنير لهم الضوء الاخضر ، حتى ينطلقوا في تنفيذ مهمتهم وانجازها ٠ لقد اعتاد الامريكيون والبريطانيون ــ والى حد ما السوفييت أنفسهم ــ على اتقان الخطط المفصلة والتفنن في أسلوب تنفيذها عندما ينوون الاطاحة بأي نظام حكم ٠ فان كان هدفهم القيام بانقلاب عسكري ، فان سلسلة العمليات التي تؤدي اليه يجب أن تكون دقيقة التنظيم واضحة المعالم وكأنها عمليات عسكرية محضة ٠ (وعلى سبيل المثال ، فان العملية التي نفذت ضد « مصدق » في ايران ، كانت تتطلب من ساعتين الى ثلاث ساعات من الحصص المدرسية لشرحها مع الاستعانة بالخرائط ، وتفاصيل مراكز القوة ، وطرق تحويل وتنظيم هذه القوى ، وغير ذلك) وأما في حالة استخدام الحركات

المتعصبة بالطريقة التي استخدمها ناصر بها ، فان كل ما يجب فعله هو تهيئة المسرح عالميا ، ثم اصدار الاوامر لاذاعة القاهرة بالهجوم على الهدف المحدد ، ومن ثم اعتماد أكثر الحركات المتعصبة تحمسا للهجوم ، بعد تزويدها ببعض الاسلحة والاحتياجات الاخرى ، ثم تركهم وشأنهم لانحاز المهمة واتمامها ٠ والدافع الوحيد لاهتمام الانسان بمثل هذه المخططات ، هو لمعرفة نصيبها من النجاح ، والوقوف على الطريقة التي لا يمكن لجماعة المتعصبين بدونها المحافظة على أي نصر يحرزونه في أي من الاقاليم الخارجة على السياسة الناصرية ٠

ولا مانع من أن نستعرض هنا ملخصا للاجراءات النموذجية التي يتبعها ناصر في محاولته للاطاحة بأنظمة الحكم المتمردة عليه :

أولا : تبدأ اذاعة القاهرة بالهجوم على نظام الحكم لاصقة به الاتهامات الكافية لاثارة بعض الجماعات المتعصبة ، متجنبة توجيه الاتهامات التي لربما تكون موضع احراج لناصر في حالة نجاح الضربة ٠

ثانيا : محاولة دراسة ردود الفعل لحملة الدعاية السابقة عسى أن يتعرف ناصر من خلالها الى « المتعصبين » أو الى الحركات المتزمتة التي يمكنه الاعتماد عليها حال بدء العمل ٠

ثالثا : محاولة الاتصال بالمتعصبين ، وغالبا ما يكون هناك عدة فئات تتنافس مع بعضها البعض ٠ ثم يتم تزويدهم بالسلاح ، ويحدد ناصر بالضبط ما يمكنه الحصول عليه من مخططاتهم ٠

رابعا : محاولة التعرف الى بعض العناصر الملائمة و[illegible]بدة عن التعصب ، والتي يمكنها أن تتسلم القيادة في اللحظة المناسبة (اما قبل الاطاحة بالحكم أو بعده) لتستفيد من المكاسب والمنجزات ٠ ثم يحاول ناصر ، عقد اتفاقات معهم ، تضمن له انضمام ذلك البلد الى « جمعيته » (١) ، الى جانب جملة أهداف أخرى ٠ كما يعدهم ناصر بتأمين الاعتراف بنظام الحكم الجديد فور نجاح الانقلاب مع استمرار تأييد اذاعة القاهرة له ٠

الا أن هذا المخطط لا يخلو من وجود خطأين خطيرين فيه ٠ أولهما : ان

(١) « جمعيته » أو « كتلته » تفيدان نفس المعنى (المعرب)

القيام بسلسلة عمليات كالسابقة الذكر ، سلاح ذو حدين • فمن السهل أن تبدأها ولكنه من الصعب أن توقفها • وثانيهما : ان وجود عناصر غير متعصبة في مثل تلك العمليات ـ وهم غالبا ما يتحلون بسلوك انتهازي ، كناصر نفسه ـ سيشكل حجر عثرة في سبيل ضمان اتمام الصفقات المتفق عليها معهم • ومن أبرز الامثلة على الخطأ الاول هو النزاع السابق الذي وقع بين ناصر والملك حسين في الاردن • فعندما قرر الملك حسين الانصياع لناصر . وقال له بالفصل « انني قد وافقت على ما تريد » ، لم يكن عندئذ لدى الاخير أية طريقة لاعادة الامور الى نصابها وكبح جماح فئاته المتعصبة • ويعطي الانقلاب العسكري في العراق سنة ١٩٥٨ مثالا واضحا على الخطأ الثاني • فزعماء الانقلاب ما كانوا ليقوموا به لولا التشجيع المصري ووعد ناصر لهم بمنحهم بركاته ، وبركات كل الاطراف الملتزمة معه في « جمعيته » • لكن قادة الانقلاب ، سرعان ما استقلوا برأيهم عن ناصر ، وسلكوا طريقا آخر ، قادهم أخيرا الى تشكيل جبهة معارضة له ، لا تقل عداوة ومشاكسة عن جبهة نوري السعيد السابقة •

ان الحرب التي يشنها ناصر ضد المتمردين على مخططاته ، قد آلت الى نتائج جعلت حكام العرب لا يتجرأون على الارتباط بأية قوة كبرى ، شرقية أم غربية ، دون الاخذ بعين الاعتبار وجود « جمعيته » ، وحتى موافقته الشخصية على ذلك • ولقد خدمه هذا المخطط ـ وعلى الاقل ـ لمدة من الزمن • وان التصدع المتزايد « لجبهته المشتركة » ، وما أصابها من شروخ وانقسامات ، لم تكن نتيجة اخطاء جذرية في استراتيجيته (عندما وضعها خلف الابواب المغلقة) أكثر من كونها نتيجة التغييرات المستمرة للظروف العالمية •

ولقد لفت شخصيا أنظار أصدقائي المصريين ، وأنظار ناصر نفسه عندما كنت التقي معه ، الى أن تحالف الناصرية مع المتعصبين والغلاة في البلاد المجاورة، يثير ردود فعل سيئة في العالم الغربي ، وبالتالي فانه يحيل ميزات « جمعية » ناصر الى سيئات • وأدرك الجميع وجهة نظري هذه واعترفوا بصحتها ، ولكنهم احتجوا بأن لا طاقة لهم بالمخططات الامريكية المعاكسة لفرط قوتها ووفرة مالها• ولهذا فليس أمامهم الا طريق اللجوء الى ما تبقى لديهم من وسائل ، مهما كان نوعها ولونها • وهم بهذا يطبقون الاستراتيجية القائلة : ان الامة الضعيفة لا

يمكنها أن تلعب دورها ضد القوى الكبرى ـ وعلى الاقل حول طاولة « لعبة الامم » ـ دون استخدام العنف ، الذي يسد العجز في نواح عديدة من ميزان القوى ٠

ولادراك هذه الحجة يجب أن نملك فكرة واضحة عن « استراتيجية المخططات المعاكسة » التي يظن الزعماء الناصريون أننا نتبعها في تحركاتنا ضدهم ٠ فلقد بقيت هذه الاستراتيجية لغزا محيرا لهم ، وذلك لاننا كنا نتظاهر باتباعها في نفس الوقت الذي كنا نستغل فكرة « جمعية » ناصر نفسه ، وما لها من نفوذ واسع في المنطقة بغية ايصال مخططاتنا الهامة الى درجة النجاح ـ الذي ما كان لنا أن ندركه دون اتخاذ نفوذ ناصر الواسع مطية لنا ـ وعلى سبيل المثال ، فقد كان مشروع اريك جونستون لنهر الاردن واحدا منها ، وذلك لانه لم يكن ممكنا تنفيذه دون موافقة ناصر وضغطه على بقية زعماء العرب للقبول به ٠ ومثال آخر على ذلك ، هو محاولاتنا المتكررة لجر ناصر الى قيادة العرب بغية السيطرة عليهم ، وبالتالي اقناعهم بتخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل ٠ ولقد قامت الحكومة الامريكية بأكثر من محاولة لدعم هذه الفكرة ووضعها حيز التنفيذ ٠ كما ألقت بثقلها وراء « جمعية » ناصر بغية تحقيق ذلك المأرب ،واخراجه الى حيز الوجود (١) ٠

وكان التناقض واضحا وجليا في كل أفعالنا وقراراتنا ٠ فقد كنا نسدد باقي حسابنا مع ناصر بشكل محاولات تهدف الى تقويض نفوذه ، أكثر مما تهدف الى تقويته ٠ وكنا نفعل هذا جهرا بافتضاح ٠ وأول ما نذكر في هذا المجال « حلف بغداد » نفسه ٠ فقد قال عنه باتريك سيل (في كتابه الصراع على سوريا) أنه « كان ذا تأثير بالغ على السياسة العربية في كل المستويات » ٠ كما قال ب٠ ج٠ فاتيكيوتس ان حلف بغداد كان صدمة عنيفة على سوريا ٠ ولم تكن هذه سوى عبارات مخففة لتصوير الموقف بشكل أقل مما كان عليه حقيقة ٠ لقد هز حلف بغداد العالم العربي الى حد تعذر علينا معه ـ وذلك لفترة من الزمن ـ الاحتفاظ بمواقع الغرب في الشرق الاوسط ، مستنفدين كل ما تحت تصرفنا من مساعدات

---

(١) لا أظن القارىء العربي قد وصل حدا من الغباء والشقاء يحتاج معه الى شرح لهذه العبارات الموجزة ٠ (المعرب)

اقتصادية · وقد أدرك هذه الحقيقة كل من كان له علاقة مباشرة مع العالم العربي من الرسميين الامريكيين والبريطانيين · غير أنني في ذلك الوقت لم أكن أملك الشجاعة الكافية لادخل قاعة تلك الاجتماعات التي كانت تعقد في مقـر الوزير دالس ، وأعلن هذه الحقيقة المؤلمة ، كما أعلنها باتريك سيل وفاتيكيوتس ·

وفي نيسان (أبريل) ١٩٥٤ ، وقعت كل من الباكستان وتركيا معاهدة صداقة ودفاع مشترك · وبعبارة أدق ، لم تكن تلك المعاهدة تعني قيام حلـف عسكري بينهما · وقد وقعت تركيا والباكستان تلك المعاهدة بدافع ذاتي ، ودون أي ضغط خارجي من الولايات المتحدة أو من بريطانيا · ولكن رجال الامن العام التابعين لناصر ، قاموا بتصوير جميع صفحات جوازات سفر كبار المسؤولـين الامريكيين والبريطانيين لدى عبورهم نقاط الامن العام في مطار القاهرة · وكان من السهل بعدها أن تقوم القاهرة بنشر معلومات تدعي فيها أنه قد مر في مطار القاهرة ــ وقبيل توقيع المعاهدة ــ ما لا يقل عن ثلاثة من الرسميين الامريكيين ، الذين لهم علاقة بالمعاهدة ، وعلى جوازات سفرهم تأشيرات دخول وخروج تركية وباكستانية · وفي نفس الشهر ، وافقت الولايات المتحدة رسميا على منح العراق مساعدات عسكرية في ظروف أثارت الشكوك في نفس ناصر ، وظن أن حكومة نوري قد قامت بتقديم تنازلات سرية ، مع أن العراق لم يكن قد أعلن ليومها عن أية ارتباطات رسمية شبيهة بتلك التي طلبها من ناصر كل من جيرهارت وايفلاند سابقا · ولكن بعد تسعة أشهر ، وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ ، أعلن كل من العراق وتركيا ، في بيان مشترك ، أنهما على وشك توقيع حلف بينهما · وقد حدث هذا حقيقة في الشهر التالي من العام نفسه ، ولحقت بهما بريطانيا ووقعت على الحلف بعد ثلاثة أشهر ·

ومع أن مقري كان يومها في القاهـرة ، الا أنني كنت أتـــردد الى سوريا والولايات المتحدة ، حيث كان يسمح لي وقتي بزيارة معظم زملائي القدامى فــي واشنطن · وفي احدى زياراتي للقاهــرة مــع البرت جيرهارت في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤ ، نقل الي بيل ايفلاند صورة محتملة عن تسلسل الوقائع ، وأشار بوضوح الى أن ناصرا سوف يجد نفسه وحيدا ومتخلفا عن الركب · ولكن لم يكن بيننا من صدقه في حينـــه · وأهمـــل كل من السفير كافري وجيمس

ايخلبرغر حديثه ولم يعيرا تنبؤاته أي اهتمام أو انتباه · وفي اليوم الذي أعلن فيه الاتراك والعراقيون توقيع الاتفاق بينهما ، لم يعلم أيخلبرغر به الا عن طريق نشرة الاخبار الداخلية التي تصدر داخل السفارة · فلم يرد أي ذكر للاتفاق في سياق البرقيات الرسمية ، التي ترسلها وزارة الخارجية في واشنطن الى القاهرة · واقترح يومها ايخلبرغر أن اذهب واياه لزيارة ناصر في منزله لنطلعه على النبأ · وفعلنا ذلك حالا · وبعد أن نقلنا له الخبر ، جلس ناصر لدقائق معدودات في صمت مطبق ودون أن ينبس ببنت شفة · ثم ما لبث أن خاطبنا بصوت منخفض ، ولكنه منذر بالشؤم ، مذكرا ايانا أنه ـ بغض النظر عن حديثه مع ايفلاند وجيرهارت ـ لم يفهم من جميع الامريكيين الذين لهم علاقات معه، ومنهم السفير كافري ، سوى أن الحكومة الامريكية ستعطيه الفرصة الكافية لانشاء منظمة دفاع اقليمية عربية بدون أن يكون لها أية علاقة مكشوفة مع الغرب · وسيتم بناء هذه المنظمة الدفاعية بصورة تسمح لها أن تجد مكانها المناسب ضمن مجموعة الخطط الغربية حال ظهور أي خطر يهدد الجميع · وكاد حسن التهامي ـ وكان حاضرا ـ أن يفقد أعصابه عند سماعه النبأ ، الا أن ناصرا خفف عنه ، وهدأ من روعه · وعندما غادرت وأيخلبرغر المنزل كان الاثنان غارقان في صمت تام ، والدنيا من حولهما تنظر وتترقب ·

وبعد قرابة يوم ، غادرت القاهرة الى دمشق لقضاء بعض الاعمال التي لا علاقة لها بما سبق ذكره · وفي دمشق صحبني صديقي مجد الدين الجابري (وكان يشغل يومها منصب وزير الاشغال العامة) معه الى عند وزير الخارجية فيضي الاتاسي الذي ألقى علي محاضرة مليئة بشكوك الاطفال وأوهامهم · ولو أنني لعدت ما سمعت منه على المسؤولين في واشنطن ، لشكوا بصحة عقله واتهموه بالجنون (ولم يكن هو كذلك) · الا أن الحديث قد وضع لي الفكرة التي رسمها العرب في مخيلتهم عن الامريكيين · وكانت محاضرته تحتوي على عبارات مثل : « الاستعمار ·· يحاول أن يبقي العرب ضعفاء ·· انكم لستم سعداء الا عندما نصبح عبيدا لكم ··· انكم تتمنون أن نبقى متخلفين وخياليين ··· وكالة المخابرات المركزية ··· فاضل الجمالي عميل لها ··· ولي العهد (الامير عبد الاله) يأمل أن يصبح ملكا على سوريا ··· » الى غير ذلك من العبارات المماثلة لما سبق ذكره · وفي اليوم التالي ، أمضيت ست ساعات وأنا

أشق طريقي خلال الثلوج المتراكمة على جبل لبنان ، وخلال مراكز المراقبة التابعة للجمارك والامن العام على حدود البلدين ، حتى أصل الى بيروت · وفي المساء التقيت بعدد من اللبنانيين المؤيدين لناصر والذين ألقوا علي محاضرة لا تختلف عن تلك التي اصغيت لها في دمشق · ومع انني التقيت ايضا بعدد من اللبنانيين المناوئين لناصر ، الا أن حديثهم لم يكن يختلف كثيرا عن الحديث السابق في معانيه ، سوى أنه كان اخف حدة والطف منطقا · وعندما قصدت في نفس اليوم مبنى السفارة الامريكية في بيروت التقيت صدفة بأحد معارفي القدامى (وكان قادما من واشنطن في زيارة لبيروت) · ولكنه سرعان ما تأبط ذراعي والتفت الي قائلا : « وأخيرا فلقد عثرنا عليكم يا عشاق ناصر ، أليس كذلك؟! »·

وعندما عدت الى القاهرة ، كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق ، تحضيرا لمؤتمر وزراء الخارجية العرب · ولم يكن أصدقائي المصريون ، من الذين لهم علاقة بالمؤتمر ، ليتحدثوا الي الا عندما يودون توجيه انتقادات لاذعة للوزير دالس · وعندما وصل الوزراء العرب الى القاهرة قمت بالاجتماع بأكثرهم ، فقد كنت أعرف نصفهم تقريبا · ولقد أعربوا لي عن وجهات نظر متفاوتة كانت كلها تلتقي حول حقيقة واحدة ، وهي ان خلافا جديدا قد نشأ بينهم لكنه من نوع أشد وأقوى من تلك الخلافات السابقة التي اعتادوا عليها · ونتيجة لذلك ، فقد أخذت كل من بغداد والقاهرة في استقطاب الدول العربية الاخرى حولهما ، وحلت سياسة المحاور محل سياسة الاتفاق والتفاهم ، وأضحى الصف العربي متصدعا الى حد استفاد منه السوفييت أكثر مما استفاد منه الغرب بكثير ·

وفي تلك الاثناء ، وصل السفير بايرود ليتسلم مهام منصبه كسفير للولايات المتحدة في القاهرة · وقام بايرود بعدها بتناول طعام العشاء في منزلي بصحبة كل من ناصر وعبد الحكيم عامر وحسن التهامي (وقد أتيت على ذكر ذلك سابقا) · وقد أطلعت وايخلبرغر ، بايرود على وجهتي نظرنا السلبيتين حول حلف بغداد · ونظرا لبعده عن تأثيرات أجواء واشنطن الرسمية عليه ، فقد نجحنا في استمالته الينا ، وضمه الى صفنا · وساعد تعاطف بايرود مع وجهتي نظرنا اتخاذ موقف اقل ما يوصف به انه ملطف لردود فعل ناصر تجاه حلف بغداد · وحاول بايرود ان يطمئن ناصر حول نتائج الحلف ، مؤكدا له أن الامور

لن تتطور الى اسوأ ، وان مساندة بريطانيا والولايات المتحدة للحلف لن تبلغ درجة هامة وخطيرة ٠

وفي آذار (مارس) ، علمنا ان بريطانيا على وشك التوقيع على معاهدة حلف بغداد ، وان هناك ضغطا على الحكومة الامريكية حتى تحذو حذوها ٠ وفي تلك الاثناء ، كان الموقف قد اتضح تماما لبايرود ، وصار يراه كما كنا نراه ٠ وعندها اقترح علي بايرود أن أنتحل بعض الاعذار - كقضاء بعض الاعمال - للسفر الى الولايات المتحدة ، واحاول هناك ان أتصل ببعض الاصدقاء المسؤولين في وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وابلغهم شفهيا ما كان يعنيه كل من بايرود وايخلبرغر فيما ارسلاه من برقيات ومذكرات وكانا فيها متحفظين جدا (حتى لا يبدو بايرود وكأنه قد غير مواقفه فجاة بين عشية وضحاها مما يسيء الى مكانته ، ويظهره بمظهر الغبي الاحمق) ٠ وقد دأب بايرود على ارسال مثل تلك البرقيات والمذكرات منذ اليوم الاول لوصوله الى القاهرة ، دون أن يأتي صراحة على ذكر آرائه الجديدة حول أحداث المنطقة ٠ وذلك لان الانسان ان وجد ضرورة لتغيير مواقفه وآرائه التي كان يتمسك بها يوما ما بقوة ، وجب عليه أن يفعل ذلك بهدوء وتدرج لئلا يثير أزمة ثقة واطمئنان ٠

وعندما وصلت الى واشنطن ، قمت بزيارة لكيرميت روزفلت في مقره في وكالة المخابرات المركزية ، وبسطت له وجهة نظري بخصوص حلف بغداد (وكانت شبيهة بآراء كل من الكاتبين باتريك سيل وفاتيكيوتس) ٠ ومع أن كيرميت روزفلت لم يظهر استحسانا كليا لوجهة نظري ، الا أنني أفلحت في أن أضفي - على الاقل - شيئا من الصبغة الواقعية (كما هي حقيقة في الشرق الاوسط) على النظريات التي كانت سائدة آنئذ في واشنطن ، وأخذ روزفلت كلامي هذا بعين الاعتبار ، مما منحني شجاعة وجرأة لان أنتقل الى شرح أكثر صراحة وأوسع شمولا ٠ وسرعان ما أدار قرص الهاتف ليتخذ الترتيبات التي تسمح لي أن أمثل لدقائق معدودات أمام أحد الاجتماعات الرسمية ، التي كان مقررا لها أن تعقد بعد ظهر ذاك اليوم في مكتب وزير الخارجية دالس ، ويحضرها معا خبراء وكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية ٠ ولا أزال أذكر جيدا ذلك الاجتماع الذي اقنعني يومها انه مهما أوتي أولئك المؤرخون (مثل باتريك سيل

وفاتيكيوتس) شجاعة وجرأة لعرض افكارهم وآرائهم ، بنفس قوة الاقنـاع الملموسة في مؤلفاتهم (وهي تدور حول سوء ردود الفعل ضد الامريكيين نتيجة توقيع حلف بغداد) أمام المجتمعين يومها ، لما أفلحوا في زحزحتهم عن مواقفهم المتعنتة ، تجاه سياستنا في الشرق الاوسط ، ولا قيد أنملة ٠

كان يحضر ذلك الاجتماع الوزير دالس ، والى جانبه كل من بيل روئتري (الذي حل محل بايرود في منصب مساعد الوزيـر لشؤون الشرق الاوسط) وكيرميت روزفلت من وكالة المخابرات المركزية ، بالاضافة الى أربعة أو خمسة من ألمع خبراء الوزارة من الشباب الذين استظهروا معلومات واسعة حول البلـدان المتعددة في الشرق الاوسط ٠ وكانت تلك المعلومات تشمل كل شيء حول الموارد الطبيعية وغيرها من الحقائق والاحصائيات الاستراتيجية الهامة ٠ ولست متأكدا من حضور بيل ايفلاند لذلك الاجتماع ، الا أن ممثلا عن وزارة الدفاع كـان بالتأكيد في طليعة المشتركين فيه ٠ وضم ذلك الاجتماع فعـلا كبار مخططـي الاستراتيجية الامريكية في الشرق الاوسط ، وكان في متناول يدهم كامـل المعلومات المتوفرة في كل الاجهزة والدوائر في واشنطن ولندن حول استراتيجية السوفييت ، وقوتهم العسكرية ، وحالة التسلح النووي آنئذ ، والتغيـيرات في معدلات انتاج النفط حتى عام ١٩٧٠ ، وحالة التطـور الصناعي في أوروبا ، وتقارير مختلفة عن نشاطات حلف الاطلسي ، وما لا حصر له من التقاريـر والمعلومات المصنفة والواردة من كل حدب وصوب ٠ ولم أجد صعوبة في اجتذاب انتباه الحاضرين في الاجتماع ، فقد كانوا كرماء في ذلك ، كما حصل بسرعة وعن طيب خاطر ٠ الا أنني لا أدري ماذا انتابني وأنا ماثل أمامهم ٠ فلم أوفق في أن أنقل اليهم سردا كاملا لتفاصيل سياسة البعثيين ، وللرفض الذي يحملـه العرب لسياسة نوري السعيد وفكرة الهلال الخصيب ٠ كما لم أوفق الى شرح أمور عديدة ، شبه رسمية ، تعتبر مخالفتنا لها في المنطقة ظلما وقسوة ، ولكن الانسان لا يقيم لها وزنا عندما ينظر اليها وهو قابع خلف الجدران في واشنطن ، وقد يشعر أنها لا تساوي ولا حتى ذلك التشويش الذي يثار بسببها٠ فالمسؤولون في واشنطن لا ينظرون الى الشؤون العالمية الا من خلال منظار القنابل الذرية ، والحرب الباردة بين الشرق والغرب ، وحلف وارسو ، ومعاهدة دفاع حلـف الاطلسي وكان جل تفكيرهـم بالشرق الاوسط لا يتعدى حدود مشاكلـه

الاقتصادية وموارده الطبيعية . وأما مشكلة اسرائيل فانها كانت تتطلب اهتماما زائدا وذلك لاسباب سياسية داخلية ذات أهمية لا تتناسب اطلاقا مع أهمية اسرائيل الاستراتيجية .

ولقد دأب أولئك الرسميون على النظر الى غيرهم من خلال المنظار السالف الذكر . فمثلا : ما هي سوريا ؟ انها لا تعني بالنسبة اليهم سوى أنها بلاد لا يتجاوز سكانها ستة ملايين نسمة ، فهي بهذا لا تتجاوز ربع سكان مدينة نيويورك « الكبرى » . ولقد حدث مرة أنني قابلت قنصل أحد البلدان الصغيرة وهو «راوندا اوراندي » وانتهزت الفرصة لاستمع منه الى شرح حول الخلاف الموجود عندهم بين النرفزة والهياج العصبي من جهة وبين طقوس السحرة وعاداتهم المقدسة (في افريقيا) من جهة أخرى . وكان ذلك القنصل يظن نتيجة لذلك أن الحرب العالمية الثالثة ستبدأ من هناك ، ومن « راوندا اوراندي » بالذات . وهنا أدركت مدى السخافة والسذاجة التي يتصف بها أولئك المسؤولون الذين لا يفكرون في الشؤون العالمية الا من زاوية التعصب لاقاليمهم والتمسك بها (وذلك على حد تعبير الجنرال بديل سميث) .

لم يكن عرضي لوجهة نظري موفقا كما كنت أتمنى واشتهي . وعند انصرافي من الاجتماع ، التفت الي « كيرميت روزفلت » وقال معلقا : انه قد وجد متعة في اصغائه الي وأنا أزأر ولكن كهر صغير لا حول له ولا قوة . وعندما عدت أدراجي الى القاهرة كان شعور أيخلبرغر وبايرود أنني قد خذلتهما وتخليت عنهما . ولكن ما العمل ازاء أحداث كهذه ؟ فجوهر الأمر يكمن في الخلاف الشاسع بين تصور المسؤولين لابعاد الموضوع وهم وراء مكاتبهم في واشنطن ، وبين تصور أولئك الذين يعيشونه في وسط الميدان ، وتحت أشعة شمسه المحرقة . وباستثناء بعض التلميحات والارشادات ، فان كلا التصورين يبقيان في عالمين منعزلين تمام الانعزال عن بعضهما بعضا . ودونما أي اتصال او تبادل للآراء والافكار .

ومهما كان ، فلقد وافقت واشنطن على أن تبقى خارج حلف بغداد . الا أن ذلك لم يكن أهون الشرين وأخف الضررين . ففي الوقت الذي بقي الحلف ضعيفا دوننا ، أخذت الاطراف المشتركة فيه تشن علينا حملة قاسية ، ناعتة

ايانا بالتخلي عنهم ويتركهم في العراء · وعرف المصريون وغيرهم أن الحلف كان من بنات افكار الوزير دالس ، وكان هذا مطمنا جديدا بسلوكنا · وعلى أية حال فقد كان حلف بغداد امضى سلاح اعطيناه لناصر ضدنا ، وبنفس الطريقة تماما التي اعطانا بها السوفييت ، عام ١٩٦٨ ، سلاحا جديدا ضدهم عندما قاموا بغزو تشيكوسلوفاكيا · ومع أن ناصرا كان يتمنى ان تسنح له الفرصة لتوجيه شكر رسمي لنا على موقفنا ذلك ، فانه لم يتردد بترك انطباع كهذا عند السفير بايرود خلال لقاءاتهما المتكررة ·

كان حلف بغداد بمثابة منطلق جديد لناصر يشن منه حملاته ضد اولئك « الخارجين » عن سياسته · وزاد هـذا المنطلـق قوة ومتانة ، عندما شاركت بريطانيا (وهي أحد الاطراف الموقعة على حلف بغداد) كلا من فرنسا واسرائيل في الهجوم على قناة السويس في تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٥٦ · وكان أمرا حيويا وضروريا لناصر ان يشن تلك الحملات ضد الحلف وموقعيه · فقد أثبت توقيع الحلف (بغض النظر عن عداء الجماهير العربية له ، وعن مدى الاحراج الذي سببه للزعماء العراقيين في علاقاتهم العامة) ، على أن هناك وسائل عديدة قد تمكنت احدى الدول التي تعتبر من الاركان الاساسية في « جمعية » ناصر من اتباعها ، ومن انتهاج سياسة مستقلة عنه تماما · وأما الوسيلة الثانيـة التي شجعت البعض الآخر على انتهاج سياسة « الخروج » والاستقلال عن ناصر فهـي « مبدأ ايزنهاور » ·

جاء اعلان « مبدأ ايزنهـاور » كنتيجة من نتائـج فشل العدوان الثلاثي (البريطاني الفرنسي الاسرائيلي) على قناة السويس في عام ١٩٥٦ · الا انه قد زود ناصرا بمجموعة رهيبة من الاحتمالات والاخطار ، التي لها علاقـة « بلدبة الامم » · وكان أول ما لاح في الافق احتمالية دخول الولايات المتحدة والاتحـاد السوفياتي في منافسة شديدة لكسب ود ناصر واستمالته · فقد أبرق سفـير ناصر في واشنطن مطلعا اياه على آخر راي لنا في المنطقة ، واننا قد ادركنا ان خروج البريطانيين من المنطقة بعد هزيمة السويس سيترك فراغا فيها ، وأن كبار مخططي السياسة الامريكية أخذوا يسهرون الليـالي الطوال علّهم يجدوا ما يريحهم ويزيل عنهم القلق · وكلمة « الفراغ » هذه كلمة كريهة لناصر · فهي لا

تعني عنده سوى ضرورة وجود احدى الدول الكبرى على مسرح الاحداث في المنطقة ، وان خروج احداها يحتم بالضرورة حلول أخرى محلها · ولقد أثارت امتعاضه حقا تلك المساعي الحميدة التي بذلتها واشنطن للافراج عن الارصدة المصرية المجمدة انتظارا لنتائج المفاوضات حول تسوية مطالب شركة قناة السويس العالمية · الا أن ناصرا أدرك نهائيا ، وبوضوح تام ، ان أبعاد تصورنا لفكرة « ملء الفراغ » في المنطقة ليست أكثر من مجرد كسب لصداقته ومودته ، كما أنها تعني ، بالوقت ذاته ، منحه مطلق التسهيلات في سبيل انشاء « تجمع » دول الحياد الايجابي · الا أن الشكوك قد خامرت ناصرا عندما تلقى ردا أمريكيا فاترا على طلب كان قد تقدم به للامريكيين والسوفييت يطلب فيه منهم بالحاح قمحا وعقاقير · في حين كان الرد السوفييتي سريعـا ، ولبى الروس طلبه بالحال ·

ولناصر العذر كله في تخوفه من النتائج وفي ترقبه للشرور · فقد تظاهر « الخوارج »(١) بتأييده ، وتكاتفوا معه أثناء أزمة السويس · ولكن بقيت قلوبهم بعيدة عنه ، وفي نفوسهم تحفز وانتظار · أما وقد انتهت الازمة ، وانفرجت الكربة ، فقد أدرك ناصر أنها قد زلزلت أركان « الخوارج » ، وهزت قواعدهم هزا ، وأنهم قلقون ، غير مرتاحين ، لانحسار نفوذ بريطانيا عن المنطقة ، وعليهم البحث عن بديل لها ليمد لهم يد العون ويمنحهم التأييد · وقد استرعى انتباهي مرة ، وأنا في حديث مع أحد كبار أعوان ناصر ، أن العلاقات بين السفراء المصريين ووزارات الخارجية في كل من بيروت وعمان وبغداد ، تمر بمرحلة فتور وبرود · فلم يكن استقبالهم هناك أكثر من مجرد رسميات متكلفة ، ولياقة شكلية مفرطة ، مما أثار الهواجس والشكوك حيال ما يدور وراء الكواليس · وكان تلهف ناصر شديدا على سلاح آخر كسلاح حلف بغداد ، نقدمه له دون وعي منا ، ليستخدمه في شن الحملات على « الخوارج » ، فيزيدهم احراجا فوق احراج « حلف بغداد » لهم · وأحس ناصر بأن في نيتنا هذا ، وأننا على الدرب

---

(١) تعني كلمة الخوارج هنا أولئك الذين خالفوا ناصرا في سياسته وانتهجوا لانفسهم نهجا مستقلا (مثل نوري السعيد والرئيس شمعون والملك حسين ···) ، ونستعملها هنا اتفاقا ، ونسميهم « خارجي » · (المعرب)

سانرون · فقد أبرق له سفيره في واشنطن ، في الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ بأنباء مفادها : انه يعتقد أن الامريكيين منهمكون في وضع مخطط بغية الاطاحة بنظام حكم ناصر والتخلص منه ·

وحدث ما أراد ناصر له أن يحدث · فقد كنت في تلك الاثناء ملحقا بلجنة كلفت بمهمة الاشراف على كل ما يمت الى سياستنا تجاه ناصر بصلة · وعندما حضرت لمكتبي في أحد الايام ، أصبت بدهشة مذهلة عندما علمت أن رئيس الجمهورية قد قدم في الخامس من كانون الثاني (ينايـــر) ١٩٥٧ اقتراحا الى الكونغرس الذي وافق عليه (في الجلسة المشتركة بين مجلس الشيوخ ومجلس النواب) حالا ، وأصبح نافذ المفعول ابتداء من شهر آذار (مارس) من نفس العام · وقد خول الكونغرس رئيس الجمهورية (وكان يومها ايزنهاور) حــق ارسال القوات المسلحة الامريكية للدفاع عن أي من الحكومات الصديقة فـــي الشرق الاوسط التي تواجه تهديدا مسلحا من قبل أية دولة أخرى تدور في فلك الشيوعية العالمية · وفي حال عدم وجود مثل هــذا التهديد السافر بالسلاح ، فللرئيس الحق في تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تحتاج اليها تلك الحكومات بغية بناء جهاز دفاعها الذاتي · وقد عرف هذا «بمبدأ ايزنهاور» · وحتى يومي هذا ، لم أعثر على ذلك المسؤول الـــذي استنبط هذا « المبدأ » ، واخترع فكرته · الا أنني متأكد تماما أن « المبدأ » نفسه كان مصدر مزيد من الاحراج والتوريط لاعداء ناصر ، دون أن يقدم لهـم المساعدة الفعليـــة التي أضحوا في أمس الحاجة اليها للصمود في وجه ناصر وحملاته المتلاحقة القاسية ضدهم ·

وعندما أجول بذاكرتي في أجواء « مبدأ ايزنهاور » ، فان الشك يخامرني في أن الوزير دالس نفسه ، أو مساعده بيل رونتري ، كان وراء اختراعـــه وصياغته · وكلي يقين ، بأنه لم يكن وراء مبدأ ايزنهاور أي من اولئك المسؤولين في لجنة تخطيط السياسة الامريكية في الشرق الاوسط (وهي لجنة مشتركة بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية) ، أو في لجنة شؤون الشرق الادنى وشمال افريقيا · ولا يستبعد اطلاقا أن تكون الفكرة وليدة أحد تلك اللقاءات السياسية غير الرسمية (التي يحضرها بعض الدهاة الاذكياء) ،

الا أنها كانت بالتأكيد دون مشورة منا ـ نحن خبراء « الميدان » ـ أو رأي • وفي ضوء معلوماتنا وتصوراتنا عن العالم العربي ، لم تكن الفكرة لتعني أكثر من مجرد لغو وهذيان • ولا أزال أذكر جيدا ذلك الموقف السلبي الذي أجمع عليه الخبراء بشؤون الشرق الاوسط حيالها • فعندما سئل ممثل وكالة المخابرات المركزية (في لجنة التخطيط السياسية للشرق الاوسط) عن رغبة الوكالة في ارسال أي من مسؤوليها في مهمة رسمية لشرح مبدأ ايزنهاور للزعماء العرب ، أجاب قائلا : « اننا لا نحمل أن نشارك في كل ما يخطر لكم من أفكار طائشة ومخططات حمقاء ! »

ومع أن ناصرا كان يترقب بلهفة اعلان « مبدأ ايزنهاور » ، الا أنه لم يخف قلقه ازاء العبارات التي صاغ الرئيس ايزنهاور بها مبدأه • فعبارة « الدول التي تدور في فلك الشيوعية الدولية » كانت تشير ، من قريب أو من بعيد ، الى مصر ، دون سواها • ومع هذا ، فقد كان سروره أعظم عندما جلس حول طاولة « لعبة الامم » (وهو طرف فيها) يراقب خصمه وهو يرتكب الاخطاء ، الواحد تلو الآخر • وقد أخبرني ناصر فيما بعد أن انتداب جيمس ب• ريتشاردز ، عضو الكونغرس ، لنقل الاخبار السارة الى كل من الرئيس شمعون والملك حسين وغيرهما ، كانت الناحية الوحيدة من مبدأ ايزنهاور التي استرت ت انتباهه واستحوذت على اهتمامه • فاختيار رسول لمهمة كهذه ، وهو لا يعرف من شؤون العرب أكثر مما يعرفه ناصر نفسه عن الفنون الشعبية واغانيها ، قد أوقعت ناصرا في حيرة شديدة ، وساورته الشكوك في أن « مبدأ ايزنهاور » قد أخذ يسير في مسالك انتهازية بغية تطويق ناصر في داخل مصر بالذات • وأذكر أنه قد خاطبني مرة ـ بعدمضي مدة غير قليلة على اعلان مبدأ ايزنهاور ـ قائلا : « ان عقدة عبقريتكم ـ أيها الامريكيون ـ تكمن في عدم ارتكابكم الحماقات والاخطاء ببساطة ووضوح ، بل غالبا ما تجعلونها معقدة وغامضة الى الحد الذي نضطر معه الى التفتيش عن العديد من الاحتمالات التي لربما كانت تنطوي عليها • الا أننا دائما نكتشف ـ ولو بعد حين ـ أنها لم تخرج عن كونها حماقات ، دون ذكاء فيها أو دهاء » •

ولقد بقي ناصر يعتبر « مبدأ ايزنهاور » أحد بنات أفكار الوزير دالس ،

ولكن المبدأ بحد ذاته كان من أفحش الاخطاء التي يرتكبها احد كبار ديبلوماسيي دولة عظمى ·

* * *

وبعد ذلك ، بدأت لعبة الارباح والخسائر ·

بدأت الدعاية السوفييتية تشيع أن الامريكيين كانوا طرفا في المؤامرة الفرنسية ـ البريطانية ـ الاسرائيلية على قناة السويس ، ولكن بشكل « شركاء اوصياء » · فدورهم تمثل في البقاء جانبا الى أن حان موعد تدخلهم على شكل وسطاء خير ، ورسل سلام ، جاؤوا نتيجة شطط من كان قبلهم وفشله · كما ساعد خبراء الدعاية في اذاعة القاهرة الروس في مهمتهم هذه · فأخذوا ينشرون الحيل والاشاعات ويلفقون لها الادلة والبراهين مدعين الحصول عليها من مختلف المصادر السرية في الشرق الاوسط · وكان جلها يدور حول المؤامرات التي تدبرها الولايات المتحدة للايقاع بين العرب ليسهل عليها بعد ذلك استعبادهم · كما أنها تعوّل على أعوانها في بعض الحكومات العربية لتنفيذ مثل هذا المخطط وفي الدعوة اليه ·

ولم تكن في البداية حملات ناصر ضد « الخوارج » أكثر من مجرد نقد للافكار ، بدون تهجم على الاشخاص · وكان النقد يهدف الى ايجاد رأي عام ، وتكوين محيط متعاطف معه ومتحمس له · وبهذا كان يأمل أن يقطع الطريق على كل من تسول له نفسه الخروج عليه ، عاجلا أم آجلا · الا أن هذه الوسائل لم تلق نجاحا كاملا ، وان كانت قد حققت شيئا من أهدافها مثل تلقين الشعوب العربية الوسائل التي تكشف «الخوارج» ، وتظهر زيفهم (١) · كما تمكنت من القاء الظلال واثارة الشكوك حول كل من نوري السعيد في العراق ، والرئيس

---

(١) ان القارىء العربي قد ادرك اخيرا ان مثل هذه الوسائل سلاح ذو حدين ، وانها لا تزال صالحة للاستعمال في السبعينات · (المعرب)

شمعون في لبنان ، والملك حسين في الاردن ، وأظهرتهم على أنهم من «الخوارج» (وخاصة في حالة نوري وشمعون) حتى قبل أن يتحركوا فعلا ضد ناصر بزمن غير يسير . الا أن ناصرا شعر أخيرا أنه لا بد من القيام بخطوة أشد ضـــد « الخوارج » ، وأن الوقت قد حان لتصعيد الحملات وتوجيهها ضد أهـــداف واضحة ومحددة .

واعد ناصر لائحة بأسماء « الخوارج » ، احتل فيها نوري السعيد ـ رئيس وزراء العراق يومها ـ مركز الصدارة ، الا أن ناصرا قد أدرك أن الاطاحة بنظام نوري السعيد سيستغرق وقتا غير قصير . ورأى أن عزله عن بقية « الخـوارج » يسهل تنفيذ المهمة ويدفع بها الى الامام حثيثا . ولهذا قرر ناصر أن يستبدل نوري السعيد بالملك حسين ، وغدا الاخير يحتل مركز الصدارة بعدما كان في المرتبة الثانية تسلسلا بعد الاول . وحدث هذا قبل اعلان « مبدأ ايزنهاور » . ومع أن الملك حسين لم يكن بأهمية نوري السعيد ، الا أنه كان فعلا مصدر ازعاج لناصر واقلاق له ، لاكثر من سبب واحد . ولذا بدأت الحملة ضد حسين قاسية وسريعة ، ودون رحمة ولا هوادة . ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٦ أوفدت الحكومة البريطانية السير جيرالد تيمبلر الى عمان في محاولة لاقناع الملك حسين للانضمام الى « حلف بغداد » . الا أن صيحة واحدة من اذاعة القاهرة (مع تشجيع مباشر من اركان القيادة المصرية على أعمال العنف) كانت كافية لاثارة الشعب في أنحاء المملكة الاردنية ، واسقاط الوزارة القائمة يومها . وبعد أشهر ، قام الفدائيون الفلسطينيون ، المدربون على أيدي المصريين ، بشن الغارات على الاراضي الاسرائيلية من قواعد أردنية ، مما أوقع نظـام الملك حسين في مأزق جديدة نتيجة العمليات العسكرية التي قامت بهـــا اسرائيل انتقاما لغـــارات الفدائيين . وعندما علم الملك حسين بأهداف ناصر ، بادر الى الاعلان عن عدم نيته الانضمام « لحلف بغداد » ، واتخذ موقفا فيه أكثر تعاونا مع ناصر . واعلن بعد شهرين اقالة الجنرال جون باجوت غلوب ـ القائد البريطاني الذي كان يشغل منصب رئيس أركان حرب الجيش الاردني ـ واستبدله باللواء أبـي نوار (١) ذي الميول الناصرية . وفي حزيران (يونيو) أعلن الملك حل البرلمان .

(١) يشغل اللواء أبو نوار الان منصب مستشار الملك للشؤون العسكرية في عمان (تموز ، يوليو ١٩٧٠) . (المعرب)

وفي تشرين الاول (أكتوبر) جرت انتخابات واسفرت عن نجاح المرشحين الموالين لناصر بصورة لم يسبق لها مثيل ·

ولا يزال المسؤولون المصريون يصرون الى يومنا هذا على عدم قيامهم بارسال أي من عناصرهم المختصة بأعمال العنف واثارة الشغب الى الاردن خلال هذه الفترة · واذا صح هذا ــ وليس ذلك ببعيد ــ فان معالجة ناصر لهذا « الخارجي » بالذات كانت من طراز ناجح · فلقد كان « المتعصبون » لناصر من أشد العناصر الفلسطينية اللاجئة عنادا وتشبثا · في حين كان بعض ضباط الجيش الاردني وبعض السياسيين والانتهازيين يشكلون مجموعة ناصرية « غير متعصبة » · وقد اتبع ناصر طرقا عدة ، وغير مباشرة ، للوصول اليها والتقرب منها · ومن هذه الطرق ما يلي : حضر اللواء أبو نوار بدافع ذاتي الى القاهرة حتى يقف على حقيقة التأييد العالمي الذي باستطاعة ناصر تأمينه حال نجاح الانقلاب الذي يزمع القيام به · وكان أبو نوار يأمل في الحصول على مساعدة تختلف عن تلك المساعدة التي قدمتها دول حلف الاطلسي الى الثوار المجريين عام ١٩٥٦ ، بعدما دفعتهم الى الثورة وحرضتهم عليها · وكان يصر على نوع من المساعدة أكثر جدية وأثقل وزنا (١) · وأوصت القاهرة أبا نوار أن يخبر سليمان النابلسي الذي كان على راس الوزارة الاردنية يومها (حزيران ، يونيو ، ١٩٥٦) أن اذاعة القاهرة ستباشر ابراز أخباره للعالم العربي لتجعل منه بطلا · وأكمل ناصر حلقة مناوراته عندما أفلح في اقناع الملك سعود (وكان بينه وبين الملوك الهاشميين سباق منذ القديم) بتقديم المساعدات المالية للعناصر المناوئة للملك حسين (والموالية يومها لناصر) ·

وتكللت الخطة بالنجاح عندما أذعن الملك حسين للضغط الذي مارسه عليه كل من اللاجئين الفلسطينيين ، والاسرائيليين (عن طريق العمليات العسكرية) ، ونظام الملك سعود ، واذاعة القاهرة · وغادر بعدها الملك عمان الى القاهرة ليلتقي بناصر، وبالملك سعود، وبصبري العسلي رئيس الوزراء السوري، بقصد التوصل الى اتفاقية دفاع مشتركة ، ولايجاد وضع يسهل الاستغناء عن المساعدة المالية البريطانية ــ الامريكية ، وبالتالي يمكنه البقاء خارج حلف بغداد

---

(١) لربما كان أبو نوار يريد مساعدة كتلك التي قدمت لليمن بعد الثورة عام ١٩٦٢ ، (المعرب) ·

بكل ارتياح وطمأنينة · وهكذا تم انضمام الملك الى « جمعية » ناصر ، وعدا معا في الصف حتى حين ·

* * *

وبنفس الوقت ، كانت الحكومة السورية تبذل المستحيل لتفكيك « جمعية » ناصر وافسادها ، ولكن بطريقة شيقة وجديدة · ففي الوقت الذي كانت سوريا تساند ناصرا في كل مواقفه ضد الغرب ، وترفض الخروج عنه ، كانت تحاول جاهدة أن تلعب دورا خاصا بها وبمعزل عنه في علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي · فناصر لا يريد أن يكسب تأييد السوريين له فقط في مواقفه مع الغرب ، بل كان يريد تأييدهم له في كل المواقف ، وضد جميع الاطراف · فترتيب ناصر لقوى « جمعيته » يتطلب وقوف العرب جبهة واحدة في ميدان الصراع ضد كل الاطراف ، حتى تنجح لعبة « الوقوف على الحبلين » في آن واحد ·

وفي عام ١٩٥٤ قام كل من الحزب العربي الاشتراكي (أكرم الحوراني) وحزب البعث العربي (ميشيل عفلق) (وكلاهما حزبان سياسيان ذوا عقائد متقاربة) بالاندماج في حزب واحد تحت اسم «حزب البعث العربي الاشتراكي»· ومع أن هذا الحزب ليس حزبا شيوعيا ، فان آراءه وأحقاده (ضد الغرب) جعلت منه مرتعا خصبا لنموالشيوعية في سوريا · وعندما برز حزب البعث في انتخابات عام ١٩٥٤ حصل يومها الشيوعيون على مقعد في المجلس النيابي وفاز به خالد بكداش ، زعيم الحزب الشيوعي السوري منذ منتصف الاربعينات (وكان قد فر من البلاد اثر ملاحقة حسني الزعيم له) · ولم يحاول خالد بكداش يومها أن يظهر حقيقة شعاراته ، بل حورها لتظهر منسجمة تماما مع شعارات بقية الزعماء السياسيين السوريين من البعثيين وغيرهم ، وهذا ما جعله يبدو « شعبيا » بل واظهره بمظهر « الطاهر الشريف !! » (١) · ولقد أخبرني

(١) هذا راي المؤلف الامريكي ، فامريكا في تعايش سلمي مع الاتحاد السوفييتي منذ زمن خروشوف . (المعرب)

خالد بكداش مرة عن بعض تلك الشعارات فقال : « اننا كلنا في سورية ضد أهداف واحدة • فنحن ضد الامبريالية وضد الاتراك مغتصبي لواءالاسكندرون ، وضد الصهيونية (١) ، وضد الهاشميين (الملك فيصل الثاني في العراق والملك حسين في الاردن) » • الا أن أثر دفاع الشيوعيين عن سموهم العقائدي وميزاتهم لفكرية (كما أخبرني أحد الدبلوماسيين الامريكيين في سوريا) ، لا يعدو ذاك لاثر الذي تحدثه المومسات وبنات الهوى عندما يتكلمنْ عن الفضيلة ويناضلن لاجلها •

وفي الفترة التي أعلن فيها « مبدأ ايزنهاور » كانت السياسة السورية تلعب هي الاخرى على حبلين في آن واحد • ففي الوقت الذي كانت سوريا تمنح ناصرا تأييدها التام في مواقفه ضد الغرب ، كانت نزعتها الاستقلالية عن خط القاهرة تتزايد فيما يختص بالعلاقات مع السوفييت • فقد باتت سوريا تعاكس مبدأ الطاعة الكاملة لناصر ، والالتزام التام « بجمعيته » • وخرج ناصر عن طوره وثارت ثائرته عندما أعلن السوفييت رسميا ، في منتصف عام ١٩٥٥ ، تأييدهم المطلق لسوريا في حال تعرضها لاي اعتداء تقوم به الاطراف الموقعة على حلف بغداد • وعندما أعلن مولوتوف ، وزير الخارجية السوفييتية ، في آذار (مارس) ١٩٥٥ ، عن مساندة حكومته لمواقف سوريا ، واستعدادها لتقديم المساعدة للسوريين في أي شكل كان ، قامت اذاعة القاهرة والصحف المصرية بشن حملة على السوفييت لا تقل قسوة وشراسة عن تلك الحملات التي كانت تشنها على الدول المشتركة بحلف بغداد نفسه • وهكذا ، فقد غدت « لعبة الامم » في الشرق الاوسط عام ١٩٥٥ مزيجـا غريبا من المثلثات : المصريون يزجون بالامريكيين وبالروس في منافسة حادة ، يحاول كل طرف فيها كسب ودّ ناصر وضمان جانبه ، والامريكيون يثيرون ناصرا (ومن معه من العرب الناصريـــين والتقدميين) والمحافظين من العرب (ومعهم معارضي ناصر) ضد بعضهم البعض في آن واحد • كما كان الروس يحاولون اثارة السوريين ضد المصريين ، ويحاول السوريون اثارة المصريين ضد السوفييت • ولم تكن تلك المناورات لتخـــدم

---

(١) الا اذا ارادت موسكو غير هذا ، فأهداف الشيوعيين العرب لا تحمـــل عـــداء للاسـرائيليين اليساريين . (المعرب)

الاطراف المشتركة فيهما الا قليلا • الا أن المصريين كان لهم هدف بعيد بل واستراتيجي في اتباعهم لمثل تلك الاساليب وفي اذكاء نارها : فقد كانت تشكل احدى الوسائل الهامة التي تضمن لناصر الاستمرار في تنفيذ مخططاته وتكفل له جني الفوائد وكسب المنافع •

وشهد عام ١٩٥٦ توطدا زائدا في العلاقات السورية ـ الروسية الى الحد الذي بات معه رتق الصدع في الجبهة الموحدة تجاه السوفييت ، أمرا غير بسيط• بل ان هذه المشكلة لم تعد أقل صعوبة عن المشكلة التي أثارها « الخوارج » أمثال نوري وحسين بسبب طريقة تعاملهم مع الغرب • وعندما عاد الملك حسين الى صف ناصر وانضوى تحت لوائه ، أضحت مشكلة قوة العلاقات السورية ـ الروسية أكثر صعوبة واتمس حظا • الا أن ناصرا عزم على أن يجد للامر مخرجا • وفطن الى قواعده « لعبة الامم » التي كان قد سنها لنفسه ، فوجد فيها البلسم الشافي • فقد لجأ الى التشاور مع أصدقائه الامريكيين واستنفرهم للتعاون معه بغية سد الثغرة التي ظهرت في « جبهته ضد الشرق » • وفي الوقت نفسه استحث همة الروس للتعاون معه في تقوية جبهته ضد الغرب ،والتي باتت مهلهلة ممزقة • وبالنسبة لنا ـ نحن الامريكيين ـ فقد كنا (حسب قواعدنا في « لعبة الأمم ») في موقف مساعد لتبادل الآراء مع ناصر بخصوص الوضع في سوريا • ولم يكن هذا ليؤثر على جهودنا المستمرة لاضعاف سيطرة ناصر ، والتخفيف من ضغطه ، على الدول العربية الاخرى • ومما يُذكر في هذا المقام ، أن ناصرا لم يخاطر بمكاشفتنا باحتمالية القيام بعمل مشترك ضد سوريا ، وانما اكتفى بشرح الوضع كليا لنا مع تبيان جميع مساوئه ومخاطره • كما أظهر لنا الى أي مدى يقوم السوفييت باستغلال الوضع هناك لصالحهم • ولم يكن هدف ناصر من هذا كله سوى اقناعنا بالامتناع عن القيام بأية محاولة انقلاب عسكري في سوريا • فقد كان ناصر يشك بامكانية نجاح أي انقلاب عسكري يومها في سوريا ، ورأى أن فشل أية محاولة كهذه سيزيد الحالة سوءا وسيضعها على شفير الهاوية • الا أن أصدقاء ناصر من الامريكيين أعطوه تأكيدات قاطعة أنهم لا يزمعون أبدا على التدخل بالشؤون السورية لانهم لم ينسوا بعد احتراق أصابعهم عندما فعلوا ذلك في أيام حسني الزعيم (١) • ونقل الامريكيون الى ناصر اخبارا

---

(١) يفضل الامريكيون أن لا يتدخلوا في الشؤون السورية ، الا عندما تتوفر فيها شروطهم المذكورة سابقا في نهاية الفصل الثاني من هذا الكتاب • (المعرب)

موثوقة (مصدرها أحد أفراد المخابرات السوفييتية) تفيد أن في نية الروس ، دفع حكومة موالية لهم الى السلطة أولا ، ثم قيام هذه الحكومة بافتعال الحوادث، وتصعيد الأزمة ، الى الحد الذي تجد هذه الحكومة ـ الموالية لهم ـ نفسها مضطرة الى استدعائهم بغية اعادة الهدوء وحفظ النظام • وتشبه هذه العملية ، الى حد كبير ، تلك التي افتعلتها حكومة الـولايات المتحدة في لبنـــان حقا قبل عدة سنوات •

ومع أن ناصرا قد صدّق ما نقلناه له من أخبار حول نيات السوفييت في سوريا ، فقد ظلّت الشكوك تساوره حول نياتنا (بخصوص سوريا) • وكان سبب ذلك كثرة الوافدين من واشنطن الى المنطقة والعائدين منها • فقد قام لوي هندرسون (وكان يومها أحد نواب وزير الخارجية ، وكان قبلها سفيرنا في ايران أثناء أزمة الدكتور مصدق) بزيارة ملفتة للانظار الى أنقره • وقد حضر هناك أحد اجتماعات حلف بغداد وقام بعدها بزيارة بيروت، سرا حيث التقى ببعض أصدقائه من السوريين لقاءات عابرة ودون أية صبغة رسمية لها • وبعد ذلك ألقى الوزير دالس بيانا عبر فيه عن قلقه حيال الاوضاع في سوريا • كما حذر الرئيس ايزنهاور من اعتداءات تقوم بها سوريا ـ بعد أن أمست تحت التأثير الشيوعي ـ ضد جاراتها • الا أن تصريح الرئيس بدا سخيفا لدى مقارنته بحقيقة القوة العسكرية السورية المحدودة • وكان هذا ما دعا ناصرا لاعتبار التصريح نوعا من المقدمات لمخططات تطبخ وراء الكواليس • وجرت ، بنفس الوقت ، تحركات عسكرية على الحدود السورية التركية ، وارتد العراقيون والاردنيون الى سابق عهدهم ، فقاموا ببعض الاستعدادات العسكرية المكشوفة • وفي خضم كل هذه الاحداث المعقدة ، قام كيرميت روزفلت بصحبة ابن عمه آركي بزيارة الى بيروت ، ودعا عددا من كبار السوريين والعراقيين والاردنيين والسعوديين الى حفلة استقبال أثارت قلق عبد الحميد غالب ، السفير المصري في بيروت ، الذي أسرع فأبرق الى القاهرة قائلا : « ••• وبالتأكيد ، فان الامريكيين يدبرون أمرا ما ،وهم يتصرفون علنا على غير عادتهم ، ودون أي اكتراث بالعيون الساهرة حولهم » • وعندما التقيت صدفة بالسفير غالب في بهو فندق سان جورج ، التفت الي سائلا بخبث ودهاء : « هل ستعرضون تذاكر للبيع عندما يحين موعد انقلابكم !؟ » •

لم يكن رد فعل ناصر الأوّلي ، تجاه هذا كله ، سوى صنع اللامبالاة ، وعدم محاولة التشويش على الامريكيين · فهو يدرك تماما أن أي فشل للمحاولات الامريكية المزعومة ، لن يتمخض الا عن مضاعفات سيئة تجعل النوع الوحيد من العمليات ، التي لا يجيد القيام بسواها ، صعب التحضير مستحيل التنفيذ · وعلاوة على ذلك ، فان فرصة السوفييت في التـــــدخل ستكون أوفر حظا ، وسيجنون الارباح لوحدهم دون تطفل انسان أو تدخل شريك · فناصر يتصف بطريقة تفكير تميل الى قبول الامور على علاّتها ، ودون تحر لبواطنها · ومع أن لناصر في حاشيته ، كثيرا من دبلوماسيي ما وراء الكواليس الامريكيين (أمثال كيرميت وآركي روزفلت) ممن يمكنهم تبديد مخاوفه منا وشكوكه حول نياتنا ، الا أنه أصر على الاستدلال ـ من المعلومات الركيكة التي تجمعت لديه ـ باننا ماضون في تنفيذ عملية امريكية خرقاء ، قد انفضح معظمها ولم تعد سرا مكتوما · كما أن سفيرنا في القاهرة ، ريموند هير ، الذي حل محل بايرود ، قد أكد لناصر أنه في الوقت الذي ينتاب الامريكيين قلق شديد حول الاوضاع في سوريا ، فانه لا صحة أبدا للانباء القائلة انهم يدبرون أية مؤامرة ضد النظام فيها · ولقد أخبرت ناصرا شخصيا بنفس الشيء عندما قمت بزيارة الى القاهرة بناء على طلب من المدير الاقليمي لوكالة المخابرات المركزية في بيروت ، وذلك بقصد تخفيف حدة شكوك ناصر ، وتبديد الغموض المحيط بحقيقة موقفنا من الاحداث في سوريا · كما طلب مني الاخير أن ألفت نظر ناصر الى ضرورة توجيـــــه جل اهتمامه الى المؤامرات التي يحيكها الروس في سوريا بدل توجيهه الى المؤامرة الامريكية المزعومة · ولم تذهب أخيرا جهودنا سدى · فقد بدا على ناصر أنه ارتاح لكلامنا واطمأن لتأكيداتنا ، كما تبين أن الامور بدأت تسير كما نحب ونشتهي ·

ولم يكن تشوقنا ، رسميا ، لرؤية سوريا مستقلة عن « جمعية » ناصر بقليل · وكان انطباعي يومها أن الفرصة قد سنحت لناصر ليدخل معنا في مساومة حول الوضع في سوريا ، بعدما انتابنا قلق شديد من أوضاع الروس هناك · وبالتاكيد ، فقد كنا نعتقد أن كل ما سيطرحه أمامنا على طاولة المساومات سيكون لصالح العالم العربي ـ على غرار تكتل دول الحياد الايجابي ـ الذي بدأت الاوضاع تتضح فيه وتتبلور · فلقد أصبح نوري السعيد في موقف صعب ومكشوف كليا · كما كان الملك حسين يتظاهر بالالتحاق بركب ناصر دون أن

يشعر بالارتياح والاستقرار الذي تصور أن الانضمام « لجمعية » ناصر سوف يضمنهما له • وأما الملك سعود ، فانك لا تلمس خلافا في سلوكه بين فترات صداقته معنا وفترات صداقته مع ناصر نفسه • كما أن الاوضاع في لبنان لم تكن حسنة ، وبقيت مناصفة بين المسيحيين والمسلمين ، وأضحت على وشك الانفجار حال اختلال التوازن بين القوى فيه • ولقد شاركنا ناصر رأينا في أن الحالة في العالم العربي بلغت حدا يرثى لها • كما أن مؤامرات السوفييت هناك قد ازدادت بصورة لم يسبق لها مثيل ، وعزموا على ألا يخرجوا منها الا بصيد ثمين • وهكذاترعرعت فكرة التقارب بيننا وبين ناصر ، وبدا أن كلا الطرفين يتوقان للوصول الى اتفاق يزيل القلق ويفرّج الهموم ، ويضع « ما تساومنا عليه » موضع التنفيذ •

ولا ادري للآن من الذي نسف الجسور ، وزرع الألغام في الطريق • ولا أدري كذلك أن أحدا يدري من الذي نسف فرصة تنفيذ تلك الصفقة التي كانت بيننا وبين ناصر • الا أنني لا أستبعد أن يكون ذلك هو حادثة اللواء أبي نوار ذاتها ، والتي وقعتفيالاردن • فلقد تصور أبو نوار ، رئيس أركان الجيش الاردني ، أن بوسعه تنفيذ مؤامرة انقلاب ضد الملك حسين ، وأنه واثق من نجاحه دون مساعدة أي انسان آخر له • ولقد أغرى المصريون انفسهم أبا نوار بهذا ، الا أن مجيء سليمان النابلسي الى رئاسة الوزارة الاردنية قد أحال هذه الحركة الى خطوة غير ضرورية فيمخططات ناصر • ومهما كان ، فقد أصر أبو نوار على القيام بانقلابه ، وحاول ذلك، ولكن كانت النتيجة أنه قد نال الجـــائزة الاولى لتخطيطه أخرق واسخف انقلاب عرف في التاريخ الحديث • وبقيت الجائزة الاولى في حوزة أبي نوار حتى عام ١٩٦٨ ، عندما قام الملك قسطنطين بمحاولة للاطاحة بالحكومة العسكرية في اليونان ، فاستخلصها منه ، وسافر الى روما حيث انتحى بها مكانا قصيا • وبمجهود بسيط ، نجح الملك حسين في اعادة تنظيم جيشه بصورة يضمن ولاءه ثانية • وأعلن الاحكام العرفية ، وربض بلهفة وتشوق شديدين مترصدا ردود فعل السوريين ضده • الا انهم لم يحركوا ساكنا • وقامت حكومة الولايات المتحدة الامريكية بتحريك الاسطول السادس الى ميناء بيروت ، وبذلك وضعت علاقاتها مع سوريا في نفس الموضع الذي تلذذ السوفييت بطعمه قبل شهر من الزمن • وفي غمرة الاحداث ، أعلن الملك سعود

تأييده التام لسوريا ، ومساندته لها ضد أي اعتداء يقع عليها ـ وكان يعني اعتداء امريكيا ٠ وكم بودي أن أذكر الاسباب التي دفعت به الى اعطائه هذا التصريح ، الا انني لا أملك حرية افشاء مثل هذه الاسرار ، وأتركها للقارىء عسى أن يكتشفها بنفسه ان كان ملما بأذواق الملك وظروفه ٠ ورفعت يومها كل من المخابرات الامريكية والبريطانية تقارير مطمئنة لنوري السعيد ، تفيد أن حالة القلق والاضطراب ضده آخذة بالتضاؤل الى حد يمكنه السيطرة عليها ٠ وأما الرئيس شمعون ، وهو من الد أعداء ناصر ، فقد اتخذ كافة الاجراءات التي وضعت كافة النشاطات الناصرية والشيوعية في لبنان تحت سيطرته ٠ كما حرم على أعداء حسين ونوري وغيرهم من « الخوارج » استخدام بيروت كمركز لمؤامراتهم ٠

وبقي هناك عضو واحد ، من أعضاء « جمعية » ناصر ، لم يُظهر احتراما كافيا لرئيس « الجمعية »، بل وكان لا يتأخر عن انتهاز الفرص للتلاعب عليه تحت ظل حمايته له ٠ وكان ناصر لذاك الوقت يعتبر أن «جمعيته» لا تزال ركنا رئيسيا من أركان استراتيجيته ٠ وشعر أن الوقت قد حان لاستمرار زحفه على العالم العربي بغية صياغته بالشكل الذي يريده له ٠ فقد تأزم الوضع في سوريا ، وأصبح ينذر بالخطر ، وما كان لناصر أن يتركها هكذا وهي قلب القضية العربية النابض ٠ فقد وجد لزاما عليه أن يخرج عن احدى القواعد التي رسمها لنفسه سابقا ، والتي كانت تقول : « خذ بنواصي السلطة ومقاليد الأمور كلما سنحت الفرصة لك ٠ ولكن اياك ، ثم اياك ، أن تضطلع بالمسؤوليات ، وفرّ منها فرارك من المجذوم » ٠ وهكذا قرر ناصر أخيرا أن يبدأ ببسط نفوذه على السياسة الخارجية لسوريا ، ثم ينتهي عن طريقها الى السيطرة على سياستها الداخلية (والتي تنبثق السياسة الخارجية منها حقا) مجازفا بتحمل المسؤوليات، والاضطلاع بكافة أعباء الادارة ، ومتاعب الحكم التي سوف لن تريحه أبدا (١) ٠ وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨ وافق ناصر على اتحاد سوريا ومصر في دولة واحدة أطلق عليها اسم الجمهورية العربية المتحدة ٠ وهكذا اضحى ناصر رئيس جمهورية للاقليم المصري ، ولاقليم آخر لم تطأ قدمه ثراه بعد ٠

---

(١) لا مانع من اعتقاد القارىء ان الوحدة السورية المصرية (١٩٥٨) لم تكن فورية ٠ (المعرب) ٠

ولو كنت معلقا على هذه الحادثة التاريخية (والمضحكة ـ المبكية) في سياق لعبتنا مع ناصر لما ترددت في اعادة كلام « مالكولم كير » في كتابه « الحرب الباردة بين العرب ١٩٥٨ ـ ١٩٦٤ » ٠ ولهذا فانني أحض القارىء على الرجوع لذاك المؤلف الثمين ليقف بنفسه على تفاصيل الامور ودقائقها ٠ وكل ما أود اضافته هنا هو أنه بغض النظر عن الزاوية التي ينظر منها الانسان الى خفايا هذه الخبرة المزعجة لكل الاطراف والى ظواهرها ، فان درسا واحدا قد تعلمه ناصر منها الا وهو :

« عليك بتركيز اهتمامك على استثارة عواطف طبقات عامة الشعب التي سوف تمارس ضغطا على الزعماء لكي لا يتجرأوا على عقد صفقات مع الدول الكبرى وهم منفردون ٠ وعليك أن تفعل ذلك عن طريق اذاعة القاهرة أو أية وسيلة أخرى متوفرة ، ولكن اياك أن يكون ذلك عن طريق اتصالات شخصية بين المسؤولين المصريين وشعوب الدول التي هي ضمن أهدافك ٠ واذا تمكنت من القاء مسؤولية ذلك على انصارك من «المتعصبين» في تلك البلاد ، فاياك أن تتأخر لحظة واحدة في فعل هذا ٠ تبناهم ، واعطف عليهم ، فانهم خير ظهير لك ٠ وعليهم فاعتمد فانهم أصلح ما يخدم مثل تلك الأهداف » ٠

- ١٠ -

عندما تعرت الشخصيات في لبنان عام ١٩٥٨

... ولن تسلم من خصومهم الألداء ، حتى تغامر في حرب ضروس ضدهم .

ان القاء نظرة شاملة على التقارير الرسمية الامريكية حول ما بدا ، في أوائل عام ١٩٥٧ ، على أنه ذروة « لعبة الصدام » بيننا وبين ناصر تظهر أننا قد بدأنا نفهم سياسته بصورة أكثر عمقا وأوسع شمولا . كما أنها تظهر ، في نفس الوقت ، أن حدة عدائنا معه بدأت تخف وتلين . فلم تظهر وزارة الخارجية الامريكية أي تحمس « لمبدأ ايزنهاور » فيما عدا الوزير دالس نفسه ، واثنين من الموظفين العاملين معه مباشرة . كما أنه لم تعترينا الدهشة حيال ردود فعل ناصر العنيفة ضد « مبدأ ايزنهاور » . وعندما بدأ ناصر بشن حملات دعائية مركزة على « الخوارج » الذين قبلوا بمبدأ ايزنهاور (ومنهم الرئيس اللبناني شمعون ورئيس الوزراء العراقي نوري السعيد) لم نصب بأية خيبة أمل ، لاننا لم نكن في وزارة الخارجية نتوقع غير ذلك . ولا أزال أذكر احدى الجمل التي وردت في أحد تقارير سفير لنا في احدى عواصم الشرق الاوسط ، وفيها يقول : « ليس من السهل توجيه أي لوم لناصر لاتباعه وسائل ثبت عنده جدواها » . وعندما استلم أحد الموظفين ذلك التقرير أضاف جملة أخرى على هامشه جاء فيها : « انه معيب جدا أن نتيح لناصر مثل هذه الفرصة » . وهكذا فقد طغت على وزارة الخارجية موجة من النقد الذاتي ، أثارتها سلبيتنا تجاه تصرفات ناصر . الا أن معظم المسؤولين الامريكيين المعنيين بسياستنا في الشرق الاوسط ، بدأوا يميلون الى الاعتقاد أن مجاراة ناصر في سياسته قد تصبح أمرا محتوما ، فقد أضحى « موضة » المستقبل .

ولم ينفرد مسؤولو وزارة الخارجية بوجهة نظرهم المعتدلة تجاه ناصر ، بل شاركهم في هذا مسؤولو وكالة المخابرات المركزية الذين يتصفون برزانة

اكثر وادراك اعمق · وكانت أولى تحركات ناصر ضد « الخوارج » قيامه بهجوم معاكس ضد محاولة الامريكيين تشتيت شمل « جمعيته » ، وذلك بتشجيعه قيام « الجبهة الوطنية المتحدة » في لبنان · فقد كانت هذه الجبهة عبارة عن ائتلاف بين مسلمين ومسيحيين ، جمعهم خلافهم مع شمعون في جبهة واحدة ضده · وكانت هذه الجبهة ترى ضرورة انغماس لبنان في مشاكل الامة العربية (١) الى حد أكثر من ذلك الذي أراده شمعون له · (كان الرئيس شمعون يحبذ يومها انطواء لبنان على نفسه وانعزاله عن العالم العربي ·) وقام فريق ماهر من رجال وكالة المخابرات المركزية في بيروت بتوجيه الحملة المضادة لمعاكسات ناصر · وكان أول ما نعنوه هو تركهم لاخبار « الجبهة » تتسرب عمدا بقصد الايقاع بين السياسيين اللبنانيين ، وتنفيرهم منها ، وبالتالي كسب جانبهم لصالح الرئيس شمعون · وبعدها قامت سفارتنا في بيروت (وليست وكالة المخابرات) بتقديم مساعدات متواضعة لبعض الحملات الانتخابية للمرشحين الموالين للغرب (في انتخابات حزيران ١٩٥٧) · وقد أطلقت عليها صفة « التواضع » لانها لم تزد عن قيمة تلك المساعدات التي دفعتهـــا السفارات الفرنسية والبريطانيـــة والسوفييتية والمصرية للمرشحين الموالين لها · واستغلت المخابرات المصريـة العامة ما تمكنت من جمعه من معلومات حول مساعدات السفارة الامريكية هذه، وحورتها الى أدلة مقنعة على تدخل وكالة المخابرات الامريكية في الانتخابات وتلاعبها بها · ومهما كان ، فان اللعبة ، بحد ذاتها، كانت طريفة وعادلة للطرفين معا ، وفي آن واحد · فغالبا ما يسود أوساط أجهزة المخابرات الضخمة ، رغم الاختلاف بين دولها ، نزعة احترام متبادلة · وتعزى هذه النزعة الى احترافهم مهنة واحدة · كما يحدث احيانا أن تنشأ علاقات متبادلة ورسمية بين فروعها ، الا أن هذا نادر الوقوع وخاصة بين أجهزة المخابرات التابعة لدول متعادية · وفي بيروت ، فقد كانت العلاقات السائدة بين رؤساء أجهزة المخابرات العديدة وثيقة بشكل غريب وشبيهة بتلك العلاقات التي كانت متوطدة بينهم في « طنجة » (١) أثناء الحرب العالمية الثانية · وكانت العلاقات بين رئيس فرع وكالة المخابرات

---

(١) حبذا لو أن القارىء يتحقق من حقيقة هذه العبـــارات بنفسه وذلك بعد مضي اكثر من عشـــر سنوات على هذه الحادثة · (المعرب)

(١) مدينة مفتوحة عالميا في شمال افريقيا · (المعرب)

المركزية الامريكية ، وبين رئيس فرع المخابرات العامة المصرية في بيروت ، ودّية واجتماعية ، ولم تفلح الخلافات المهنية القاسية في التأثير عليها الا قليلا • وقد بدا هذا جليا ، عندما أثارت الأدلة التي جمعتهـا وكالة المخابرات المركزيـة الامريكية ، حول حقيقة التأييد المصري للجبهة الوطنية المتحدة ، والادلة التي حصلت عليها المخابرات العامة المصرية حول تلاعب الامريكيين بالانتخابات ، نوعا من الاعجاب المتبادل ، بدل أن تكون مثارا للعداوة والبغضاء •

وفاز المرشحون الموالون للغرب ، والمناوئون للمصريين ، بالاكثرية في المجلس • الا أن أخبارا كهذه لم تكن لتشكل موضوعا مناسبا للتسلية والمسامرة بعد وليمة أو لقاء عابر بين الامريكيين والمصريين • وفي أواخر عام ١٩٥٧ بدأ النشاط المصري الهدام في لبنان باندفاع وقوة • وبدا لكل المتتبِّعين للاحداث في بيروت ، أو للمستمعين الى اذاعة صوت العرب من القاهرة ، أن ناصرا سيبذل المستحيل لاسقاط شمعون والاطاحة به • وعندما قمت بزيارة للقاهرة في آب (أغسطس) ١٩٥٧ ، أسرَّ الي بعض أصدقائي من المصريين بتنبؤاتهم عن سقوط كل من شمعون وحسين ونوري السعيد (بل واصرّوا على هذا التسلسل) • ولكن توقعهم لوقوع الاحداث بهذا التسلسل قد أخطأ ، ولم يتحقق سوى ثلثي ما قد تنبأوا به ، مع أنهم بذلوا كل ما في وسعهم لتحقيقه • الا انه فاتهم أن سقوط أولئك الزعماء سوف يزيد من حدة الصراع بين المخابرات الامريـكية والمصرية ، وسيرفع من مستواه الى الحد الذي يصعب على المصريين معه مجاراة الامريكيين ومنافستهم (١) •

لم يعـر المصريون (والى حد ما وزارة الخارجية الامريكية) لبنان الاهمية الكافية وذلك بعدما أضحى بلدا حيويا للمصالح التجارية الغربية • وكان الالمام بشؤون العالم العربي قبل الخمسينات وقفا على الارساليات التبشيرية ، وعلماء الآثار ، والمستشرقين ، والمدرسين الاجانب ، وغيرهم من هواة هذا الجزء من العالم • وكانت الجامعة الامريكية في بيروت ، ومثيلاتها في اسطنبول (روبرت كولدج) وفي القاهرة (الجامعة الامريكية) تمارس التأثير المباشر والرئيسي

(١) يذكر المعرب ان هذا ما حدث بعد ثورة العراق ١٩٥٨ عندما دخـل عبدالكريم قاسم في نزاع مشابه مع ناصر •

على المنطقة فيما يختص بالمصالح الامريكيه (١) ، وعلى الحكومة الامريكية فيما يختص بمشاكل الشرق الاوسط · وفي خلال الخمسينات ، حطت شركات البترول الضخمة رحالها في الشرق الاوسط وتدفق بعدها سيل عرم من بائعي المعدات الهندسية ، ومن المستثمرين الذين أغرتهم الآفاق الجديدة التي فتحها لهم النمو المطرد للجاليات الامريكية (مثل أسر موظفي شركات البترول) · ثم انضم اليهم وكلاء الشركات الامريكية للبضائع الاستهلاكية · وعندما بدأ ضخ النفط على مقياس واسع ، ظهرت طبقة الاغنياء من العرب الكويتيين والسعوديين الذين وظّفوا أموالا طائلة في لبنان ، مما أدى الى ازدهار اقتصادي سريع في المدن ، وجذب المزيد من المستثمرين ووكلاء الشركات الى المنطقة مع عائلاتهم التي ساهمت في تضخيم حجم الجاليات الاوروبية والامريكية ، وتوسيع مجال الاعمال التجارية فيها · وفي منتصف الخمسينات أمست مصالحنا التجارية في المنطقة ضخمة ومتسعة ، وعلى خلاف ما كانت عليه في الاربعينات · وعلى غرار المركز العالمي للأعمال التجارية في مدينة نيويورك ، فقد أضحت بيروت المركز التجاري للعالم العربي ·

وبرز الوجود التجاري الامريكي في المنطقة بصورة جلية واضحة خلال أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ · فقد قامت يومها الحكومة الامريكية بتشكيل عدة لجان من كبار رجال الاعمال بغية اسداء النصح لها بخصوص الشرق الاوسط ، وكانت غالبية اعضاء هذه اللجان من مدراء شركات البترول · وهكذا أصبح لأروقة شركات البترول تأثيرا مباشرا على سياسة الحكومة الخارجية بعدما بقيت سيطرة ملوك المال بعيدة عن أجواء واشنطن طوال عهدي الرئيسين روزفلت وترومان · ومع أن حماس شركات البترول قد فتر بعدما وجهت وزارة العدل انذارا لاحدى تلك اللجان بتهمة محاولة تشكيل تكتل احتكاري (تروست) (مع أن اللجان قد شكلت بناء على طلب من وزارة الخارجية) ، الا أن تأثيرهم على سياستنا في الشرق الاوسط قد استمر بقوة وجرأة · وعندما بدأت الازمة اللبنانية تلوح في الافق عام ١٩٥٨ ، كان تأثيرهم قد بلغ الذروة ، وصار عاملا رئيسيا لا يمكن اغفاله البتة ·

(١) ومن مآثر هذه الجامعة (وكان اسمها سابقا الكلية الانجيلية السورية) ان غالبية رجال السياسة في العالم العربي من خريجيها · (المعرب)

والتقت الصحف الشيوعية مع غيرها من الصحف المعادية للغرب على اتهام موظفي شركات البترول الامريكية بأنهم « مجانين سلطة ومال » ومجردون من الاخلاق والضمير ، ولا يأبهون لمصلحة الشعب أبدا ، كما اتهمتهم بعدم التحرج في اتباع أية وسيلة بغية الوصول الى أهدافهم ، كارشاء المرشحين للانتخابات ، وافساد الرسميين ، ومحاولة الاطاحة بالحكومات التي لا ترضخ لرغباتهم . وبغض النظر عن شهوات رجال المال وحرصهم الشديد على مصالحهم ، فان لديهم هيئات استشارية على كفاءة عالية ، وتضم نخبة من علماء الاقتصاد والاجتماع وعلم طبائع الانسان والعلوم السياسية ، الى جانب ألمع رجال القانون والمحاسبة. ولهذا فان رجال المال يدركون تماما أن استقرار الحكومات وازدهار المجتمعات ، عاملان مهمان (لأسباب عملية محضة) من عوامل استمرار وجودهم وازدياد أعمالهم . فلقد أنفقوا الملايين الطائلة من الدولارات على مشاريع أجمع النقاد على أنها كانت « لصالح الشعب » . كما أنهم كانوا يرفضون بقوة واصرار كل المحاولات الرامية الى اضعاف كيان الحكومات التي هم على وئام معها واتفاق . كما كانوا ضد مؤامرات أجهزة المخابرات (على اختلاف أنواعها) الرامية الى الاطاحة ببعض الحكومات ، ووقفوا ضد المواقف السلبية لرجال السفارات الامريكية (أو ضد تلكئهم في ممارسة الضغط المطلوب) . فقد كان رجال سفاراتنا غالبا ما يلتزمون باحدى العبارات التي أطلقها مرة أحد سفرائنا وجاء فيها : « من الصعب أن نتجاوب كلية مع العرب ، ان هم أصروا على سلوكهم كعرب » .

وفي منتصف الخمسينات ، كان في بيروت جالية واسعة من الشرقيين الذين تأقلموا مع الغرب ، وأخذوا يشاطرون شركات البترول آراءهم ومواقفهم. وقد ضمت هذه الجالية الكثير من أصحاب البنوك ، ومقاولي الأبنية ، وأصحاب شركات الشحن وشركات استيراد مواد البناء وأجهزة آبار البترول وهيئات دراسية لشركات البضائع الاستهلاكية ، وعدد كبير من الشركات الاستشارية في مختلف النواحي التي تخص مسألة استقرار شركات البترول ، وتأقلمها مع المجتمعات التي هي فيها . وكانت نتيجة كل ذلك ، ظهور وجهة نظر جديدة تجاه طبيعة علاقات الغرب مع ناصر . ففي الوقت الذي كانت وزارة الخارجية الامريكية غير راغبة في ممارسة أي ضغط على ناصر وميالة الى المحافظة على علاقات هادئة معه ، فان الجالية التجارية بدأت تعاكس هذا الاتجاه معاكسة

شديدة وجلية . فقد أدرك المسؤولون انه مهما كانت وجهات النظر تجاه ناصر ، فان امتداد نفوذه أمر واقعي ، لا فائدة من اغفاله . ولكن أي الطريقين أجدى في سلوكنا معه : طريق التفاهم والاتفاق ، أم طريق المقاومة والعداء ؟ لقد كان الغرب ـ وخاصة الامريكيون ـ يميلون الى سياسة التفاهم والاتفاق طوال المدة التي لم يكن لهم اثناءها اية مصالح تذكر في المنطقة . الا أنه في نهاية عام ١٩٥٧، وبعدما أضحى للامريكيين مصالح اقتصادية وتجارية في المنطقة ، بدأ الاتجاه نحو سياسة المعاكسة والعداء يزداد قوة ووضوحا مع ازدياد النشاط المصري الهدام في لبنان (١) .

ومنذ ذاك الوقت بدأت الغيوم تتلبد في سماء المنطقة ، وأخذت تنـــذر بعاصفة هوجاء على وشك الهبوب في أية لحظة وفي تلك الاثناء قدمت استقالتي من وزارة الخارجية في أيار (مايو) ١٩٥٧ ، وأسست أول مكتب لي « للعلاقات الحكومية » وتقديم النصح والمشورة الى شركة بترول وشركة طيران وبنك (وكان هذا في بيروت وفي حزيران (يونيو) ١٩٥٧) . وفي نفس الوقت تقريبا أقامت عدة شركات بترول رئيسية مكاتب عدة (على غرار مكتبي) لكي تبقى على صلة بالاحداث التي بدأت تتصاعد بغرابة وتنذر بالسوء والخـــطر . وكان مكتب « العلاقات الحكومية » لشركة أنابيب التابلاين يضم خيرة الرجال أمثال ساندي كامبل ، وداڤيد دودج (ابن بافارد دودج الذي كان رئيسا سابقا للجامعـــة الامريكية في بيروت ، واحد المتكلمين باللغة العربية بطلاقة تفوق طلاقة أي متكلم آخر في الجالية الغربية) . وفي تلك الأثناء ، بدأ هاري كيرن ، وسمير سوقي ، باصدار « التقرير الأجنبي » الذي كان من أوائل النشرات الدورية الخاصة كما كان ذا نفوذ كبير لدى شركات البترول المشتركة به (وكانت قيمة الاشتراك به فاحشة) . وبعد ذلك بقليل ، قام فؤاد ايتايم باصدار سلسلة جديدة أطلــق عليها اسم « نظرات في اقتصاد الشرق الاوسط » . وتدفق بعده سيل من هذه النشرات والمجلات الدورية . وفي غضون سنوات أضحى عدد البنوك في بيروت

(١) يلاحظ القارىء ان هذا لم يؤثر على سياسة التفاهم حيال الوضع في سوريا (١٩٥٧ ـ ١٩٥٨) وهذا واضح في نهاية الفصل السابق . ولقد ايدت امريكا تاييدا للوحدة السورية ـ المصرية بعد أن اخذت مصالحها تتسع في العالم العربي ووجدت في توطيد نفوذ ناصر في سوريا انقاذا لها من السوفييت . (المعرب)

أكثر من عددها في نيويورك ، كما ارتفع عدد الصحف في بيروت حتى فاق عددها في لندن • وفي منتصف عام ١٩٥٨ ، بلغ عدد النشرات الخاصة الدورية في بيروت أكثر من عددها في كل من لندن وباريس ونيويورك مجتمعة • ومنذ ذلك الوقت ، اضحت « لعبة الأمم » المقنّعة بين الناصريين والغرب شبيهة بتلك الحفلات الليلية التي تجري في حدائق الحيوانات الطبيعية في افريقيا حيث تظن الحيوانات أنها في ليل دامس لا يراقبها فيه انسان • الا أنها في الحقيقة تكون غارقة في بحر من أشعة ما تحت الحمراء (التي تجعل الاشياء منظورة في الظلام) وأبصار المتفرجين محملقة فيها ، من خلف نظارات خاصة • وهذا ما آلت اليه الحالة في لبنان • ففي أواخر ١٩٥٧ وأوائل ١٩٥٨ ، اقتنع المراقبون (على خلاف المشاركين في الأحداث) أن الوضع بات يهدد بالانفجار بين عشية وضحاها •

ولم تكن مراقبة الاحداث لتقتصر على السفير الامريكي في بيروت وحده (وكان يومها دونالد هيث سفيرا حتى أواخر ١٩٥٧ ، ثم روبرت ماكلينتوك في أوائل ١٩٥٨) ، بل كان يشاركه في هذا عدد من كبار المراقبين الرسميين وشبه الرسميين (الذين كانت لهم صفة الاستقلال عن السفير ، أو كانت تربطهم به مجرد علاقات شكلية) • وكان على رأس هؤلاء ويلبور (بيل) ايفلاند ، الذي أرسله البيت الابيض كمبعوث خاص ليبقى على اتصال وثيق بالرئيس شمعون وليشرف على تنفيذ « مبدأ ايزنهاور » • وعلى حد قول أحد أصدقائي في وزارة الخارجية الامريكية ، فقد كانت مهمة ايفلاند المحافظة على التوازن تجاه السفير ماكلينتوك• وأما مدير فرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية فقد كان، بصورة استثنائية ، ذا رتبة عالية أتاحت له (الى جانب مركزه المرموق في واشنطن وقربه من الأخوين جون وآلن دالس ، وكون مهمته في بيروت للتنسيق فقط) فرصة الاستقلال فعلا عن السفير ماكلينتوك • وكانت لديه تعليمات أن يقتصر في مهمته على التنسيق بين مصادر المعلومات وعدم الانغماس في عمليات سرية • الا أن المدير الاقليمي (المقيم) لفرع وكالة المخابرات المركزية الامريكية في بيروت قد اضطلع بمهمة استكمال عمل المدير السابق ، وخاصة في نواحي الاشراف على العمليات السرية • ومع أن المدير الاقليمي (المقيم) لم يكن أمريكي الجنسية، الا أن تمتعه بذكاء وافر وقدرة فائقة على الاقناع ، أهلّه لأن يصبح ذا مكانة

مرموقة عند كل من المقيمين في بيروت (ومنهم طائفة رجال المخابرات) ومحللي المعلومات في واشنطن ، الذين كانوا يولون تقاريره وتوصياته اهمية لا تقل عن تلك التي كانوا يولونها لتقارير السفير نفسه ٠ (وهذا المدير هو الذي مد يد المساعدة للامريكيين عندما بدأت المبارزة بينهم وبين المخابرات المصرية أثناء الانتخابات ٠) وعلاوة على هذا ، فقد كان هناك سيل متدفق من كبار المسؤولين الذين اعتادوا التردد على بيروت لاذكاء لهيب الأحداث وتأجيج نارها ، (وقد انتابتهم موجة من الاسى عندما هدأت الاحوال في لبنان ، ذلك لانهم كانوا يعتبرون بيروت من أجمل بقاع العالم التي يؤمها الموظف في رحلة للمتعة ، تحت ستار تكليفه بمهمة رسمية على حساب الدولة) ٠ وأما السفير ماكلينتوك. فقد كان في حالة أجاد أحد موظفي السفارة عندما وصفها قائلا : « في خضم هذه الأمواج المتلاحقة من المتطفلين غصبا على شؤون السفارة ، فان السفير ماكلينتوك ، قد اضطلع بمهام أكثر المناصب في السلك الديبلوماسي قساوة وفظاظة وقرفا » ٠

وفي الثامن من أيار (مايو) ١٩٥٨ انطلقت الشرارة الاولى التي فجـرت الصراع كله في لبنان عندما قام مجهول باغتيال صحفي ناصري اسمه « نسيب المتني » ٠ وكان المتني يشكل مصدر ازعاج كبير لشمعون ، مما دعا أعـداء الاخير الى اتهامه بتدبير قتل الاول (وذلك حسب ما جرت عليه العادة عنـد اللبنانيين حين اصدار الاحكام) ٠ وبلغ عدد الضحايا في حوادث العنف خـلال الاسابيع القليلة التالية لحادث الاغتيال أكثر من عشرين قتيلا في أنحاء متفرقة من البلاد ٠ وجاءت تلك الاحداث ملائمة للمخطط الـذي كان يريد المناوؤن لشمعون تنفيذه ، واعتبروا وقتها مناسبا جدا ٠ واحتج شمعون (وبيـل ايفلاند) على أن عملية اغتيال المتني كانت مدبرة من قبل المناوئين له ، واستدل بالحجة القائلة ان رد فعل المعارضة كان من السرعة ، والاحكام في الاعداد ، بحيث يؤكد أنه لم يكن مجرد أمر عارض أو تصرف مفاجيء ٠ وانما كان الرد مهيئاينتظر حادثةكحادثة المتني حتى يفلت من عقاله ، وينطلق الى أهدافه ٠ والحقيقة أن كلا من أنصار شمعون وأعدائه يتساوون في حمل أوزار تلك الحادثة المشؤومة وتبعاتها ٠ وقد برهنت الاحداث المتلاحقة على هذا فعلا ، فعندما قامت المعارضة بوضع المتاريس عند النقاط الحيوية لمدينة بيروت ،

وسدت منافذ الطرق الرئيسية ، وأغلقت الحوانيت ، وحفرت الخنادق حول مناطق تجمعها ، وحاولت فعلا أن تشل الحياة التجارية والاجتماعية في البلاد، كان رد أنصار شمعون سريعا ومماثلا • وفي غضون بضعة أيام ، غدا لبنان مسرحا لحرب أهلية شاملة شملت البلاد كليـة • الا أن تلك الحرب كانـت شبيهة بلعبة الشطرنج ، فلا تضع أوزارهـا حتى يستقيل « الشاه » (١) أو يُقال •

وأما المعارضون لشمعون (ولا مانع من اطلاق اسم « المتمردين » عليهم ، لخروجهم على حكومة شرعية قائمة) فقد كانوا فئتين : فئة الزعماء الحقيقيين الذين كانوا يمثلون مناطق كاملة اشتهرت بعدائها لشمعون ، وفئة الزعماء الذين يغلب طابع الحياة السياسية لمدينة بيروت على أنصارهم من الأفـراد المنتسبين للاحـزاب والجماعات السياسية المنظمـة ، و « القبضايات » والمريدين الماجـورين • وكان من الفئـة الاولى كل من صبري حماده من سهـل البقـاع ، ورشيد كرامي من مدينـة طرابلس ، وكمال جنبلاط عن طائفة الدروز • وقد طلبوا من المصريين تجهيزات عسكرية ومعدات اخرى حتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم • واتضح أخيرا أنهم ، باستثناء جنبلاط ، قد تمكنوا من تدبير شؤونهم بمساعدات يسيرة • الا أن الجيش اللبناني تحت قيادة اللواء فؤاد شهاب قد رفض مساندة شمعون ، ولم يفعل أكثر من ابقاء الاطراف المتقاتلة بعيدا عن الالتحام مع بعضها البعض • ولم يكن لدى شمعون الاعداد الكافية من المدنيين المسلحين حتى يقف في وجه كل من كرامي وحمادة• ووجد جنبلاط نفسه وجها لوجه مع عناصر الحزب القومي الاجتماعي المدججة بالسلاح ، والتي بصفتها يمينية الاتجاه ، قد خاضت غمار المعركة بدافع من كراهيتها لناصر أكثر من حبها لشمعون •

وكانت الفئة الاخرى من الزعماء تشتمل على « البيارتة الاربعه » وهـم صائب سلام وعبدالله اليافي وعدنان الحكيم وعبدالله المشنوق • ولم يكتف هؤلاء الزعماء بطلب التجهيزات العسكرية من المصريين ، بل ألحوا في طلب المساعدات المالية بغية شراء الدعم والتأييد لانفسهم • وفي الوقت الذي قام

---

(١) يقصد « بالشاه » الرئيس شمعون •   (المعرب)

المصريون بتلبية الاحتياجـــات الضرورية لكمال جنبـــلاط ، فقـد اقتضت استراتيجيتهم تقديم دعم كثيف « للبيارته الاربعة » حتى يتمكنوا من استقطاب الاحياء الشعبية في المدينة ، والسيطرة على الغوغاء في الشارع ليسهل -بالتالي- التحكم بالمنطقة الرئيسية في لبنان ، الا وهي مدينة بيروت نفسها • ولقد أناط المصريون مسؤولية الاشراف على شؤون مخابراتهم العامة في بيروت بمسؤول ذي كفاءة عالية وخبرة رائعة في مجال اختصاصه • وكان يعاونه في هذا فريق من المسؤولين المهرة أيضا • وقدشكلت المخابرات المصرية فريق عملها في الميدان من المتشردين السوريين الذين جندهم رئيس المخابرات في سوريا ، عبد الحميد السراج ، وارسلهم الى لبنان متسللين عبر الجبال • وكان السراج يشكل همزة وصل مثالية بين المحترفين من المصريين وغوغاء الشارع في لبنان • وهكذا ، فلم ينتصف عام ١٩٥٨ (حزيران ، يونيو) حتى كانت المعارضة قد حشدت ضد شمعون ومؤيديه من الغربيين طاقات هائلة وقدرات ضخمة ، ولم يكن يومها قد مضى أكثر من شهر واحد على اندلاع نار الحرب الاهلية في لبنان •

وبقي المسؤولون الغربيون فترة من الزمن هائمين على وجوههم وسط زحام الاحداث في لبنان ، لا يدرون ما يفعلون • كمـــا بقيت جهودهم دون تنسيق ، وآراؤهم دون توحيد • وقد وصفت احدى النشرات الدورية الخاصة الحـــالة يومها قائلة : « لقد كثر اللغط حول حقيقة الاحداث المتلاحقة في لبنان ، وتباينت الآراء حول أسبابها ودوافعها • كما ظهر تضارب في المواقف الأدبية تجـــاه الاحداث وأشخاصها • واختلط الحابل بالنابل ، فلم تعد تدري من يُسيِّر دفة الأمور ويمسك بزمام الموقف » • فقد أيد السفير ماكلينتوك فكرة التجديد للرئيس شمعون (ولم يتلكأ عن الاعراب عن رأيه هذا أمامه) ، الا أنه سرعان ما عَدَّل عن رأيه هذا الى آخر معاكس له تماما • وبذلك أضحى السفير على خلاف في الرأي مع كل من بيل ايفلاند ، ووكالة المخابرات المركزية الامريكية ، ومعظم طبقة رجال الاعمال الذين أصروا على فكرة التجديد وتمسكوا بها • الا أن البقية الباقية من طبقة رجال الاعمال ، وخاصة خبراء مكاتب « العلاقات الحكومية » التابعة لكبريات شركات البترول ، أعربوا عن رأيهم في الاحداث اللبنانية وقالوا ان الامر كلـــه لا يعدو مجرد تمرد على القانون وخروج على النظام تقوم به الغوغاء ، وانه مهما تفاقمت الاحداث (على حد قـــول مسؤول

باحدى شركات البترول) فمن الضروري مقاومة العنف والارهاب ، وعدم فسح المجال أمامهما للوصول الى أية مكاسب ، أو تحصيل أية مغانم • وعلى الاقل ، فقد تمكنت احدى شركات البترول من تحقيق لقاء بين زعماء المعارضة الحقيقيين (امثال حماده وكرامي وجنبلاط بدون « البيارته الاربعة ») وبين أنصار شمعون المعتدلين ، واتفقوا فيه على وجوب التوقف عن تخريب « بلدهم الحبيب » ، وعلى ضرورة حسم النزاع بينهم بالوسائل السلمية • كما اعربوا عن ترحيبهم بانضمام السفارة الامريكية الى هذه البادرة السلمية ، وعن رغبتهم في أن تضطلع ببعض المهام فيها •

ومن الجدير بالذكر أن تلك السلسلة من الخلافات التي برزت بين كبار المتنفذين الامريكيين حول سياسة الحكومة الامريكية واستراتيجيتها ، قد لعبت دورا بارزا في بلورة الموقف الامريكي الجديد (منذ ١٩٥٨) الذي كان له أكبر الأثر في تحديد طبيعة علاقاتنا مع ناصر وغيره من الحكام الوطنيين ، الذين أخذوا في انتهاج سلوكه واتباع طريقه • ولقد بدا هذا الأمر واضحا تماما بعد انتهاء الأزمة اللبنانية مباشرة (مع أن اثنين من سفرائنا في القاهرة ظهرا على أنهما لا يعلمان عنه شيئا) • وما ان أطلت شمس الستينات حتى أدرك كل مراقبي « لعبة الأمم » (والمصريون كذلك) أن هذا الاتجاه الجديد قد غدا مسيطرا • كما وانه قد استدعى تغييرا كاملا لطبيعة « لعبة الأمم » ، غير أن اللاعبين أنفسهم لم يدركوا هذا الا بعد حين •

وكان الاتجاه المسيطر على الموقف الامريكي الجديد هو النفور من العنف والابتعاد عن الارهاب كوسيلتين من وسائل نيل المطالب ، مهما كانت الدوافع لهما سامية والأسباب عادلة • ولاضفاء الهيبة على هذا الاتجاه الجديد ، وزرع الرهبة منه في قلوب الآخرين ، كان لا بد من اقامة الدليل على أن سياسة العنف سياسة خاسرة ، وأنمشاريع أصحابها لن ترى النور ، وذلك حتى يتعظ الآخرون بهذا ويرتدعون • ولقد رفع الديبلوماسيون الامريكيون المحافظون لواء الدفاع عن هذه الفكرة (وأيدهم في هذا كل طبقة رجال الاعمال) ، وعززوها باعتقاد آخر سليم • فقد دعوا الى سحب الثقة نهائيا من اولئك الذين لا يرون بديلا عن سياسة العنف كوسيلة لتحقيق أهدافهم ونيل مطالبهم ،

مهما كانت سامية وعادلة ، والى عدم منحهم اياها ثانية مهما كانت الظروف أو اقتضت الاعتبارات · لقد كره الجميع سياسة العنف ، واشمأزوا من دعاتها ، وأجمعوا على مقاومة كل من تسول له نفسه باللجوء اليها · وعليه ، فكل من عومل بمثل هذه السياسة ،لهأن يدافع بقوة ضدها ، وعلى الآخرين الاصغاء لشكواه دفاعا أم هجوما · ولقد فاز هـــذا الاتجاه الجديد بموافقة جميـــع الامريكيين الذين لهم علاقة بالأزمة اللبنانية ، ولم يخرج عن هذا الاجماع أحد منهم ، رسمي أو غير رسمي · الا أن شكوك الديبلوماسيين ورجال الاعمال في صلاحية هذا الاتجاه الجديد وفي مدى انسجامه مع الدوافع البشرية الفطرية بقيت في تفاوت غير يسير ·

ولقد عبر أحد موظفي السفارات عن موقف دبلوماسييا (بالمقارنة مع موقف رجال الاعمال) عندما توجه الى ساندي كامبل (في شركة التابلاين) قائلا : « وماذا تتوقع غير ذلك ؟ فوالله لا يدع اللبنانيون العنف حتى تدع الكلاب مطاردة الهررة » · لقد كان الديبلوماسيون الامريكيون ، وديبلوماسيو ما وراء الكواليس ، يعتقدون أن سياسة الارتشاء والارهاب ، ودغدغة غرائز الانسان الخسيسة ، ليست سوى أحد الملامح المألوفة لمسرح الاحداث في لبنان · فقد تأقلم اولئك الديبلوماسيون مع ذاك النوع من « لعبة الأمم » التي تسودها السياسة السالفة الذكر ، ولمسوا أنها قد حققت نجاحا باهرا بدون أدنى ريب أو شك ، ولهذا فقد كانوا على طرفي نقيض مع رجال الاعمال الامريكيين · وسبب هذا أن علاقة رجال الاعمال بأصدقائهم من اللبنانيين كانت مجرد علاقة منافع مادية ومصالح تجارية ، وهذا النوع من المعاملات لا يمكنه أن يجري الا في أجواء يسودها الهدوء وتطغى عليها نزعة جر المغانم وزيادة الارباح · ولهذا كانت رسائلهم الى رجال الكونغرس لا تظهر سوى اصرارهم على مخالفة رأي الديبلوماسيين ومعارضتهم له · (وكان رجال الكونغرس بدورهم يوجهون الرسائل ثانية الى وزارة الخارجية مدعومة بتأييدهم وتشجيعهم لموضوعها) ·

وأما اميل البستاني (مقاول مليونير مسيحي) وفوزي الحص (مقـاول مليونير مسلم) فقد كانا من دعاة « النظام والقانون » ، ومن الذين يتمتعون بثقة رجال الاعمال الغربيين واحترامهم · وقد بحثنا معي امكانية التوسط لدى الرئيس ناصر ، لما بيني وبينه من صداقة وحسن صلة ، وذلك لايجاد حل

مناسب للازمة اللبنانية يسمح لكل من المصريين والامريكيين بسحب تأييدهم على الترتيب ، « للبيارتة الاربعة » ولحكومة شمعون · كما ان على الحل المناسب أن يترك الباب مفتوحا على مصراعيه أمام العناصر المعارضة لشمعون والمؤيدة له للتوصل الى تسوية سلمية بينهما لانهاء الصراع ، وانقاذ ما تبقى من البلاد من الخراب والدمار · وكان لي اتصال سابق مع كلا الرئيسين شمعون وناصر ، وذلك قبل أن تتفاقم الاحداث وتبلغ الازمة ذروتها في لبنان · وبعدما لمست استحسان إحدى كبريات شركات البترول لفكرة الوساطة (وكان ذلك في حزيران ، يونيو) عزمت أولا على مفاتحة الرئيس شمعون بالفكرة ، ومن ثم الرئيس ناصر · ولم يكن جلّ همي في البداية ترويج الفكرة والدعوة لها بقدر ما كان الوقوف على مدى استعدادهما للتجاوب مع الفكرة حقا ·

وكميل شمعون بمطلعه الوسيم ، وشعره الأشيب ، ومظهره الذي يشابه تماما مظهر الرئيس اليوغوسلافي تيتو ، كان من دعاة « العروبة » قبل أن يسمع ناصر بهذه الكلمة بزمن بعيد · ففي الجامعة الامريكية في بيروت ، حيث ولدت فكرة القومية العربية وترعرع دعاتها (١) ، كان شمعون من الدعاة المتحمسين « للوحدة العربية » ولمجابهة عربية واحدة ضد المطامع الصهيونية · ولسنوات خلت ، بات الرئيس شمعون متحررا من فكرة القومية العربية كقضية سياسية مطروحة للتنفيذ · ويعتقد شمعون أن فكرة القومية العربية ما هي الا أداة في يد أكثر رجال السياسة المسلمين فسادا ، ناهيك عن أن معظمهم من المأجورين الدائرين في فلك سلطات القاهرة · كما يستبد الخوف بشمعون من أي نجاح قد يحرزه السياسيون من دعاة الوحدة العربية في تحقيق أي من أشكالها التي – على حد اعتقاده – ستجعل من المسيحيين في لبنان أقلية مضطهدة (٢) في وسط بحر من المسلمين المستائين ·

(١) ان أكثر من تسعين بالمئة من قادة حركة القومية العربية الاقحاح هم من خريجي الجامعة الامريكية في بيروت · ولا تزال هذه الجامعة (وكانت سابقا تسمى «الكلية الانجيلية السورية») ناشطة في تقديم مثل هذه الخدمات لدول منطقة الشرق الاوسط · (المعرب)

(٢) تخلص بعض المسيحيين من هذه العقدة عندما قرروا قيادة الحركة القومية وما يتفرع عنها من منظمات بانفسهم · وكان منهم السادة : ميشيل عفلق وجورج حبش ونايف حواتمه وانطون سعاده (الذي وان اختلف في الفكرة فلا يختلف في الجوهر) · (المعرب)

وأبدى ناصر تفهما لقلق شمعون ومخاوفه · وكاد أن يظهر عطفا زائدا على مثل تلك الافكار · وليس هذا على ناصر ببعيد · فهو لم يقرن الاسلام بفكرة القومية العربية الا بدافع المصلحة وبمحض الصدفة · فناصر لا يتمتع بدوافع عقائدية تملي عليه مثل هذه الافعال · ولقد وفرت فكرة اقتران القومية العربية بالاسلام لناصر فرصا ملائمة ، ووضعت تحت تصرفه وسائل مريحة ، مكنته من الاستفادة من فكرة القومية العربية دون أن يستفيد منها الاسلام · الا أن ناصرا احتج على فكرة بقاء شمعون على الحياد · فالصراع بين « التقدميين » من العرب و « المحافظين » لا يحتمل الحياد · ولم ينس ناصر مقالة الوزير دالس في فكرة الحياد هذه · فقد رآها الاخير فكرة « لا أخلاقية » في مضمار الصراع بين الشرق والغرب · وهكذا لم تختلف حجة ناصر عن حجة دالس بكثير · فالحياد عند الاثنين « لا اخلاقي » ، الا فيما يرغبان · ولم يتخل ناصر عن اعتقاده (ودون أن يكون عنده دليل) أن لبنان يستخدم بصورة متزايدة كقاعدة للعمليات ضد [1] الجمهوريه العربية المتحدة الفتية ، (وكان عبدالحميد السراج ، رئيس المخابرات والامن القومي في سوريا (الاقليم الشمالي) قد أقنع ناصرا بهذه الفكرة منذ أول اجتماع اداري بينهما) · وبغض النظر عن كل هذا وذاك ، فان ناصرا لم ينس أبدا الحقيقة المشؤومة أن شمعون كان « خارجيا » · فالاخير ، وان لم ينضم لحلف بغداد (وما كان هذا ليعني شيئا لو حدث) فقد كان في طليعة المرحبين «بمبدأ ايزنهاور » ، بل لقد فتح له صدره ، وهش له وبش ·

وفي العشرين من حزيران (يونيو) قمت ، بصحبة فوزي الحص ، بزيارة للرئيس شمعون ، حتى أحصل منه على تفويض بتبليغ الرئيس ناصر موافقته على الالتقاء برشيد كرامي وصبري حماده وكمال جنبلاط ، في محاولة مخلصة للتوصل الى هُدنَة معهم مقابل موافقة ناصر على ايقاف دعمه « للبيارتة الاربعة » · الاأن اعتداد شمعون بامكانية التدخل الامريكي عند الطلب (كما ينص على ذلك مبدأ ايزنهاور) جعلته اقل تقبلا للفكرة السابقة ، وأكثر ابتعادا عنها · وكان أثر هذا علينا مذهلا ، وجلست وفوزي صامتين · واستمر الرئيس في عرضه الاحداث قائلا : « لقد فقدت كل ثقتي في السفير الامريكي · لقد

(١) وصف ناصر في احدى خطبه عام ١٩٥٨ هذه الجمهورية بانها « تصون ولا تهدد ، وتحمي ولا تبدد » · (المعرب)

خذلني بعدما جعل من فكرة تجديد رئاستي أمرا عظيما · انني أثق كلية ببيل يفلاند ، فقد كان يشد منعزيمتي ، ويحثني على ان أقف صامدا دون تراجع أو ضعف » ·

وتحت ضغط فوزي الحص واميل البستاني ، غادرت بيروت الى القاهرة ، وقصدت ناصرا للاجتماع به مباشرة بعد تبادل سريع للآراء مع سفيرنا هناك ريموند هير · وكنتيجة لمقابلتي ناصرا وسفيرنا ، فقد علمت أن فكرة اميل البستاني وفوزي الحص قد خطرت لناصر ، وقدم بها الى السفير اقتراحا جاء فيه : « لما كانت كل منالولايات المتحدة الامريكية والجمهورية العربية المتحدة تمثلان الطرفين الخارجيين اللذين لهما علاقة بالأزمة اللبنانية ، فانني لا أرى مانعا في عقد اجتماع يضم الطرفين ، وذلك للتوصل الى اتفاق على حل يفرضانه على اللبنانيين » · الا أن السفير ريموند هير رد على اقتراح ناصر (بعد تبادل الرأي مع واشنطن) بجواب تعمد فيه اساءة تفسير اقتراح ناصر جاء فيه : « ان من دواعي سرور حكومة الولايات المتحدة أن تبذل قصارى جهدها للتوسط في النزاع بينك وبين الرئيس شمعون » · الا أن ناصرا ، الذي اعتاد أن يوقع السفراء الامريكيين في شركه ، دون تذمر منهم او احتجاج ، قد تضايق من هذه المكيدة التي دبرها له السفير هير · وعندما اجتمعت به أحسست أنه ما زال يعاني من وخزها · ومع ذلك ، فقد اسهب ناصر في شرح آرائه حول الازمة اللبنانية لينتهي أخيرا الىالقول ، انه لو كانت الأزمة اللبنانية تخصه وحده دون سواه ، فان ما يفعله هو تنصيب الجنرال فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية ورشيد كرامي رئيسا للوزراء · ومن ثم يخرق سفينة « البيارتة الاربعة » ليغرقها بمن عليها ، فلقد أذاقوا سفيره (عبد الحميد غالب) الأمرّين · واختتم ناصر الاجتماع معقبا : « ولو أن الامور بقيت على حالها ، فلا بد من الوصول بها الى نهاية ما ، نشهدها بام أعيننا ، ونرعاها بايدينا · ولن يوقف أحد منا دغمه للاطراف المواليةله ، وستبقى مصر لحلفائها ، والولايات المتحدة لاعوانها » ·

الا أنني اخبرت السفير هير ، ان كل أصدقائي في بيروت ــ الامريكيين منهم واللبنانيين ــ سيصابون بخيبة أمل ، وسيظنون بجوابه لناصر الظنون ·

فهم يرون في اقتراح ناصر الشكل الوحيد لاتفاق ينهي النزاع ويعيد الهدوء · الا أن السفير أجابني موضحا أنه ـ شخصيا ـ قد آنس في نفسه ميلا قويا نحو اقتراح ناصر · ولكنه كسفير لبلاده ، فانه لا يملك من الامر شيئا · فواشنطن هي التي تقبل وترفض ، وعلى السفير السمع والطاعة · كما أن تبادل الآراء مع واشنطن قد ترك عنده الانطباع أن طبقة رجال الاعمال في لبنان تعارض بشدة أي رد لين على ناصر او جواب مرض له · ثم التفت الي السفير قائلا : « ألم تكن قد وافقت على أنه لا ينبغي لطرف من الاطراف أن يفرض نفسه عنوة ويجلس الى طاولة المفاوضات ؟ اذا كان ناصر يرى ضرورة اجراء مفاوضات حول القضية على مستوى الولايات المتحدة والجمهورية العربية المتحدة ، بدلا من مستوى ناصر وشمعون ، فاخبره أن يأتينا بشروط بناءة ، ثم نحن حيالها نلقاه » · واستشهد السفير هير بهذا الكلام من تقرير أرسله أحد كبار مدراء شركة بترول أمريكية في بيروت · وتضمن ذلك التقرير الملاحظة التالية : « لقد غدت المعركة في لبنان بين عملاء ناصر من طرف وأزلام شمعون من طرف آخر · الا أن أزلام شمعون ما زالوا يتمتعون بصبغة قانونية ، فهم مع الحكومة، وليسوا ضدها » · ولم يكن السفير هير مؤيدا وجهة النظر هذه سوى تأييد محدود ، الا أنه وصفها بأنها تمثل « الموقف الجديد » في واشنطن الذي أضحى (الى حد كبير جدا) تحت التأثير الجديد لتلك التقارير غير الرسمية الصادرة عن رجال الاعمال الامريكيين في بيروت · وكانت هذه التقارير تصل الى وزارة الخارجية مرفقة باستحسان المقررات الرئيسية لشركات البترول ، كما كانت تتلقى الدعم من رجال الكونغرس الذين كانت الشركات تزودهم بنسخ عنها مباشرة) ومن رجال ذوي نفوذ واسع في أروقة الحكومة والذين هم بنفس الوقت اعضاء في مجالس ادارة تلك الشركات · وأما بخصوص تنصيب ناصر للجنرال شهاب رئيسا للجمهورية ، ولرشيد كرامي رئيسا للوزراء ، فقد كان اعتقاد وزارة الخارجية الامريكية وطبقة رجال الاعمال الامريكيين أن اعتلاء هذين الرجلين سدة القيادة دليل ، ما بعده دليل ، على انهيار سلطة القانون ، وفقدان النظام والامن في لبنان ·

وقفلت عائدا الى لبنان · وهناك وجدت أن عملية ضخمة كانت في طور الانجاز والتنفيذ · ١ وبعبارة أوضح ، فقد كان هناك مجموعة عمليات محدودة،

ومعدومة التنسيق ، وعاجزة عن تحقيق أية نتائج لانها كانت تضم اطرافا لا يدري كل منها ما يريده الآخر ويسعى له ·) فقد قامت مجموعة أغنياء المسلمين اللبنانيين تحت اشراف فوزي الحص، بالاسهام في مجهود مشترك لشراء الانصار من حول «البيارتة الاربعة» تخفيفا لحدة التوتر· (ولم تكن هذه العملية باهظة التكاليف ، وذلك لان المصريين كانوا قد علقوا مساعداتهم المالية في انتظار نتائج تحقيق يجري حول مزايدات تزعم الانبـــاء أن أحد « البيارتة الاربعة » يزاولها) · كما تطوع عادل عسيران ، رئيس المجلس النيابي الشهير، للتوسط بين المعتدلين من أنصار شمعون والمعتدلين من معارضيه · وأثناء غيابي عن بيروت ، أخبر السفير الامريكي الرئيس شمعون أن الادلة على تدخل الجمهوريه العربية المتحدة لم تكن مقنعة ولا حاسمة (كما أن مراقبي الامم المتحدة لم يعثروا على أي دليل لهذا الغرض) · ولهذا فان نزول القوات الامريكية في لبنان أمر غير وارد البتة · وهكذا أضحى الرئيس شمعون مثبط الهمة ، مهيض الجناح (على حد قول فوزي الحص وهو فرح بهذا جذلان) ، وغدت فكرة التوصل الى تسوية للنزاع أكثر احتمالا وأقرب منالا ، أرغب بذلك شمعون نفسه أم بقي رافضا ·

ولم تكن فرصة نجاح العملية السابقة قليلة · الا أن انقلاب العراق قد قلب الوضع رأسا على عقب · وحدث هذا في صبيحة الرابع عشر من تموز (يوليو) عام١٩٥٨ · وتلقت وكالة المخابرات المركزيةالامريكية أنباء تفيد أنعملية ذات شعب ثلاث قد بدأت لتوها ضد العائلة المالكة ونوري السعيد في العراق ، وضد الرئيس شمعون في لبنان ، وضد الملك حسين في الاردن· وهي بمساعدة الجمهورية العربية المتحدة ، بل وبتحريضها · وبناء على هذا ، قرر السفير الامريكي أن للرئيس شمعون الحق في طلب المعونة العسكرية الامريكيـــة استنادا الى نصوص « مبدأ ايزنهاور » · وقدم شمعون للامر طلبا ، وقطـــع السفير بوصول المساعدة عهدا · وضرب لها موعدا لا يزيد عن ثمان وأربعين ساعة زمنا · ونسي السفير ان الاسطول كان على مسيرة يوم واحد بعدا · وهذا ما حدث فعلا · فقد وصل الاسطول في أقل من أربع وعشرين ساعة ، وتدفق الجنود منه أفواجا أفواجا ، بوجوه متجهمة وبنادق مصوبة · وعـلى شواطىء بيروت الجميلة كان الناس تحت أشعة الشمس متمددين ، وفي مياه البحر

يسحمون . وسرعان ما علت الدهشة وجوههم ، واضحوا في ارتباك لا يدرون ما يفعلون . انهم في استقبال جنود البحر واقفون ، وبهم صيغة مرحبون . وأما الصغار من الصبيان ، فانهم في زرافات قادمون ، « وللعلكة » بائعون . وفي تلك اللحظات ، كان عادل عسيران مستقلا سيارته الكاديلاك ، وهي مكيفة الهواء . ينهب بها الارض نهبا وهي متجهة نحو الشمال . لقد كان على موعد ، ومع رشيد كرامي بالذات . ويريد أن يحصل منه على موافقة للصلح والسلام . وفجأة وجد نفسه وسط الزحام ، يراقب الاحداث من خلف الزجاج . فينظر فلا يرى الا جنودا امريكيين ، على موجات متدفقين ، وعلى الساحل « الفينيقي » معسكرين .

وشهدت أمواج الاثير بعد نزول القوات مشادة بين السفير الامريكي وقائد قوات الانزال البحرية . وطبعا ، فقد تبادلا فيها التهم ، ولم يكترثا . وكان الخلاف يدور حول « من يتلقى الاوامر من الآخر ؟ » . وتمخضت الشادة عن وصول القائد البحري الى مقر اقامة السفير ، وهناك أعطى التصريح البديع : « اننا قد أنقذنا البلاد من كساد أليم ، وأسعفنا الاقتصاد من وضع مهين ! » وجرت هناك مشادات أخرى ، وتراشق الاطراف الشتائم . فبين الدبلوماسيين الذين لا يحلمون بالجرأة الا في حفلات الكوكتيل ، والعسكريين الذين اعتادوا لغة الحديد والنار ، ما صنع الحداد . انهم لا يتبادلون فيما بينهم الا الاستهزاء، ولا يتخاطبون الا بلغة التهكم والسخريات . لقد وقف الى جانب العسكريين كل من الرئيس شمعون ووزرائه ومعظم المسيحيين اللبنانيين ، وطبقة رجال الاعمال الامريكيين ، ووكالة المخابرات المركزية . فقد كان الكل لهم مناصرين ، وللنجاح لهم متمنين .

وفي الوقت الذي كان يريد السفير أن يظهر جنود البحر الامريكيون مدى وفاء الولايات المتحدة بالتزاماتها تحت ظل « مبدأ ايزنهاور » ، ويركزوا على فكرة انسحابهم عائدين ، حال استيفاء العملية أغراضها باقل خسائر ممكنة (ودون أن يتبع ذلك استعمار) ، فان الرئيس شمعون كان يريد أن يقوم جنود البحر بغزو لمنطقة المسلمين في البسطة ، فيمشطوها من جميع عناصر المعارضة (ودون تمييز بين المعارضين حقا وبين المدسوسين منهم في الصفوف) ، وأن

يتحركوا من ثمّ لسد المنافذ أمام المساعدات السورية المتسللة عبر الحدود وفي بطون الاودية وعلى رؤوس الجبال · بيد أن الرعب قد دب في قلوب رجال الاعمال الامريكيين في بيروت نتيجة التقارير الرهيبة التي نقلت اليهم خفايا انقلاب العراق · واضحوا تقريبا على اتفاق مع الرئيس شمعون بخصوص ما يجب اتخاذه من اجراءات ، وان اختلفت دوافع الطرفين · وفعلا ، فقد أجمع رجال الاعمال على أن للرئيس شمعون الحق بتقرير ما يروق له ، دون أن يظهر أي لين ، أو يبدي خضوعا للارهابيين في بيروت ·

وأخيرا رجع موقف السفير · فبواسطة سلسلة من التحركات الجديرة بالثناء والاطراء ، تمكن السفير من ترسيخ أقدام جنود البحر الامريكيين في كل أنحاء بيروت ، ودون اصطدام مع الارهابيين أو التحام مع الجيش اللبناني · (وكان حقيقة قد ضمن مسبقا مساعدة الجيش اللبناني) · ومكث جنود البحر ثلاثة أشهر في لبنان ، أنفقوا خلالها الملايين ، وبسهولة وطدوا العلاقات مع اللبنانيين · ومن ثم قفلوا راجعين ، دون أن يطلقوا رصاصة واحدة في غضب أو طيش كالمجانين ، (على حد قول ماكلينتوك سفير الامريكيين) · وكثير من اولئك الذين كان عندهم أدنى المام بتعقيدات الحالة هناك ومضاعفاتها قد قدروا السفير حق قدره ، وعدوا العملية من أبرز مآثره · الا أن تقارير أخرى كانت تصل الى واشنطن من مصادر غير السفارة في بيروت · ومع أن هذه التقارير قد كتبتها أقلام بعض من لا يملكون الا فهما محدودا للاحداث الدائرة هناك ، فقد كان بعضها مقنعا للغاية (وخاصة تلك التي كتبت بأسلوب رجال الاعمال الشائع الأستعمال) ، كما وانها تظهر اختلافا وتباينا صارخين مع تقارير السفير ، تلك التي كان يرسلها بأسلوبه الادبي البليغ · وعندما شرع بعض رجال الصحافة من أصحاب النفوذ والتأثير بنشر تلك القصص (الشبيهة بالتقارير)عن تقصير السفير وفشله ، قرر الوزير دالس ، جريا على عادته في حل المشاكل ، أن يرسل أحد كبار المسؤولين لاحقاق الحق ورفع الظلم ·

وكان المحقق يومها روبرت مورفي · وروبرت هذا ذو شهرة واسعة (وذلك يوم وصوله الى لبنان) على أنه اعتاد على اهمال قيود مهمته وعلى اعتماده على خبرته وحصافته في اصدار الاحكام بناء على ما يسمى مجاملة « نظرة جديدة على

مسرح العمليات » • وعندما قرر الوزير دالس ارسال مورفي الى بيروت ، كان الاخير منكبا على دراسة تشكيلة واسعة من المسائل (وكان يعمل اثنتي عشرة ساعة يوميا) دون أن يمت أي منها بصلة الى الشرق الاوسط • وبعبارة أخرى ، فقد منح لقب المستشار السياسي لقائد أركان حرب القوات الامريكية في لبنان شكلا • وكانت مهمته حقيقة هي جمع الشخصيات والتقريب بين وجهـات نظرها ، مستفيدا من علو منصبه وخبرته الطويلة « كدبلوماسي بين المتحاربين » (عنوان ترجمته لحياته) وكان عليه أن يفعل ما يراه ضروريا ومناسبا لتعزيز مصالح الولايات المتحدة التي برزت فجأة نتيجة نزول قواتها في لبنان ، (وقد أخبر مورفي عن هذا في كتابه عندما شرح أهداف مهمته) • الا أن بعض الظرفاء من طبقة رجال الاعمال كانوا يرددون أن مهمة مورفي في بيروت لم تكن سوى « منع وقوع انقلاب في داخل السفارة الامريكية » هناك • ومهما كانت الصعوبات التي حالت دون تفهم مورفي للحالة الراهنة وللتأويلات المتضاربة لها تفهما شاملا وعميقا ، فانه قد قام بدون شك بمحاولة نزيهة لايجاد الحلول لها دونما تحيز لاحد أو تشبث برأي •

ومن التفاهة أن نغوص في تفاصيل مهمـة المستر مورفي في بيروت • فموضوع كتابنا هذا هو دبلوماسية ما وراء الكواليس ، وليس فـن الحكـم والادارة • الا أنه يجدر بنا أن ننوه الى أن مورفي كان يتوجه في تصرفاته بوحي من تلك المقطوعة الاثرية لمبادىء الحكمة والحصافة القائلة : « انني أستمع الى جميع الآراء المتطرفة ، ولجميع الاطراف المتضاربة ، بأذن صاغية وصدر مفتوح • وفي النهاية ، فانني غالبا ما ألمس أن « الحقيقة » في الوسط ، وعلى الطريق الواصل بينهم » • والاطراف المعنية هنا هي : شمعون وكان يومها رئيسـا للجمهورية ، و « البيارتة الاربعة » الذين كانوا على راس عصابات الارهـاب المدعومة من قبل سفارة الجمهورية العربية المتحدة • وقد رجوت مورفي فـي خلال المقابلة التي سمح لي بها معه (ولم تزد على ثلاثين دقيقة) أن يقتصر في علاقاته مع زعماء المعارضة على اولئك الذين يمثلون دوائر نفوذهم حقا ، ويبتعد عن أولئك الذين تحوم الشكوك حول أوضاعهم وخاصة أولئك المحسوبين على سفارة الجمهورية العربية المتحدة • ومع انه قد أصغى الي بلطف وأدب ، الا انه لم يمض ساعة من الزمن على لقائنا معا حتى كان مورفي في طريقه للاجتماع

بأكبر عملاء القاهرة في لبنان · وقد ازدهر نفوذ هذا الاخير ثانية وزاد بعدما شارف على الانقراض كليا منذ ظهور محلولات الوساطة وانهاء النزاع · ومع أن الاجتماع كان مقررا له أن يبقى سريا (كما قال ذلك مورفي فيما بعد) الا انه لم يكن في صالح ذاك السياسي بالذات أن يبقى الامر كذلك · بل ، وعلى العكس ، فقد ظهرت صور الاثنين معا وهما يتصافحان ، وللآراء يتبادلان ، ووزعت في الشوارع والاحياء ، وعلقت على الجدران ، وكان مكتوبا عليها تعليق بعنوان : « ممثل الرئيس ايزنهاور يتعاطف مع الثورة ! » ·

ومع أن معظم الكتاب الذين علقوا على الاحداث اللبنانية قد اجمعوا على اعتبار نزول جنود البحر الى الشواطىء اللبنانية مأثرة دبلوماسية بارعة ، الا أن ذلك لم يكن أكثر من مجرد رأي عالمي لا يمت الى مسرح الاحداث الحقيقي بصلة· لقد برهنت تلك الحادثة على تمسك الولايات المتحدة بالتزاماتها ، وانها على استعداد لان تمد يد المساعدة لاصدقائها بطريقة عجز السوفييت عن محاكاتها والقيام بمثلها تجاه أصدقائهم · وأما على مسرح الاحداث في المنطقة ، فلقد جاءت نتائجها مطابقة لما كان ناصر يحلم به ويشتهيه ، حتى بدا وكأن جنود البحر جاؤوا الى لبنان لخدمة أهداف ناصر وتحقيق مآربه · فأولا ، ان كلا من رئيس الجمهورية شهاب ورئيس الوزراء كرامي ، وهما الرجلان اللذان استلما دفة القيادة بعد انتهاء الاحداث ، كانا نفس الرجلين اللذين أرادهما ناصر أن يكونا في هذين المنصبين · وثانيا ، فقد استقر الارهاب في نفوس الناس على أنه السلاح الفعال ، ودون ازدراء له أو اشمئزاز منه · وفي خلال الايام الاولى لانتهاء الازمة ، كانت جميع الطوائف الدينية والفئات السياسية ترفع شعارات تقول : « علينا أن ننتزع بالقوة ما لنا من حقوق ، فالحكومة لا تنوي ردها الينا ، ولن تساعدنا على ذلك » · وكان هناك من يقول داخل سفارتنا : « ان اللبنانيين ليسوا سوى أفراد في مجتمع عصابات » ، ومن السخف أن تتوقع منهم نتائج أحسن من ذلك · ومع هذا فقد سنحت الفرصة لاقامة قواعد وأنظمة أساسية ولسببيتها هناك ، ولم يكن ليقلل من هذه الفرصة الحقيقة أن علاقاتنا مع زعيم ارهابي لم تكن لتختلف عن علاقاتنا مع رئيس لجمهورية البلاد · وثالثا ، فقد مات « مبدأ ايزنهاور » بعد الازمة اللبنانية ، وأضحى أثرا بعد عين · ونقص عدد « الخوارج » واحدا ، وودع ناصر القلق منه واستراح

ولسنوات مقبلة لم تعد حكومةلبنانية تفكر بعقد صفقات مع الغرب حتى لا تكون مدعاة لاثارة متاعب جديدة ومبررا لتدخل ناصري جديد في لبنان • فناصر يستطيع ذلك كلما اراد ، وقد يفعله دون تردد أو احجام •

* * *

وعندما شارف عام ١٩٥٨ على الانتهاء كان ناصر قد بلغ ذروة القـوة • ولقد اعني بكلمة « القوة » ، في كتابي هذا ، امتلاك الفعالية العظمى في مجال الصراع مع الدول الكبرى لصالح مصر ، ومصر لوحدها • وعلى حد قول أحد المعلقين ، فان ناصرا قد فشل في ضم لبنان الى الجمهورية العربية المتحدة ، كما فشل في ضم الاردن لها بعد قيامه بمحاولة انقلاب اخرى هناك بعد انسحاب القوات البريطانية منها (وكانت قد حطت رحالها هناك عندما نزل جنود البحر في لبنان) • وحدث انقلاب في السودان أطاح بالحكومة هناك في غفلة من المخابرات المصرية واعوانها ، ووضع السلطة في يدي حكومة « مستقلة » عـن القاهرة • وشن الحبيب بورقيبة ، رئيس الجمهورية التونسية ، هجوما عنيفا على ناصر • وهكذا بدا ناصر في الاوحال غارقا وفي المتاعب غائصا ، تعصف به الانواء ، وتنزل به النوازل من كل حدب وصوب من العالم العربي • الا أن ذلك لم يكن صحيحا ، ولم يكن ناصر ليعبأ به • فهو حقيقة لم يكن وراء حكم العالم العربي ، ولقد اخطأ من ظن ذلك • وان نظرة عابرة على البرقيات الواردة الى وزارة الخارجية في واشنطن (وكان يشار فيهـا الى ناصر باسم « موضـة المستقبل ») ، أو احصاء سريعا للمساعدات المالية والفنية التي كان يومها ناصر يتلقاها من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، كان كافيا لان يدرك المرء ان ما رآه من هزائم متلاحقة حلت بناصر قد عادت على الاخير بأرباح طائلة ومنافع لا عد لها ولا حصر • لقد بلغ مجموع المساعدات الاجنبية التي نالها ناصر ، من الولايات المتحدة والدول الشيوعية (دون سواها) في السنوات الاربع التالية لعام ١٩٥٨ أكثر من مليار من الجنيهات المصرية (أي حوالي ٣ر٢ مليارا مـن الدولارات) ، بالرغم من كل تلك التقلبات التي طرأت على علاقاته مع الاتحاد

السوفييتي أولا ومع الولايات المتحدة لاحقا . لقد عزت واشنطن نجاح ناصر الى كونه « عاملا تحرص الاطراف على طلب وده وضمان جانبه » . واجمع على هذا الراي كلا الفريقين القائلين بفشل ناصر أو بنجاحه في الحرب الباردة التي دارت رحاها في عام ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ .

ومع ذلك ، فان تدخل ناصر في الازمة اللبنانية قد أثار ضغائن أوساط رجال الاعمال الغربيين واحقاد مؤسساتهم التجارية . لقد كان بعض هـذه المؤسسات لا يتحرج في أن يتحالف مع الشيطان في سبيل كسب دراهـم معدودات ، الا أنها جميعا تتوجه في حقيقة تصرفاتها بادراك عملي وفهم مرن لاطماع « الشيطان » ذات المدى البعيد . ان عددا غير يسير من الشركـات التجارية التي لا تطمع الا بمنافع آنية وقصيرة المدى قد أنشأت علاقات تجارية مع مصر منذ عام ١٩٥٨ . وفي الوقت نفسه ، فان اروقة التجارة العالميـة في واشنطن بدأت تركز بشدة على كل ما هو « ضد ناصر » ، واخذت تضايـق باستمرار موظفي وزارة الخارجية الذين يظهرون عطفا على ناصر وميـلا له ، وكانوا يتبعون معهم وسائل التهديد ، كنقلهـم من وظائفهم ، ان لم يلتزموا بالصمت . ولم يستثنوا من حملتهم هذه حتى أولئك الموظفين الذين كانوا يرون في ناصر بعض الخير وليس كله شرا بشر . ولاعتبارات عالمية يجهلها رجال الاعمال وان علموا بها فلا يستسيغونها ، فان حكومتنا قد امسكت في السنين الاربع التي تلت عام ١٩٥٨ عن اتباع سياسة معادية لناصر كليا (١) . كما أن قيام ناصر بتأدية بعض الخدمات لنا خارج نطاق « لعبة الامم » كان من بـين العوامل الرئيسية التي أدت الى تخفيف حدة ضغط الاتجاه المعادي له عـلى حكومة الولايات المتحدة . الا أن هذا الاتجاه المعادي له ما لبث أن عاد ثانية الى سابق قوته ، بل ولقد زادت ضراوته ، الى الحد الذي أثر على قوة ناصر نفسه في « لعبة الأمم » تاثيرا مباشرا فشل مرونة حركته التي كانت تعتمد كليا على مهارته في أن يزج بنا في دوامة السباق والتنافس مع السوفييت .

---

(١) تذكر الاخبار أن القنصلية الامريكية في حلب (سوريا) قامت بتشجيع مؤيدي ناصر ضد حركة الانفصال التي قامت في دمشق في أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ على أيدي بعض الضباط، الذين حل بهم أخيرا ما حل بزعماء الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر . **(المعرب)**

- ١١ -

السياسة الناصرية في الخارج
تمتص ثروات الشعب في الداخل

... ونفقات الابهة والعظمة باهظة جدا بل وقاسية ، واذا قصر الانسان بحقها تركته رهينا عندها وسلعة لها .

ومع أن تدخل المصريين في ازمة عام ١٩٥٨ اللبنانية قد أثار حفيظة طبقة رجال الاعمال الغربيين ، فان الناصريين والدبلوماسيين الغربيين كانوا ينظرون الى الأحداث اللبنانية على أنها جزء من جبهة أعرض بكثير . وكما ذكرنا آنفا ، فقد رد ناصر على توقيع حلف بغداد بشن حملات قاسية ضد نوري السعيد في العراق والملك حسين في الاردن وكميل شمعون في لبنان بغية اسقاط أنظمتهم والاطاحة بهم . وقبيل نشوب الازمة اللبنانية ، كان « أزلام » ناصر قد حرضوا اللاجئين الفلسطينيين في الاردن ضد الملك حسين ، كما أفلح ناصر باغراء الملك سعود بالتكفل بأعباء الحملة ماليا . الا أن الحكومة الامريكية أوفدت كيرميت روزفلت الى المملكة العربية السعودية لاقناع الملك سعود بايقاف معونته المالية. وبعدها توجه كيرميت الى الاردن لبحث أوضاع الملك ولايجاد الطرق لدعم نظامه الذي كانت تعتقد الحكومة الامريكية أنه أقل أنظمة « الخوارج » الثلاثة – نوري وشمعون وحسين – استقرارا وصمودا . وقد حالف النجاح روزفلت في مهمته باقناعه الملك سعود أن ناصرا قد خدعه عندما أغراه بمعاداة الملك حسين من جهة وبشرائه الصحف الشيوعيه في كل من دمشق وبيروت من جهة أخرى . كما تمكن روزفلت من اقناع الملك سعود بحضور اجتماع القمة الذي كان ناصر قد دعا لانعقاده في القاهرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ ، وبممارسة الضغط على كل من ناصر وصبري العسلي (رئيس وزراء سوريا يومها) لتقديم مساعدة مالية للاردن كبديلة للمساعدة البريطانية التي خسرها الملك حسين نتيجة رفضه الانضمام لحلف بغداد (تحت ضغط من ناصر) .

وهكذا فستتوفر للملك سعود الفرصة للتأكد من مدى جدارة شركائه بثقته وذلك من خلال وفائهم بالتزاماتهم المالية تجاه الاردن · الا أن الملك سعود قد أفسد اللعبة عندما خُدِع بالمداهنات الأمريكية أثناء زيارته لواشنطن ، بعد اجتماع القاهرة ، مما دعا ناصرا أن يسحب ما وعد به من معونة مالية · وهكذا نجحت لعبة الايقاع بين المصريين والسعوديين ، وتبعتها لعبة أخرى للايقاع بين الاردنيين والمصريين فقد كان الملك حسين قد انضوى تحت لواء ناصر وانضم الى « جمعيته » . الا أن روزفلت قد انتزعه من بين براثن ناصر ثانية · وقد ادعى ناصر فيما بعد أن روزفلت قد مرّر معلومات معينة الى كل من أبي نوار وسليمان النابلسي أغرتهم بالتحضير لانقلاب ضد الملك · وعند التنفيذ وجدا أن كل تلك المعلومات كانت مزورة وملفقة كما وجدا الملك في انتظارهما (١) · وهكذا تم لروزفلت ما لم يتم لناصر ·

وفي عام ١٩٥٣ ، شرعت اذاعة القاهرة ببث برامج خاصة تحت اسم « صوت العرب » كوسيلة من وسائل تشييد ناصر لصرح « أسطورة القومية العربية » وفضح أعدائها والغرباء عنها ، ولترسخ في الاذهان مواصفات « عملاء الاستعمار » حتى يسهل على الجماهير في المنطقة كشفهم واماطة اللثام عنهم (وكانت تقصد أيضا مطابقة هذه المواصفات أم لا على كل من شمعون وحسين ونوري) · وبعد توقيع حلف بغداد مباشرة ، رفع « صوت العرب » من عدد ساعات البث اليومي ساعتين ، كما بدأ يركز على التحذير من أعداء « أسطورة القومية العربية » ، بدلا من التركيز على « تشييد صرحها » · ومنذ ذاك الوقت وبرامج اذاعة القاهرة تزداد قوة وبثا وتركيزا (فيما تحتويه من معلومات) · وفي عام ١٩٥٧ كانت اذاعة القاهرة تدعو الى أعمال الشغب والعنف وتحرض على الاغتيالات جهرا بافتضاح · وقد جاء مرة في احدى اذاعاتها : « وأخيرا ، فلقد عثرنا على الخائن نوري ، وان كانت العزة والكرامة تجريان من العراقيين مجرى الدم في العروق فان عليهم أن يقتلوه ويطرحوا أشلاءه الى الكلاب » ·

---

(١) لقد تكررت هذه العملية ثانية عندما حاولت عناصر عسكرية تابعة لاحد الاحزاب الدينية في الاردن القيام بانقلاب ضد الملك . فقد توجه الضابط المكلف باحتلال الاذاعة الى القصور الملكية وتناول القهوة بصحبة الملك (١٩٦٩) · (المعرب)

واسترعت صيحات « صوت العرب » انتباه أجهزة المخابرات البريطانية والامريكية بعدما تم تسجيلها من قبل « هيئة معلومـات الاذاعـات الاجنبية » القابعة في جزيرة قبرص ، والتي تلتقط كافة برامج اذاعات الشرق الاوسط ومعظم اذاعات افريقيا واذاعات بعض مناطق الاتحاد السوفييتي وتسجلها . وعندما دعا مذيع «صوت العرب» الى اغتيال نوري السعيد ، انكب خبراء الدعاية ومحللو المعلومات في كل من لندن وواشنطن (وحتما في كل من باريس وبكين وموسكو وبضع عواصم أخرى) ، على دراسة برامج اذاعة القاهرة بجد واهتمام غريبين لم يشهد العالم نظيرا لهما منذ أيام هتلر . وعلى نحو ارتجاعي، فقد تم تمحيص هذه البرامج الاذاعية أكثر من مرة لتحديد قوة تأثيرها الخارجي ، وللوقوف على حقيقة المخطط الذي وراءها ، وللعثور على مواد اذاعية صالحة لشن حملات مضادة للدعاية المصرية . ومن الغريب أن تلك البرامج الاذاعية كانت لا تبدو أكثر من مجرد هراء وسفسطة اذا ما محصت جملة جملة ، الا انها سرعان مـا تبدو وكأنها حملة متكاملة ومنظمة بمهارة فائقة عندما يُنظر اليها ككل . وفي أوائل عام ١٩٥٦ ، قامت وكالة المخابرات المركزية الامريكية بتمويل دراسة حول ردود فعل المستمعين لبرامج القاهرة الاذاعية في كل أنحاء العالم العربي . وانتهت الدراسة الى النتيجة التالية : ان اذاعة القاهرة خد حظت بأكبر نسبة من المستمعين بدوا كانوا أو حاضرة ، ومارست تأثيرا جيدا على العرب فساقتهم سوق التنويم المغناطيسي تحريكا وتوجيها . وتجاوز تأثير اذاعة القاهرة الى المثقفين الذين هم آخر من يتوقع منهم استحسان برامجها واستساغة صيحاتها فانساقوا معها ايضا دون أن يجدوا لسلوكهم تفسيرا مقبولا . وقد أخبرني يومها أحد خبراء الدعاية أن أي تاجر شرقي ذي ميول غريبة يترك مذياعه مفتوحا على اذاعة القاهرة ، سرعان ما تساوره الشكوك تجاه الغرب لسماعه أقصـر البرامج ، كما أنه يشعر بميل وعطف نحو حجج ناصر ، ونظراته . وعلى حد قول علماء « الدوافع والبواعث » ، فان نداءات اذاعة القاهرة كانت نداءات « لاشعورية » وكانت بدون شك ذات تأثير متصاعد باطراد .

ولم يكترث نوري السعيد للامر . وكان جل رد اذاعة بغداد على حملات القاهرة الضارية ، هو تكرار اذاعة أغنية هزلية شهيرة حول «البوسطجي» ، قاصدة بها التهكم على ناصر (لكونها مهنة أبيه) والنيل منه . الا أن أثر اذاعة

الاغنية لم يكن ضد ناصر ،بل على العكس لصالحه ، فقد أحرزت تأثيرا لا يقل عن تأثير برامج اذاعة القاهرة ذاتها • وطفق « صوت العرب » يردد نفس الاغنيــة ليظهر الدرك الذي انحدر اليه راديو بغداد • وبالمقابل قام راديو بغداد باعادة تسجيل لصيحات اذاعة « صوت العرب » التي تحرض العراقيين على اغتيال نوري السعيد ليظهر بدوره الدرك الذي انحدرت اليه اذاعة القاهرة • وفي خضم كل هذا التلاسن المتبادل لم تكن الدعاية المضادة لراديو بغداد أكثر من قشة في مهب الرياح حتى أدركها خبراء الدعاية الغربيون وعدلوها •

وقامت حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، بتجربة ألوان عدة من الدعاية المضادة لاذاعة القاهرة ، التي زادت من قوة بثها في أوائل عام ١٩٥٦ حتى تغطي مناطق أوسع من افريقيا • وتعرض الخبراء الامريكيون لامكانية استخدام الاذاعة اللبنانية لهذه الغاية الا أنه سرعان ما أقلع الجانبان اللبناني والامريكي عن هذه الفكرة خشية تفاقم الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين في لبنان • كما أن الابقاء على لبنان خارج هذا الميدان من ميادين الحرب الباردة ، سيكون أكثر تقبلا وأشد ترحيبا • وقد خطرت ببال الحكومة الامريكية فكرة اقامة محطة بث جديدة في أضنه بتركيا ، أو مساعدة البريطانيين في رفع قوة بث اذاعتهم في قبرص (وفي الحقيقة فقد أحرز بعض التقدم في هذا المجال الاخير) • وسرعان ما بدت فكرة اقامة محطة اذاعة جديدة في المنطقة لمنافسة محطة اذاعة القاهرة كفكرة نقل مدينة التمثيل الشهيرة « هوليود » الى مدينة دي ميوني (في آيوا ، احدى الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة) النائية المقفرة المجدبة فالقاهرة تموج بأفواج الممثلين والمغنين والمخرجين والكتاب والفنيين ، ولن يتوفر ذلك في أية مدينة عربية أخرى الا بشق الانفس ، وبعد ردح من الزمن • وفي خضم هذه الأفكار المتضاربة ، لمعت بارقة أمل عندما طرحت فكرة تدمير أجهزة ارسال محطة اذاعة القاهرة واسكاتها نهائيا • وهذا ما حدث بعد ذلك فعلا • ففي أثناء أزمة السويس في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٥٦ ، قام أحد طياري سلاح الجو الملكي البريطاني بالقاء وابل من القنابل عليها ، الا انه أخطأ الهدف ولم يصبها •

ومهما بلغ أثر دعاية اذاعة القاهرة قوة وعنفا ، فان تكاليف تشغيل الاذاعة غدت باهظة واكثر مما تطيقة الميزانية المصرية • وكان من نتائج ازدياد نداءات

اذاعة « صوت العرب » ، تضخم نشاطات أجهزة المخابرات المصرية احتدام معاركها السياسية ، وبالتالي ، ارتفاع التكاليف وتكدس الاعباء المالية . ومن العسير أن يحصي المرء جملة ما تكبده المصريون من نفقات كثيرة أثناء الأزمـــة اللبنانية في عام ١٩٥٨ . الا أن بعض المطلعين الغربيين على تلك العمليات قد كشفوا النقاب عن نفقات تجاوزت أرقامها الملايين من الدولارات . كما أن الحكومة اللبنانية قد أماطت اللثام بعد انتهاء الازمة عن أدلة مقنعة تفيد أن أحد « البيارتة الاربعة » قد تلقى ما لا يقل عن سبعة ملايين دولار دون أن يشاركه فيها أحد . وعند جمع مثل هذه الارقام معا وضم أرقام نفقات كل أجهزة المخابرات والمباحث والامن العام في القاهرة اليها يغدو حاصل نفقات أجهزة الامن القومي والعمل السياسي المصرية أكبر بكثير من أرقام نفقات مثيلاتها في الدول الغربية (على حد قول بعض هذه الاجهزة) التي كانت متواضعة في عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ .

وليست النفقات المباشرة للعمل السياسي بكثيرة ، الا أن المحافظة على متانة خطوط المجابهة وضمان الصمود في ميادين المعارك السياسية ـ وخاصة داخل البلاد ـ يتطلب الكثير ويمتص الثروات ويرفع من أرقام الميزانيات . ولا أزال أذكر شجون الحديث الذي دار بيني وبين أحد ضباط ناصر المسؤولين ، وقد قال لي يومها : (لو حلت بمصر كارثة سلختها عن بقية العالم ، وجعلت منها جزيرة نائية في وسط بحر هائج لا يهدأ له قرار ، وأبقت لنا « نيلَنا » وتربتنا وبقية مصادر طبيعتنا ، فاننا ـ نحن المصريين ـ لن نعاني من أسى أو نقاسي من ألم . سيزرع البعض قطنا ، ويحيك الآخر نسيجا . ستُبذر الارض ذرة وأرزا ، ويحصد الفلاح ما نبت من زروع وألقي من بذور . وسيعالج بعضنا الاضراس ، ويصنع الآخرون الحذاء ، وسيعنى الاساتذة بالناشئة ، ولن نعرف للمشردين وجودا . ولكن عندما نصر على أن نكون قوة عالميـــة ، فسنبقى في الدواوين ، ووزراء المكاتب جالسين ، مستهلكين أبدا غير منتجين أو مصنعين . ان المرء لن يتضور جوعا ، ولو كان على جزيرة نائية ، مجدبه وقاحلة ، طالما أنه لا يطمع بجار له ولا يحشر أنفه في شؤون صديق ، وبعبارة أوضح ، طالما ليس هناك من نفوذ يقلق على ضياعه ، ولا داع لمراقصة « دهاة الغرب » على مسرح « العلاقات العالمية ») .

ولكن لم يكن لمصر سبيل لان تعتزل العالم وتعيش على انفراد · ولو أنه قدر للمصريين هذا وغدوا « انعزاليين » راضين أن يقتاتوا بما تخرجه لهم أرضهم وما تدره بلادهم عليهم من خيرات ـ كما تمنى ذلك آنفا أحد ضباط ناصر ـ فان العالم من حولهم لن يدعهم وشأنهم ولن ينفك عن الضغط عليهم بشتى الأساليب · وحتى حكومة الولايات المتحدة الامريكية ، التي ما فتئت تشجعهم من وقت لآخر على العودة الى مبدأ « مصر أولا » ، فأنها لم تمنح ناصرا تأييدها الحقيقي الا على أساس النظرية القائلة « ان ناصرا سيغدو مثالا يحتذى به في بقية أنحاء العالم العربي » ·

ونظرية « الزعامة القدوة » قد ملكت على الامريكيين تفكيرهم وملأت عليهم حياتهم · وان كانت الغبطة تملأ قلب الحكومة الامريكية ويغمرها السرور كلما عاد زكريا محي الدين الى الظهور على مسرح الاحداث في مصر ـ كتسلمه منصب رئيس الوزراء أو نائب رئيس الجمهورية أو رئاسة أية لجنة أخرى ـ فليس سبب ذلك عطف زكريا على الامريكيين وميله لهم (فهو لم يكن كذلك يوما ، ولن يكون) بل سببه أن زكريا هو أحد أفراد بطانة ناصر القائلين بمبدأ « الزعامة القدوة » ومن المنادين بمبدأ السيطرة على العرب وقياداتهم ، عن طريق البناء والاعمار ، وباتباع الوسائل الايجابية وليس عن طريق العنف وتحريض الارهابيين ضد رؤسائهم وحكام بلادهم ·

ومن وجهة نظر اقتصادية ، لم يكن الامريكيون يفكرون بأن الاوضاع في مصر سوف تتغير تغيرا جذريا · لقد كانت نظرتهم أن مصر ستبقى اقتصاديا كما كانت تقريبا قبل قيام ناصر بانقلابه ولكن مع تحسن وتقدم في جوانب الحياة ومعالمها ، وأرادوها أن تلعب دور «نبراسكا» (١) في حياة « نيويورك أوربا » · وستكون معالم الاقتصاد المصري كما يلي :

● تصدير المواد الاولية : اعتقد الامريكيون أنه لن يكون بمقدور المصريين تصنيع أجهزة الراديو والسيارات وغير ذلك بنفس تكاليفها المتدنية التي يمكنهم

---

(١) مركز انتاج زراعي في وسط غرب الولايات المتحدة . ونيويورك مركز صناعي ضخم (المعرب)

شراؤها من الدول ذات الخبرات الطويلة في مجال الصناعة · ويشارك المصريين بهذا الوضع أمم كثيرة أخرى تخلفت عن ركب الثورة الصناعية بأشواط بعيدة · كما اعتقد الامريكيون انه لن يكون هناك أية فرصة لادراك المصريين الدول المتقدمة صناعيا و للحاق بها · ففي نفس الوقت الذي ينكب المصريون فيه على تطوير انفسهم وتصنيع بلادهم ـ دون ان يكون لديهم أية معطيات أولية في هذا المضمار ـ يكون الالمان والايطاليون والفرنسيون ـ دون ذكر اليابانيين (١) ـ قد قطعوا أشواطا اكثر بعدا واصعب منالا · ومهما كان تصميم المصريين على تصنيع أنفسهم واصرارهم على اللحاق بغيرهم ، فان الهوة الفاصلة بينهم وبين الدول المتطورة صناعيا ستزداد اتساعا ، ولن تضيق أبـــدا · أما اذا التفت المصريون الى تطوير وتحسين مواردهم الطبيعية فسيبيعونها للامريكيين بالعملة الصعبة وسيبتاعون بها ما يشاءون من المنتجات المصنعة التي هم في حاجة اليها·

● التصنيع الخفيف : على المصريين أن ينضموا الى نادي الصناعة ، الا ان ذلك يجب أن يكون ضمن حدود طاقاتهم وأن يكون معتمدا على انتاجهم الزراعي وأن يضمن لهم قدرا كافيا من العملة الصعبة · وكان الامريكيون معارضين لمبدأ « التصنيع للتصنيع » أو ما يسمى « بصناعة العزة والكرامة » مثل اقامة معامل الصلب والحديد ومصانع السيارات التي تظهر أبسط الحسابات على أنها خاسرة وغير مربحة ·

● المشاريع الحرة : لقد ارتاع المستشارون في الشؤون الادارية الذين خدموا في مصر في الايام الاولى لحكم ناصر لضخامة جهاز الموظفين في مصر وعجزه عن تأدية واجبه · وبدا لهم جليا أن السبيل الوحيد لخلق مشاريع صناعية وأخرى لتوفير العملة الصعبة ، هو فتح الباب على مصراعيه أمام الافراد للمنافسة والابداع وايجاد الحوافز لهم · وباعتقاد اولئك الخبراء ، ان كل ما يمكن للحكومة تقديمه ، هو ترك مثل اولئك الافراد أحرارا يكدحون ويبدعون · واذا كانت الحكومة ولا بد ناصحة لهم ، وموجهة لنشاطاتهم ، فان عليها أن تفعل

---

(١) يقصد ان اليابانيين قد فاقوا القياس والمقارنة · (المعرب)

ذلك بقصد زيادة انتاجهم وليس بقصد اعاقتهم وملاحقتهم بتهمة تهريب الاموال والارباح ٠

● الاستثمارات الاجنبية ، الخبراء الاجانب : رأى الامريكيون أن الفرصة سانحة أمام المصريين للاستفادة من رغبة رجال الصناعة الغربيين في الهرب من كابوس الضرائب المرتفعة داخل بلادهم وفي دخول مصر لاقامة مشاريع صناعية بالاشتراك مع المصريين ، أو لعقد اتفاقيات تمنح المصريين حق انتاج صناعاتهم داخل مصر ، أو لاقامة مصانع خاصة بهم (لا تستخدم الا عمالا مصريين) ٠ وقد تراءى يومها ، أن هذه الفرصة ستوفر للمصريين واردا جيدا من العملة الصعبة ومجالا واسعا لتشغيل اليد العاملة في بلادهم ومدها بالخبرات اللازمة ٠ كما أنها تفتح الاسواق أمام كافة المنتجات المصرية سواء التي أنتجتها مصانع الشركات الاجنبية أو المصانع الوطنية والتي يمكن تصريفها معا بنفس الطرق والوسائل ٠

● مجتمع مدني وجيش صغير : لقد أدركت وزارة الخارجية الامريكية ضرورة امتلاك ناصر جيشا قويا لدعم قاعدة القمع وللمساعدة في المحافظة على الامن الداخلي ، وللاستعانة ــ الى حد ما ــ ببعض ضباطه في ادارة المؤسسات الحكومية المدنية التي تعاني فسادا عاما وانهيارا شاملا٠ ويرى الغربيون ــ الذين لا يهتمون بغير الجانب الاقتصادي لمصر ــ أن الغاية من وجود حكم قوي في البلاد هي حفظ النظام وتطبيق القانون ، وهذان لا يتطلبان جيشا ذا تعداد كبير كما هو حال طبقة « العسكريتاريا » التي أرادها ناصر دعما « لقاعدة القمع » وضمانا لبقاء النظام ٠ لقد تعلم رجال الاعمال وعلماء الاقتصاد الغربيون في مجتمعاتهم ان الحكومة تتغير من وقت لآخر وبصورة طبيعية نتيجة ثقة يحجبها البرلمان عنها أو انتخابات تجري في البلاد ٠ الا أن ناصرا لم يتعلم هذا ٠ لقد كانت نيته البقاء في الحكم والخلود فيه ٠

وتظهر محاضر المناقشات التي دارت بين مختلف الرسميين وغير الرسميين الغربيين وبين المسؤولين المصريين خلال سنوات حكم ناصر الاولى ، انه ليس هناك أي تناقض بين فلسفة ناصر يومها وبين الافكار الآنفة الذكر ٠ كما أن عدم وضع ناصر تلك الافكار موضع التنفيذ يعود الى قلة خبرته وعدم لمسه اية أهمية

لها . ولكن بعد انتهاء أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية بدا أن ناصرا يحمل افكارا جديدة من صنعه وانتاجه ، ولا تمت الى المبادىء الآنفة الذكر بأية صلة اطلاقا . لقد كانت الازمة اللبنانية أول ما استرعى انتباه رجال الاعمال الغربيين عامة وأثار حفيظتهم . فليومها ، لم يكن قد شعر بنمـو الثورة وانتشارها سوى بعض شركات البترول . ولكن حوادث لبنان أثارت انتباه أكثر من مائة وعشرين شركة أمريكية علاوة عن عدد غير قليل من الشركات البريطانية والاوروبية الاخرى كانت تتخذ من بيروت مقرا لها ومنطلقا لاعمالها في منطقة الشرق الاوسط . وقـد اضطرت يومها أن تعيد النظر بأوضاعها فجأة ودون سابق انذار . وفي ضوء النتيجة التي انتهت اليها الازمة اللبنانية ، كان السؤال الوحيد الذي اخذ يقلق بال رجال الاعمال الغربيين ويحير البابهم دون أن يعثروا على جواب شاف لـه هو : « ما هي أفكار ناصر ؟ وما هي آراؤه عن اقتصاد المنطقة التي يأمل بالسيطرة عليها ؟ ومـا مدى تأثـير هذه الآراء وتلـك الافكـار على أوضـاع شركاتنـا واستثماراتنا ؟ »

وفي حزيران (يونيو) عام ١٩٥٨ ، كان لي ولشريكي ثلاثة زبائن : شركة بترول ، ومصرف ، وشركة طيران . وقبل نهاية أيلول (سبتمبر) من نفس العام تقدمت لنا عشرات الشركات الامريكية بطلبات لدراسة الاتجاهات التـي يتوقع لها أن تسود في المنطقة بعد «انتصار» ناصر في صيف عام ١٩٥٨ في لبنان (ولم يفكر أي رجل أعمال بأن ذلك لم يكن أي شيء آخر غير « انتصار ») . ولم يقتصر هذا على شركتنا فقط ، بل ان كل الشركات الاخرى التي تزاول نفس مهنتنا قد تلقت طلبات مماثلة . فقد أضحى الموقف مقلقا ، وأخذت كافة الشركات الامريكية التي لها استثمارات رئيسية في المنطقة الى جانب شركات أخرى كانت على وشك توظيف أموال طائلة هناك ، تدرس الوضع عن كثب . كما قامـت معظمها باجراء دراسات مستفيضة في مقراتها الرئيسية بدافع من نفسهـا عن تطورات الاحداث في المنطقة . وكم ضايق هؤلاء وزارة الخارجية في واشنطـن بطلباتهم المستمرة وأسئلتهم المتواصلة عما يدور في منطقة الشرق الاوسط من أحداث وعما تجمع لديها عنها من معلومات .

وبعد انتهاء الازمة اللبنانية وانقشاع غمامتها ، بدأت كـل من وزارة

الخارجية الامريكية وطبقة أصحاب المصالح الامريكية في الشرق الاوسط تسلك طرقا مستقلة عن بعضها البعض • ولكن لم يبدُ هذا جليا حتى عهد ادارة الرئيس كنيدي ، ونزول قوات ناصر في اليمن • لقد كانت النظرة السائدة يومها في أروقة وزارة الخارجية الامريكية ، أن ناصرا لم يحرز حقيقة أي « انتصار » في لبنان • فالحكومة التي تربعت على عرش السلطة هناك كانت حيادية حقا ، « ومبدأ ايزنهاور » ـ وان كان ميتا ـ قد حقق هدفا جديرا بالاهتمام والانتباه • وبخصوص سلوك ناصر مستقبلا ، فاننا ـ نحن الامريكيين ـ كنا نفضل ناصرا على أي زعيم آخر يمكن أن يحل محله نتيجة انقلاب يطيح به أو ثورة تجتث نظامه • وأما من الزعماء العرب الآخرين ، فما كان أحد من أولئك الذين كانوا في السلطة يومها يستهوي فؤادنا ويسحر البابنا أكثر من ناصر • كنا نفضله على قاسم العراق (الذي خاض معه ناصر غمار صراع مرير لانه حاول الخروج على ناصر لصالح الشرق بعدما خرج نوري عليه لصالح الغرب) ، وعلى الملك سعود . وحتى على الرئيس اللبناني شهاب (الذي كان ينظر اليه بعض ديبلوماسيينا على انه « نجيب ولكن لا ناصرا معه » (١)) • وبغض النظر عن المصائب التي كانت تحل به كل ثلاثة أو أربعة أعوام ، فان ناصرا كان يزداد قوة وصمودا • فهو هناك ، ودائما هناك ، والتفكير بغيره عبث ، والعبث حرام •

أولا : ان قيام ناصر بدور «نبراسكا» (أي انتاج المواد الاولية الزراعية) وغيره يقوم بدور «نيويورك» (أي الصناعة) لا يمكن أن يخدم أبدا أيا من أهدافه التي كان يحلم بها• فهو يريد أن يبقى في الحكم، ويريد الحكم أن يبقى له• وهذا من أول أهدافه وأغلى أحلامه • ولتحقيقه ، فهو لا يقبل بحكومة متواضعة الحجم وجهاز اداري قليل العدد عظيم الفعالية ، لانهما لا يساعدانه البتة على ضمان الحكم واستقرار السلطة • فناصر لا يرى أن هدف الجهاز البيروقراطي في دولته هو لخدمة الامة والسهر على مصالحها ، وانما هو أحد أركان « قاعدة القوة » التي يرتكز اليها سلطانه ـ فالالاف المؤلفة من الموظفين ليسوا موظفين وانما هم لبنات في هيكل الحكم وصرح عظمته • انهم الشعب وقواعد النظام ومرتكزاته • يبلغون المليون في التعداد ، وتعج بهم أحياء القاهرة ويموجون في شوارعها •

(١) تعني الجملة ان شهاب كاللواء نجيب في مصر ولكن لم يكن مع شهاب من يلعب دور جمال عبد الناصر (المعرب)

يؤلفون طبقة كاملة من طبقات الامة ، ويرفدونه بحشود هائلة من الاتباع والانصار • وهم فوق كل هذا وذاك ، اعضاء حزبه الوحيد ، ولا غيرهم من الامة اعضاء فيه • اما أن يقتصر ناصر على مائة وثمانين الفا من الموظفين (وهذا اقصى ما سمحت له به مؤسسة امريكية للاستشارات ـ كان ناصر قد طلب منها دراسة الوضع عن كثب ـ لايجاد ادارة فعالة) ، فان هذا لن يفي بالغرض ، ولن يحقق الهدف • وكذلك الامر بالنسبة للجيش ، فناصر لا يكتفي بجيش صغير العدد محصور المهام (مثل اخماد الاضطرابات وقمع المظاهرات داخل مدن البلاد) ، يقل عن خمسين الفا وليس أكثر • فهو حقا لم يرد جيشا ، بل أراد خلق طبقة من العسكر ، « عسكريتاريا » • وما كانت لتكون « طبقة » الا اذا تجاوزت في التعداد ستمائة الف أو تزيد •

ثانيا ، فالاقتصاد الذي جل همه تصدير الخام من المواد واستيراد الجاهز من الصناعات ، لا يعني سوى أن الذين يعيشون في ظله ليسوا أكثر من مواطنين من الدرجة الثانية ، ولا يختلفون عن حالهم في ظل الاحتلال البريطاني الا قليلا ، ولهذا فلا يمكنهم أن يختالوا تيها ويتبختروا زهوا ، لاعتقاد ناصر أنهما من الضروريات لشعبه • وليس هذا فحسب ، بل قد أدرك ناصر أن اقتصادا كهذا ستتحكم فيه عوامل كثيرة وسيبقى تحت رحمة الزبائن وهواهم • فالتغيرات الطارئة على أسعار القطن وسوقه ، ذات تأثير غير يسير على الاقتصاد المصري ، وكم سبق أن هزته من أركانه هزا • الا أن تأثيرها على البلاد المستوردة له طفيف جدا ، بل يكاد أن يكون معدوما • وناصر لا ينسى كم استغلت القوى الاجنبية نقاط الضعف هذه •فهو لا يزال يذكر جيدا كيف عامله أصدقاؤه من السوفييت، ولم يمض على هذا زمن بعيد • لقد استغلوا ما حل بسوق القطن في الغرب مرة من كساد وما أصابه من ركود ، فاشتروا كل ما بوسعهم أن يشتروه وزادوا في أسعار قطن مصر حتى يفوزوا بحصة الاسد من جملة صادراتها فيربطوها اليهم ويخضعوا اقتصادها لهم • الا أنهم بعدئذ خفضوا الاسعار وباعوا القطن في أسواق العالم • وأحس ناصر بفعلهم هذا ، ولم ينسه • لقد تعلم كيف يتلاعب المتلاعبون باقتصاده ، وكيف تجعل القوى الكبرى منه « اقتصاد ما وراء الكواليس » • وهكذا أيقن ناصر أن اقتصادا يبنى على انتاج الخام من المواد وبيعها معرض للخطر دائما ، كما أنه اجتماعيا ، أمر للقدر محط وللنفس مذل •

وثالثا ، فقد اعتقد ناصر أن الامة التي تقتصر مهمتها على مد السهول الصناعية بالمواد الاولية ، وفيها معظم رأسمالييها من التجار وليس من الصناعيين والمستثمرين للاموال (كما هو الحال في الغرب) ، لا تلبث أن تنتج مجتمعا فيه طبقة من الاغنياء الفاسدين الذين لا يشعرون بواجب تجاه وطنهم ولا يساهمون في زيادة دخله ورفع انتاجه ، بل انهم للارباح في سويسرا تاركون ولاموالهم الى الخارج مهربون • وعلى خلاف ما يحلم به ناصر من مجتمع « الفرد للكل ، والكل للفرد » ، والذي لا وجود له الا في « جزيرة الاحلام » ، أو في مجتمع ناصر « الاشتراكي » ، فان المجتمع الذي يبنى اقتصاده على النحو الذي أسلفنا عنه ـ نحن الامريكيين ـ لن يفكر في غير عطور فرنسا وسيارات السبور من أوروبا وتمضية أيام عطلته على شواطىء الريفييرا • وهكذا كانت حقا القشرة الخارجية للمجتمع المصري قبل قيام ناصر بانقلابه • ولم يكن حرص ناصر على ازالة آثار طبقة التجار الاثرياء أقل من حرصه على خلق طبقة « أصحاب الدواوين » (البيروقراطية) وطبقة « العسكريتاريا » ، وبالتأكيد ، فقد كانت طبقة العمال الكادحين « البروليتاريا » على رأس القائمة وفي مقدمة الصورة •

ويقودنا السياق الى النقطة الرابعة • فعندما أشار خبراء مؤسسة التمويل العالمية (١) على ناصر ، أن يركز اهتمامه على المحافظة على أسعار الجنيه المصري ، وأن يستغني عن المصانع التي سترهق المستهلك بأسعار أعلى من الاسعار المنافسة لها في الخارج ، أجاب يومها قائلا : « ان التصنيع هو هدف بحد ذاته ، وليس فقط وسيلة لانتاج البضائع وتصنيع المواد » • ان الامة التي تحترم نفسها هي تلك التي تملك مجتمعا متكامل الجوانب ، فيه الموظفون والجنود والضباط والمفكرون والمهرجون والمهنيون والاداريون والعمال ، وكل بنسبة ثابتة لا تفسد تماسك المجتمع ولا تفقده سلامة توازنه • وأخبر ناصر مرة زائرا أمريكيا قائلا : « ان اخترع امرؤ وسيلة ما لانتاج الغذاء وتحضيره صناعيا بصورة لم يعد هناك حاجة الى فلاحين ليزرعوه ويحصدوه ، فانكم ـ معشر الامريكيين ـ سترفضون هذا بالتأكيد • وليس ذلك لشيء سوى انكم تأبون أن تختفي طبقة الفلاحين من مجتمعكم • ولنفس السبب فاننا نريد خلق طبقة من

---

(١) وربما صندوق النقد الدولي • (المعرب)

العمال الكادحين ولو اضطررنا الى اقامة مصانع لا لزوم لها عندنا ولا حاجة لنا بهـــا » ٠

ولنفس الغاية ، وبالاهمية ذاتها ، يصر ناصر على خلق طبقة الاداريين ٠ وكان حريصا على خلق « ثورة ادارية » كالتي يتكلم عنها جيمس بورنهام فـــي كتابه ٠ وفي مصر كانت أولى مدارس علم الادارة في الشرق الاوسط ولم يكن سواها هناك ٠ وكانت تطبق مناهج مدرسة ادارة الاعمال في جامعـــة هارفرد (وجامعات شهيرة أخرى) وتستعير بعضا من أساتذتها ٠ وأما أساتذة علم ادارة الاعمال المصريون فقد أتموا تدريبهم في الغرب ، وكانوا يترددون على بغداد والخرطوم وطرابلس وحتى بيروت حيث يلقون المحاضرات ويعقدون فصـــول الدراسة ٠ وهناك أدلة عديدة تظهر أن ناصرا قد أنشأ بضعة معامل ـ عـــلى الاقل ـ لا لسبب سوى تضخيم سلك الاداريين وزيادة عددهم (وناصر يصر على انكار هذا) ٠ وسألت مرة مدير ادارة (المعهـــد القومي لتطويـــر شؤون الادارة) : «لماذا تركت بعض المصانع الحديثة (١) مستمرة في العمل» ؟ فأجابني قائلا : «حسنا، اننا بحاجة اليها، لقد أبقيناها كمخابر نجرب فيها مختلف أنظمة الادارة » ٠ وقد علمت فيما بعد أن عددا آخرا من تلــك المعامل قد ترك مستمرا في الانتاج بعدما قرر لـــه أن يغلق أبوابه ، وكان ذلـــك بسبب التماسات واستعطافات قدمها معهد الشؤون الادارية نفسه ٠

وأهم ما نذكره أخيرا في هذا المجال هو أن « الاستعراض الكبير » أكثر تأثيرا وأكبر صيتا من « الاستعراض الصغير » (٢) ٠ فقد برهن الاول على أنه أكثر ادرارا للمساعدات الاجنبية للفت أنظار دافعيها واسترعائه لانتباههـــم مباشرة ٠ أو أنه يدفعهم لبذل المساعدات نتيجة التأثير الذي يحدثه داخل أروقة « مجموعة دول الحياد الايجابي » ، وبالتالي يحركهم على أسس سياسية بحتة ٠ لقد دافع عدد من علماء الاقتصاد الامريكيين عن الرأي القائل ان بامكان مصر أن ترسي قواعد اقتصادها على أسس زراعية مع التخفيف من اعتمادها عـــلى

---

(١) التي تتساوى نفقاتها وقيمة انتاجها ، فلا تجني أرباحا ٠ (المعرب)

(٢) الاستعراض الكبير أي المشاريع الكبرى والاستعراض الصغير المشاريع المتواضعة والمشاريع هنا هي المصانع والمعامل والسدود وسكك الحديد ٠٠٠ الخ ٠ (المعرب)

محصول القطن وزيادة انتاجها من المحاصيل الغذائية الاخرى · كما أن بامكانها أن تدخل مرحلة التصنيع بوضع مخطط منظم ودقيق يفيد البلاد أكثر مما تفيدها تلك المعامل المنشورة هنا وهناك بفوضى وعدم تنظيم · الا أن علماء الاقتصاد اولئك ، قد أدركوا (بل وقرروا) أن المساعدات الاجنبية الضخمة لن تستدرها الا « استعراضات ضخمة » ، وأن « الاستعراضات المتواضعة » لن تأتي الا بمساعدات محدودة ويسيرة · لقد أخبرني مرة احد اولئك المسؤولين عن شؤون المساعدات الخارجية قائلا : « اننا لا نفضل خط الطامحين على خط المتواضعين المتزنين ، سوى أنه لا يمكننا اغفال قدر واهمية من نمنحه مساعداتنا » · وهذا حقيقة ما كان يفكر به ناصر أيضا · لقد كان يحلم بالحصول على أكبر قدر من المساعدات ويأبى أن يكتفي بالنذر اليسير · ولهذا فعندما يسمع ناصر عبارة ذاك المسؤول فانه سينساها كلها ولن يرسخ في ذاكرته منها سوى « لا يمكننا اغفال قدر واهمية من نمنحه مساعداتنا » ·

عندما انكب المستثمرون الغربيون (والذين كان يحتمل أن يوظفوا ثرواتهم) على دراسة أوضاع الشرق الاوسط بأكمله بعد صيف عام ١٩٥٨ المضطرب ، اعتقدوا أن « مشاريع ناصر الكبرى » داخل مصر ليست سوى نوع من « الاقتصاد الامبراطوري » · وقد نعتها بهذا الاسم جيلبرت بورك في مقالة نشرها في مجلة «فورتشن» في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٥٨ وقرأها يومها كافة رجال الاعمال الامريكيون الذين عندهم أدنى اهتمام بشؤون الشرق الاوسط · وكشفت المقالة يومها على أن جهود ناصر في وضع العرب واحدا تلو آخر تحت سيطرة القاهرة ليست سوى احد طرفي بمخطط ضخم ، وأن طرفه الاخر هو جعل مصر المركز الصناعي لامبراطورية عربية حديثة · واستنادا الى هذه المقالة وعدة دراسات أخرى وزعت على مدراء كبريات شركات البترول والبنوك وفئات أخرى من رجال الاعمال ، فمن الخطأ ، تفسير خطط ناصر في التصنيع وبرامجه الواسعة في التحويل الاشتراكي وخلقه لطبقتي « أصحاب الدواوين » « والعسكريتاريا » وغيرهما على أساس من مصالح مصر فقط وتقدمها ، ولو أن مصالح مصر لوحدها تجسدت في الجزء الطافي من جبل جليد في بحر ما فان القسم المغمور منه (١) لا يشير الى غير نية ناصر التحكم بكافة

(١) أكثر من أربعة أخماس جبل الجليد يكون مغمورا في الماء · (المعرب)

اقتصاد العالم العربي وموارده الطبيعية دون استثناء البترول منها . ولم يكن اعتقاد أوساط رجال الاعمال في الغرب غير ذلك .

والمتجردون من المراقبين والنزيهون من أصحاب الفن والخبرة الذين دأبوا على متابعة تحركات ناصر ودراسة تصرفاته (وليس لهم أهداف تجارية أو غايات سياسية) ، لم يقتنعوا أن أهداف ناصر وغاياته هي تماما تلك التي تنبأ بها غيرهم آنفا . لقد كان جل اعتقادهم أنها أشد خطرا وأكثر ازعاجا ، وهاكم مناقشتهم للاحداث :

أولا : قدر هؤلاء المراقبون رغبة ناصر في انتهاج سياسة مستقلة واستحسنوها. وفهموا تماما أنه لا يمكن لحاكم أية دولة مستقلة فعلا أن يرضخ لمشيئتنا ـ نحن الامريكيين ـ ويفعل ما نريده له .

ثانيا : وأدرك هؤلاء المراقبون (على خلاف رجال الاعمال) ان البقاء في الحكم هو من أهداف ناصر الاساسية وغاياته الرئيسية ، وان ذلك يتطلب وجود حكومة قوية وقاعدة قمع متينة .

ثالثا : واقتنع هؤلاء المراقبون أن حصول ناصر على مساندة جماهير الشعب له . (وهذا ما يزيد قوة قاعدة القمع) يستلزم القيام بأعمال سياسية لا تروق لنا نحن الامريكيين ، فللمصريين أذواق سياسية لا تشابه أذواقنا ولا تنسجم معها أبدا .

رابعا : ولمسوا حاجة ناصر الماسة الى فكرة « الحياد الايجابي » ليتخذها ستارا عقائديا عند دفع كل من الروس والغـــرب الى التنافس على كسب وده وضمان جانبه (وهذا ما أظهرته النتائج حقيقة) .

خامسا : ومع أن المراقبين قد استاءوا من ضم ناصر عدة أمم أخرى إلى « رابطة دول الحياد الايجابي » لزيادة فعاليته وتقوية نفوذه وقلقوا للجوئه الى العنف والارهاب لاخضاع « الخوارج » واعادتهم الى الصف ، الا أنهم لم يفاجأوا بها أبدا بل كانوا لها متوقعين وبها متنبئين .

واذا كان القارىء شاكا بحقيقة ادراكنا لكل ما سبق ذكره أعلاه ، وعلمنا

به كلية ، فله أن يراجع قوائم مساعداتنا الخارجية لناصر حتى يتثبت من الأمر ويقتنع به · فقد زادت مساعداتنا الخارجية له في السنتين التاليتين عن أيـــة سنتين سابقتين لهذا زيادة ملموسة وكبيرة ، لتأكدنا من التزامـه بالمبادىء الآنفة الذكر واصراره على انتهاجها دون شذوذ أو انحراف ·

* * *

ولكن ناصرا لم يكن من الموفقين ، ولم يكن الحظ له من المبتسمين · لقد سجن نفسه في حلقة مفرغة ما خرج منها ، ولن يكون من الخارجين · وقلقت عليه حكومتنا (الحكومة الامريكية) قلق الحبيب على الحبيب ، وشغـــل بـــال الاصدقاء ، فلم يغمض لهم جفن ولم يهدأ لهم قرار · أراد ناصر « الاستعـــراض الكبير » ليكسب به احترام العالم ويربح المساعدات · غير أن « للاستعـــراض الكبير » تكاليف ولابقائه حيا مصاريف · وللعالم الخارجي طاقات وأساليـــب ، فهو عن « الاستعراض الكبير » عازف ، ولنفقاته غير مستجيب · لقد تعطلـــت عجلات « الاستعراضات الكبرى » عن السير ، وتوقفت محركاتها عن العمل ، وغاصت بمن عليها في وحول ومستنقعات لن تنجو منها الا بأعاجيب ومعجزات·

- ١٢ -

تعدد القوى العالمية وانتهاء أسطورة القطبين

... وتتقلب الاحوال وتعل بك الازمات حتى تمسي طريدا لا دور لك ، وقد كنت عزيزا منعما .

مع انتهاء أزمة عام ١٩٥٨ اللبنانية ، أخذ الضغط يتزايد على حكومة الولايات المتحدة حتى توقف مساعداتها لناصر . وفي الوقت ذاته شرع الدبلوماسيون الامريكيون في الدول العربية يعربون عن امتعاضهم من « مبدأ ايزنهاور » ولم يظهروا له تأييدا أو حماسا . كما أخذوا ينادون بفكرة « القبول بحقيقة وجود ناصر » وأوضحوا في رسائلهم الرسمية الى وزارة الخارجية « أن العالم العربي في عام ١٩٥٩ لم يعد كما كان أيام لورانس العرب » . وكان الانطباع السائد عندي أنه لولا رجاحة عقل ناصر ومسارعته الى تسوية النزاع بين الاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة (سوريا) وبين شركة خطوط التابلاين التي تملكها نفس شركات البترول الاربع الكبرى (وهي ستاندر أويل أوف نيو جرسي وستاندرد أويل أوف كاليفورنيا وموبيل وتكساكو) التي تملك أيضا شركة آرامكو (شركة الزيت العربية الامريكية) في المملكة العربية السعودية ، فان رواق معارضي ناصر كاد ينجح في احكام الحصار حوله وفي حملته عليه . ولم يكن هذا رأيي فقط ، بل كان يشاركني فيه عدد من الدبلوماسيين الامريكيين الذين كنت أتباحث واياهم في مثل هذه الامور . ولا يزال سلوك ناصر مع كافة شركات البترول العاملة في بلاده سلوكا مثاليا وخاليا من الاخطاء والآثام حتى يومنا هذا (١) . وحتى في الاوقات التي

---

(١) يقصد المؤلف ان ناصرا لم يحاول أن يضع العراقيل في طريق شركات البترول العاملة في بلاده . فلم يناد بتأميم ممتلكاتها أو الحد من تهريب أرباحها أو برفع أسعار ما تصدره من بترول وذلك عكس ما يثار في البلاد العربية الاخرى المنتجة للنفط . (المعرب)

كانت أروقة كبريات شركات البترول تكره رجال الكونغرس على سماع شكواها من دبلوماسيينا الذين كانت لهم مواقف لينة مع ناصر، كان مدراء شركات بترول اخرى في تماس مباشر مع ناصر يصرحون سرا في مجالسهم أنهم يفضلون معاملة كبار المسؤولين المصريين ــ مع ما بينهم من تفاوت في الآراء والتفكير ــ على معاملة أخلص أصدقائهم من الزعماء العرب الآخرين وأصدقهم · وفي الوقت الـذي اضحى من الصعب أن يحمل مدراء الشركات في مقراتهم الرئيسية في الولايات المتحدة مثل هذا الرأي السابق الذكر (ولشركات البترول رايان ، أولهما رأي المدراء الذين هم وراء مكاتبهم في واشنطن ، وثانيهما رأي خبراء الميدان ، وهذا الوضع شبيه بوضع وزارة الخارجية نفسهـــا) فان جدارة المصريين وكفاءتهم (بالمقارنة مع عدم اتزان المسؤولين السوريين وخداعهم الفاضح) قد دعت قسما غير يسير من أوساط رجال الاعمال الامريكيين الى التخفيف من حدة عدائهـم لناصر ونزاعهم معه ·

وجاء بعدها عهد الرئيس كنيدي · فبعد شهر ، أو ما يقارب الشهر ، من تقلده السلطة رسميا ، وجوابا على رسائل التحية والمجاملة التي أرسلها لكل رؤساء الدول العربية ، استلم الرئيس كنيدي رسالة « من رئيس أفقر دولة في العالم ولكن اعرقها قدما الى رئيس اغنى دولة في العالم ولكن أحدثها سنا » · وكانت هذه الرسالة (التي ظن محللو وزارة الخارجية الماهرون الذين لهـم سابق تجربة وخبرة بهذا النوع من الرسائل أنها من حياكة الرئيس نـاصر نفسه) تعلق على أوجه الشبه في السن والتكوين العائلي وغير ذلك بين الرئيسين (كنيدي وناصر) ، وانتهت بالاقتراح أنه ليس من اضاعة الجهد والوقت بشيء، أن يقف الرئيس كنيدي على الفوارق الصارخة بين ادارة دولة كمصر وادارة اخرى كالولايات المتحدة · كما أنه من دواعي سرور الرئيس ناصر أن يستقبل مبعوثا موثوقا من الرئيس كنيدي حتى يطلعه على الحالة في مصر ويسهل له دراسة أوضاعها ومشاكلها عن كثب ·

ولم يقف الرئيس كنيدي موقف اللامبالي ، بل هزت الرسالة مشاعـره وتحمس لها كثيرا · كما أنه أرسل جوابا عليها بدون تاخير أو تسويف مهـّـد الطريق أمام حوار بينه وبين الرئيس ناصر · غير أنه مضت شهور عديدة قبل

ان يقبل كنيدي اقتراح الرئيس ناصر ارسال أحد أصدقاء الاول الى مصر لاجراء فحص دقيق لمصاعب الادارة ومشاكلها· وفي أيار (مايو) عام ١٩٦٢ قرر كنيدي أخيرا ارسال صديقه الحميم وأستاذه القديم (ادوارد ماسون) الى القاهرة · وماسون هذا كان أستاذ كنيدي في علم الاقتصاد عندما كان الأخير في جامعة هارفرد ، كما أن ماسون قد ألف كتبا عدة ونشر مقالات كثيرة حول اقتصاد الدول المتخلفة ، ولم تكن نظراته حول هذا الموضوع بعيدة عن نظرات كنيدي نفسه · وعلاوة على ذلك ، فان كنيدي واثق من انه ليس في قلب ماسون كراهية لاجراءات ناصر الاشتراكية أو حقدا عليها وخصوصا أنها كانت قيد التنفيذ في مصر (مثل تأميم الشركات المصدرة للقطن وتأميم المصارف وشركات التأمين وما لا يقل عن مئتي مؤسسة تجارية وصناعية) ولهذا فليس من المحتمل أن يكون (ماسون) متحيزا في حكمه على أوضاع ناصر وتصرفاته ·

وأخيرا وصل البروفسور ماسون الى القاهرة · ومنذ اليوم الاول لوصوله أخبره ناصر أن له الحق كاملا في أن يدقق في أمور البلاد وشؤونها كما يفعل هو (أي ناصر) نفسه ، كما ان له أن يعرف كل شاردة وواردة دون تحرج أو تكلف حتى يلمس المصاعب كما يلمسها ناصر بنفسه ، وطلب منه ناصر أخيرا أن يطلع على كافة تفاصيل حلول ناصر لمشاكل البلاد · وأتاح ناصر لماسون حرية التجول والتدخل وبرهن على ذلك بأن طلب من نوابه وكافة وزرائه وكبار المسؤولين الرئيسيين تزويد ماسون بتقارير شاملة وافية عن شؤون البلاد وأوضاعها · وفي خلال لقاءاته مع ماسون ، كان ناصر يسأله قائلا : « مستر ماسون ، هل تظن أننا نتصرف بغير الطريقة التي كنت ستسلكها لو كنت حاكما لهذا البلد ؟ » وكان ماسون يجيبه : « كلا » ، وغالبا ما كان يضيف عليها « كلا ، سيدي الرئيس » ·

وفي حزيران (يونيو) عام ١٩٦٢ عاد ماسون الى واشنطن ليخبر الرئيس كنيدي أنه ــ وجدانيا ــ لم يعثر على خطأ في تصرفات ناصر الرئيسية وأنه ليس لديه ما ينتقده أو يجعله هدف نقاش وجدال · لقد أقنعه ناصر بأن كل تصرفاته التي كانت الولايات المتحدة تنكرها عليه ليست سوى مخارج منطقية يضطر ماسون نفسه الى سلوكها منطقيا لو كان في منصب ناصر · وكان من بين تلك

التصرفات تاميم ناصر لاجزاء ضخمة من الاقتصاد المصري ، واتخاذه اجراءات ديكتاتورية مثل فرض رقابة صارمة على الصحافة ، واعتقاله السياسيين المخالفين له في الرأي ، وشن الحملات الدعائية ضد الزعماء العرب الموالين للغرب على حد اعتقاد ناصر · وقال ماسون : « لقد كان ناصر يعاني من صعوبة الاختيار وقساوته ، وكلما وقف عند مفترق الطرق وجد أن عليه أن يختار أكثرها صعوبة واوعرها مسلكا » ·

ولم يكن ذلك كل ما قاله ماسون · ففي احدى جلسات الاستجواب التي عقدت في وزارة الخارجية ، رفض ماسون أن يفسّر فهمه لمشاكل ناصر وتبريره للحلول التي يتبعها الاخير على أنه توصية منه لتقديم مساعدات أكبر لناصر وقال : « ان مسألة انسجام سلوك ناصر وأسلوبه مع المصالح الامريكية شيء آخر تماما » · وأما المسؤولون الذين استجوبوا ماسون ودونوا ما اكتشفه في مصر من حقائق ومعلومات فقد جزموا أنه مهما كانت أعذار ناصر في تبرير سلوكه وتصرفاته وانه لا سبيل له الى فعل غير ذلك ، فانها بالتأكيد معادية للمصالح الامريكية وغير منسجمة معها أبدا · وعليه فعلى الامريكيين أن يختاروا اما :

(١) تغيير الظروف ،

(٢) تبديل مصالحهم وتعديلها ،

(٣) الاطاحة بناصر واستبداله بآخر يتصرف بصورة أخرى تحت نفس الظروف مهما كان تصرفه غير منطقي ،

(٤) توجيه تصرفاتنا في المستقبل وتخطيط أعمالنا في المنطقة على أن ناصرا عدو لنا وعلينا أن نعامله بطريقة ما بغض النظر عن صحة تصرفاته وانسجامها مع مصالحه ·

وفي هذه الاثناء تم نقل كل موظفي وزارة الخارجية الذين كانوا يتوزعون الادوار حول طاولة « لعبة الامم » (والتي كانت من طراز « ناصر ــ دالس ») باستثناء واحد أو اثنين · وأما الجمع الجديد الذي حل محلهم فكان يتحلى بصفة « الاخلاقية » في ممارسة أدواره في « لعبة الامم » · ولهذا فقد وجد من

الحرج أن يقبل امرؤ ما أن أمة ما أضحت عدوة له لمجرد انها تصرفت وفق مصالحها الخاصة بها فضلا عن أن تلك الامة تدخل في عداد الدول المتخلفة التي أيد الرئيس كنيدي علنا تحررها من الاستعمار ونيلها لاستقلالها · ولقد رفض بعض أولئك المسؤولين التسليم بفكرة امكانية وقوع مثل هذه الحادثة على الاقل · وأما البعض الآخر والذين كانوا أكثر « واقعية » منهم « أخلاقية » ، فقد حققوا تأييدا لرأيهم القائل ان ناصرا انسان مزعج وخطير ، وعلى هذا يجب أن يعامل · وحاولوا أيضا أن يفتشوا عن أسباب تقنعهم بأن ناصرا لا يسيء الى الغرب فحسب بل والى بلاده نفسها ، سوى أنهم لم يعثروا على أثر لتلك الاسباب في تقرير البروفسور ماسون نفسه ·

وفي مقابل كل هذا وذاك ، ظل تفكير المختصين بشؤون الشرق الاوسط في كل من البيت الابيض ووزارة الخارجية في واشنطن وديا تجاه ناصر طوال عهد ولاية الرئيس كنيدي · وبقيت نظراتهم له مليئة بالعطف نحوه كلما أفلحوا في مقاومة ضغط أوساط رجال الاعمال الامريكيين وتحديهم (ومن لف لفهم من رجال الكونغرس) فقد كانت شكواهم من خطابات ناصر العامة التي يهاجم فيها الامريكيين ويمتدح السوفييت مستمرة، وكذلك كان قلقهم من مغامراته السياسية (منذ أزمة لبنان) التي أمسوا على علم تام بها · وبعد انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦١، لم تعد حصافة ناصر ومعاملته الحسنة لشركة التابلاين عنصرا هاما في موضوعنا بعدما امتصت نقمة شركات البترول على ناصر وخففت من حدتها · وأدرك ناصر هذا ، وبقي كله أملا أن تتمخض زيارة ماسون عن نظرات عطف مثمرة تمتد الى تأييد ملموس وزيادة ملحوظة في المساعدات دون أن تتورط السلطة التنفيذية في حكومتنا في مآزق تضعها في صراع وجها لوجه مع سلطات الكونغرس ·

وبعد عدة أسابيع من عودة ماسون الى واشنطن أعرب لي ناصر عن ارتياحه البالغ للزيارة التي تمكن من خلالها الالمام بمشاكل حكومة الولايات المتحدة (كما شرحها ماسون له) كما استطاع عن طريقها نقل وجهات نظره الى الرئيس كنيدي حول المشاكل المصرية وحلولها · وفي أيلول (سبتمبر) قام جون بادو ، السفير الامريكي في القاهرة ، بزيارة لناصر اعترف فيها أمامه بأن تقرير ماسون

عن مشاهداته في القاهرة قد أثار موجة من الاضطراب والتباين في الآراء بين المسؤولين الامريكيين وأصبحوا في ارتباك لا يدرون ما يفعلون • كما ان السفير بادو أخبره أن الحكومة الامريكية شرعت يومها في اعادة تقييم الدوافع والبواعث كمحاولة منها لاتخاذ موقف ما من الخلافات الامريكية المصريــة التي لم تفقد حججها الاخلاقية بعد • ولم يكن سفيرنا في القاهرة يومها سوى « آكاديمي »(١) ليس بينه وبين ناصر أي وجه شبه سواء في طريقة الكلام او في طبيعة التفكير • وقد سلم السفير يومها تلك الرسالة لناصر مصحوبة بتاكيدات ودية ـ اعتاد عليها الطرفان ـ أن حكومتنا لا تبغي للمنطقة سوى السلام والازدهار والاستقرار وأنها تستلهم في هذا شعورها بالمسؤولية الاخلاقية التي يتسم بها التخطيط السياسي في عهد ادارة الرئيس كنيدي •

كان حديث السفير ذا وقع على نفس الرئيس ناصر، بل وأدخل في نفسه روعة اربكته فلم يعثر له على جواب • وعندما التقيت به في اليوم التالي كان خارجا عن طوره ومحتدما غيظا • فناصر لم يكترث لاكتشافنا البالي أن المصالح الامريكية والمصرية ليست دائما في انسجام ووئام ، وذلك لانه ترعرع فـي كنف اعتقاد الوزير دالس أن ما هو خير للولايات المتحدة هو خير للعالم أجمع ، وقد اعتاد على ذلك منذ أيامه الاولى في مصر • سوى أنه اضطرب لعلمه انــه بالرغم من وجود الرئيس كنيدي على رأس الادارة في واشنطن ، فلا تزال وزارة الخارجية تعتبر نفسها أنها تخوض غمار حرب تدور رحاها بين « الخير والشر » • كما أننا ـ نحن الامريكيين ـ قد أخفقنا في التوصل الى قرار بدافع من مصالحنا الشخصية وبدون أن يتملكنا شعور بالحاجة الى انتحال موقف أخلاقي ذي طنة ورنة لتبرير ذلك • وأردف ناصر قائلا : « طالما انكم تخدعون انفسكم بكل هذه التبريرات الاخلاقية ، فان شعوري بعدم الارتياح أثناء وقوفكم معنا لا يقل عنه أثناء مجابهتكم لنا • انكم فقط تريدون أن تلعبوا لعبتكم معنا » •

وخلال عهد الرئيس ايزنهاور ، فان علاقات ناصر مع حكومة الولايــات المتحدة الامريكية لا تظهر سوى أن ناصرا كان يرى « اللعبة » على انها مجــرد مواقف عادية لا علاقة لها بعلم « الاخلاق » ، وأن كل طرف فيهــا (ناصر أو

(١) يعني المؤلف ان السفير كان غير متمرس في الالاعيب والخبث • (المعرب)

الولايات المتحدة) لا يصر الا على تحقيق أهدافه والمحافظة على مصالحه أولا وآخرا . وهذا ما عبر عنه زكريا محي الدين في احدى محاضراته قائلا :

« ان لعبة الامم هي المواقف والتصرفات التي تتبناها الامم. جريا وراء مصالحها وطمعا في تحقيق أهدافها القومية بأية وسيلة غير الحرب . انها تضع مسبقا في اعتبارها أن مصالح الاطراف كلها متضاربة متباينة مهما بلغت درجة الصداقة وتوطدت الاواصر بينها. ان أي ربح تجنيه احدى تلك الامم لن يكون الا على حساب أمة أخرى ، واللاعب الماهر فيها هو الذي يحصل على كل الغنائم لصالحه ويدخل في ائتلافات آنية وتجمعات تكتيكية مع غيره من اللاعبين الذين تجمعه معهم مصالح ومنافع مشتركة . وعليه أن يوزع الاعباء على الخاسرين بأجمعهم حتى لا يصيب الطرف منهم أكثر من طاقته ، وبهذا لن تسوء حالته الى حد يدفعه الى القيام بردود فعل عنيفة ومتطرفة ، أو الى حد يضطره الى الكف كليا عن المشاركة في اللعبة وبالتالي اللجوء الى الحرب واستخدام القوة » .

وبالتأكيد فان ناصرا كان ملما بكل هذا وعلى اطلاع تام بكل ما يجري داخل « لعبة الامم » بغض النظر عن عدم سروره منها وارتياحه لها أثناء عهد الرئيس ايزنهاور والوزير دالس . وبعد تربع الرئيس كنيدي على عرش البيت الابيض طرأ يومها تغيير جديد على « لعبة الامم » ، وتوجب على ناصر أن يعد نفسه ويهيئها للكفاح ضد ما يسمى « بالاعتبارات الاخلاقية والمواقف الوجدانية » .

ومنذ الايام الاولى لولاية الرئيس كنيدي حتى يومنا هذا وناصر حائر ازاء الطريقة التي تظهر بها تحركاتنا « في لعبة الامم » لا أخلاقية وغير موضوعية بالمقارنة مع أهدافنا — نحن الامريكيين — في جر المغانم وجني الغنائم . وهي فضلا عن هذا كانت دائما تظهر تجاوبا ايجابيا مع تحركاته داخل اللعبة التي كانت تعود على مصر بفوائد ومغانم كثيرة . لقد أفسحت حكومتنا المجال أمامه ليربح « لعبته » بدون ان تظهر وكان لها « لعبة » خاصة بها وبدون أن يحس الغير بهذه « اللعبة » أو يلمس منها شيئا . وقد اعترف ناصر بهذا عندما

قال ان اي محلل سياسي في زيارة للكرة الارضية قادما من المريخ سيصاب بنفس دهشته نتيجة تفحصه للتحركات الامريكية المصرية في اللعبة وهو ينظر اليها من خلال منظار المنافع الشخصية والمصالح الذاتية •

وفي أواخر عام ١٩٦٢ تحولت حيرة ناصر الى قلق متزايد عندما لمس أن « لعبة الامم » أضحت نوعا جديدا من الصراع وباتت كل من المصالح الامريكية والمصرية في تعارض بيّن وتضارب جلي يضطران الحكومة الامريكية أن تقف في وجه ناصر بصورة أكثر جدية واشد عتيا • والطريقة التي اعتدنا فيها ان نؤيده تارة ونعارضه اخرى (وقد ظننا انها لا تتفق ومصالحنا) قد تركت ناصرا في حالة حذر منا وترقب لشرنا وامتدت حتى عشية انتهاء الحرب العربية الاسرائيلية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ • واستعراض عابر للحوادث التي بدأت في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٢ ـ شهرا من بعد حديث ناصر مع السفير بادو ـ توضح ذلك وتجعله جليا •

في هذا الشهر بالذات (أيلول ، سبتمبر) مات امام اليمن وخلفه ابنه الامير البدر • ولم يمض أسبوع على تنصيب البدر اماما حتى قام ضباط من الجيش اليمني بانقلاب أدى الى السيطرة على الحكم واحتلال محطة الاذاعة والاعلان عن اعدام الامام البدر • ونتيجة لذلك أعلنت مصر وبقية الدول العربية باستثناء الاردن والمملكة العربية السعودية (١) اعترافها بالجمهورية اليمنية الجديدة • وخطا الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية وغيرهما من الدول الشيوعية نفس الخطوة • وهكذا بدا الانقلاب وكأنه من توجيه شيوعي مما ادى الى اعتباره خطرا يهدد المصالح الغربية في الجزيرة العربية الغنية بحقول النفط وآباره • غير أنه سرعان ما عرف أن الامام الجديد لم يعدم وانه ما زال على قيد الحياة يجمع القبائل لشن هجوم معاكس على الانقلاب • وهنا قام ناصر بايفاد بعض المستشارين العسكريين على وجه السرعة لدعم النظام الجديد ومساعدته • وما لبث أن ارسل في أثرهم أعدادا صغيرة من الجنود ومن ثم اتبعهم بحشود هائلة من الرجال والعتاد ومن مختلف صنوف الاسلحة • وفي هذه اللحظات

(١) اعترفت المملكة العربية السعودية بالنظام الجمهوري باليمن في تموز (يوليو) ١٩٧٠ (المعرب)

بدت الحكومة الامريكية مترددة بين الاعتراف بالنظام الجديد لتقليص النفوذ المصري والسوفييتي والصيني في اليمن (على حد قول ناطــق بلسان وزارة الخارجية الامريكية) أو عدمه (كما كان البريطانيون ورجال وزارة الدفــاع الامريكية يرغبون) ٠

وبقي ناصر طوال مدة ترددنا قلقا متلهفا ، يثور تارة ويهدأ أخرى ٠ واكثر ما كان يقلقه ويثير فضوله هو تفكيرنا وراء تريثنا وليس ارتيابه بقرارنا الاخير ٠ وناصر قد لمس هذا من لقاءاته مع السفير جون بادو كما اشتم رائحته من تقارير سفيره في واشنطن وتحليلات الصحف اليومية وبناء على وجهة نظر ناصر ، فان الاعتبارات التي تحول دون اعترافنا بالنظام الجمهوري في اليمن تصلح في نفس الوقت لان تساق كحجج وبراهين على سلامة فكرة الاعتراف بالنظـــام الجديد ، والعكس صحيح ٠ وفي كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٦٢ ، قام السفير بادو بزيارة لناصر وطلب منه تأكيدات على أن اليمن لن تستخدم كقاعدة لشـن حملات عسكرية على المملكة العربية السعودية أو المراكز البريطانية في جنوب الجزيرة العربية ٠ الا أن ناصرا قد أصيب بالدهشة ازاء هذا الطلب ولم يتردد البتة في اعطاء السفير ما شاء من تأكيدات وضمانات ٠ وفي ١٩ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٦٢ قامت الحكومة الامريكية بالاعتراف بالنظام الجمهوري في اليمن السعيد ٠

ولم تكن نظرة ناصر الى الاوضاع في اليمن ــ واليمن فقط ــ تختلف عن نظرتنا له ٠ فلو أن اليمن انزلق الى البحر رويدا رويدا ، وغاص فيه شبـــرا شبرا ، واصبح أثرا بعد عين ، فما اظن أن الجنس البشري سيفطن له ، وان حدث فلن يعاني من الم أو يشعر بوخزة ضمير ٠ ومن جهة أخرى ، فقد أدرك ناصر أنه ما من امرىء يستطيع أن يجني أية مكاسب في منطقة ما عن طريق انتفاضات محلية وحروب عصابات ما لم يكن له فيها موطىء قدم وله بقربها محط رحال ٠ « فالمتعصبون » (١) لا يصلحون لمثل هذه المهمات ولا يفيدون في مثل تلك الملمات ، بل وغالبا ما يتلاشون تلاشي الاسهم النارية في الاثير وهي تندفع عاليا في سماء ليل بهيم ٠ أما اذا اختفى وراء الستار انتهازيون (لا متعصبون)،

(١) سبق الكلام عنهم في الفصل التاسع (المعرب) ٠

وفي اللحظة الحاسمة الى المسرح يقفزون ، وللقيادة بعدئذ يتسلمون ، فالامر عندئذ يهون ، وربما قدما يسير · فناصر لم يكن باليمن من المهتمين ، بل كان الى كل الجزيرة من المتطلعين · فاليمن عنده موطىء قدم لا هدف وأمل · وكذلك أيضا حكومتنا الامريكية ، فهي ليست حريصة على اليمن ولا ينبغي عليها أن تكون كذلك · فجل قلقها قد تركز على أمن عدن واستقرارها · وكانت من انتشار « موضة المستقبل » في الجوار خائفة ، فالملك والمملكة بجنب اليمن ، والامير في الكويت ، وليست امارته نائية لا تعصفها عاتية ، فامارات الخليج ومشيخاته للطريق واصلة وبين الكويت واليمن رابطة ، فضلا عن أنها للجرثومة حاضنة وبالداء مرحبة · وناصر رأى ذلك يقينا بعد ما نظر ، ثم عبس بعدها وبسر فلم يصدق أننا ـ نحن الامريكيين ـ لا نرى ما يراه · والحق أننا نظرنا ،وبنفس عينه فعلنا ، ولكننا لم نكن لنفصح عن هذا وهو بنا من المتربصين ، وطفقنا عن « الشيوعية » متكلمين ، ومن « توجيهها » لحكم اليمن متخوفين ، اذ الحكومة فيه فتيّة ونخشى أن تكون للشيوعية مطيّة ·

ولسنوات متتاليات ، تأرجحت العلاقات الامريكية المصرية بين الحسن والسيء ، فلم تقفز الى قمة أو تتردّ الى هاوية · وفي خلال ذبذباتها لم تكن تنطوي على علاقة ظاهرة بالتحركات المصرية أكثر مما كانت عليه في الماضي · وأما « حوار » ناصر مع السفير بادو ـ وكان تابعا لعلاقات ناصر الودية مع الرئيس كيندي ـ فقد تفسّخ وبات ضربا من الترهات والسفسفات يتبادلها الاثنان متناوبين وكاد ينقطع نهائيا لولا احترام ناصر لشخص السفير وذاته · وفي آب (اغسطس) عام١٩٦٤، حل لويس باتل محل جون بادو كسفيرلحكومتنا في القاهرة · ولويس هذا موظف من موظفي الخدمة الاجنبية المحترفين يتمتع بخبرات مكتبية رائعة ، غير أن فهمه « للعبة الأمم » ليس أكثر من اعتقاد خرافي يصور له أن وكالة المخابراتالمركزية تشرف (عن طريق اللعبة) على عمليات تخريبية تغطي كافة المنطقة وأنها كانت وراءه لكنها اخطأته وبعد حوالي اسبوع من وصول باتل الى القاهرة ، اشعلت مظاهرات الطلبة النار في مكتبة كنيدي التذكارية فأتت على ما فيها من كتب ومجلدات · وفي نفس الوقت ، أسقط سلاح الجو المصري طائرة « جون مكوم » أحد ملوك النفط في تكساس وصديق حميم للرئيس جونسون · وبعد كل هذا وذاك ، وقف ناصر ليلقي

خطابا لاذعا في جماهير مدينة القاهرة دعا فيه السفير الامريكي الى « شرب ماء البحر الابيض المتوسط » ، ان كانت لا تروقه مثل تلك التصرفات · وتكدست يومها الاستفزازات حتى بلغت الذروة وأثارت أعضاء مجلس النواب في الكونغرس فتداعوا الى اجتماع قرروا فيه قطع المساعدات عن مصر وايقاف وسائل الغذاء لها · ولربما يتراءى أن بادرة كهذه ليست سوى نكسة حلّت بالعلاقات الامريكية ـ المصرية يومها غير ان مجلس الشيوخ عدل قائمة المساعدات ثانيةو أعاد اسم مصر الى طليعتها ·

وبعد شهر من الزمن (في أيلول ، سبتمبر) ظن ناصر أنه قد سدّد صفعة مهينة لنا عندما حرّض مجموعة من الدول الافريقية على قطع علاقاتها واياه مع بريطانيا ، وظن أن عملا غير مباشر كهذا لا يقل قساوة واهانة عن أي عمل مباشر آخر ضد الولايات المتحدة · غير أن تصرفه هذا قد أقنعه بصورة قاطعة أن التصرفات الامريكية تجاه مصر تسير في طريق غامضة عسيرة الفهم ، هذا ان كانت هناك طريق · فما أثار دهشة ناصر وأورثه حيرة على حيرته السابقة أنه لم يمض سوى يومين على فعلته تلك حتى ارسل الرئيس جونسون مبعوثه الخاص أفريل هاريمان الى القاهرة علّه يفلح في توسيط مصر لدى فيتنام الشمالية للافراج عن الاسرى الامريكيين هناك· وبعد ثلاثة أيام اعلن السفير الامريكي في القاهرة أن شحنات القمح الامريكي الى مصر ستبقى متدفقة دون انقطاع أو نقصان · وهكذا بدت حكومة الولايات المتحدة متغافلة عما حدث ، وكان العلاقات مع أخلص حليفاتها ما نالها سوء أو مسها أذى ·

وفي صيف عام ١٩٦٥ أخبرني ناصر انه قد « رفع يديه واستسلم » ولن يحاول ثانية أن يسبر غور التحركات الامريكية · وأما محمد حسنين هيكل ، صديقه الحميم، فقد نشر مقالة في صحيفة الاهرام معبرا عن رايه في أن السياسة الخارجية المصرية (وهي المغامرات المصرية في جزيرة العرب وحملات القاهرة الاذاعية ضد الملك فيصل والملك حسين والمضايقات المستمرة للمواقف البريطانية والامريكية في الشؤون العالمية) ليست سوى « توظيف مثمر » للجهد المصري· فقد عادت على مصر بمنافع سياسية وأخرى عملية ملموسة ، فحصلت مصر على مساعدات عسكرية من الاتحاد السوفييتي دون أن تخسر المساعدات الاقتصادية

عن الولايات المتحدة • ونصلنا بين مسالة المساعدات الاقتصادية وبين الاعتبارات السياسية ، قد حاز على اعجاب ناصر وقبوله ، ولم يقصر في ذلك ، وعبّر لي ناصر عن هذا بنفسه• ولكنه بقي مرتابا في أن يكون ذلك هو كل ما نفعله ، ولن يرتاح باله وتهدأ نفسه حتى يقف على كل ما نريده حقا من وراء علاقاتنا معه ونبغيه • وبخصوص مقالة هيكل حول « السياسة الخارجية المصرية : توظيف مثمر » كاشفني ناصر برأيه فيها (كما كاشف غيري) وقال انه لا يرى بأسا عليها، سوى انني علمت أنه عنّف كاتبها وأنبه عليها سرا • ومع كل ذلك فقد بقي مصرا على أن علاقاتنا معه ما زالت تنطوي على اسرار دفينة وتعقيدات بالغة غير ملم بها ، ولا واقف عليها •

وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٦٥ ، افلح زكريا محي الدين ولفيف من ضباط ناصر باقناع الاخير بتوفير تفاعل أعمق بين المواقف المصرية والمواقف الامريكية، وستحسن الحكومة المصرية صنعا ان نظرت اليها وكأنها مواقف واحدة • لقد كان يومها أكثر من ثمانين بالمائة من خبز سكان المدن في مصر من مساعدات القمح الامريكي ، كما ان المال اللازم لمصر من العملة الصعبة (حوالي الف مليون دولار) لتنفيذ المشاريع الانمائية لا يمكن الحصول عليه الا من المؤسسات المالية التي تحتفظ حكومة الولايات المتحدة بأكبر نصيب من أسهمها • ومن خـــلال تقارير السفير المصري في واشنطن مصطفى كامل ، ادرك ناصر ان الراي العام الامريكي في تصاعد مستمر ضده وأن الذين يعطفون عليه من موظفي وزارة الخارجية الامريكية بدؤا يرزحون تحت ضغط متزايد عليهم • وعلى حد زعم السفير كامل ، فان وزارة الدفاع الامريكية اضحت فريسة للبريطانيين وتحت مطلق تاثيرهم ، وبات اعتقاد وكالة المخابرات المركزية أن ناصرا عميل سوفييتي، وأن مكتب شؤون الشرق الادنى الملحق بوزارة الخارجية قد أمسى هشيما تذروه الرياح وبات لا يملك مما كان عنده ذرة تاثير او نفوذ • وازاء كل هذه المضاعفات وجد زكريا أنه لا سبيل لايجاد تفاهم مشترك وبنّــاء مع الولايات المتحدة دون الوصول الى الرئيس جونسون وان خير مسلك لتحقيق هذا هو انشاء علاقـــة شبيهة بعلاقة ناصر ــ ماسون • وعلى حد علم زكريا فان أكثر الناس حظوة عند الرئيس جونسون هم أصدقاؤه من ملوك النفط التكساسيين • ولزكريا صديق منهم ، بل وصديق حميم ، كان سابقا وزير مالية الولايات المتحدة ، وهو روبرت

اندرسون · ومرة ، فان روبرت هذا قد أعطى زكريا سر تحريك « ملوك النفط المليونيريين » وقال له : « عليك بما يسهل صرفه في بنوكهم · انهم واقعيون ولن يقبلوا الا حقائق ملموسة ، وبغير هذا لن تجد اليهم سبيلا » ·

وبعبارة اخرى ، ادرك زكريا ان « لعبة الأمم » ليست سوى هراء وهذيان، وعلى مصر أن تكف عن المشاركة فيها وتنكب على تطوير نفسها وتحسين اقتصادها ، وتتخلى ــ ولو لمدة ــ عن مصالحها في العالم العربي وفي العالم الافريقي الآسيوي · وبهذا السلوك لا بغيره تفلح في كسب ود أصدقاء الرئيس جونسون من « أصحاب الملايين » وتفتتح حقبة جديدة من العلاقات الطيبة مع الولايات المتحدة خاصة والحكومات الغربية والمؤسسات المالية عامة ، دون أن تخاطر بعلاقاتها مع الاتحاد السوفييتي وتخسر صداقته ·

ولم يكن لدى ناصر يومها أفكار اصلح وآراء أنسب · ففي تشرين الاول (اكتوبر) عام١٩٦٥ أصدر قراره بتعيين زكريا رئيساللوزراء، ووطد العزم على أن يترك له تسيير دفة الحكم في البلاد· وشرع زكريا يومها بتنفيذ سياسته المعروفة باسم « مصر أولا » ، واعلن أن على مصر ان تتصدر قيادة العرب عن طريق « الزعامة القدوة»· و«القدوة» هنا هي في ايجاد حكومة أكثر فعالية واستغلال أعظم للموارد الاقتصادية وفي تحقيق مغانم اكثر للشعب ، وليست « القدوة » مجرد تسلط سياسي أجوف على الدول الاخرى · واعترف زكريا رسميا بوضع مصر الاقتصادي السيء ، فاتخذ اجراءات تقشفية صارمة لاقت قبولا ورواجا عند عامة الشعب فاكسبت الحكومة شهرة ومحبة ، (وقد ادهش هذا ناصرا نفسه) · وأجرى زكريا تعديلات على اتفاقيات الحكومة مع شركات البترول فحصّل عائدات أكبر للمصريين وشحن الشركات بدفعة من النشاط لتوسيع أعمالها وزيادة انتاجها · ودخل في مفاوضات مع البنك الدولي ومع هيئة التمويل العالمية ومع صندوق التمويل الكويتي لتطوير العالم العربي ومع بنوك رئيسية خاصة يمكن ان تكون مصدرا حسنا للعملة الصعبة على أساس من « حقائق ملموسة » وليس « اعتبارات سياسية » · وأما نجاح زكريا في اقناع ناصر بالتوصل الى اتفاق مع الملك فيصل حول قضية اليمن السعيد (وذلك قبل أشهر من استقالته منصب رئاسة الوزراء) فقد دفع به الى حث المشير عامر الى التعجيل بسحب

الجنود المصريين من هناك (وكانت هذه مغامرة زكريا اليتيمة في تدخله بالشؤون الغربية خلال فترة ولايته كرئيس للوزراء) • ولو أن الحكومة الامريكية قد زودت زكريا حقا بقائمة اقتراحات لما ينبغي عليه انجازه لما كانت القائمة تتضمن غير ما فعله هو حقا • وهكذا فقد غامر زكريا بسمعته وجازف بها ، وكانت نتيجة « سياسة مصر أولا » أنه قد فاز بلقب « العميل الامريكي » •

ولم يكن رد الفعل الامريكي تجاه سلوك زكريا حارا ومشجعا ، فالسفير باتل لم يقم بزيارته الا مرة للمجاملة عندما تسلم زكريا مهام منصبه كرئيس الوزراء ، ومرة أخرى صحبه فيها دافيد روكفلر ، ومذ"اك لم تتكرر زياراته الا مرة أو مرتين وفي ظروف رسمية محضة • ولم يتشرف زكريا برؤية طلعة السفير البهية حتى حان وقت انتهاء خدمة الاخير في القاهرة فجاءه مودعا حسب ما تقتضيه الاعراف والتقاليد • وفي نفس الوقت لم تنقطع المشاورات بين كبار موظفي السفارة الامريكية في القاهرة وبين موظفي وزارة الخارجية المصرية حول مختلف الشؤون العالمية واحداثها • وكم دارت أحاديث بينهم حول الاوضاع السياسية في اليمن وفيتنام وآسيا وافريقيا • ولم يكن مستشارو القصر الجمهوري عن هذه الاحاديث ببعيدين ، فشاركوا فيها بكل نشاط واكتراث • وهكذا سفه الامريكيون بأنفسهم النظرية القائلة ان حكومتنا تهتم بمصر « لاجل مصر فقط » ، واعادوا الى ذهن ناصر أن الحكومة الامريكية تبدي اهتماما بالاوضاع المصرية بقدر المظهر التي تظهر به مصر على مسرح الاحداث العالمية ، وهذا حقا ما عبر عنه هيكل في مقالته الشهيرة : « السياسة الخارجية المصرية : توظيف مثمر » •

وايقن زكريا أخيرا ، أن التفاعل الاعمق بين المواقف الامريكية والمصرية قد بات عكس ما كان يحلم به ويتمناه • فالملك فيصل قد شرع في الدعوة الى اقامة تحالف اسلامي للوقوف في « وجه الشيوعية » (وبالتالي للوقوف في وجه ناصر) وذلك بعد أن سحب المصريون خمسة عشر الفا من جنودهم في اليمن • كما أن الملك خشي أن تخف في واشنطن حدة المعارضة ضد ناصر التي كانت قد تكدست ليومها • وكنتيجة متوقعة لهذا ، قام ناصر باعادة الجنود الى اليمن ثانية وفتح باب النزاع والشقاق مع الملك فيصل على مصراعيه • وفي تلك

الاثناء ، أخفق زكريا في التأثير على أصحاب الملايين الذين كان يأمل منهم أن يساعدوا على انتشال مصر من ضائقتها المالية • فقد صرح « أصحاب الملايين » الامريكيون أنهم لا يفضلون توظيف اي من أموالهم في مصر الا اذا أقدمت الأخيرة على تخفيض قيمة عملتها (وهذا غير مقبول عند زمرة أصحاب الديون) وعلى ايقاف كافة مشاريع « صناعة العزة والكرامة » الخاسرة (وهذا لا يتناسب والاحوال السياسية في الداخل) • وقد أخبر أحد « أصحاب الملايين » زكريا قائلا : « انه لا يكفي أن تكون مصر بلدا مغريا للتوظيف المالي وصالحا للاستثمار، بل يتوجب عليها أن تكون أصلح كل تلك البلدان ، التي مدت أيديها لنا تتلقفنا من كل الجهات، حتى نفكر فيها - أي مصر - وفيكم • يا حضرة رئيس الوزراء »•

وهذا ما حدث تماما • فقد بقيت « لعبة الأمم » مستمرة وحتى مع الولايات المتحدة (وقال لي زكريا انها مستمرة « وخاصة » مع الولايات المتحدة) • وكم لام زكريا نفسه لارتيابه يوما بحقيقتها وقدرتها ! ولم تكن لتعني شيئا عنده ، فقد ظن بحتمية وجود « طريقة قياسية ما » يطبقها المرء دائما ويصحح خط سيره بحسبها دون أن تتغير الطريقة أو تتبدل ، ودون أن يصاب ايضا بخيبة أمل كلما أراد أن يسبر الاغوار ويعرف الاسباب • ومهما كان ، فلقد بلغت الاوضاع مبلغا دفعت بنواب الرئيس الثلاثة - عامر وزكريا وعلي صبري - أن يختلوا برئيسهم ناصر في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٦٦ حتى يضعوا « تفسيرا عامـــا » للاحوال والاحداث •

وكلمة « التفسير العام » قد ترجمها المتأثرون بعبـــارات الوزير دالس وديباجاته الى الانكليزية على أنها « اعادة التقييم للاحداث المـــؤلمة والاوضاع المتردية » • والحقيقة أن « التفسير العام » شيء آخر تماما • « فاعادة التقييم للاحداث المؤلمة والاوضاع المتردية » على طريقة دالس ليست سوى عمل أخلاقي بحت يتمثل في « صراع الضمير » لاقتناع المرء بشيء ومحاولته ابرازه على أنه شيء آخر كليا • وأما « التفسير العام » فهو عمل واقعي لا علاقة « لعلم الاخلاق » به ، وهو نوع من المراجعة التي يجريها قائد عسكري أو رئيس فريق كرة قدم عندما يدرك أن استراتيجيته التي اعتاد على تطبيقها في الماضي لا تصلح للمستقبل فيطلب تعطيل اللعب مؤقتا حتى يتسنى له اعادة تحديد أهدافه وفهم حقيقة

العثرات القابعة في طريقه والمساعدات المطروحة أمامه (والتي ربما تكون قد أضحت ذات مفعول مضاد) ولاستنباط استراتيجيات جديدة يتخذها طريقا له ومنهجا • وفي الوقت الذي كان ناصر عاكفا مع نوابه الثلاثة على اعداد « التفسير العام » ، فان البنوك وشركات الطيران وشركات البترول وغيرها من الشركات الامريكية كانت هي الاخرى بصدد اعادة تخطيط استراتيجياتها بعد أن شعرت أنها لن تتمكن من صيانة مصالحها الا عن طريق العمل مستقلة ــ الى حد ما ــ عن العلاقات الدبلوماسية بين المصريين والامريكيين • وكان على بعض أجهزة حكومة الولايات المتحدة أن تحذو حذو الشركات تأمينا للمصالح الامريكيــة وبغض النظر عن تلك القيود التي كانت تفرضها « الاعتبارات العالمية، الاخلاقية منها أو القانونية » (مثل معاهدة الامم المتحدة والاعراف الديبلوماسية المتبعة) • وهكذا قفزت الى المسرح « لعبة » من نوع جديد عجزت بعدها الديبلوماسيــة التقليدية أن تمارسها أو تؤدي أدوارها •

وكما ذكرت آنفا في هذا الفصل ، فلم تكن تلك المرة الاولى التي رفد فيها أحد المشتركين في «اللعبة» من الامريكيين أو المصريين لاجراء تقييم عام وتقدير شامل • كما أنها لم تكن تلك المرة الاولى التي يستعان فيها « بغير الرسميين » « وبغير الدبلوماسية التقليــدية » لتأخذ بنواصي الامــور ولكن من « خلف الكواليس » وسرا ولتحل محل الدبلوماسية التقليدية التي لم يبق لها سوى مهمة مراقبة تصرفات حكومتنا وتحديد ما اذا كانت في انسجام أخلاقي مع القواعد الشائعة داخل البلاد وخارجها • ولهذا « التفسير العام » خاصة أهمية فائقة لانه وجد نتيجة ظهور ملامح أربعة جديدة « للعبة الأمم »، تعززت أركانها حتى قادت الى الحرب العربية الاسرائيلية في حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ • كما أنها لا تزال قائمة تدفع بذيول الحرب الى التفاقم ثانية ، وتطرح قضايا ومسائل مشابهة في أماكن أخرى من العالم • والملامح الاربعة هي :

١ ــ انتهاء اســـطورة القطبين (اللـــذين كان كل من ناصر ونكروما وسوكارنو وغيرهم يضعونهما في دوامة التنافس لكسب ودهم) وظهور أقطاب جديدة أخرى في العالم •

٢ ــ انعدام الامن والنظام في كافة أرجاء العالم العربي مع ضياع آخـر

الآمال في الوصول الى « وحدة عربية » مهما كان لونها وشكلها ٠

٣ ــ نفاذ صبر الاسرائيليين مما دعاهم الى التصريح في أوائل عام ١٩٦٧ قائلين : « اننا لن نصبر بعد الآن ، وكفانا كل هذا ، فسنتربص بالعرب الدوائر ونغتنم أول فرصة سانحة لننقض عليهم ونغيّر ما حولنا ونجعله كما نريد ونهوى » ٠

٤ ــ وقرر السوفييت أن يتخلوا عن فكرة الوقوف على الحياد في الصراع العربي الاسرائيلي وباتوا على استعداد لان يتعاونوا مع أية حكومة عربية تلتقي معهم عند منتصف الطريق ٠

وبكل تأكيد فان هذه التحولات في الاحداث العالمية تتطلب استراتيجيات من نوع جديد ولكل الاطراف اللاهية على المسرح عامة والمصريين خاصة ٠ وخير دليل على حاجة المصريين الماسة لاستراتيجية جديدة يقفزون بها الى مســـرح الاحداث برشاقة وخفّة جديدتــين هو ما قاله صحفي أمريــكي بارز لاحـــد الدبلوماسيين المصريين وجاء فيه : « اننا ــ نحن الامريكيين ــ لم نعد لننظر الى ناصر على أنه مصدر ازعاج لنا أو قلق ، بل ان ناصرا لم يعد كذلك » ٠ وكان هذا في أواخر عام ١٩٦٦ ، آخر عام قبل عام الحرب الخاطفة ٠

- ١٣ -

النهاية

الحرب العربية الاسرائيلية حزيران (يونيو) ١٩٦٧ وذيولها

... واخيرا ، فكل حال يزول ...

ترى ما هي الاستراتيجية اللائقة بزعيم مثل ناصر ليلعب بها على المسرح الحالي للاحداث العالمية ؟ سأفترض أنك تقبل النقاط التالية :

- أن ناصرا هو من ذلك النوع من الناس الذين يهمهم أن يتمتعوا بقـوة شخصية واسعة والا لما كان بوسعه أن يمسك بدفة الحكم ،ويبقى عليها مسيطرا ؛
- وأن من المنطقي لزعيم كهذا ان يلجـأ الى الاستعانة بأجهـزة العنف والارهاب (قاعدة القمع) وأن أجهزة كهذه يتضمن قوامها بالضرورة آلافا مؤلفة من الموظفين وجيشا جرارا لا تستطيع مصر تحمل نفقاتهم ضمن قدرتها العادية ؛
- وأن الحصول على تأييد جماهير الشعب المحرومة التي تملأ شوارع مصر وتعج بها مدنها ، اتخاذ مواقف لو نظر اليها امرؤ ذو عقل وبصيرة لما وجدها مجدية أو مثمرة ؛
- وأن دعم الشعب لناصر يقوم على حياده ، وحين يكون حياديا فلا مناص من أن يعتبر الحياد ليس هدفا فحسب بل واستراتيجية لا بد منها لمجابهة « القوى العظمى » ومواجهتها ؛
- وأنه عندما بدأت استراتيجية كهذه عملها (وكان الغرب ، وليس ناصر، هو الذي دفعها الى العمل) فعلى ناصر أن يصل بفعاليتها الى القمة عن طريق اشراك اطراف أخرى معه لتواجه كلها « القوى العظمى » كوحدة متماسكة ؛

- وحالما تينع ثمار استراتيجية « التكتلات » (وهذا ما حصل فعلا) فعلى ناصر أن يضرب بعنف كل من شق عصا الطاعة عنه وخرج على «تكتله» أو فكر بانشاء « تكتل جديد » !

- وأخيرا ، ففي الوقت الذي يعتبر المحللون المحنكون في لندن واشنطن وموسكو أن سلوك ناصر لمثل هذا المسلك أمر معقول ومقبول ، فان بقية العالم قد سئمته وضجرت منه حتى تكاد احدى تلك الدول العظمى أن توقف مجاملتها فجأة وتقول : « فليأخذ الآخرون هذا الرجل ، فلقد نلت منه ما يزيد عن طاقتي ويفيض عن كفايتي » ، وهنا يتقدم آخرون ليتلقفوه لقمة سائغة ، ويبتلعوه هنيئا مريئا ٠

ومن السهل ابداء الجواب لأي امرىء لم يسلك هذا الطريق ٠ والجواب مماثل لجواب مسالة فيها رجل كان يجني خمسين ألفا من الدولارات في العام ، ثم انخفض دخله فجأة الى اثني عشر ألفا ٠ ففي هذه الحالة عليه أن يقلص طموحه الى حدود معقولة ، ويرضِّي نفسه قدر ما يستطيع بدخله الجديد ٠ وهـــذا بالضبط ما اقترحه بعضنا ـ وخاصة روبرت اندرسون ، وزير المالية السابق لحكومة الولايات المتحدة والصديق الحميم للرئيس جونسون ـ على الرئيس ناصر ٠ وفي كانون الثاني (يناير) عام ١٩٦٧ ، رتَّب اندرسون ـ بالتعاون مع أحد أعضاء سفارة الجمهورية العربية المتحدة في واشنطن وهو محمد حبيب ـ قائمة باسماء كبار الممولين ورجال الاعمال الذين لهم نفوذ وسطوة ، وكلهم من أصدقاء الرئيس جونسون، ومهد محمدحبيب الطريق أمامناصر لدعوتهم الى زيارة القاهرة ٠ وفي شباط (فبراير) وصلوا القاهرة ، وأعجبوا الى حد بالغ ليس بمستقبل مصر الاقتصـــادي فحسب بل وبالرئيس ناصـــر شخصيا ٠ ونقلوا انطباعهم الحسن الى الرئيس جونسون عندما عادوا الى واشنطن ٠ وبدا الى حين كان من الممكن لحكومة الولايات المتحدة والرئيس ناصر أن يبدآ من الصفر علاقة جديدة يتخلى فيها ناصر عن فكرة انشاء « التـكتلات » (مع أنه على مســـرح الاحداث الجديدة يمكنه أن يكون حياديا قدر ما يرغب ويهوى) ويقلص طموحه الى ابعاد معقولة مركزا اهتمامه على بناء مصر ، وسوف تدعمه حكومة الولايات المتحدة ماليا ليكون قادرا على هذا ، ولن يقصر رجال المال والاعمال الامريكيون عن مد يد المساعدة لتتضافر الجهود وينشط العمل ٠

الا ان تفاؤلا كهذا لم يضع في حسابه قوة الدفع الضخمة لحركة ناصر هذه والتي تتصاعد بازدياد ، ولا الحدود التي ستوصله اليها تلك القوة الدافعة

كما تنفخ بطائرة ضخمة فتوصلها الى أجواء عالية • هل يخفض ناصر عدد افراد جيشه الى خمسين الفا ؟ هل يخفض ناصر عدد « طبقة الموظفين » الى مائة وثمانين الفا ؟ هل سيعيد ما أممه من صناعات الى أصحابها الشرعيين ؟ هل يعلن حل « الاتحاد العربي الاشتراكي » تاركا للحظ اختيار وريث له ؟ انك حينما تأتي الى تنفيذ مثل هذه الاجراءات، ستجدها فجأة من «رابع المستحيلات تفكيرا وتنفيذا»، ولو أن ناصرا رآها هكذا فليس ذلك لانه قد أضحى « مجنون سلطة » أو انه قد فقد عقله •

ولم يكن تأثير الاتحاد السوفييتي بقليل • فالسوفييت يمتازون عنا بعدم حاجتهم لممارسة أي ضغط على ناصر مباشرة ، لان سلوكه وسياسته في المنطقة يوافقان رغباتهم ويجدان هوى في أنفسهم دونما تحوير أو تعديل • ومرة قال ناصر لسفيرنا في القاهرة : « انني افعل ما افعله في اليمن وأماكن أخرى ، وسأفعله ، ولو لم يكن الاتحاد السوفييتي على قيد الحياة وفي حيز الوجود » • الا أن مصالحنا في المنطقة ومسؤولياتنا تجاه أصدقائنا هناك لن تسمح لنا أبدا أن نغض الطرف عن ناصر وأن نصم عنه الآذان •

وهكذا ، فبعد أن غادر ملوك المال الامريكيون عائدين الى واشنطن ، استحوذت أحداث المنطقة على انتباه ناصر واهتمامه الى حد جعل الرجوع الى برنامج « مصر أولا » بعيدا عن تفكيره بعد المشرق عن المغرب •

ان سلسلة الاحداث التي ابتدأت في تلك اللحظة واستمرت حتى نشوب الحرب بين العرب واسرائيل في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ مفصلة تفصيلا بديعا في كتاب والتر لاكور واسمه «الطريق الى حرب عام١٩٦٧»، وهذا الكتاب من أهم ما كتب حول هذا الموضوع بالذات • فالبروفسور « لاكور » ذو خبرة واسعة بمصالح السوفييت في الشرق الأوسط وله بها المام غزير ، ولهذا فهو من أقدر من يكتب موضحا الاسرار التي انطوت عليها سياستهم هناك (ولن أستطيع ذلك بنفسي) • لقد اراد الروس من ناصر أن يقوم « باستعراض عضلاته » وليس اكثر من ذلك بل ودون أن تورطه استفزازاته تلك في « حرب حقيقية لا تبقي ولا تذر » • ولعلي أصدق هذا على ضوء ما سمعته من الكثير من أصدقائي المصريين• وأجد ميلا في نفسي لموافقة البروفسور لاكور على تفسيره الواضح البسيط حول

بداية الحرب واشتعال نيرانها وقد قال في ذلك : « لقد تعثر ناصر وانجرف نحو درك الحرب انجرافا ، ولم تكن اسرائيل قد تهيأت لها قلبا وقالبا بل وكانت مضطربة وحيرى · وأما أجهزة مخابرات السوفييت فلم تـسـكن تتمتع بالكفاءة اللازمة ولم يكن تخطيط الروس وتقديرهم سليمين قديرين بل وكانا ضعيفين · وكانت امريكا هي الاخرى عاجزة عن فعل أي شيء»· سوى انني أود أن أضيف هنا قائلا : « ان ناصرا لم يتورط في الحرب تورطا ولم يُدفع لها دفعا، ولم تكن اسرائيل مضطربة حيرى بل كانت للصدام متوقعة وللحرب متشوقة » · لقد أمسك ناصر بزمام الامور جيدا وظل لها مخططا، وبالعناية بها منفذا، حتى لحظة تنازل نائب الرئيس زكريا محي الدين ـ وبالنيابة عن ناصر نفسه ـ عن مطالب مصر في مضائق تيران، استجابة لنداء الامم المتحدة، بسماحة نفس ورحابة صدر· غير أن الاسرائيليين لم يكونوا راغبين في ترك ناصر يجني ثمار تلك الواقعة فوجهوا لمصر الضربة القاضية في نفس الصباح الذي كان مقررا فيه مغادرة زكريا القاهرة قاصدا نيويورك مع أنهم كانوا قد قطعوا على أنفسهم عهدا أن يمسكوا عن الحرب حتى يصل زكريا الى هناك · ولسنوات غـير قليلة بقـي الاسرائيليون يتندرون على انقضاضهم ذلك ، ولو لم ينفذوه يومها فما كانت الفرصة لتسنح لهم مرة أخرى أوتتوفر لهم ثانية ظروف مثل ·

وها أنذا أساهم بتقديم ما شاهدته بأم عيني في القاهرة، فقد كنت جاهلا لما كان يجري يومها في تل أبيب أو واشنطن ولم يكن علمي بمجريات الامور في موسكو الا عن طريق أصدقائي من المصريين · وهذا ما علمته :

١ ـ كان شغل ناصر وضباطه الشاغل قبل الحرب بشهرين خراب اقتصاد البلاد وانهياره · ففي بداية تلك السنة (١٩٦٧) قام فريق من الباحثين يعملون لشركتي باحصاء أدق الارقام التي توفرت عن مقدار العملة الصعبة والذهب المخزون في مصر عام ١٩٥٢ يوم قام ناصر بانقلابه · ثم أضافوا اليه مجموع المساعدات الاجنبية (من قروض وهبات) التي تلقتها الحكومة ، وأضافوا اليه ايضا مجموع ما أدخرته مصر من ثمن الصادرات بين منتصف ١٩٥٢ وحتى نهاية عام ١٩٦٦ ، وأنقصوا من المجموع الحاصل النفقات والمصروفات (الخارجية وثمن الواردات) فكانت النتيجة أن معدل عجز مصر التجاري قد بلغ حوالي أربع مائة

مليون دولار سنويا وقد استنفذ تقريبا كل تلك الـــواردات بما فيها قروض استدانتها الحكومة وعجزت عن أدائها ٠ وعلى حد قول البروفسور لاكور فان احتياطي مصر قد تدنى حتى أضحى حوالي أربعين مليونا من الدولارات كذهب مخزون وستة واربعين مليونا من الدولارات بشكل عملات صعبة ٠ ولو أن امرءا حاول أن يبحث حثيثا في القاهرة عن تلك الستة والاربعين مليون دولار، لما كان له ـ لدهشته ـ أن يعثر على أكثر من مليونين أو ثلاثة يجب دفعها لتسديد ثمن مشتريات طارئة لا مناص منها ٠ فكم من معامل أغلقت أبوابها لنقص في قطع التبديل التي لا تكلف أكثر من بضعة ألوف من الدولارات ٠ وأوقفت يومها شركة الطيران العربية المتحدة أربعا من طائراتها الكوميت السبعة لنقص في قطع الغيار مع أن هذه الشركة تعتبر أحد مصادر العملة الصعبة في مصر ٠ ولو ان الحكومة المصرية باعت يومها كل ما تبقى لديها من ذهب ما كان ليكفيها هذا لاكثر من شهر واحد تسدد به ثمن ما اعتادت عليه من واردات وتدخر منه دراهم معدودات ٠ وفي التقارير الاقتصادية الربع سنوية للسفارة الامريكية في القاهرة تجد رأيا أن الحكومة المصرية كانت مفلسة فعـلا قبل عـام من الزمن (أي في أوائل ١٩٦٦) ٠ وأما الساخرون من بين المراقبين الاجانب الذين حنكتهم الظروف ومرستهم الاحداث فقد قالوا يومها : « لقد اعتدنا على سماع هذا النغم القديم أعواما ، ولكن مصر دائما تجدمنطلقا لها ومخرجا من هذه الازمات » ٠ غير أن هذه المرة كان من الواضح جدا ان الجمهورية العربية المتحدة قد هوت الى الحضيض ، وعندما أدرك السوفييت ان مساعدات الغرب قد نضبت والمنافسة بينهم وبين الامريكيين قد انتهت بدؤا بتقديم المساعدات شيئا فشيئا ، وبمقاديـر قليلـة وحسب ما يرونه من ظروف مناسبة وأحوال ملائمة ٠

٢ ـ وكنت أعتبر ولسنين عديدة ، أن نظام ناصر أكثر النظم حصانة ضد الانقلابات في العالم العربي، ولا أزال أرى ذلك٠ الا أنه في آذار (مارس) ونيسان (ابريل) عام١٩٦٧ بدا بدون أدنى شك أن ناصرا قد وصل الى طريق مسدود ، وأنه كان وضباطه بذلك عالمين ٠ وبدا يومها في مصر أن « الاستعراض الكبير » قد انتهى ، وقررت حكومتنا (وكانت قد قدمت ليومها أكثر من خمس مائة مليون من الدولارات كمساعدات منذ انتهاء الازمة اللبنانية ١٩٥٨) أنها لن تقدم مساعدات جديدة الا على أساس من طرق استثمارها والاستفادة منها وليس على

أساس من الضغط السياسي. ولو جمع الخيال ما جمع فلن ينجح هذا الأسلوب الجديد في مصر . ولقد عبَّر « وورد اليوت » (وهو محام من واشنطن ويكتب في مجلة « السياسة العامة » التي تصدر عن جامعة هارفرد) عما يجول حقيقة في عقول كل موظف غربي يعمل في « ديوان المساعدات » وكل أصحاب البنوك الغربيين عندما قال : « ان اصرار ناصر على القفز الى مسرح السياسة العالمية ليلهو هناك قد كلف المصريين نفقات باهظة كان يمكن استغلالها بشكل أجدى في مجالات اخرى . وعلى كل دولة تساعد مصر أن تدرك أنها بذلك تقدم دعما لناصر لتحقيق أطماعه وآماله خارج بلاده ، كما تساعده على ضم ممالك جديدة لعرشه العزيز بها » .

والناحية الهامة هي أن كبار المسؤولين المصريين في الجهاز الحاكم في الجمهورية العربية المتحدة. أدركوا أخيرا تلك التحولات في مواقفنا ووجهات نظرنا . ولا شك أنه خطر لبعض أصدقاء ناصر المخلصين (مع أنني كنت اعتقد باستحالة قيام أي انقلاب ضده) أن يجعلوا منه « سوكارنو » ولو على مضض منه (كما عبَّر عن ذلك سي سولزبيرجر) . فقد وقعت اندونيسيا في معضلة مشابهة لوضع مصر فكان الحل لها هناك أن رفعوا سوكارنو الى مستوى رئيس مجلس ادارة واستلم أمناء عامون توجيه أمور البلاد وشؤونها وأعادوا بناء البلاد ثانية بعدما تردت الحالة فيها حتى بلغت حد الافلاس . وقد علمت من مصادر موثوقة لدي أن مثل هذه الفكرة قد بحثت جديا للخروج بالبلاد من مصاعبها ومصائبها وأن رجالا لا يشك بولائهم لناصر قد تكفلوا بوضعها قيد التنفيذ ، ولا أستبعد أن يكون أحدهم قد بلغ حدا من التهور والطيش لان ينقلها لناصر ويبلغه اياها. ومن خلال معرفتي بناصر فانني كنت واثقا أن مشروعا كهذا لن ينجح أو يرى بصيصا من نور . فناصر لن يرحل بتذمر أو شكوى ، ولن يتقوض نظامه وينهار الا بضربة عنيفة وضجة مدوية ، ويومها ستنازل الآلهة اعداءها وتدور رحى حرب ضروس لا تبقي منهم أحدا ولا تذر لهم على الارض ديارا .

٣ ـ ولم يعد ضباط ناصر يكترثون بما يفكر العرب بالنظام المصري ، وأخذ حرصهم على سمعته يقل رويدا رويدا . الا أنهـــم أضحوا في قلق متزايد ازاء الصورة التي أخذ العالم المتحضر يرسمها عنهم وهي شبيهة بقصة افيلين واه

المسماة « بالمؤذي الشرير » • ولكن ناصرا كان حريصا على أن لا يفقد ماء وجهه أمام العرب ـ والعرب على الاقل ـ أو يبدو من الخاسرين• وقبل أيام من فراري من القاهرة في وجه الكارثة التي بدات تلوح يومها في الأفق سالت احد اشد اتباع ناصر تعصبا له قائلا : « لماذا يصر ناصر على الظهور بمظهر زعيم كبير بين جملة أفراد خاسرين ؟ » ولم يستطع ان يجيبني باكثر من : « من كل قلبي، أتمنى لو كنا ندري ذلك » •

وكان هذا مهما لناصر• ولهذا فعندما استفزه السوديون والاردنيون معلنين انه لم يبد أي تأثر بغارات الاسرائيليين المتزايدة على سورية والاردن ، تحرك ناصر وأشغل نفسه بدعاية اذاعية مضادة وأهمل مسائل بلاده الاقتصادية الهامة • وغالب اعتقادي أن وصم الاردنيين له خاصة بالجبن والاختفاء خلف قوات الطوارىء التابعة للامم المتحدة قد دفعه الى اغلاق مضائق تيران في وجه الاسرائيليين • وعلى هذا يعلق البروفسور لاكور قائلا : « لقد كان من واجب السوريين وناصر أن يعلموا أن اطلاق التهديد من موقف الضعف أمر خطير » ، سوى انني أعتقد أن السوريين وناصرا يجهلون خطر مثل تلك السياسة بل وتجاهلوها بنجاح لسنوات عديدة خلت • (وحتى بعد الهزيمة النكراء التي حلت بهم في حزيران (يونيو) عام ١٩٦٧ ، فما زالوا يتحدثون بلهجة القوي المنتصر • ولا يقع اللوم عليهم في هذا فلهجتهم القوية تبدو طبيعية بل ومفيدة أحيانا •)

٤ ـ واخيرا ، فهناك شكلة سوريا • ففي السابع من نيسان (ابريل) عام ١٩٦٧ كانت بعض الطائرات السورية تحلق فوق المنطقة المجردة من السلاح فرات بعض الجرارات الاسرائيلية تحرث وتزرع • فاغتنمت الطائرات السورية الفرصة وانقضت على الجرارات تصليها وابلا من رصاصها وقنابلها ، ولِمَ لا فالسوريون لا يقوون الا على أمثالها قصفا ولا يجيدون لغيرها نزالا • ومهما كان، فقد كان الاغراء يومها طاغيا ، فدمرت الجرارات عن بكرة أبيها وقتل من المزارعين نفر غير يسير • ولكن لم تكد غارة السوريين تنتهي حتى ظهرت في الجو بضع طائرات من الميراج الاسرائيلية ولحقت بالطائرات السورية الى دمشق واسقطت ستا منها فانتشر حطامها في ضواحي المدينة وفي الجوار • وتألم السوريون من ذلك ، واطلقت صحفهم والحكومة صيحات الحرب والثار • واخذت الاذاعة

السورية في الاسابيع التالية تدعو الى الحرب علنا والى التحرير جهارا بشكل يجعل كل من لا يعرف السوريين أن يظن بهم خيرا وأنهم على مهاجمة الاسرائيليين لا محالة مصممون • وهكذا أعطى السوريون الاسرائيليين كل ما أرادوه من أدلة وبراهين ليظهروا أنفسهم بمظهر المدافعين عن أنفسهم والمنادين بالسلام • (وكان السوريون مدفوعين بالاتفاقية العسكرية التي وقعوها مع المصريين في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٦) •

وعقد المصريون هذه الاتفاقية وهم يظنون ، والروس معهم ، أنهم يحسنون صنعا • الا أن سعيهم قد ضل ولم تخفف شيئا من مغالاة السوريين ، بل وكان اثرها عكس ما توقعوا تماما • فقد ظن السوريون أن الجيش المصري رهن اشارتهم ، فاندفعوا تحت حماية الاتفاقية يزأرون ويزمجرون ، ولولاها لبدا حماسهم في تلك الفترة متهورا حتى في منظارهم أنفسهم • واضحى جليا في بداية أيار (مايو)، أن السوريين وليس ناصرا قد أخذوا يندفعون الى حافة الحرب•

ومع انني كنت فاقدا أي اتصال مع السوريين يومها ، فقد أخبرني أصدقائي من المصريين الذين كانوا على صلة بهم أن الأوائل قد ضمنوا أن النصر سيكون حليفهم في الحرب القادمة ، شريطة أن يكون المصريون معهم فيها • هذا عن السوريين ، وأما عن المصريين فاني أعتقد ، خلافا لكتّاب كثيرين ، أنهم لم يلمسوا من أنفسهم القوة الكافية لهزيمة اسرائيل • لقد أخبرني ناصر نفسه ، وقبل اسبوع واحد من الحرب ، عن محادثة جرت بينه وبين المشير عامر عنّفه فيها قائلا : « انك – عزيزي عامر – متخلف ما لا يقل عشر سنين عن العصر الذي أنت فيه • كيف ستلحق هزيمة بجيش حديث وحسن التدريب مثل الجيش الاسرائيلي وجيشك لم يتمكن لسنوات أن يخضع شراذم اليمنيين من المدمنين على المخدرات ! » وأزيد على هذا أن النظرة الآنفة الذكر لم ينفرد بها ناصر وحده بل أبدى كبار ضباطه شكا كبيرا في قدرة الجيش المصري على العمل وكفاءته في القتال • ولا أزال أذكر ما خاطبني به أحدهم قائلا : « ان استطاعت مصر الافلات من هذه الازمة بنصر ديبلوماسي فستدع السوريين يخوضون غمار الحرب لوحدهم ان بقوا ليومها مصرّين على ذلك دون تراجع أو خوف » •

كان الضباط المصريون يعلمون ، ويعلم الامريكيون المقيمون في القاهرة،

وأنا من بينهم، وكذلك كان يعلم كل المراقبين من ذوي الاطلاع أن فرصة ناصر في احراز نصر ديبلوماسي مؤزر تعادل فرصة خسارته ٠ وقد أقلق خطاب ناصر في ٢٩ أيار (مايو) عام ١٩٦٧ كثيرا منا حيث قال فيه : « لقد باتت استعداداتنا كاملة ، ونحن الآن مهيئون لمواجهة اسرائيل ٠٠٠ ولقد أصبحنا قادرين على معالجة قضية فلسطين باكملها ٠٠٠» وكذلك قوله: «سوف نقرر نحن وليس هم زمان المعركة ومكانها» ٠ وصحيح أن أشكول رئيس وزراء اسرائيل قد صرح في ١١ أيار (مايو) بما لا يقل فحواه خطورة عن ذلك ، غير أن عبارة ناصر أضافت حجة للاسرائيليين فوق الحجة التي وهبهم اياها السوريون ليقوموا بالضربة الاولى ، بل لعلها جعلت من المحتم عليهم فعل ذلك ٠ وعندما غادرت القاهرة في تلك الاثناء عائدا الى لندن ، أخبرت أصدقائي من المصريين قبل سفري بأنني أراهن حتى الدولار الاخير الذي أمتلكه بأن ناصرا سوف يواجه هجوما صاعقا كذاك الذي وقع على بيرل هاربر ٠ قلت ذلك وأنا أعلم أن بعثة زكريا محي الدين الى نيويورك قد قررت أن تكون صباح الخامس من حزيران (يونيو) وأن الاسرائيليين قد قطعوا على انفسهم عهدا للرئيس جونسون أنهم لم يقوموا بتسديد أية ضربة لمصر قبل أن يرى العالم زكريا في نيويورك ويسمع منه ما يريد أن يقوله ٠ وكما قلت سابقا فلقد كانت فرصته خمسين بالمئة ، لا تزيد عن هذا أبدا ٠ ولكن ناصرا قامر وغامر ولعله قد خسر الرهان ٠

ولامرىء أن يسأل : هل ربحت اسرائيل الحرب ؟ انني أرجع هنا الى قول « اندريه بوفر » ، وهو استراتيجي فرنسي عظيم يعرّف النصر فيقول : « هو اما أن تحطم عدوك تماما أو تجعله في موقف يقبل ما تمليه عليه من شروط الاستسلام » ٠ فاذا أخذنا بهذا التعريف وجدنا الاسرائيليين لم ينتصروا حقا وذلك حينما نراقب الكلام الذي جرى بينهم وبين العرب في أعقاب الحرب ٠ كما أن موقف ناصر في بلاده بعد الحرب اصبح أشد صلابة من موقفه لو لم تقع الحرب ٠ واذا اتضح هذا لم يعد لاحد أن يسأل : ماذا سيكون موقف ناصر لو تكررت المأساة ؟ ان الجواب على هذا السؤال في رأيي واضح لكل من قرأ هذا الكتاب بامعان وغاص بين سطوره ٠

بعد كل هذا نأتي الى هذا السؤال : الى أين تمضي بنا علاقاتنا مع ناصر

انطلاقا من هذه الاحداث ؟ لقد كنت احاول في كل هذا الكتاب ان أبين أن ما يقوم به ناصر كان دائما طبيعيا ويمكن التنبؤ به ان أخذنا بعين الاعتبار تلك الظروف التي كانت تحيط به · وكان يسلك طريقا يسلكه فيما أظن كل امرىء يحمل عقليته وثقافته ، هذه العقلية والثقافة التي دفعته ابتداء الى سدة الحكم ، وعرش القيادة في داخل بلاده · انني أحب ناصرا محبة شخصية ، وما من أحد أحب الي قضاء سهرة مليئة بالحديث والنوادر من قضائها معه · انه من أكثر من عرفت من بين الزعماء جراة ، لا يقبل الرشوة ولكنه لا يؤمن « بعلم الاخلاق » والتعصب للمبادىء ، وعلى طريقته الخاصة ، فانه ميال للخير العام والاصلاح الاجتماعي وما أظن أنني قد التقيت بمن يفوقه في هذا من الزعماء · وروح النكتة متوفرة عند ناصرالا أنه لا يتصرف بدافع من غل أو حقد او هوى أو غير ذلك من الدوافع الدنيا · لقد مهدنا ـ نحن الامريكيين ـ الطريق لناصر ، ولقد سلك ناصر هذا الطريق ولم يكن من المخالفين ·ولو أننا رسمنا له طريقا مختلفا فلعل الامور كانت ستجري على غير هذا النهج · ويبقى دور ناصر في « مستقبل الامريكيين ومستقبل أمريكا » معتمدا على نوع المستقبل الذي يخبئه لنا القدر ·

وأخيرا ، ما هو مستقبل « لعبة الأمم » ؟ لست أدري ان كان « مركز اللعبة » في وزارة الخارجية في واشنطن لا يزال قائما أم أنه قد تلاشى واضمحل، لكنني متأكد أن عددا لا بأس به من كبريات الجامعات الامريكية مهتمة بممارسة هذه « اللعبة » والتدرب على أدوارها · الا أنني أجزم أن كثيرا من رجال الديبلوماسية الامريكية (الذين كانت لهم دراية سطحية ضحلة بشؤون الشرق الاوسط في عام ١٩٤٧) قد اكتسبوا خبرات فائقة في هذا المجال وقطعوا فيه شوطا بعيدا · لقد كانت نظرتنا للمناورات السياسية المجدبة التي تتبعها الدول المتخلفة أنها أساس الحياة الديموقراطية التي بدورها من أهم مقومات السلم والرخاء · الا أنها باتت الآن في نظرنا ذات صبغة مستقلة لا تمت الى كل ما ذكرناه بصلة ، ولكننا مع الاسف لم نحظ بمعرفة هذا قبل عشرين عاما · ولكننا من الآن فصاعدا لن ننظر الى تلك المناورات السياسية للبلدان المتخلفة الا بنفس الطريقة التي يعالج بها الطبيب سقيما عليلا · وبالتأكيد فان نظرة الطبيب له ستكون مشوبة بالهم والقلق ولكن دون تورط منه فيها أو تدخل · وانني أعتقد انه في المستقبل سيكون في كل سفارة امريكية موظف خاص أو سكرتير «ثالث»

ليس له من مهمة سوى اقتفاء أثر الخلافات الداخلية والنزاعات بين سكان البلاد . ولن ينكبّ المحللون السياسيون على دراسة تقاريره الى واشنطن بل ستنتقل مباشرة الى أيدي علماء الانسان وتاريخه الطبيعي . فتلك التقارير لن تحتوي غير سرد لاخبار ومعلومات حول ما يدور من صراع بين « عادات الآلهة وطقوسها المقدسة » وبين « الهياج العصبي ضدها والنرفزة منها » أو ما يدور من نزاع بين « الاشتراكيين الوطنيين » وبين « الوطنيين الاشتراكيين » . وسيغدو شغلنا الشاغل الاجابة على أسئلة مثل : ماذا ستفعل حكومة « آزانيا » (الحكومة العابثة اللاهية) ازاء تضخم عدد السكان ، هذا ان كان لديها ما تفعله ؟ ما هي الاجراءات التي على هذه الحكومة أو تلك أن تتخذها لتطوير وسائل الزراعة في بلادها ؟ وما هي المسالك التي يجب أن تسلكها حكومة ثالثة حتى ترفع من قوة انتاج القوى العاملة في مصانعها ؟ الا أننا سنتوجه في سلوكنا مستقبلا بالفكاهة التالية :

« أمة من أمم الارض عازمة على انزال رجل على القمر وايجاد عقار مضاد لمرض السرطان وللحمّات الراشحة ، كما تنوي أيضا ايجاد حلول لكل مشاكل تضخم عدد السكان وشح المواد الاولية . ان أي امرىء يرغب بالمشاركة فليتفضل ، ولن يحول دون ذلك لون أو دين أو جنس . كما أن أي امرىء يفضل أن يشغل نفسه بأهداف وغايات أخرى كحرق السفارات الاجنبية ورفض «المادية» الغربية أو أية غايات أخرى بغية « التحرر من الاستعمار » فلن نضن ببركاتنا عليه، ولعلمه فان « التحرر من الاستعمار » هو ذاك الشيء الذي باستطاعتنا أن نوزعه على غيرنا وبجرعات كبيرة » .

* * *

انتهى الكتاب وقد وضعنا « الملحق » حول « مشاكل السلطة والأنظمة الثورية » في بدايته .

(المعرب)

محتويات الكتاب

الكتاب

اذا أردت أن تفهم « لعبة الأمم » فعليك أن تضع نصب عينيك القواعد التالية :

١ ــ انّ من أول أهداف أية أمة كانت أن تبقى في اللعبة ولا تخرج منها ٠

٢ ــ وغالبا ما تتصرف الأمة بصورة لا تهدف معها الى احراز أي نجاح في داخل اللعبة بقدر ما تهدف الى استمرار التأييد الجماهيري لزعيمها ٠

٣ ــ ومن السذاجة الخاطئة بمكان أن ُيفَسَّر أي تصريح رسمي حول السياسة الخارجية بصفاء النية و ُخلوص السريرة ، فالمناورة شرط أساسي لاي زعيم في اللعبة ، فهو يُظهر ما لا يُبطن ، ويقول شيئا ويعني به شيئا آخر ٠

٤ ــ انّ اظهار ُحسن النية والتصريح بوجود أهداف مشتركة لأمم متعادية لا يهدفان الا الى تحسين الأوضاع الداخلية أو الى ممارسة ضَغط على فريق ثالث ، ويَند ُر أن يحملا معهما أي أمل مخلص لتحقيق ما يعلنان عنه حقيقة ٠

٥ ــ انّ مداعبة دولة عظمى لأمة ضعيفة وملاطفتها لها غالبا ما تتمخضان عن التفات الأخيرة نحو الخصم الرئيسي للدولة العظمى وذلك لتدفع بهما الى التنافس على كسب ود ّها وعندئذ تنتهز الفرصة لتجني الأرباح وتحقق المكاسب ٠

٦ ــ وعندما تُصبح الأمة الضعيفة ذات قوة دبلوماسية عن طريق استغلالها ذلك التنافس بين الدول العظمى على كسب ود ّها فانها تتبوأ هي الأخرى مركزا استراتيجيا يساعدها على احراز قوة أكبر عن طريق التهديد بالقيام بمغامرات ترغب عنها الدول العظمى ٠

المؤلف

مايلز كوبلاند : يعمل الآن مستشارا اعلى لمؤسسة ضخمة مختصة في العلاقات الحكومية . وقد شغل منصب نائب القنصل في سوريا . الا انه عاد الى واشنطن في عام ١٩٤٩ ليساعد في تنظيم وكالة المخابرات المركزية الاميركية التي انشئت يومها . ومما يجدر بالذكر ان القسم الاعظم من حياته العملية كانت في منطقة الشرق الاوسط .

The Game of Nations

Nasser's Egypt by an exceptionally influential American observer with unrivalled opportunities of working close to Nasser and the leaders of Nasser's Egyptian revolution, provides a case-study for a whole new strategy of international politics. Without doubt the most informative and intimately revealed picture of the Nasser regime, its personalities and the Machiavellian game involving a small country at a vital strategic position in time and space and the great powers of the earth.

Miles Copeland